

المكتبة القبطية

بأم درمان

تقدم

السودان أبو الدنيا

بقلم الأب القمص : فيلوثاوس فرج

فهرسة المكتبة الوطنية - السودان

962.4 القمص فليوثاوس فرج

ف.س

السودان أبو الدنيا / القمص فيلو ثاوس فرج - الخرطوم :

مطبعة الحياة الجديدة 2008

350 ص ; 24سم

ردمك 7 - 2 - 891 - 99942 - 978

١. السودان - تاريخ .

أ. العنوان

المكتبة القبطية

بأم درمان

تقـــدم

السودان أبو الدنيا

بقلم الأب القمص : فيلوثاوس فرج

دكتوراة في علم الأديان

E-mail :fatherfilotheos@gmail.com

www. fatherfilotheos.com

السودان أبو الدنيا

الفهـــــرس :

موكب المقدمات:

فهرس المقالات

موكب المقدمات

١/ المكتبة القبطية بأم درمان التاريخ والتأريخ

التاريخ والتأريخ : هناك مايسمى «الإحساس التاريخى « وهو شعور طيب يعنى أن ينمى ويتيقظ ،ويهدف الإحساس التاريخى إلى تنشيط ذاكرة المواطن نحو الوطن ومواطن الوطن والمؤسسات الثقافية والتاريخية فيه ،وعندما ينمو وعى الأفراد والشعوب لماضيهم يستيقظ الإحساس التاريخى وتزداد قيمة المواقع التاريخية فى الوطن وقد قام كثيرون من رواد الفكر عبر العصور بمحاولات مقدامة للنفاذ آلى لب الحياة الماضية وفهم الروابط التى تشد أحداث الماضى إلى واقع الحاضر وتدفع إلى المستقبل دفعا ،ومن خلال الإحساس التاريخى تأتى أهمية التاريخ والتأريخ ،وهناك تداخل بين الكلمتين ويقولون أن التاريخ هو حوادث الماضى أما التأريخ فهو دراسة هذا الماضى والدخول إلى أعماق فلسفته وأحياناً تختلط المعانى بين التاريخ والتأريخ وفى بعض اللغات يتنقل الذهن عفوا بين المعنين دون تمييز بينهما ولعل هذا ناشئ عن شعور أصيل فى الإنسان بالإرتباط الرفيق بين معرفة الماضى والماضى ذاته ،ولايمكن للإنسان أن يتناسى تاريخه لأن التاريخ يعطينا المقدرة على حل مشاكل الحياة بالنفاذ إلى الجذور العميقة ودراسة العلل الباعثة وأدراك الأسباب الأصلية الفاعلة فى تكوين المشكلات الإنسانية الحاضرة لأن الإنسان هو نتاج الماضى ولهذا فأن معالجة القضايا الكبرى التى تجابه الإنسان ينبغى أن تستندإلى معرفة تأريخية شاملة المدى بعيدة الغور ،ومعرفة تثير الأسئلة الأساسية عن واقع المدينة الحديثة وعن كيفية تكون هذا الواقع ،ومعرفة تدرس الطبيعة والإنسان والنظرات والقيم والمفاهيم من أى جذور نبعت ونبتت وتفرعت وأثمرت وبلغت مابلغت وحققت ماحققت ،وما هى عناصر القوة ونواحى الضعف فيها ،واذا كان جون لوك

قد قال إن الإنسان يولد وعقله صفحة بيضاء فيها المجتمع مايود أن يكتبه فى صحيفة الحياة فأن الأمر الآن ليس هكذا بل العكس يولد الطفل وهويحمل فى كيانة حضارة أجداده لذا يفاخر رؤساء البلاد بأن مواطنيهم يولدون وفى رؤوسهم حضارة آلاف السنين ويرث فى كيانه ثقافة أجداده بنفس المستوى الذى يرث فية اللون والطول والعرض والبشرة ولون العين وتعرجات الأنف وماتقول به هندسة الوراثة البيولوجية تقول بة الآن هندسة الموارث الثقافى .

وبالنسبة للمكتبة القبطية بأم درمان نحتاج إلى التاريخ أدراكا لواقع المكتبة وعلى الأخص أننا نعتمد التاريخ الشفاهى الذى من أعملكن أن نفقد بة أهم مقومات التاريخ ونحتاج إلى التأريخ تعمقا فى الدور الثقافى الذى قامت بة المكتبة القبطية فى أم درمان ،وأم درمان نفسها هى دار العراقة والأمن والأمان وهى التاريخ وهى أيضاً التأريخ وهى الأصالة والتراث والثقافة وهى السودان بل درة السودان وقلبه النابض وماضيه السعيد وتاريخه المجيد كما تغنى الشاعر الأمدر مانى/ عبدالله محمد زين فى» قصيدة أنا أم درمان أنا السودان أنا الدرة البريد بلدى أقوم بأعظم الأدوار

وأكون الساحة للثوار

،وابقى البقعة للأجرار

وأمثل عزة السودان ،

أنا أم درمان أنا الواحة قلادتى القدرة

والتقديس وأرادتى تسابق الأجيال

،وكنت القوة والوحولة

،وحزت وقرت بالجولة وشلت الراية والدولة

وفى التاريخ بقيت عنوان .

المكتبة القبطية : ولقد ولدت المكتبة القبطية بأم درمان بعد ولادة المكتبة القبطية بالخرطوم بسنوات عديدة ،وسجلت تواريخ ميلاد المكتبات ميلاد مكتبة الخرطوم القبطية عام ١٩٠٨م بينما سجلت وثيقة ميلاد المكتبة القبطية بأم درمان فى عام ١٩٢٥م وقد جاء فرق الزمن لأن المكتبة القبطية بالخرطوم ملاذا لسكان أم درمان ورغم صعوبة المواصلات فإن المسافة ليست بعيدة كان الناس يتسامرون معاً فى مكان واحد ولكن أصبحت الحوجة ماسة إلى مكان جديد للسمر والقراءة والأنس الإجتماعى فى أم درمان تقوية لأواصر الصداقة وتمتينا للروابط الإجتماعية وكانت البداية فى منزل أستأجرته المكتبة فى حى المسالمة بأم درمان ذلك الحى العريق الذى سجل عنه علماء التاريخ تأريخا يتحدث عن عراقته وسيرته ومسيرته فى إعجاب شديد بقبيلة الأقباط التى عاشت فى سلام ووئام مع باقى القبائل السودانية وكان لقبيلة الأقباط تميزها ولكن هذا التميز كان تميزاً سودانويا خالصاً فلقبيلة الأقباط مكانتها ولكن للوطن لواءه الكبير الذى يجمع الكل دون تنافر ولقد شارك أقباط السودان فى قضايا الوطن ودخل إلى غياهب السجون أثنان منهما فى سجن كوبر عقابا لهما على المشاركة فى ثورة ١٩٢٤م السودانية ومن بينهما وهبة حنا وظلت المكتبة القبطية بأم درمان فى منزل مستأجر منذ عام ١٩٢٥ م إلى ١٩٧٨م وهو العام السعيد الذى شرف فية قداسة البابا الأنبا شنودة الثالث وهو الذى وضع حجر الأساس لنادى المكتبة القبطية الحالى ذلك الصرح العملاق فى شارع الشنقيطى على رمية حجر وبضعة أقدام من كنيسة الشهيد العظيم مارمينا العجايبى وقد وضع قداسة البابا حجر الأساس فى يوم الثلاثاء ٢١ فبراير ١٩٧٨م الموافق ١٤ أمشير ١٦٩٤ للشهداء على أرض مساحتها ٩٠٠٠م ٢ .

وذلك بحضور لفيف من كبار الشخصيات السودانية على رأسهم السيد مهدى

مصطفى الهادى عضو المكتبة التنفيذى للآتحاد الإشتراكى السودانى ،والسيد عبد الوهاب إبراهيم وزير الداخلية ،والسيد عبدالله الحسن رئيس المجلس الوطنى للتضامن والسلام والسيد مختار الطيب محافظ الخرطوم ،والدكتور وديع حبشى رئيس المجلس القومى للبحوث والسيد سعد النطاطرى سفير جمهورية مصر فى السودان ،وتألق فى الحضور الوفد البابوى رفيق البابا فى زيارته المباركة نيافة الأنبا يؤنس أسقف طنطا والغربية ،ونيافة الأنبا باخوميوس أسقف البحيرة ودمنهور ،ونيافة الأنبا أنطونيوس مرقس أسقف كينيا وأفريقيا ،ونيافة الأنبا صرابامون رئيس دير الأنبا بيشوى وثلاثة أساقفة عموميون هم نيافة الأنبا برسوم ،ونيافة ونيافة الأنبا تيموثاوس ونيافة الأنبا رويس ،والأب القمص ميخائيل السريانى سكرتير قداسة البابا .

أما ملاكى كنيسة السودان فقد كانا فى موكب الإحتفال وهما وهما نيافة الأنبا إسطفانوس مطران أم درمان ونيافة الأنبا دانيال مطران الخرطوم ،هذا عدا جميع كبير من الآباء الكهنة ،وعدد من أراخنة أقباط أم درمان والجمعيات القبطية بالخرطوم ،وشارك فى الإحتفال رؤساء بعض الأندية بالعاصمة المثلثة ،وأجهزة الإعلام وعدد كبير من رجالات الدولة .

إبتدأ إحتفال وضع حجر أساس المكتبة القبطية بأم درمان بكلمة ترحيب من أسرة المكتبة .ثم كلمة نيافة الأنبا إسطفانوس مطران أم درمان وأعقبها نشيد روحى من أبناء وبنات التربية الكنسية تطلعاً روحياً نحو الرسالة الروحية التى سوف تقوم بها المكتبة مساندة لرسالة الكنيسة الروحانية وبعدها تقدم الأرخن وديع شنودة تاجر المشورة ورئيس المكتبة المنتخب أنتخاباً حراً بكلمة أشاد بها بعظمة البابا شنودة وشخصيته القوية وحسه الوطنى الواعى وقال إن الأقباط فى كل المعمورة ينتظرون منه الكثير و الكثير ثم ألقى رئيس مجلس شعبى

المسالمة كلمة رحب فيها بقداسة البابا والوفد المرافق له وأشاد بروح التعاون والمحبة بين المسيحيين والمسلمين فى السودان وقدم هدية المسالمة لقداسة البابا والتى تمثلت فى مفتاح مدينة أم درمان من الذهب الخالص وكان قداسته قبلها يحمل مفتاح قلوب كل أهل السودان وأعلن البابا سعادته بالهدية وتحدث حديثاً لبقاً عميقاً روحانياً شفافا مقدراً المشاعر النبيلة لأهل السودان مشيداً بالروح السمحة التى وجدها فى أهل السودان والتعاون الصادق الذى تجاوبت به معه الأجهزة المختصة وأشاد بالترحيب الكبير والأستقبالات العظيمة من محافظى المديريات التى زارها مدنى والأبيض وبورسودان وعطبرة ،وفى أثناء الحفل تبرع محافظ النيل الأزرق بقطعة أرض مساحتها ؟ لكى تبنى عليها كنيسة بأسم الأنبا شنودة فى وادى مدنى على مشارف النيل الأزرق فى مدخل المدينة ،وتبرع محافظ البحر الأحمر بقطعة أرض للجمعية القبطية فى بورسودان وهكذا فى مكتبة أم درمان أجتمع الوطن كله وأجمع على تكريم قداسة البابا شنودة الثالث وقدموا له هداياهم فى أم درمان التى هى السودان كله ،وأثنى قداسة البابا على روح الود والإخاء التى تسود المسيحيين والمسلمين فى شتى العصور مستشهدا بما كان يحدث بين رؤساء الأقباط وزعماء المسلمين عهد الخلفاء الراشدين والعهود التالية لهم وتمنى أن تستمر هذة الروح الطيبة فى ظل رئاسة السيد جعفر محمد نميرى رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت وأختتم قداسة البابا كلمته شاكراً أسرة المكتبة داعياً للدار الأمدرمانية لأن تكون درة أمن وأمان وسلام وإطمئنان وتقدم وإذدهار فى كل مضمار روحياً وثقافياً وإجتماعياً ورياضياً ،ووجة البابا شكراً خاصاً إلى السادة رئيس وأعضاء مجلس شعبى المسالمة ،وبعدها إمتلأ الحضور صبوراً وحماساً واندفعوا يساهمون فى مساندة هذا الوليد الجديد القوى الذى ولد بأسنانه وكان أول تبرع من مواطن سودانى هو السيد محمد إدريس الذى رفع

سقف التبرعات متبرعاً بمبلغ ألفين من القوية حيث كان الجنية السودانى أغلى من الجنية الذهب وأكثر من الجنية الأنجليزى ويساوى ثلاث دولارات ،وبعد تبرع مواطن المسالمة العظيم الذى عبر عن حب المسلميين للأقباط جاءت تبرعات أخرى من محافظة الخرطوم بمبلغ إلفين جنية والسيد جورج مشرقى صاحب صالون جورج مشرقى فى سوق الموية بمبلغ خمسمائة جنية وضابط الشرطة شقيقه السيد حنا مشرقى بمبلغ خمسون جنية ،وبعدها قدم مجلس أدارة نادى المكتبة القبطية بأم درمان هدية لقداسة البابا عبارة عن جلد نمر مدبوغ بكامل حجمه ،وكان أول مجلس منتخب لسنة ١٩٧٨م بالأنتخاب المباشر الذى ظل ديدن المجلس حتى الآن وأعضاء أول مجلس هم : السيد وديع شنودة رئيساً ، السيد توفيق داؤد نائباً للرئيس ،والسادة هرفى حكيم ،زكريا نصحى ،قديس كيرلس ، درياس باخوم ،لمعى مكسيموس ،صفوت رياض ،ادوارد رياض ،وصفى جوزيف ،مفيد قرياقص، حنا مشرقى ،وقد قدم الأعضاء مايقرب من ألف جنية سلفية لدفع مسيرة البناء والذى تم فى الثانى من أبريل ١٩٨٠م . وبعد هذا بدأت نشاطات النادى حيث فى ١٩٨٠/٤/٢٩م تم قبول كشافة جورجيوس كهيئة منظمة شريطة أن تخضع لقوانين ولوائح المكتبة التى قامت بدورها يتخصيص مكان خاص بهم لحفظ معداتهم وممارسة نشاطهم الكشفى الذى سجل نجاحا ملحوظاُ منذ ١٩٨٠م وحتى الآن وقد فتحت المكتبة لعضوية الكشافة عضوية شرقية معفاة من رسوم الدخول والإشتراكات. وفى ١٩٨٠/١١/١م تم إصدار مجلة شهرية خاصة بالشباب ، وفى ١٩٨١/١١/٢٥م تم أنشاء فريق كرة قدم بالنادى بدأ فى أجتذاب المتقدمين فى الأيام تنشيطاً للدورة الدموية ثم مالبث أن صار فريق للشباب بكامل مقدرته على المنافسة والدخول فى التصفيات . وفى ١٩٨٢/١/١٩م تكونت مجموعة ثقافية من شباب النادى للنهوض بالنشاط الثقافى وقامت بشراء الكتب الثقافية

والدينية وأشترت أثاثات فاخرة لمزاولة نشاطها ،وفى دورة ١٩٨٢ـ١٩٨٤م تم أنتخاب السيد توفيق داؤد يسمى رئيساً والسيد قديس كيرلس نائباً للرئيس والسيد لمعى مكسيموس سكرتيراً والسيد إيليا نصحى أميناً للصندوق وعضوية كل من السادة هرفى حكيم وفاروق نظيم ،ومفيد قرياقوس ، وأدوارد رياض ،ومكين بلامون ،والدكتور وديع حبشى وصفوت رياض ولطفى عزيز وميشيل رؤوف وشهدت هذة إنشاء فريق الرائدات للكرة الطائرة ،وبعد هذا توالت الدورات أدارات منتخبة إنتخاباً مباشراً ديموقراطياً كان ولم يزل التنافس على أشده فى أحترام لحرية الإختيار والدورة لمدة عامين فقط . وفى شهر رمضان وبالتحديد عند غروب شمس يوم ١٩٩٤/٣/١م أستقبلت المكتبة القبطية أول أحتفال بأفطار رمضان وكان الأب القمص فيلوثاوس فرج تعاوناً مع الأستاذ عبد الباسط سبترات رائداً سباقا لهذا الأحتفال الذى صار فيما بعد ملحمة وطنية يحضر دوما رئيس الجمهورية ويتم تبادل الكلمات بقراءة من الكتاب المقدس والقرآن الكريم وترحيب من إدارة النادى نيابة عن المؤسسات القبطية وتأمل من المطران وكلمة عن الأقباط ودورهم فى الوحدة الوطنية من الأب القمص فيلوثلوس فرج .وفى لقاء ١٩٩٤م تحدث نيافة الأنبا دانيال عن المحبة فى المسيحية ،وكانت كلمة الأب القمص فيلوثاوس فرج مع الرئيس قائلً له هؤلاء هم الأقباط الذين يحبون السودان ويحبونكم وقد ذاقوا حلو مراكم والمر هو أنك سيادة الرئيس أمرت بعد دخول المخدرات والأقمشة إلى السودان وبالنسبة للمخدرات أقمت المجلس الأهلى لمكافحة المخدرات والأدمان فهل يعنى هذا أن نقيم مؤسسة مدينة لمحاربة استيراد الأقمشة ،وإن كل هؤلاء الأقباط يعيشون على الأقمشة إستراد وبيعاً وشراء وما قررتموه هو نهاية لعمل عظيم يظل على متطلباتهم ،وقد تجاوب الرئيس مع كلام الأب فيلوثاوس ووفق على عثمان محمد طة وكان وزيراً للتخطيط الإجتماعى

ليعلن فك الحظر على إستراد الأقمشة ،وكان عام ١٩٩٤م عاماً سعيداً على المكتبة القبطية ففى مارس كان أول إفطار رمضان يقام من الأقباط وفى أخر العام كان قدوم ،ونيافة الأنبا صرابامون أسقفاًلأم درمان وتألقت المكتبة ولبست حلة البهاء فرحة بالراعى القادم من كنيسة الأم والذى قلده سعادة رئيس الجمهورية فى عام ٢٠٠٨م وسام النيلين من الطبقة الأولى ومنحة الجنسية السودانية ،وقد كان أول حفل تجليس لنيافة الأنبا صرابامون فى ١٩٩٤/١٢/٣٠م فى دار المكتبة القبطية بأم درمان . وبعد هذا تعددت الأنشاءات فى نادى المكتبة القبطية نجيلة خضراء للكبار ونجيلة خضراء للأطفال ثم صالة محاضرات وتتابع الأنشاءات وتتوالى الأنجازات وسط محبة أقباط أم درمان للمكتبة القبطية بأم درمان ويعمل مجلس أدارة النادى حالياً على قدم وساق ويستقبل أقتراحات العضوية ويفكر فيما ينفعهم ويقرر مايجول بخواطرهم ويحقق أحلامهم السعيدة وقد تم أنتخاب مجلس أدارة النادى فى يوم برئاسة المهندس عادل العبد أبادير رئيساً والسيد جون وديع نائباً للرئيس ويسعدنا الآن أن نقدم هذا السفر النفيس كتاب " السودان أبو الدنيا" تأليف الأب القمص فيلوثاوس فرج الذى وافق مشكوراً أن يكون هذا المؤلف القيم هدية نادى المكتبة القبطية بأم درمان إلى القارئ السودانى الذكى بل إلى كل قارئ للغة الضاد وسوف يعمل مجلس أدارة النادى على أن يصل هذا الكتاب إلى أقباط السودان فى المعمورة كلها ، صلوا لأجلنا لكى يوفقنا الرب فيما نفكر وفيما نعمل ولكى يكون الله الكل فى الكل .

فريد وردى بخيت جرجس

سكرتير نادى المكتبة القبطية بأم درمان

بسم الله الرحمن الرحيم

٢- للكاتب خصوصية ثقافية ودينية وإجتماعية

ليس هذا السِفْر الذي أتشرف بتقديمه للسادة القراء هو الكتاب الأول أو الأخير للقمص كاهن كنيسة الشهيدين و طالب الدكتوراه الأب فيلوثاوس فرج و إنما هو أحد تلك التي رأت النور منذ سنوات و ما يزال بعضها ينتظر الصدور.

و مهما يكن من شئ فإن لهذا الذي بين يدي القراء من العناوين و المواضيع خصوصيته لأنه (السودان ابو الدنيا) . كما للكاتب أيضاً و هو (ما شاء الله) الناشط دينياً و ثقافياً و سياسياً و إجتماعياً خصوصيته إذ له موقعه المرموق في ديانته المسيحية الارثوذكسية القبطية فهو يتمتع بموقع القمص و الأب و الكاهن لما له موقعه في حوار الاديان في بلده السودان و في فيدرالية السلام العالمية التي خلعت عليه في لقائها الجامع في العاصمة الكينية – نيروبي في منتصف نوفمبر – تشرين اول ٢٠٠٥م و عن استحقاق لقب « سفير السلام العالمي».

و من خصوصيات الاخ الكاتب التي تضاف الي ذلك خصوصيته الثقافية التي جعلت منه – كما يلاحظ القارئ في هذا الكتاب – كاتباً صحفياً يلاحق بقلمه شتي الموضوعات وعبرالسنوات مما أتاح له فرصة اصدار عدد من الكتب كما سلفت الاشارة. و ذلك الي جانب حضوره السياسي و التشريعي في المجتمع . فقد كان عضواً في المجلس الوطني (البرلمان) لمرتين في الفترة الاخيرة.

علي ان خصوصيته و حضوره الاجتماعيين أضافا لشخصيته و سيرته بعداً آخر عمقّ و رسّخ في ذاكرة كل من يعرفه الابعاد الاخري – حفظه الله.

و أحسب ان كل هذا الكُلْ المركب في شخصية الكاتب هو الذي دفع به إلي أن يلقي بهذا الثَبْت بين يديّ لاقلب صفحاته و أكتب هذه المقدمة أو التوطئة و أنا الشخصية التي تحسب أنها مسلمة و الكاتب الصحفي الذي لا يفرق بين الدين و

السياسة. فالأب فيلوثاوس – كما تعرف عنه (وَسَطِيُ المنهج) و صاحب نشاط اجتماعي و فكري متعدد المجالات والمنابر.

و هذا الكتاب الذي لم نلج اليه بعد في هذه المقدمة هو فيما نحسب بتنوعه و غزارة مادته و تعبيره عن العنوان الذي اختاره الكاتب (السودان ابو الدنيا) ليس سوي ترجمة و تصديقاً لذلك الذي ذكرتُ سلفاً و أنا الذي اعرف الكاتب معرفة مباشرة و من خلال ما يكتب في الصحافة و يظهر في المجتمعات قبل عقدين من الزمان علي الاقل أو أكثر بحيث تمتّنت العلاقة بيننا و استقرت – ادامها الله .

إن السودان من حيث التركيبة السكانية و الثقافية و الحضارية و اللغوية هو (أبو الدنيا) كما قال الكاتب الذي أخذ التعبير الذي طوّره و جسّده من لسان شخصية جنوبية مسيحية ملتزمة سبق لها القول – كما جاء في فاتحة الكتاب بأن (السودان ابو الدنيا..!).

و تأسيساً عليه و قد تنقلت بين صفحات الكتاب – و هو من القطع المتوسط – أقول أنه من أعظم الهدايا التي تقدم للقارئ السوداني و القارئ الاجنبي في هذا الظرف العالمي و الدولي الحرج الذي يري فيه البعض ان التنوع في بلد كالسودان (نقمة و ليس نعمة)..!

غير أنه – للحقيقة – شاهد و دليل علي أن السودان بحضاراته المتعددة و امتداده المكاني و السكاني و تنوع ثقافاته و أعراقه و أديانه التي من أشهرها الإسلام و المسيحية و اليهودية و الاخري الارواحية الافريقية يشكل بؤرة انصهار و تلاحم في النسيج الاجتماعي رغم الحروب و الاضطرابات التي ظهرت مؤخراً و تلك التي سبقت رحيل المستعمر عن البلاد في الأول من يناير – كانون الثاني ١٩٥٦م.

من صور ذلك التعايش أن السوداني المسلم لم يكن ليفرق بين أن يرسل ابنه في مقتبل العمر أو بنته لمدرسة الراهبات أو الكمبوني أو اليونيتي و هي مدارس

ذات طبيعة و خلفية تبشيرية كنسية و السوداني المسيحي في غرب السودان- كما حدثني أحدهم و هو مسيحي من أصول شامية- و قد كانت فرص التعليم يومئذٍ ضئيلة كان لا يجد حرجاً هوالآخر في أن يبعث بابنه لخلوة من خلاوي تحفيظ القرآن الكريم.

و غني عن القول أن الطائفة القبطية هنا في الخرطوم و القمص فيلوثاوس مؤلف هذا الكتاب من رموزها درجت علي أن تقيم في رمضان – شهر الصوم عند المسلمين من كل عام إفطاراً جماعياً لأخوانهم من الطائفة المسلمة ، مسئولين و رموز مجتمع تأكيداً علي ان (السودان أبو الدنيا..!) و أهل الأديان فيه نسيجٌ واحد، متحدٌ ، مُتَحَابٌ و متسامح..

إن الكنيسة القبطية و هي المعروفة بأنها كنيسة شرقية و لسانها عربي أُثِرَ عن رئيسها الانبا شنوده في مصر قوله (نحن الاقباط مسيحيون ديناً و مسلمون وطناً). في اشارة الي جذور اللحمة و الترابط بين الاقباط المسيحيين و العرب المسلمين ، نضيف الي هذا أيضاً ما جاء في الأثر(استوصوا بالقبط خيراً فإن لكم فيهم رحماً و ذمة). فالرحم هي رحم السيدة ماريا القبطية احدي زوجات الرسول محمد(ص) التي انجبت له سيدنا ابراهيم الذي بسببه رفع عمر بن الخطاب الجزية عن الاقباط إذ هم (خؤولة سيدنا ابراهيم) كما كان يقول .

و عوداً إلي عناوين هذا الكتاب التي فاقت المائة و أربعون عنواناً كما يقول الفهرس نجد فيها أن الكاتب الذي إستهوته الفكرة و استغرقته لم يدخر وسعاً في أن يأتي إلينا بكل ما يدعم فكرته و هي (السودان أبو الدنيا) . و في هذا .. هذه المرة يلجأ القمص فيلوثاوس الي شهادة الكاتب المصري المعروف يومئذٍ محمد حسين هيكل (وهو غير الصحفي محمد حسنين هيكل) الذي كان قد شهد حفل إفتتاح خزان سنار في ١٩٢٦م حيث كان الإحتفال يومذاك حاشداً و الحدث كبير

فكتب يقول – والذهول و الاعجاب يحيطان به : ماذا أري ؟ و ما هذه الألوف المؤلفة من خلق الله أهل السودان ..؟ ما أظن مدن أكبر دولة من دول الحلفاء كانت مائجة بالناس يوم وضعت الحرب اوزارها (يقصد الحرب الكونية الاولي) موج هذه البقعة المحيطة بترعة الجزيرة و خزانها..؟! انظر المقال بعنوان (إفتتاح خزان سنار) في موقعه من الكتاب.

و السوداني بنظر الكاتب الذي يضمه (السودان ابو الدنيا) هو صاحب الجلالة او الملك. و ما ذلك كما يقول الكاتب إلا أنه (يحافظ علي كرامته التي وهبها الله له). ثم يدعم ذلك بعدد من العنواين التي منها بطبيعة الحال عنوان (السوداني صاحب الجلالة) الذي يجده القارئ في موقعه. وعناوين أخري ذات دلالة منها:

السودان أبو كل الاجناس

السودان أبو الكُل المكرم

و السودان أبو دنيا السياسة..!

في هذا العنوان الاخير الذي ندلف اليه و نقف عنده بعد قليل يقول الكاتب (في دنيا السياسة يناقش المواطن السوداني أهم القضايا السياسية تحت شجرة « النيم « ... و كثيراً ما يكون رئيس الجمهورية في صالات العزاء يسمع مثل هذا الحوار الجهير الذي ينتقد سياسة البلاد..!).

و ذلك حق والملاحظة في محلها و تذكر للسودان و انسانه خصوصية ربما انفرد بها عن غيره من المجتمعات . فهو أبو دنيا السياسة و أبو الكل المكرم كما عنون الكاتب لذلك في هذا الثَبْت الهام الذي أخذ من كل نبع قطرة ..و من كل حقل زهرة ليخرج الينا بهذا المؤلف الذي نري أنه سيحتل موقعه عند القارئ و الباحث المَعْنِي بالتراث و الانثروبولوجيا و علم الاجتماع و الثقافة و الفكر. و لعل هذا ما قصد اليه الكاتب (سفير السلام العالمي) الذي خصته فدرالية السلام العالمي بذلك

الدور كما سبق أن أشرنا و ذكرنا. فهذا هو ما يمارسه من خلال هذا العمل الفكري الذي حشد له الكثير.

عليه لا نريد بهذه المقدمة الطويلة شيئاً ما أن نحول بين القارئ وهذا النص الذي بين يديه. (السودان أبو الدنيا).. و من منا لا يريد أن يغوص في تلك الدنيا و يكتشف أبعادها و محتوياتها و أسرارها؟!

شكراً للكاتب الأب فيلوثاوس فرج كاهن كنيسة الشهيدين الذي نحسب أنه أثري المكتبة السودانية بهذا الجهد المقدر. و نعتذر له و للقارئ الكريم مسبقاً إن لم تكن هذه المقدمة و التوطئة في قامة الكاتب و الكتاب. بَيْدَ أن العزاء في هذه الاحوال و غيرها هو ما نعلم من أن (نية المرء خير من عمله.)

موسي يعقوب

باحث مدقق وصحفي مخضرم

بسم الله الرحمن الرحيم

٣- قلم مداده المحبة وعشق الوطن

خصنى الأب فيلوثاوس فرج هذه المرة لأقدم له فى هذه الإصدارة- حينها أحسست أنه ملكنى عبئاً ثقيلا وضعه على كاهلى، فالرجل موسوعة علمية يمشى على رجلين، وله معارف بقدر نجوم السماء كماً وكيفاً، فمعارفه وأصدقاءه ومحبوه من مختلف ألوان الطيف وعلى مختلف الدرجات العلمية والعملية، والكل يتمنى أن يقول عنه كلمات مكتوبة.. والرجل أيضا وهج من السماحة والإخاء يمشى بين الناس وهو قامة سامقة من قامات بلادى، الإحترام سياج حوله، والتقدير من كل الناس قلادة يتقلدها..

تنوعت أطروحاته فتجلت قدرته وإبداعه وفاح حتى تنسمه، كل من يقرأ

أسطر ما طرحه فى كل المجالات، تنوع وتضوع من أسطر ما كتب من إبداع أريج المحبة وعبق التعايش بين الأديان، فقّره المسيحى، وأحبه المسلم، سكن الوطن بحبه، وسكنه الوطن ورعاه، وهو الأديب المبدع والمؤرخ والشاعر ورجل الدين والسياسة والإجتماع وعالم الفيزياء والبيئة وغيرها، له فى كل مجال مقال..

قرأت له « حصاد السنين» وقد قدم له الأستاذ الدكتور أبو صالح محمد الفاتح قريب الله والذى قال عنه: إن كثيراً من الصفات والمواهب تعاونت فى تكوين قيادة دينية إجتماعية لم يعرف العالم الأفريقى وما وراءه قيادة دينية سياسية أقوى وأعمق تأثيراً وأكثر إنتاجاً منذ قرون قبلها.. وقد قدم للكتاب الدكتور عبد المطلب الفحل قال: إنه كاتباً يكتب بأسلوب سلس أخاذ يرتبط بالعقيدة والوجدان والواقع..

وقدم للكتاب الدكتور عبد الرحيم السيد كرار وقال عنه: إن الرجل قامة وكتاباته تتميز بسلاسة التعبير وعمق المعنى وطلاوة الكلمات، مما شدّ إليه الكثيرون من القراء بألوان طيفهم الأدبية والثقافية، قرأت له « القادرون يحبون « وهو سفر مكون من عدة مقالات كعادة كتاباته.. قدم له الأستاذ الدكتور على محمد شمو قال فيه: إن من يقرأ للأب فيلوثاوس يدرك تماماً عظمة كاتب الكتاب والدور الذى قام ويقوم به فى توثيق عرى الإخاء والصداقة بين أبناء شعب ومجتمع متعدد الثقافات والأعراف والأديان كالمجتمع السودانى..

قالت عنه بخيته أمين : إنه رجل تجاوز الأزمنة والأمكنة وقفز فوق المراحل التاريخية والإجتماعية والدينية والعقائدية، وإختار أن يكون رمزاً للتآلف والتعايش القومى والدينى والوطنى، بعيداً عن التعصب والعصبية، وبعيداً جداً عن المعتقدات « والعُقد « والتغيرات الإجتماعية.. قال عنه محمد حسن طنون : إن القمص فيلوثاوس يكثر الإستشهاد بالآيات البينات من القرآن الكريم ولا يخطىء من يقرأ له إنه صاحب أفق واسع، وإطلاع كبير فى شؤون الدين والسياسة والإجتماع، مما جعله يبث أفكاره بإتقان فى الأسلوب لا فى اللفظ وحده..

قدم له الأستاذ الدكتور حسن مكى وقال : إن شخصية الكاتب تجمع ما بين النخبوتة والجماهيرية وتشهد له نخبويته كتاباته وكتبه ووجوده ومساهماته فى المؤتمرات والمنتديات الفكرية، وتشهد على شعبية إنه رجل دين كتب « مساحات الود والإحترام بين المسيحية والإسلام «.. وقدم له الأستاذ الدكتور الطيب زين العابدين واصفاً الإصدارة بأنها جهد لمؤلف جاد يملك رؤية أخلاقية لعلاقات التعدد الدينى الذى يريد لها أن تسود فى أرجاء الوطن الذى تنتمى له..

وقال عن إصداراته وعنه الأستاذ الدكتور بركات موسى الحواتى: إن الكاتب ظل يقدم على مساحة الوطن من المشاركة النبيلة ما يجعله سفيراً فى وجدان كل وطنى، فكتاباته عن المحبة الممزوجة بكل قيم المؤمن المشرئب لعالم يتجاوز كل الأطر المادية لروح يشمله السمو ويرعاه الله فى جنة عرضها السموات والأرض.. ويقول: إن ما يقدمه القمص فيلوثاوس يمثل دعوة شجاعة ووسيلة لعالم جديد فتتابع الود والتعايش، ليس مجرد كلمات تلوكها بقدر ما تمثل نهجاً علمياً يتبعه فى دراسته الجادة عن « مساحات الود والإحترام بين المسيحية والإسلام».. قرأت له « أطروحات سودانية» وقرأت له « المسيحية فى عيون المسلمين».. طالعت ما كتبه فى « السودان أبو الدنيا» والمكون من مجموعة من المقالات، وجدتها سلسلة من ذهب وفضة تأخذ برقاب بعضها ..

فحينما تبدأ فى القراءة وتنتهى من مقالة تشد إنتباهك الأخرى فتطالعها لتنقلك إلى الأخرى بعناوينها وبداياتها ثم بما فى متنها من إمتاع ومؤانسة ومعلومة وأدب وسلاسة.. فليس بغريب على من يكتب عن» النوبة ملوكاً وشعباً « ومن كتب عن « النيل والسودان الأصيل « ومن كتب عن « السودان زمان» أن يكتب عن « السودان أبو الدنيا» وسلسلة مقالات عن السودان..

وبالرغم من إننى قرأت البعض منها فى الصحف وقرأت قبلها فى الكتب التى

أصدرها أبونا، إلا إننى وقبل أن ألتقيه لصيقاً كنت أحسبه رجل دين فقط، وكنت أعلم إنه رجل يمشى بين الناس يدعو للتوادد بينهم والتآخى وينضح عبق المحبة من ريحانه ساقه..

ولكننى وأنا أعيد قراءة مقالاته شدنى إليه إنه روائى من الدرجة الأولى، وهو مؤرخ وتنم كتاباته عن أدب جم وتعابير مموسقة منمقة والذى سعد بمجالسة الكاتب لا يندهش حين يقرأ له، وينهل من بستانه ريحاناً وزهراً ووردأ قرنفلا، وكل لها عبقها وعبيرها ونسمتها، الريحان والفل والياسمين بطبعه محدث لبق لا تمله إطلاقاً وصاحب نكتة موزونة..

لم أشأ وأنا أقرأ كل مقالاته أن أختزل منها فأفسد رونقها وأحرّف مقصدها ومعناها الجميل.. فالرجل موسوعة بجانب إنه محب لشعبه بمختلف دياناتهم وأعمارهم ومهنتهم، يصاب بالرهق والإعياء فيتابع كتاباته ومقالاته ولكنه يحس بالإمتاع إن إستطاع أن يطالعها على كثر.. قدح زناد أفكاره، وسطر الروائع لينهل منها كل ما يريد ويروى ظمأه وتطمئن روحه، وهو ينتشر بين الناس بحبه ووفاق الأديان فى تعايش الناس فى وئام، ومودة ورحمة..

والرجل له الفضل فى أن تكون مائدة الإفطار فى المكتبة القبطية فى كل رمضان يؤمه الإخوة المسيحيين رهباناً وقساوسة ومطارنة ومعهم المسلمون بدءاً برأس الدولة وعلماء المسلمون والشيوخ، يجالسون بعضهم البعض فى إخاء وتسامح دينى ظل مضرب المثل على مر السنين، وسيظل كذلك..

ما أروعك أيها القمص، ويراعك مداده المحبة، وعشق الوطن والمواطنين..

دكتور كمال عمر بابكر

أستناذ مشارك- كلية الشرطة والقانون

جامعة الرباط الوطنى

بسم الثالوث الأقدس

٤- لست أديباً مثله ولكنني معجب بأدبه الرفيع

مركز السود: (قيل إن خير الأمور أوسطها) والسودان وسط أفريقيا الحبيبة والشعب السودانى الطيب والمتواضع ، ولكنه فى تقديرى شديد الإنطباع الأمر الذى يؤثر كثيراً على مستقبل هؤلاء الكرماء حيث إن الهدر الكبير من الوقت والمال تذهب لذلك السبب وبشكل متكرر، نعم واجب العزاء أمر دينى وإلهى ومقبول ثم تأتى المشاركة، ولكن يجب ألا يخرج عن حده، المجاملة الأكثر من اللازم هى التى تضر بمصالح الكثيرين، ونحن نعلم إن الإكثار الزائد عن حده ينقلب إلى ضده وهذا مضر.. شعب ذكى طيب وكريم ولكنه مجامل وإنطباعى أكثر من اللازم..

عندما يأتى الغريب من البلاد الأوربية (الخواجة) أو أى شخص من جنس آخر، يأتى الجميع لمشاهدته صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً لدرجة أنه يمكن للفرد أن يترك مهامه ليلقى نظرة على الشخص المذكور.. ويمكنه تأييد إنسان فى أمر لمجرد التعاطف معه وهو ما يقال عنه: إن الناس كلهم ذهبوا لماذا أنا لا ؟ أو هذا عمل قبل ذلك أنا مالى !! أمر غريب عدم تحسب النتائج والتبعات الناتجة عن هذه التبعية..

مناصرة الضيف والضعيف هى أحد القيم العظيمة المتوارثة فى قبيلة النوير.. والرجل النويراوى يجب أن يكون له مبادىء ومواقف، نعم الرجال مواقف، ولكن هل من الضرورى أن يكون الإنتحار موقف مقبول ؟.. يدخل النويراوى المعركة فقط لتسجيل موقف إشتراك، حتى ولو أدى ذلك إلى الموت، وإن كان ضيفاً فى مكان المعركة، لأن النويراوى يعتقد إن الدخول فى المعركة صفة من صفات الرجل، والرجولة عندهم تثبت وتختبر بالقوة الجسمانية للشخص فى المعركة، ومدى صبره وثباته فى الشدائد، ويتدرب الرجال على ذلك لقياس مدى تحملهم للصعاب..

مثل عادة الشلوخ عند قبيلة النوير والمبارزة وصيد الحيوانات المفترسة من أسُود وأفيال، وذلك ما يدعو النويراوى الدخول فى المعركة دون معرفة الأسباب

والواقع، حتى ولو كان فى بلد بعيد.. هذه واحدة من عادات وتقاليد وطبائع قبيلة النوير الذين يقطنون فى منطقة شديدة القساوة والوعورة من شدة مياه الفيضانات لأنها منطقة المستنقعات، وتربتها الطينية شديدة اللزوجة وتكثر فيها الحيوانات والزواحف المفترسة.. المنطقة وصفها المستعمر الإنجليزى بأنها مكان لا يسكنها إلا النويراوى والبعوض وفرس البحر.. ولكنها فى تقديرى أغنى مناطق السودان عامة، والقبيلة من السكان النيلية التى وصفها الكتاب المقدس بالجرد وطوال القامة وملساء الأجساد، تلك هى قبيلة النوير من السودان..

فى قديم الزمان كان الإنسان يفضل الإستيطان فى مكان يسهل فيها المشاهدة أو الرؤية وسهولة الحصول على المياه مثل المرتفعات كالتباب والأودية الخضراء والسهول وجوار الأنهار والخيران، فالسودان المميز بواديه الخصيب نهر النيل العظيم يُعد واحداً من أقدم مناطق إستيطان البشر فى العالم، بدليل الحضارات والممالك التاريخية الموجودة، وكذلك بدليل كثرة الثروات الطبيعية المعروفة من مياه وذهب وحياة برية وأخرى كثيرة، لذلك يعتبر ملتقى البشر والحياة البرية.. منطق بشرى عادى لم أحصل عليها من أى كتاب كتب ولا قصة من الكبار، ولكنه إعتقادى حيث إنه من البديهى القول: إن الحضارات الموجودة على وجه الأرض دائماً تكون قرب الأنهار العظيمة أو فى الأودية والبحيرات..

فأنا أحسب إنه بعد فيضان سيدنا نوح عليه السلام إنتشر الأفارقة من السودان شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً بدليل إكتشاف مقابر ذات شخصيات سمراء البشرة فى مصر شمال الوادى، وإختلاط القبائل شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً مع القبائل السودانية ويدعم ذلك وجود النيل الخالد والذى أحسب إنه ملجأ الجميع من البشر والحياة البرية والطيور، لذلك من المنطق جداً أن أقول: إن السودان أبو الدنيا على الأقل لجميع البشر ذوى البشرة السمراء والتى يتميز بها السودان والسودانيين وسط أفريقيا، وأدعو الله أن يمنح القدرة والحكمة والمعرفة لإثبات ذلك مستقبلا..

وفى الأسبوع الأول من شهر يونيو وبالتحديد ٢٠٠٧/٧/٧م إتصل الأديب المربى الأب القمص فيلوثاوس فرج مذكرنى ومكلفنى ، الذكرة هو إنه تم تأليف كتابه القيم « السودان أبو الدنيا» والذى قال لى يوماً إنه سوف يؤلف كتاب بهذا الإسم عندما أعجبته فلسفة المقولة فى كتاب « النهر والرجال» « السودان أبو الدنيا « مجرد منطق بسيط عادى وجود أم الدنيا (مصر الشقيقة) قلت أن يكون هناك أيضا أبو الدنيا، وفى أقل من شهرين أكمل كتابة هذا الكتاب، والتكليف هو إننى أقوم بكتابة مقدمة للكتاب مع العلم إننى لست أديباً مثله ولا أتحمل مطالعة الكتب الطويلة لعدم صبرى على ذلك، لكنى قررت أن أختار لهذا الكتاب مقدمة بعنوان « مركز السود « وأعنى بهذا السودان مركز الأفارقة والذى يتوسط أفريقيا..

وتناولت فيه فلسفة القول « خير الأمور أوسطها « وإن كلمة السودان أصلها من السودان أى سمر البشرة والتى أيضا تعنى كلمة أثيوبيا أو الحبشة التى أطلقت لكل أفريقيا ، جنوب مصر أى القارة السوداء.. ووجود النيل الخالد عندى دليل لوجود إستيطان البشر والحيوان لأنها وادى خصيب، وإنتشر منها البشر لبقية دول أفريقيا أى السودان منبع الحياة، كل هذه الأحياء الإنسان والحيوان، لذلك كانت الكلمة والمقولة « السودان أبو الدنيا «..

أما الثرثرة عن النوير القبيلة الحبيبة فى وطنى الحبوب (مثال للإنطباع) ليس ذلك قبلية بل مجرد معرفة لصيقة بها ومضرب مثل لى وعن ما أذكره من موروث لأننى عاشرت تلك القبيلة وأنا أعرفها جيدة، فأرجو المعذرة، وأرجو أن أقول إننى لم أستطع حتى الآن مطالعة قصص هذا الأديب الأب القمص فيلوثاوس فرج ولا حتى الكتاب المقدس الذى تحدث عن كوش كثيراً وعن أعالى النيل بالتحديد فى العهد القديم.. فلسفتى عن السودان أبو الدنيا مجرد منطق بشرى عادى بسيط يتخيله عقل إنسان متواضع..

كنت لا أحب كثيراً مطالعة الكتب فى السابق لأننى أمل المطالعة، لكنى أعتمد كثيراً على الإستماع للأستاذ وقراءة العناوين وبسيط من مقدمة القصص أو الكتب،

وفى بعض الأحيان الخاتمة، لذلك ما أكتبه فى محاولاتى الكتابية مجرد خيال شخص دون المراجع وقليل من الأسئلة من العارفين أو أصحاب التجارب، فأنا سعيد جداً بمعرفتى للشاعر الأديب الأب القمص فيلوثاوس فرج الذى أحسب إن إهداءاته لى سوف تشكل مدرسة جديدة ومفيدة ومفعمة بآيات من الكتاب المقدس، والله المستعان..

قلواك دينق قرنق ألير

وزير الثروة الحيوانية حكومة الوحدة الوطنية

بسم الله الرحمن الرحيم

٥- الكتاب إنعكاس لواقع الحياة بإسلوب رصين

يجد القارىء لهذا الكتاب الموسوعى الشامل بعنوان « السودان أبو الدنيا « ما يزيد على المائة مقالة ، وموضوع تناول فيها الأخ الصديق القمص الأديب الوطنى المثقف فيلوثاوس فرج بأسلوب سلس يفيض عذوبة ورقة ورصانة ونهج فكرى متقدم، وثقافة سودانية أصيلة عدة مواضيع إتسمت بالتنوع فى مختلف مجالات الفكر الإنسانى، والتراث والثقافة السودانية، بما فى ذلك تراث هذا الوطن وتاريخه القديم والحديث، وضروب النهضة الثقافية والفكرية والإجتماعية والإقتصادية والتربوية والتعليمية إلخ.. بالإضافة لمجالات الوحدة الوطنية والتنوع الثقافى والإجتماعى والدينى، وسير الإعلام السودانيين البارزين، القدماء منهم والمحدثين، كالشيخ الحكيم فرح ود تكتوك، والشيخ المربى بابكر بدرى، من القدماء..

والأستاذ النابغة يوسف ميخائيل، والدبلوماسى العريق منصور خالد، والسفير المخضرم جمال محمد أحمد، والأديب الفذ الطيب صالح، والإقتصادى العريق مأمون بحيرى، والذى تم وصفه فى هذا الكتاب بالحكيم الساهر، بالإضافة إلى السياسى الشاب المرحوم محمد إسماعيل الأزهرى، وخلافهم من أعلام السياسة والمجتمع والفكر والفن.. هذا بالإضافة للجانب الهام والخاص بحوار الأديان، والتعايش

العقائدى والدينى بين مختلف الطوائف والملل..

وفى هذا الإطار لا يفوتنا إلا أن نوجه أنظار القراء الكرام للمقالات الخاصة بوضعية السودان تحت لواء الحكم البريطانى، كمقالتى السودان عند روبرتسون، والسودان عند ماكمايكل.. هذا بالإضافة للعرض الفكرى والثقافى المتميز والمستنير للمقالات العامة التى تدور حول موضوع إسم الكتاب كمقالة « السودان أبو الدنيا « ، والتى تفرعت عنها عدة مقالات بعناوين السودان أبو الكل، النيل أبو الحضارة، السودان أبو الرجال والنساء، أبوة السودان للدنيا، السودان أبو لكل الأجناس، السودان أبو محبوب، وأخيراً السودان صاحب الجلالة.. وكما أرى فإن الهدف الأساسى لهذا الكتاب ليس هو المتعة والترفيه فحسب، بالرغم من إننى قد إستمتعت كثيراً من قراءته، إلا أن الفائدة العظيمة والأساسية بالنسبة لى كانت تلك الحصيلة الثرة، والإضافة لرصيد معلومات وأفكارى ومفاهيمى عن الحياة فى السودان، بما فيها من إشراقات وأفراح وأتراح..

وفى هذا الإطار لا يفوتنى أن أذكر بأن معظم الباحثين ومؤلفى الكتب، قد إعتادوا أن يعللوا الأسباب التى ترتب عليها إختيار عناوين كتبهم، ولا أرى أن موضوع « السودان أبو الدنيا» فى حاجة لتعليل.. وإننى إذ أقدم للقارىء هذا الكتاب، فإننى أقدمه ليكون معلماً لإثبات الجهد العظيم الذى بذله المؤلف مع علمنا التام بأنه لا يمكن لمؤلف أو كاتب أن يدعى إن ما توصل إليه هو كل الحق أو الحقيقة، ولكن يكفيه بأنه قد أجهد نفسه فى البحث عن المعلومات والحقائق وإستخلاص النتائج وإستيعاب واقع الحياة فى مجتمعه ووطنه، وعكسه للقارىء بأسلوب رصين وسرد شيق وممتع.. ولا أعتقد إننى فى حاجة للحديث عن القمص الأديب فيلوثاوس فرج ومآثره الكثيرة ونبل شخصه ، وصدق وطنيته لأن الناس يعرفون عنه ذلك النبل وكريم الخصال..

وفقنا الله جميعاً والسلام...

بروفسور قاسم بدرى

عميد جامعة الأحفاد

بسم الله الرحمن الرحيم

٦- ما كتبه المؤلف فى حب السودان لم يكتبه آخر

طلب منى أبونا القمص فيلوثاوس فرج أن أكتب عنه من كتابه الجديد « السودان أبو الدنيا» فقلت له على الفور: هذا شرف عظيم، فالأب فيلوثاوس فرج صاحب قلم جياش ظل يمتعنا أعوام وأعوام فى عمود يومى وإسبوعى فى أكثر من صحيفة يومية بجانب محاضراته العامة ومقابلاته ومساهماته فى الأحاديث الإذاعية والتلفزيونية، وأبحاثه وأوراقه فى الندوات العلمية.. وسبق لى أن إستضفته فى برنامج إذاعى « كتاب ومؤلف» وفى حلقتين متتاليتين تعرضنا لمؤلفات وكتابات ومساهمات الأب فيلوثاوس فرج فى مجال الثقافة السودانية.. والمتصفح فى مقالاته وكتاباته يجدها مشبعة بالعلمية والحقائق التاريخية والموّثقة بالمصادر والمراجع، وليست مقالات تأتى عفو الخاطر، بل كتابات علمية رصينة نلاحظ بكل الوضوح الجهد العلمى المبذول فى إعدادها وأثر المراجع التراثية والحديثة..

وحب السودان وعشقه والتغنى به نلمسه فى كل ما كتبه، وفى كل ما يقدم من أحاديث ومحاضرات، فالسودان الوطن الشاسع وبتاريخه القديم الضارب فى جذور الحضارة الإنسانية وبإنسانه وحضارته التى تعاقبت على مر الحقب والآزمان كانت مجال إهتمامه، فكلف ببحثها وتسجيلها وتوثيقها.. يكتب ويتحدث عن السودان دون كلل أو ملل.. ولا أظن المبالغة إذا قلت إن ما كتبه الأب القمص فيلوثاوس فرج فى حبه وعشقه للسودان لم يكتبه أى شخص آخر فى تاريخنا القديم أو المعاصر.. ويشهد على ذلك سلسلة الكتب التى أصدرها وزادت عن العشرة وجميعها تحتوى من المقالات التى تفيض بحب السودان وأهله..

ولا غرابة فى ذلك، فى إن الأب فيلوثاوس فرج ولد وعاش فى هذا البلد والتى إعتبرها وطناً له، ويحق له أن يتغنى بها، لأنها حقيقة وطنه وموطن أهله وعشيرته، الذين عاشوا عقوداً بين إخوته من المسلمين السودانيين فلم يجدوا سوى الإحترام

والتبجيل والأخوة والصداقة والمساواة فى المواطنة.. وإذا إستعرضنا جانباً من الموضوعات التى تطرق لها هذا الكتاب لوجدنا إسم السودان قد ورد عشرات المرات، فالمؤلف ينتهز الفرص للكتابة عن السودان فى تاريخه القديم فى شخصياته التراثية والمعاصرة فى آثاره وجغرافيته ورحلاته وآراء الكتاب، والمؤلفين عن السودان..

سودان الجميع، الوطن الشاسع الواسع، الذى يحتضن كل المواطنين دون تمييز فى العرق أو الدين أو اللون.. وهو أمر شبّ عليه كل أهل السودان وكأنهم رضعوا ذلك من ثدى أمهاتهم.. فالتسامح والمحبة وإحترام الآخر، كلها صفات ميزتهم عن كثير من شعوب المعمورة، وإستطاع الأب فيلوثاوس فرج بإسلوبه وكلماته وعباراته العذبة أن يعرض كل تلك المفاهيم والقضايا، وأن يؤكد لنا بكل الوضوح لأنه رجل المحبة ورجل الوطنية، ورجل التسامح، وإبن بار من أبناء هذا الوطن، تشبع بالثقافة والحضارة والعلم وأنتج وقدم لنا أدباً رفيعاً فى حب الديار والأهل والعشيرة..

ونحن نقدر للأب القمص فيلوثاوس فرج هذا الجهد العظيم فى الكتابة والتأليف والنشر والتوزيع، وهو عمل لا يقدر عليه إلا من أوتى عزيمة الرجال، وصبر الأنبياء، فشكراً لك يا أبونا لهذا العطاء العظيم، متعك الله بالصحة والعافية، والمحبة والسرور..

أ. د. قاسم عثمان نور
أستاذ علوم المكتبات والمعلومات
بالجامعات السودانية

قالوا عن المؤلف

١- نحمد الله أن بيننا رجلٌ عالمٌ كالأب فيلوثـــاوس فرج، درس و تعمق لما جاء في الإنجيل و أدهشنا بفهمه العميق الواسع للقرآن الكريم ، و إختياره الدقيق للآيات التي تعضد فكره الموحد للمؤمنين، قال تعالي : نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديك و أنزل التوراة و الإنجيل من قبل هُديً للناس و أنزل الفرقان، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد.

لقد إستطاع الأب العالم بهذا التعمق و الدراسة للقرآن الكريم أن يؤكد على أن الإسلام قد جاء مصدقاً بالمسيحية و مقراً لما جاء فيها. و هو دوماً يشير إلى أن التعايش بين الديانتين استمر لعدة قرون في رقعة جغرافية واحدة، تصادقوا مرات ، وتحاربوا مرّات بسبب الحكام الطغاة والساسة ذوي الأغراض ، الذين لم يدركوا إن الديانتين المسيحية و الإسلام تتوافقان و إن لم يتطابقان، و أن الله لو أراد أن يرسل رسولاً واحداً لفعل، فهذه حكمته جلت قدرته، و الأب فيلوثاوس يشير دائماً إلى أهمية أن يكون الود قائماً بين المسيحيين والمسلمين

برفسور تاج السر دوليب

حامل وسام الآداب و الفنون

٢- إنني أُهنئ القارئ السوداني بما يكتب الأب القمص فيلوثاوس فرج و أُهني الأب الكاهن الوقور بثقة القارئ فيه و أعتقد أن أبحاثه سوف تستمر لفائدة الوطن العظيم السودان الممتد الأطراف، إن الأب فيلوثاوس فيما يكتب يحاول أن يمتن عري الصداقة و قرب المودة و لا إكراه في الدين، والمسيحيون آمنون و مؤمنون إلى يوم الدين والإسلام في حريته يذكر: و ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، لكل جعلنا منكم شرعة و منهاجاً و لو شاء ربُك لجعلكم أُمةً واحدةً هذا ما جاء في سورة المائدة و في نفس هذه السورة: إن الذين آمنوا و الذين هادوا النصاري و الصائبين من آمن بالله و اليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم و لا خوف عليهم و لا هم يحزنون و أرجو أن نلاحظ أن سورة المائدة كُتبت قبل وفاة النبى صلوات الله و سلامه عليه بأسابيع قليلة و لم تنسخ، والحديث يطول عن مكانة أهل الكتاب و أهل الذمة و نحنُ كُلنا و الحمد لله في ذمة الله.

و ما يكتبه أبونا هو إجتهاد مقبول و مشكور و نظراً لأن الإجتهاد مباح و مطلوب في الإسلام لهذا كتبتُ كتاباً عنوانه " فقه الطبابة" لأن الحرية متاحة والفسحة واسعة لطـــرح الأسئـــلة و الأجتهاد و مطلوب أن تكون صياغة القوانين مواكبة للظروف والمتغيرات و نحتاج لحماية الإجتهاد صونا لحرية البحث والتي هي أخص خصائص حقوق الإنسان اللأزمة لصياغة المجتمع الديموقراطي المعاصر الذي يتساوي فيه الجميع حقوقاً و واجبات،

بروفيسور أحمد عبد العزيز

أخصائـــي جراحـــة القـــلب

وزير الصحة الأسبق

٣- عندما تقرأ للأب فيلوثاوس تشعر أنه يقدم لك مرآة صادقة فيها الفن والذوق الأدبي الرفيع و فيها مائدة تحوي الســــــلام والحـــــب و الأخاء و فـــيها جسر من المودة و التسامح، و فيها حكمة الشيخ و حيوية الشباب و فيها العمل والبحث و الجدية والتواصل المتأصل، يتملكك شعور و أنت تقرأ بأن الكاتب ليس غريباً عنك بل هو قريب منك ... و كفي

و لهذا وجب على أن أُحيي هذا الكاتب الوقور المكافح النشط الأب فيلوثاوس و هو يرسي دعائم المحبة والسلام و يرسم لوحة فنية صادقة في إمتداد مساحات الود والإحترام بين المسيحية والإسلام و كتاباته هي لوحة تؤصل و تؤرخ للتوادد و المحبة فتبني جسوراً من الثقة والأمل بين أهل السودان جميعاً،

بروفسور عبد الهادي محمد عمر تميم

خبير أول معهد الخرطوم الدولي

للغـــة العربية

٤- إن للأب فيلوثـــاوس خصوصيته ككـــاتب و هـــو (ماشاء الله) الناشـــط دينـــياً و ثقافـــياً و سياسيـــاً و اجتماعية و هو يحظي بموقع مرموق في ديانته المسيحية الأرثوذكسية القبطية و يتمتع بموقع القمص و الأب والكاهن كما له موقعه في حوار الأديان في بلده السودان و في فيدرالية السلام العالمية التي خلعت عليه في لقائها الجامع في العاصمة الكينية نيروبي في منتصف

نوفمبر تشرين الأول ٢٠٠٥م و عن إستحقاق لقب « السفير العالمي للسلام « و من خصوصيات الأخ الكاتب الأب فيلوثاوس التي تُضاف إلي ذلك خصوصيته الثقافية التي جعلت منه كاتباً صحفياً يلاحق بقلمه شتي الموضوعات و عبر السنوات مما أتاح له فرصة إصدار عدد من الكتب و ذلك إلى جانب حضوره السياسي و التشريعي في المجتمع فقد كان عضواً في المجلس الوطني (البرلمان) لمرتين في الفترة الأخيرة.

علي أن خصوصيته و حضور الإجتماعيين أضافا لشخصيته و سيرته بعداً آخر عمق و رسخ في ذاكرة كُل من يعرف الأبعاد الأخري – حفظه الله – و أحسب أن كل هذا الكل المركب في شخصيته الكاتب هو الذي يجعله مؤلفاً واقعياً في وطن متعايش و من صور ذلك التعايش أن السوداني المسلم لم يكن ليفرق بين أن يرسل إبنه في مقتبل العمر أو بنته لمدرسة الراهبات او الكومبوني أو اليونيتي و هي مدارس ذات طبيعة و خلفية تبشيرية كنسية – والسوداني المسيحي في غرب السودان في أن يبعث بإبنه لخلوة من خلاوي القرآن الكريم .

موسي يعقوب

صحفي مخضرم

و مؤلف صنديد

٥– إن الرسالة التي يؤمن بها الأستاذ الأديب القمص فيلوثاوس فرج و يدعو لها و يعبر عنها أفكاراً و تأملات و مشاعر معبرة عن رؤي و تجارب، هي رسالة تتجسد في مكونات أربعة و هي الإيمان والمحبة والأمل و السلام ، هذه المكونات الأربعة هي البوتقة او المنظومة التي ينتظم في إطارها كُل هذا الكم المتنوع و المتعدد من الأفكار والمشاعر، يحدثك المؤلف في كل ذلك حديث إلفة و محبة فهو لا يعتلي منبراً عالياً ، بل يعمل على إزالة كُل الحواجز ليحدثك حديثاً مؤنساً هادفاً يدفعك إلي المزيد من التأمل و التبصر، و يجذبك في تؤدة لتشاركه الحجة المنطقية لما يقدم من أفكار و آراء.

و الأستاذ الأديب الأب القمص فيلوثاوس فرج رجُل دينٍ عليم بعلم اللاهوت، غير أن معارفه لم تنحصر في الدين وحده بل يهتم بتغذية ما يكتبُ بالعديد من الروافد

الفكرية في الآداب و الفنون و التاريخ و الفلسفة، و بالإنفتاح الذكي المتبصر على معطيات علوم الإجتماع و الإقتصاد و السياسة و لقد ظل الأب القمص فيلوثاوس فرج من أبرز دعاة التعايش الديني السلمي بين الأديان منطلقاً في ذلك من جوهر كُل الأديان السماوية المبنية على الإيمان الكامل بوحدانية الخالق،

بروفسور دكتور

حسن أبشر الطيـب

كبير خبراء الامم المتحدة

٦- إنني من قراء الأب فيلوثاوس فرج إيمانا مني بأن ما يكتبه هو جيد جاد يهدف منه إلي الإسهام بالرأي و الكتابة في خلق المجتمع المتسامح، و الذي هو نموذج صادق لهذا السودان الذي عُرف طوال تاريخه الناصع بالمحبة و السلام و التسامح بين أبنائه المتعددي الأعراق، المتنوعي الثقافة، والذين خلقوا هذا النسيج الفريد الذي عرف عند الناس بالسودان.

إن من يقرأ ما كتب الأب فيلوثاوس يدرك تماماً عظمة هذا الكاتب و الدور الذي قام به في توثيق عري الأخاء و الصداقة بين ابناء شعب و مجتمع كالمجتمع السوداني و يدرك أن رجل الدين أيا كان هذا الدين، يستطيع أن يسطع و يشع في مجتمعه متجاوزاً المسجد والكنيسة، فيضئ بكلماته و عباراته الطيبة ذلك الافق الواسع التي يعيش في فنائه وتحت لوائه شعب عظيم كشعب السودان، إن الأب فيلوثاوس أخ صديق حميم و نموذج لرجل الدين في السودان يذكرني بالراحل الانبا دانيال و الذي كان حضوراً في كل المناسبات الوطنية و الدينية للمسلمين والمسيحيين علي السواء،إن الأب فيلوثاوس يمثل قيادة واعية في مجتمع التسامح والتفهم للديانات والعقائد كأقباط مصر الذين عرفناهم وطنية و حماسة لقضايا وادي النيل في مصر و السودان.

ان الاب فيلوثاوس فرج هو إستمرار لنماذج محترمة من الأخوة الاقباط الذين أثروا الساحة الوطنية السودانية منذ القرن التاسع عشر و حتي اليوم، و يمتاز الأب بإسهامته المتعددة في المجالات السياسية و الثقافية والدينية ، و في المجال الصحفي الذي يحمل عدداً من المقالات التي ترتبط بالمجتمع و تناقش قضايا تهم القارئ السوداني.

بروفسور علي محمد شمُو

رئيس المجلس القومي للصحافة

و المطبوعات الصحفية

١.السودان أبو الدنيا

الأب والأم: أهم ما يميز أهل مصر حبهم لمصر، وقد لقبوها « أم الدنيا» وهذا اللقب وجد مكانه أيضا خارج مصر، مصر أم الدنيا.. ومنذ عهد أمنحتب الثالث تترنم مصر بدعاء إلى الله وإلى مصر التى هى الأم البارة للآلهة والبشر ، مثلما هذا الدعاء القديم:-

أيها الموجد الذى لا موجد له..

أيها الواحد الأحد الذى يطوى الأبد..

أنت الأم البارة للآلهة والبشر..

والصانع الدؤوب الخالد فى آثاره التى لا يحيط بها حصر..

والراعى ذو القوة والبأس يرعى رعيته..

ولولا ملاذهم ما تهيأت لهم حياة..

وإذا كانت مصر هى أم الدنيا فإن الوزير المؤمن المسيحى الملتزم قلواك دينق أطلق شعاراً يقول فيه: إن السودان أبو الدنيا».. أبو الحضارة كلها، فالحضارة منه تبعت مع نهر النيل وجرت وتدفقت إلى الجنوب، وإذا كان النيل يبدأ من السودان القديم، فلقد نشأت حضارة الإنسان على ضفاف النيل ولهذا يُعد السودان منذ القدم « أبو الدنيا»، وأبُ الحضارة، لأن النيل هو النهر الوحيد الذى يجرى من الجنوب إلى الشمال حاملا الخصب والنماء والغرين وكل جذور الحضارة وبذور التقدم الإنسانى، والرأى الذى قاله قلواك أتى بأدلة عليه من الكتاب المقدس وماذكره أشعياء عن كوش (أصحاح ١٨) وما قيل عن قوسهم وسرعتهم وخفة حركتهم، وإنهم شعب قوة ودوس..

وما جاء فى المزمور الثامن والستون» كوش تسرع بيديها إلى الله»، وفى ترجمة الحياة تأتى الآية « وتبسط الحبشة يديها مسرعة إعراباً عن خضوعها لله (مزمور ٦٨: ٣١).. وتستفيد التجمعات المسيحية بهذا النص الجميل، وعندما تقام إحتفالات روحية مسيحية فى الساحة الخضراء يرفع كل الحاضرين أيديهم إلى الله ويبسطونها أمامه خضوعاً وعبادة وسجوداً أمام العلى الذى خص كوش بأن يكون « أبو الدنيا» كلها، ويكون أيضا « أبو الآخرة»، لأن دنيانا هى الطريق إلى آخرتنا..

كما أرجو أن نلاحظ كوش هو نفسه الحبشة، وهو نفسه أثيوبيا، وكلها كلمات

تعنى أصحاب البشرة السوداء والذى أقول: إنهم الحبة السوداء والتى فيها الشفاء من كل داء، وهم الآن فى كل البلدان يعملون فى قوة ويخدمون فى أمانة، ولا يوجد مكان على وجه البسيطة لا يحمل بذرة أهل السودان الحبشة أثيوبيا وما تقدمه هذه المنطقة من عطاء، فلقد قدمت الجندى القوى، وقدمت العامل الأمين، وتقدم الآن أساتذة الجامعات والخبراء والمدراء..

وهنا يؤكد كثيرون : إن موسى النبى من مواليد دنقلا وإن هذا الرجل العظيم تزوج بإمرأة كوشية.. وإن القديس موسى الأسود الذى يزين سماء القديسين فى الكنيسة القبطية هو سودانى الأصل، وإن القديس تكلا هيمانوت رجل السياحة الروحية يرجع أيضا لنفس المنبت والجذور، وإن هاجر زوجة إبراهيم أم إسماعيل أيضا سودانية كوشية، وإن الملكة بلقيس ملكة سبأ كانت سمراء جميلة وأعجب بها سليمان الملك بجمالها وتزوج بها وأنجب منها الجد الأكبر للأمبراطور منليك، وقد رأيت صوراً قديمة تؤكد التشابه بين سليمان الأب ومنليك الإبن، هذا عدا شهادة السيد المسيح عنها فى قولة ملكة التيمن: ستقوم فى يوم الدين وتدين هذا الجيل لأنها أتت لتطلع إلى حكمة سليمان ، وهوذا أعظم من سليمان ههنا..

ديودور الصقلى: وأورد هذا المؤرخ القديم: إن الأثيوبيين أى السودانيين يقولون: إن مصر مستعمرة من مستعمراتنا، وإن طين بلادها طمى من بلادنا ساقه النيل إليها، وإن بين عاداتنا وعادات المصريين مشابهة ظاهرة، وهناك تشابه بين القوانين وفى زى ملوك البلدين، ولم يذكر ديودور بناء الإهرامات والمسلات كقاسم مشترك بينهما، ويرى دكتور سليم حسن فى كتابه» مصر القديمة» إن رواية ديودور المؤيدة لمجىء المصريين من أثيوبيا راجعة فى الحقيقة إلى أن أصل المصريين القدماء من بلاد العرب الجنوبية لأنه كما ذكر ديودور فى موضع آخر: إن القبائل المهاجرة من بلاد العرب نزلت على شواطىء البحر الأحمر فى أثيوبيا وأقامت فيها زمناً ثم زحفت بعد ذلك إلى وادى النيل، وإن كنا نرى إنه لا مانع من قدوم العرب إلى « أبو الدنيا» ولكن بعد أن بدأت الدنيا على أرضنا وقد تعرض الصقلى أكثر من مرة إن هناك صلة قوية بين مصر والسودان..

وذكر بكل وضوح : إن منطقة النوبة يسكن فيها قوم يجتمعون فى نسبهم مع مصر، وقال: إن المصريون جالية نوبية نزحت من الجنوب، ومن يؤيد قوله

يذكر بعض الأدلة منها: إن المصريين فى عصور ما قبل التاريخ كانوا يدفنون موتاهم ورؤوسهم متجهة نحو وطنهم الأصلى فى الجنوب بل يذهبون إلى أن آلهة المصريين « أوزوريس وحورس» آلهة أصلها نوبية.. وإلى القرن الرابع كان أهل النوبة يعتزون بالآلهة إيزيس ويعتبرونها آلهة خاصة بهم، وكانوا يأتون فى موكب إلى معبد الآلهة إيزيس فى جزيرة فيلة أسوان، ويأخذون تمثالها ويجولون به فى موكب بهيج فى بلاد النوبة لكى تخصب الأرض وينمو الزرع، وكان هذا يحدث فى عيد النقطة الذى يحتفل فيه المصريون أيضا بنزول أول نقطة مطر لتروى النيل.. وكان الإله المصرى « آمون» معبود سودانى فى نباتا ومروى حتى إن بعنخى طالب الجنود أن يكسبوا رضاء الإله آمون لكى يتم إفتتاح شمال الوادى، وفعلا قامت المملكة المتحدة لمصر والسودان بقيادة بعنخى الملك السودانى..

٢. حكاوى أم درمان ويهود السودان

شوقى بدرى: لقد تفتح وعى شوقى بدرى على المدينة الجميلة أم درمان وكتب عنها وفيها مساهمة ثرة هى: حكاوى أم درمان.. ونحن حتى الآن لم نسجل تاريخ أم درمان ولا غير أم درمان من مدن السودان.. وما زلنا نعتمد على التاريخ الشفاهى أو التسليم فنحن نستلم تاريخنا من أفواه الآباء والأجداد والحبوبات، ولكن هل ما زال حبوبات هذا الزمان قادرات على العطاء ؟ ربما الإسم نفسه قد تغير رغم إننى أصر على إسم حبوبة لأنه يعنى ليس المحبوبة فقط وإنما الأم التى تحب ومسئولية الباحثين فى هذا الجيل أن يسجلوا تاريخنا الشفاهى قبل أن يضيع مع المدينة الحديثة ومشاغلها وأمهات اليوم عندما يصرن حبوبات ربما لا يلتزمن بعطاء الحبوبات الآن..

لقد تعرض شوقى بدرى كما تحدث عنه مكى أبو قرجه بصورة حانية ومحبة لبعض العائلات اليهودية التى أقامت بالمدينة منذ المهدية.. وتحدث عن إندماج اليهود فى الحياة السودانية وهذا أمر معروف فى السودان التى لا يأتيها أحد إلا ويعقد علاقات ود وإحترام مع كل الناس حتى إن ما كتبه الأجانب من إنجليز وأمريكان وفرنسيون وعرب عن السودان أكثر مما كتبه أهل السودان ، وأذكر أستاذاً مصرياً عالماً من علماء التاريخ كان مدرساً فى جامعة الخرطوم وعندما زرته فى ليبيا ذكرنى بأنه قضى فى الخرطوم أجمل أيام العمر..

وكان سعيداً فى كل أمسية أن يرش حوش بيته بالماء ويضع الكراسى فى إنتظار الزوار .. وكان بلاشك يدير حديثاً جميلاً عن المدينة الجميلة وكانت زوجته قد عبّرت أمامى عن سعادتها بإستضافة الضيوف وبالندوة المسائية التى كانت تعقد فى دارها فى ود تلقائى ومحبة لا يعرفها إلا أهل المحبة لآنه بالمحبة نعرف الله.. ومن لا يحب أخاه الذى يراه فكيف يحب الله الذى لم يره أحد قط.. ويقول شوقى بدرى نساء اليهود أنجبن أفضل الأبناء والبنات للسودان.. ويذكر السيد محمد الفضل أول مدير عام سودانى لمصلحة السكة الحديد خال الشاعر صلاح أحمد إبراهيم وأخوانه وهو الشاعر الثائر الذى وقف فى وجه السلطان الجائر..

لقد أنجب الفضل من زوجته وردة إسرائيل الدكتور فاروق والدكتور فيصل والدكتور فتحى وشقيقاتهم فاطمة وفتحية وفائزة وجميعهم كرّسوا حياتهم وقدموا التضحيات الكبيرة لأجل نفع وطنهم الكبير ، ولا يشك أحد فى وطنية هؤلاء ولا فى وطنية اليهود الذين عاشوا على أرض السودان سودانيون بلا منازع.. وتكلم شوقى بدرى عن آل إسرائيل بأم درمان وكيف كان لهم عزم الأسُود يفيضون وطنية ورجولة.. وقد أنجب إسحق إسرائيل من كريمة السيد محمد عبد الرحيم المؤرخ الشهير منصور وسميرة وإخوتهم الذين عُرفوا بأنبل الخصال وأشرف المواقف.. وأعتقد إنه لولا قيام الحركة الصهيونية والتى إستعدت الحرب وإستولت على فلسطين لعاش اليهود فى السودان حتى الآن..

حركة اليهود: لقد شهد المجتمع السودانى حركة اليهود منذ أقدم الآزمان.. ولقد سكن بعضهم فى حلفا ومروى والدابة وكريمة.. كانوا يعملون وكلاء لتجار يهود كبار مركزهم فى جزيرة فيلة بأسوان.. ويعتقد البعض أن وزيراً لملكة كنداكة وهو أول مسيحى سودانى كان يهودياً ويستدلون بذلك على قراءته لسفر أشعياء، وإن كان هذا يمكن أن يكون دليل ثقافته وحبه للقراءة، ولكن كما يقولون فإن هذا ليس بغريب أن تستفيد الملكة الوقور بمواطن سودانى من أصل يهودى.. ولقد شهد المجتمع السودانى فى القرن التاسع عشر خلال الحكم التركى وجود عدد كبير من الأتراك واليونانيين والإيطاليين والروس والإنجليز والألمان واليهود، وإن كان الباحث لا يرى فيما هو متاح عن تاريخ السودان ذكراً لليهود عدا الإشارة إلى الرحّالة اليهودى اليمنى صالح روبين الذى زار السودان فى آوائل القرن السادس

عشر إبان نشوء دولة الفونج الإسلامية وكتب إنطباعاته عن هذه الزيارة..

ويقولون إن اليهود من أبناء الملك سليمان من زوجته السودانية بلقيس قد عادوا إلى السودان فى زمن مبكر يبحثون عن مجد أجدادهم وكانوا يحملون معهم لوحى الشريعة اللذان إستلمهما موسى كليم الله من الله ويجرى البحث عن هذا الأثر الخالد، وقد بذلت جهود فى ذلك شارك فيها الباحث الدكتور عمر الصادق، ولكن لم تزل النتائج سالبة.. واليهود أنفسهم الذين سكنوا جزيرة فيلة فى أسوان بكثافة كبيرة قد أجبروا فى وقت ما على الرحيل فتوجهوا جنوباً إلى السودان حيث كان الضغط عليهم من الشمال.. وعندما إندلعت ثورة المهدية فى أنحاء السودان المختلفة وباتت الخرطوم تحت أسر الفتح المهدى تسلل كثيرون هاربين ، وعندما تمّ فتح الخرطوم فى يناير ١٨٥٥م إتخذ الإمام المهدى أم درمان عاصمة له..

وخرجت الخرطوم من جغرافية السودان ولم تعد إلا بعد أعوام، وبالتحديد عام ١٨٩٨م أى ظل السودان بدون خرطوم ثلاثة وثلاثون عاماً، وخلال هذه المدة ذهب اليهود والأقباط واليونانيين إلى أم درمان وعاشوا فيها، وكان معهم بعض رهبان وقساوسة الكنيسة الكاثوليكية، ووصل إليهم فيما بعد الكاهن القبطى القمص فلتاؤوس قلادة من الأبيض، وكان اليهود فى ذلك الوقت ثمانى عائلات من السفارديم أى الذين عاشوا فى الأندلس أيام مجدها الزاهى وعصرها الذهبى الذى إنطوى بسقوط غرناطة عام ١٤٩٢م.. وأسلم هؤلاء اليهود.. وأسلم غيرهم.. ولم يطلب منهم أن يقولوا الشهادة.. وعندما زالت دولة المهدية عاد كل هؤلاء إلى أديانهم بما فيهم اليهود والذين إختلطوا مع غيرهم، ولكن لا يأكلون لحم الطير أو الحيوان إلا إذا قام الحاخام اليهودى بذبحه حتى يكون حلالاً..ولا يأكلون لحم الجمال ولا الأرانب رغم أن غيرهم من أهل السودان يأكلونها.. وعاشوا وإختلطوا دون أن يتنازلوا..

٣- السودان وأغانى أفريقيا

أفريقيا تغنى:عاشت أفريقيا السوداء أياماً سوداء.. ولكنها إجتازت قسوة الأيام وعبرت فوق المرارات وكشفت عن كنوزها.. وكنوز أفريقيا ليست معادن نفيسة وبترول.. وذهب.. وماس.. إنما هى أيضا رجال.. فالرجل الأفريقى الذى يحيا الطبيعة الجميلة هو كنز من كنوز أفريقيا.. ومنذ أيام كوش الأب الكبير لكل أفريقيا كان أبناء كوش هم الجنود الأقوياء النبلاء سريعى الحركة الذين هم عماد جيوش الفراعنة وبلاد الشام وفرنسا والبرازيل.. وعندما صُلب السيد المسيح حمل معه الصليب سمعان القيروانى، وهكذا حملت أفريقيا صليب المسيح ودخل إليها نور الإنجيل منذ القرن الأول على يد النوبة المسيحية، وعاش الملوك حياة التقوى وأدركوا سر الحياة الآتية.. ومن ثم جاء الرجل الأبيض وكتب الإنتصار لأفريقيا لأنها بجهود رجال أفريقيا عادت الأرض إليهم فصاروا يملكون الأرض ويملكون الإنجيل سراج الحياة.. نور الطريق.. ترنيمة الغرباء فى الأرض الذين يشتهون السماء ويتوقون إلى حياة الأبد..

أغانى أفريقيا: والسودان هو مدخل أفريقيا وهذا ما كتب عنه الأمريكى وليم آدمز مؤلفاً ضخماً ترجم تحت عنوان « النوبة رواق أفريقيا».. والمترجم والمقدم هو محجوب التجانى محمود السودانى العريق، والذى تعد النوبة أكبر تراجمه المنشورة وأسلوبه أسلوب رفيع، وكتاباته تشبه كتابات الأب القمص متى المسكين الذى تمتاز أبحاثه بالعمق وكلماته بالدقة وتعبيراته بالبلاغة.. وعن الغناء فلقد إهتم الإتحاد الأفريقي فى إحتفالات سفراء الإتحاد الأفريقي بالخرطوم بأن تقدم كتاب « أغانى أفريقيا» فى الذكرى الجميلة لهذا الإتحاد العظيم فى العيد السابع لتأسيس الإتحاد الذى كان فى سبتمبر ١٩٩٩م.. والكتاب صادر من الخرطوم فى نوفمبر ٢٠٠٦م..

وفيه مختارات من أغانى أفريقيا من تأليف الشاعر العربى الأفريقي محمد مفتاح الفيتورى.. وبينما قال الشاعر والأديب السر قدور: شمس إيمانى بأوطانى..ده خلانى.. أقول للدنيا أنا أفريقي أنا سودانى.. بلدى بلد الخير والطيبة.. قمر يضوى ما يعبث أبداً..دايماً باين.. ويقف أمام المواكب التى لا تتراجع ويقول : أنا أفريقي.. أنا سودانى.. فإن الفيتورى يتحدث أحياناً بمرارة عن سواد بشرته.. ولكنه فى إباء

وشمم يخاطب كل أفريقي.. قلها لا تجبن ، لا تجبن.. قلها فى وجه البشرية.. أنا زنجى.. وأبى زنجى الجد.. أمى زنجية.. أنا اسود.. أسود ولكن حر أمتلك الحرية.. أرضى أفريقية.. عاشت أرضى.. عاشت أفريقيا.. أنا زنجى وأفريقيا لى.. أنا فلاح ولى أرضى التى شربت تربتها من جسدى.. أنا إنسان ولى حريتى.. وهى أغلى ثروة من ولدى.. أنا حر مستقل البلد.. وسأبقى مستقل البلد..

وكتاب أغانى أفريقيا قام بترجمته الشاعر والأديب والسياسى النجيب.. إدريس البنّا نائب رأس الدولة فى عصر الديمقراطية، ولقد ترجمته بكلمات إنجليزية قوية تكاد أن تكون شعراً.. والكتاب يحوى خمس أغنيات شعرية هى : وحين يشيد الظلام وينعس ليل ويصحو نهار.. ويا أخى فى الشرق فى كل سكن.. أنا زنجى.. إلى وجه أبيض.. الطوفان الأسود..

والشاعر محمد مفتاح الفيتورى من قبيلة الفواتير ، وهو من مواليد الجنينة والتى هى جزء من دارفور صاحبة التاريخ العطر، والتى تحتاج إلى تضافر أهل السودان حتى يستعاد مجدها الذى سلبته عوادى الزمن وأطماع البشر وإعتداءات الإنسان على أخيه الإنسان، ويتحدث الفيتورى عن الناس فى أفريقيا والذين هم فى أرض سجينة.. وأيامهم ذكريات طعينة لأرض طعينة.. وأوجههم كآلاف حزينة.. تراها مطأطأة فى سكينة.. محّدقة فى الشفوق فتحسبها مستكينة ولكنها فى حريق.. والأفريقي يخاطب الناس فى الشرق.. فى الأرض.. فى كل وطن..

ويقول: إننى مزقت أكفان الدجى.. إننى هدمت جدران الوهن.. لم أعد مقبرة تحكى البلى.. لم أعد ساقية تبكى الدمن.. لم أعد عبد قيودى.. لم أعد عبد ماض هرم.. عبد وثن.. أنا خالد رغم الردى.. أنا حر رغم قضبان الزمن.. فإستمع لى.. إنما أذن الجيفة صماء الأذن.. إن نكن سرنا على الشوك سنينا.. ولقينا من أذاة ما لقينا.. إن لم نكن بتنا عُراة جائعينا.. أو نكن عشنا حُفاة بائسينا.. أو نكن قد أهوت الفأس قوانا.. فوقفنا نتحدى الساقطينا..

ويمضى الفيتورى هكذا حديثاً عن آلام أفريقيا ، ولكنه يرسم صورة للفجر الصادق الذى أشرق عليها عندما تداعت الظلمة وتساقطت حقولها ورداً.. وتحفر فوق جدار الزمن أغانيها الدامية.. وسوف تستمر أفريقيا فى طريق الأمل الجديد.. والذى أطلبه من الإتحاد الأفريقي مقترحاً إياه أن نقيم المسابقات لفنانى السودان

وأفريقيا لكى يتحول شعر الفيتورى هذا عن أفريقيا إلى أغانى يغنيها أبناء أفريقيا بالعربية والإنجليزية والسواحلية والفرنسية.. فهل سادتى فى الإتحاد الأفريقي ستقرأون إقتراحى ؟..

٤. إزدهار الحياة في بلاد النوبة

قوة ضاربة:عندما فتح عمرو بن العاص مصر ٦٣٩-٦٤١ ومع سقوط السلطة البيزنطية فى الشرق فى مواجهة الهجوم العربى ، وجد النوبيون أنفسهم بجوار قوة ضاربة فى الشمال، ولكن كانوا هم أنفسهم قوة ضاربة إذ لم يتأخر العرب فى محاولة غزو النوبة ، ولكن محاولاتهم لم تتوج بالنصر المبين الذى حصلوا عليه فى أماكن أخرى ، فلقد قاوموا العرب مقاومة صلبة وإشتد عودهم وما يحاربون به من سهام ولهذا إستحقوا لقب « معاقبى التلاميذ» وعلى الرغم من معاودة الجيوش العربية كراً وفراً ووصولهم حتى دنقلا عام ٦٥٢، فإنهم لم يحصلوا على السيطرة على الأرض وبعدها تمت إتفاقية البقت وقد وجدت هذه الكلمة تكتب بالطاء بقط.. ولكن بعض الكتاب يصر على أن يكتبها بالتاء بقت وبها صار خط الشلال الأول هو الخط الحدودى..

ويقولون عن البقط: إنها إتفاقية ثنائية بين ندين متساويين وتشمل نقاط إتفاق تحدد تبادل السلع وبحسبها يقدم النوبيون كل سنة ثلثمائة وستون عبداً مع بعض الحيوانات ويقدم العرب فى مصر مجموعة كاملة من الأغذية والأقمشة من بينها ملابس الملك والتى كان يتقن صناعتها أقباط مصر فيما يسمى بالقباطى نسيجاً مزخرفاً وأقمصة ملوكية وكانت إتفاقية البقط توافق على مرور العرب بالبلاد دون أن يقيموا فيها وأيضا النوبيون يذهبون إلى مصر دون أن يقيموا فيها، ولكن هذا لم ينطبق على النوبيين الذين كان منهم سفراء لبلادهم، والذين تكون منهم الجيش النظامى والبوليس والهجانة، حيث يتمتعون بلياقة بدنية تجعلهم يتقنون ويقدرون على حماية مصر..

وقد فهم النوبة من أول الكلام إن العبيد ليسوا من شباب النوبة ، إنما من الأسرى الذين يأسرونهم فى الحروب، ولكن عندما أصر العرب أحياناً على هذا حدث المزيد من المشاكل داخل بلاد النوبة.. وقد ذكر البقط العديد من الكتاب العرب، كما وجد فى

وثيقة بالعربية مؤرخة فى نوفمبر ٧٥٦ وصادره من قصر بريم، ويذكر المقريزى هذا فى قائمة مفصلة ويشير إلى شرط الإجبار على بناء مسجد فى ساحة العاصمة ولو أن هذا من الممكن أن يشير إلى فترات لاحقة .. ويلاحظ إن المصادر العربية التى وصفت الحملات العسكرية ضد النوبة لم تذكر نوباطيا لآنها كانت قد توحدت مع مملكة المقرة والتى بعد البقط مرت بفترة سلام.. أما علوة وعاصمتها سوبا فقد ظلت بمنأى عن هجمات العرب ومتحررة من شروط البقط..

إزدهار وإقتصاد: وخلال أربعة قرون من القرن السابع حتى القرن الحادى عشر كان العصر الذهبى لبلاد النوبة وكتب العرب والتجار والمراقبين والرحالة عن حيوية المنطقة ، ووصف الأسوانى إنه على بعد سفر يومين بإتجاه شمال دنقلا كان هناك ثلاثون قرية من مبانى جميلة وكنائس وأديرة تزينها الكروم وأشجار النخيل والحدائق والغابات الكثيفة .. وقال الأسوانى: إن ملك علوة أقوى من ملك المقرة ولديه جنود أكثر وجياد أكثر.. وبلاده أكثر خصباً وأشد كثافة..

هذا وقد إعتمد إقتصاد النوبة على الزراعة وتربية الماشية وقامت بلاد النوبة مملكة المقرة على ضفاف نهر النيل حيث الماء والخصب، ومياه الفيضان.. وعندما تكون الأرض عالية تستعمل الساقية التى يجرها ثوران أو حماران مع نير يجمعهما معاً، ويمكن إستعمالها لرى جزء محدد من الأرض.. وعندما قال السيد المسيح: أحملوا نيرى لأن نيرى هين وحملى خفيف.. تحدث المفسرون عن السيد المسيح نفسه يحمل معنا هذا النير ويشاركنا مسئوليتنا ويشجع طريقنا..

وقد كانت عواصم المناطق مزدانة بالكنائس الجميلة ، ففى دنقلا كانت أديرة متعددة لرهبان النوبة، وهكذا إزدانت العواصم بالكنائس والأديرة ونشطت التجارة وحركة النقل بواسطة نهر النيل، وعبر مرفأ على البحر الأحمر.. وظهر من المساكن التى أكتشفت فى التقنيات الآثرية إنها تتسم بهيكل بناء جيد وخطوط مستطيلة من اللبن وبعضها مكون من أكثر من طابق، وطبعاً كانت المبانى بعيدة عن فيضان النيل أو عالية عن منسوبه، وفى قرية مينارتى حيث تزايد الخطورة بسبب الفيضان تطلب البناء إنشاءات تقابل هذا الخطر..

وكان من الممكن أن تكون المبانى من الخشب رغم إنها قليلة ، وكانت مبانى سوبا أكواخاً مستديرة من الخشب بينما إنتشرت لاحقاً الأساسات المستطيلة الخشبية..

ولكن مشاكل الأرضة أو النمل الأسود جعلت كثيرون يتجنبون الأخشاب.. وقد وجدت كميات من الخزف الجيد والآوانى الزجاجية على الأخص فى قصر أبريم ينتجه الجو المتصحر، وبعد النمل الأرضة عن المكان، وقد أستعملت اللغة المروية حتى القرن الخامس الميلادى وبعدها كانت اللغة النوبية والتى كتبت بالحروف القبطية وأستعملت اللغة القبطية فى كنائس النوبة لأن الكنيسة القبطية كانت هى المبشر بالمسيحية والمحافظ عليها..

٥.محمد علي والبحث عن الذهب

وطن الذهب: إن السودان منذ أقدم الآزمان هو وطن الذهب.. وقبل أن يطلق إسم السودان على بلادنا حملت البلاد إسماً هو « النوبة» أى الذهب.. وكانت مصر الفرعونية تستورد الذهب من الممالك الكوشية والمروية القديمة منذ عام ٢٤٠٠ ق.م.. ومثلما كان الفراعنة يحبون الذهب هكذا كان اليهود الذين فى قدس الأقداس، وضعوا مبخرة من ذهب.. وتابوت للعهد كان مغشى من كل جهة بالذهب..وكان فيه قسط من ذهب فيه ذكرى حية للمن.. وعصا هارون التى أفرخت..ولوحى العهد اللذان كتبا بأصبع الله وفيهما الوصايا العشر.. وصعوداً إلى الروحانية تكلم بطرس الرسول عن تزكية الإيمان إنها أثمن من الذهب الفانى.. وإنه كما ينقى الذهب بالنار فإن تزكية الإيمان تمتحن بالنار وتوحد للمدح والكرامة والمجد عند إستعلان يسوع المسيح فى مجيئه الثانى..

والذهب يعد مصدراً إقتصادياً له دوره فى بناء الإقتصاد، وهكذا كان السودان وعلى الأخص بعد ظهور الإسلام عندما أتى العرب إلى السودان بحثاً عن الذهب ووجدوه.. وتركوا ديارهم وعاشوا فى وطن الذهب.. وتصاهروا مع النوبة.. وإشتروا البيوت والأراضى لكى يستقروا فيها وتمكنوا أن ينتشروا فى بلاد النوبة وعلى الأخص فى مناطق الذهب بالبحر الأحمر.. ووجدوا من الذهب تبراً.. ووجدوا فيه سائلاً.. وتعاملوا مع الذهب وأشرفوا على إستخراجه وخدّموا أهل النوبة معهم فى إستخراج الذهب.. وعندما مرت الأيام وجاء محمد على ليحكم مصر فى القرن التاسع عشر إتجه نحو السودان فاتحاً لكى يؤمّن ظهر بلاده ولكى يبحث عن الذهب حتى يتقوى إقتصاده.. فلقد كان ذهب السودان هو الأمل وظل هو الأمل.. وعندما

قال آخرون لمحمد على : إن هذا وهم وأكذوبة لم يصدق قولهم بل إستمر يبحث عن الذهب..

رحلة البحث: لقد نجح محمد على فى الزراعة فى السودان وبدأ إهتمامه بزراعة القطن عندما رأى حنا الطويل يرتدى ثوباً من القطن وسأله: وإستفسر عنه، وعرف منه عن القطن المكاوى.. ونجح محمد على فى زراعة القطن وزرع ما يقرب من إثنى عشر مليون فدان قطناً.. وكان يتابع زراعة القطن بنفسه.. وكان حكام السودان بأنفسهم يشرفون على الزراعة وبرع فى هذا ممتاز باشا الذى سمى نوع من القطن بإسمه.. وهذا الذهب الأبيض قطناً والذى منه سدد إسماعيل باشا بعض ديون قناة السويس، لم يجعل محمد على يكتفى بالذهب الأبيض إنما يبحث عن الذهب الأصفر.. وبذل فى هذا الكثير من المال والرجال.. كما إستعان بالخبرات الأجنبية فى هذا المجال..

وتركز البحث عن الذهب فى السودان فى منطقتين رئيسيتين هما: فازوغلى وجبل شيبون.. وأخذت منطقة فازوغلى الكثير من الإهتمام ، وبعد أن سيطر إسماعيل بن محمد على على سنار قصد فازوغلى فى أول عام ١٨٢٢م ومكث بها ثلاثة عشر يوماً.. ثم مضى بعدها إلى القماميل فى جبال بنى شنقول وكان يرافقه أخصائى وخبير المعادن الذى يدعى « أليود».. وكان أهل المنطقة قد حفروا عدة مناجم للذهب، واخذ إسماعيل من ترابها ما يملأ جوربين وأرسلهما إلى والده الباشا الذى إستحضر خبراء فى مجال التعدين وأرسل الخبراء إلى السودان ليتعاونوا مع إبنه فى الكشف عن الذهب..

ولكن الأحداث تابعت بما يوقف هذا العمل، فلقد أقام حنا الطويل عدة إجراءات ضريبية منفرّة، وتطورت الأحداث إلى قتل إسماعيل محمد على ، وبعدها بدأ صهره الدفتردار فى الإنتقام.. ولم يتوقف محمد على فى البحث عن الذهب، وفى عام ١٨٢٥م كلف بروكى مع درويش أغا ناظر المعادن للبحث عن الذهب فى السودان، وظل بروكى أربع سنوات ولم يصنع شيئاً.. وفى عهد الحكمدار خورشيد باشا ١٨٢٦-١٨٣٨م تزايد الإهتمام بالتنقيب وذهب هو على رأس المنقبين وأرسل عيسى أغا إلى جبال شنقول، ولكن تأخر هذا الوفد بسبب وصول أخبار تزعم بأن الأحباش يديرون مؤامرة للقضاء على سلطة الحكومة فى الجزيرة..

وطلب خورشيد باشا من محمد على أن يرسل إليه ألفى كيس لشراء ذهب، وهذا المبلغ يساوى عشرة آلاف جنيه مصرى ، وقبل الباشا الطلب وأرسل نصف المبلغ.. وعندما أتى عام ١٨٣٧ خرجت بعثة علمية مع علماء وأدوات وجنود بلغوا ألفى عسكرى برئاسة مصطفى بك وإثنان من الأجانب هما روسيجر وبوريانى وذهبوا إلى سنجة ثم « ذنبو» وتوجاتو» وتعرضوا لمشاكل فى جبل سنجة عدا وعورة المكان وصعوبة المناخ.. وإختلفت النتائج عند الأجنبيان ، ولكنها واحدة: إن التبر فى هذه المنطقة ليس إقتصادياً.. وتضاربت التقارير مما جعل محمد على باشا يأتى بنفسه فى ١٥ أكتوبر ١٨٣٨م ومعه أربعة آلاف عامل سودانى للتنقيب.. وكّون الباشا لجنة لبحث الأمر وأقام مدينة عمالية سميت بإسم محمد على.. ولم ينجح محمد على لا فى سنار ولا فى فازوغلى ولا فى كردفان فى الحصول على الذهب.. كان الذهب موجوداً ، ولكن غير إقتصادى، وإستمرت المكاتبات ولكن البحاثة لم يصلوا إلى نتيجة ، وآثروا السلامة وقرروا أن وجود الذهب أصبح أكذوبة.. ولكن لم يكن أكذوبة لأن ما تمّ إكتشافه الآن بواسطة شركة أرياب يؤكد أن السودان لم يزل هو « وطن الذهب»..

٦. اليهود في السودان

الخلفية التاريخية: لقد عاش اليهود فى مصر والسودان والعديد من البلدان.. عاشوا مع الناس فى ود وإحترام.. وكان يهود السودان مواطنون سودانيون يعملون فى التجارة ويعيشون فى وفرة العيش الرخى.. وكانوا موضع إحترام الجميع، فالمسيحية تحترمهم والإسلام يقدرهم.. المسيحية تضع كتبهم وشرائعهم داخل الكتاب المقدس والذى يشتمل على العهد القديم والعهد الجديد.. والعهد القديم يحمل قصة اليهود منذ أن بدأوا بيعقوب الأب الأكبر لهم، والذى هو نفسه إسرائيل، والذى قدم إلى مصر أيام المجاعة عندما كان يوسف إبنه يدير إقتصاد مصر كلها، وكان عدد القادمين سبعون نفساً.. وعاشوا فى مصر وتمتعوا بخيراتها ولكن مع مرور الأيام بدأت مخاوف فرعون من تزايد هذا الشعب، وهنا بدأت المضايقات والسُخرة والمعاملة الرديئة ومحاولة قتل الأجنة من الذكور..

ولكن يبدو أن هذا الغضب والإضطهاد كان من قبل الحاكم فقط.. أما على مستوى

الشعب المصرى فقد كان الناس يتعايشون ويتوادون والدليل على هذا أن أبناء يعقوب عندما خرجوا حملوا معهم ثروة من الذهب والفضة والثياب طلبوها من المصريين وحملوها معهم، وأعطى الرب نعمة للشعب فى أعين شعب مصر حتى أخذوا معهم ما أخذوا فى آخر لحظات الخروج من مصر.. لقد مكثوا فى مصر منذ الدخول أيام يوسف حتى الخروج بقيادة موسى أربعمائة وثلاثون عاماً.. وعندما دخلوا مصر كانوا سبعون شخصاً، وعندما خرجوا كان الرجال فقط ستمائة ألف عدا النساء والأطفال، وقد قُدّر العدد كله بأنهم مليونان من اليهود.. لقد رحلوا إلى فلسطين الأرض التى تفيض لبناً وعسلاً.. وبعد هذا لم تنقطع علاقة اليهود بمصر..

ويذكر التاريخ إنهم سكنوا جزيرة فيلة العظيمة التى طمرتها مياه السد العالى، وإنه كان عددهم فقط فى هذه الجزيرة فى آوائل القرن الأول الميلادى عدد كبير قدّره البعض بمليونين، وإن كان هذا رقم مبالغ فيه فإن اليهود عاشوا فى فيلة بأسوان ومن هناك نشأت بينهم وبين أهل السودان علاقة تبادل تجارى لأن السودان كان يأخذ كل ما يحتاجه من أسوان ولا شك إن تجار السودان القديم نوبة ونبتة ومروى وكوش كانوا على علاقة طيبة مع اليهود..

وعاش اليهود فى آمن وأمان فى مصر والسودان بعد دخول الإسلام، فلقد كان فى قصور الحكام من خلفاء المسلمين وزراء يهود لهم مكانتهم وإحترامهم، ونذكر منهم: يعقوب بن كلّس وصديقه اليهودى موسى، وكيف أن هذان اليهوديان حاولا أن يصنعا مشكلة ويحكما مأزقاً ضد الأقباط، وعندما طالبوا المعز لدين الله أن يطلب من بطريرك الأقباط نقل جبل المقطم تنفيذاً لآية الكتاب المقدس « من له إيمان مثل حبة الخردل يقول لهذا الجبل إنتقل فينتقل».. وقد كان.. وشهد المعز لدين الله الأقباط بطريركاً وشعباً وهم يرفعون قلوبهم إلى الله حتى تحرك الجبل وخاف الخليفة على مصر كلها وأعطى الآمان للبابا وتوقفت حركة الجبل.. ولم يكن الإسلام ضد اليهود إطلاقاً لأن القرآن الكريم يمتلىء بأجمل القصص عن أنبياء اليهود مثل إدريس ويونس وموسى ويعقوب والأسباط الإثنى عشر.. ولم يتهم المسلمون التوراة بالتحريف إنما إتهموا المفسرين بلى الكلام واللى يعنى الإنحراف فى التفسير وتحميل الكلام أكثر من معناه..

اليهود فى السودان: وعاش اليهود فى السودان وكانت لهم مكانتهم وأحبوا السودان وطناً هادئاً جميلاً.. وأحبوا كل أبناء السودان شركاء لهم فى الوطنية.. وكان من الممكن أن يظلوا فى السودان إلى أبد الآبدين لولا قيام الحركة الصهيونية التى ألهبت مشاعر اليهود وقدمت لهم حلم العودة إلى الأرض التى تفيض لبناً وعسلاً..

وهنا أذكر مرجعاً وحيداً بين يدى هو كتاب « اليهود فى السودان» قراءة فى كتاب الياهو سولومون مَلكا، أطفال يعقوب فى بقعة المهدى للكاتب والأديب السودانى مكى أبو قرجه مركز عبد الكريم ميرغنى ٢٠٠٤م.. وإعجابى شديد بالكاتب الأديب مكى وبتناوله لمواضيع مهمة فى مسيرة السودان الوطن ومقالاته متعددة فى الجرائد العربية والسودانية.. وكنت أريد أن أقترح أن يغير لفظة أطفال يعقوب إلى أبناء يعقوب، لأن أبناء أشمل وأقيم ولأن الكلمة فى الإنجليزية تحتمل أن تكون أبناء أو أولاد وليس أطفال.. ولكنه أيضا مشكور كونه يتحدث عنهم كأطفال لأن الأطفال يتمتعون بالبراءة وشدة الإيمان حتى أن السيد المسيح قال: إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات..

وأعتقد إنه مع ثقافة الكراهية التى تتجه نحو اليهود اليوم فإن أبو قرجة سوف يرفض هذا الإجتهاد منى.. ويبدأ الكتاب بمقدمة عنوانها» وقفة الشاعر الثائر فى وجه السلطان الجائر» ويذكر حديثاً بين الرئيس الأسبق جعفر نميرى وأنيس منصور جاء فى العدد الأول من مجلة أكتوبر، وفيه قال نميرى: إن اليهود هم الذين جاءوا بالشيوعية إلى السودان وإن الشفيع أصهاره من اليهود.. وقد أغضب هذا السفير السودانى بالجزائر صلاح أحمد إبراهيم وإضطره هذا إلى أن يترك السفارة عام ١٩٧٤م ويختار باريس منفى إختيارياً له حتى أدركته المنية عام ١٩٩٣م..

والسفير الشاعر كتب رسالة غاضبة إلى النميرى وحمّله فيها مسئولية محاكمة المدنيين أمام المحاكم العسكرية والتى راح ضحيتها الشفيع أحمد الشيخ رئيس نقابة العمال وعبد الخالق محجوب، وجوزيف قرنق ، ضحايا رعب أعمى عمى الزعيم عن رؤية الحق الصريح.. وعندما نعود إلى أبناء يعقوب فى بقعة المهدى سوف نجد الكثير والمثير والذى يؤكد أن السودان هو وطن الأديان .. كل الأديان..

٧- التعليم الدينى في السودان

الخلاوى والكتاتيب: رغم أن نسبة الأمية بين أجدادنا الأول كانت عالية جداً، ولكن إهتمامهم بالتعليم كان أرفع وأعلى من نسبة الأمية بينهم.. وساد فى ثقافتنا ما يؤكد أهمية التعليم مثل المثل القائل: علموهم ولا تورثوهم، لأن الميراث يفنى وما يعمله الجدود يفنيه القرود من أبنائهم.. وعندما تكون الثروة كبيرة فى يد جاهل فإن مصيرها إلى الفناء، ولذلك كانت أهمية التعليم معرفة وقراءة وكتابة.. فلقد وصف غير المتعلم بأنه لا يعرف يمينه من يساره وإنه لا يعرف الألف من كوز الذرة.. وبدا التعليم منذ القدم فى رحاب الدين المعابد والكنائس والجوامع..

وكان التعليم الأول هو التعليم الدينى لكى يكون الجميع متعلمين من الله.. يحفظ المسيحى مزامير السواعى حيث يصلى سبع مرات فى اليوم ويحفظ المسلم القرآن الكريم.. وكثيراً ما كان المسيحى يدرس فى الكتّاب على يدى مرتل القرآن الكريم، وهنا يتخرج المسيحى ولديه ثقافة إسلامية تكون زاداً له فى رحلة حياته.. وأذكر إننى فى طفولتى تعلمت فى الكتاب وحفظت أغلب نصوص القرآن الكريم.. وفى كل خميس كنت أحضر خميسى وهو مبلغ زهيد يأخذه مولانا كمصاريف دراسية..

وأذكر أيضا أن مولانا كان يرسم لكل الزملاء رسومات بالحبر على أجسادهم حتى فى الإجازة لا يذهبون للعوم فى ماء النيل خوفاً على حياتهم، وقد إستثنانى مولانا من هذا لأنه كان متأكداً من سلوكى ومن طاعتى لوصاياه.. ولقد بدأت الكتاتيب فى السودان بجوار الكنائس منذ أمد طويل، ويذكر القبطى الكردفانى يوسف ميخائيل الأمير والمقدم فى مذكراته ما كان يحدث له من المعلم الكفيف فى الكتاب والضربات التى كان يوجهها إليه على قدمه عن طريق الفلكة وعلى يده.. وكيف إنه تضايق جداً واوقف الذهاب إلى الكتاب فضربه أخوه الأكبر وأعاده مرة ثانية إلى الكتاب وقال له: إن لم تتعلم سوف تكون « هايف».. وهنا وبخه المعلم وقال له: لا ترفض التعليم لئلا تطلع هايف.. خليك شاطر وإتعلم..

وحكى يوسف ميخائيل كيف كانوا يهربون من الكتاب ويلعبون ويملأون جيوبهم بالبلح والفول ويأكلون.. وكانوا عندما ينام المعلم يحضرون تراباً من الجبّانة ويذرونه حوله لكى يثقل فى النوم، وعندما كان المعلم يغيب كأن اليوم عيد بسبب شدة قسوته.. وعندما مات هذا المعلم جاء آخر إليهم إسمه العريف سعد وإستلم

زمام الكتاب، وكانوا يسخرون به وطلبوا منه إذناً إستقبال غوردون باشا، ولما رفض رموا الألواح وقبضوا على المعلم وتدخل أحد الكبار وطلب من المعلم أن يعطيهم إذناً لكى يروا الحكمدار غوردون باشا.. كان هذا تقريباً فى عام ١٨٤٥م.. وهذا يعنى إن الكنائس القبطية كان بها كتاتيب بجوار كل كنيسة لتعليم القراءة والكتابة وحفظ المزامير..

محمد على: ولقد إهتم محمد على بالتعليم فى السودان ولكن على ضوء حاجات البلاد الجديدة ، وهو أيضاً لم يتدخل فى مسار التعليم بالسودان مثلما حدث فى مصر ، إنما راح يساند القائمين على التعليم الدينى فى الخلاوى، وعندما طلب قاضى الشرع والعلماء بدنقلة من محمد على إنشاء جامع تقام فيه الشعائر الدينية بالإضافة إلى مدرسة لتعليم القرآن الكريم للأطفال كتب إلى مأمور دنقلة قائلاً: نطلب منكم أن تعملوا على إنشاء الجامع وإقامة المدرسة إلى جانبه.. وعندما زار محمد على السودان إجتمع بالقضاة والعلماء وأنعم عليهم بالخلع الفاخرة تقديراً لدورهم فى التعليم كما وافق على إقتراح الحكمدار بتجديد احد الجوامع وبناء عشر حجرات لسكن الفقراء وتكلف ذلك نحو ثمانية آلاف قرشاً.. ووافق الباشا على منح أهل السودان بعثات للدراسة فى الأزهر الشريف، ووافق على رواق السنارية فى الأزهر عام ١٨٤٦م كطلب سبعة طلاب سودانيين فى الأزهر..

وقد إنتقد محمد على بسبب إهتمامه بالتعليم الدينى فى السودان بأنه يرغب فى زيادة نفوذ العلماء الذين كانوا يوافقون على آرائه ويسبحون بحمده.. ولكن محمد على لم يتدخل فى مناهج التعليم الدينى وإكتفى بالإشراف الفنى ، ولكنه كان يستبعد كبار السن حتى تكون الفرصة للصغار، لأن التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر.. وإهتم أبناء محمد على نفس الإهتمام وكانوا يجلون ويحترمون علماء السودان ، وتطور التعليم الدينى، وحظى الفقهاء بالأعفاء من الضرائب وتقديم الأراضى الزراعية دعماً لهم وبدون مقابل.. وحاول سعيد باشا أن ينظم الأمر ورفض أن يكون هناك دعاة لتدريس الدين يتمتعون بالمزايا دون أن يعلموا الناس، وكانت بعض المدارس تختار مواعيد من الرابعة إلى السادسة صباحاً ومن السابعة حتى التاسعة لكى لا يتعارض هذا مع العمل..

٨. أول إنطلاقة لأطباء السودان

أطباء حكماء: عُرف الطبيب منذ القدم بأنه الحكيم وذلك لأن الطبيب كان بجوار معرفته للطب يفهم كثيراً فى الفلسفة.. والفيلسوف كلمة يونانية من مقطعين : فيلو تعنى المحب وصوفى تعنى الحكمة.. وكان الأطباء والصيادلة عنوانهم « رأس الحكمة مخافة الرب».. وحتى الآن وفى بعض البلدان يقول الشخص: أنا ذاهب إلى الحكيم أى الطبيب.. وعندما لم يوفق أصدقاء أيوب فى التخفيف عن أحزانه قال لهم: أطباء بطالون كلكم.. وقد كان القديس لوقا كاتب إنجيل لوقا طبيباً حكيماً.. وكانت له أوصاف طبية دقيقة لمعجزات الشفاء، فلقد عبر عن شفاء الأعرج الذى كان يستعطى على باب الهيكل الذى يقال له الجميل.. وعندما قال له بطرس: بإسم يسوع الناصرى قم وأمشى وأمسكه بيده اليمنى .. ففى الحال تشددت رجلاه وكعباه ووقف وصار يمشى (أعمال ٣)..

وعند الحديث عن نازفة الدم قال مرقس البشير : إن هذه المرأة قد تألمت كثيراً من أطباء كثيرين وأنفقت كل ما عندها ولم تنتفع شيئاً بل صارت إلى حال أردأ (مرقس ٥).. ولكن لوقا لم يتكلم هكذا عن الطب والأطباء بل قال: إنها تنزف دماً منذ إثنى عشر سنة وقد أنفقت كل معيشتها على الأطباء ولم تقدر أن تشفى من أحد (لوقا ٨).. هذه المرأة عندما إلتقت بالسيد المسيح ولمست هدب ثوبه نالت الشفاء..

ويقول الأدب الإسلامى : إن معجزة المسيح له المجد هى معجزة طب وشفاء..

أول إنطلاق: وعرف السودان الأطباء منذ الأيام القديمة ولم تكن فى السودان كله كلية طب واحدة.. وقد بدأ هذا عام ١٩٢٣م عندما أراد الإنجليز تخليد ذكرى كتشنر فأقاموا أول كلية للطب فى السودان وعُرفت بإسمه.. وقد بدأت بجمع تبرعات من كرام الإنجليز.. ثم من السودان حيث تألق المواطن أحمد هاشم البغدادى وقدم ربع ما يمتلك وقفاً لكلية الطب..

وحتى الآن تتمتع جامعة الخرطوم بهذا الوقف الهائل وحاول تجمع الخريجين أن يساهم بشىء ما لأنهم أجدر طبقات الشعب كلها بإحتضان المشروع وفكروا فى إقامة مسرحية صلاح الدين الأيوبى ليس لجمع التبرعات فقط إنما أيضا لنشر الوعى الحضارى، وأقيمت المسرحية فى أمسية نادرة ليوم الخميس ٢٧ أكتوبر

١٩٢١م .. وإكتظ نادى الخريجين بالحاضرين وشهدوا طه صالح فى دور صلاح الدين الأيوبى ، وروفائيل إيلياس فى دور ملك فرنسا.. وما بين الفصول كان الشعر يصول ويجول..

إن كنت فى الجيش أدعى صاحب العلم....

فإننى فــى هواكــم صاحــب الألـــم...

ثم أعيدت التمثيلية مرة ثانية وكان البطل صديق فريد الذى كان يتكلم بقوة وصرامة ويقول :

إن لم أصُن بمهنـــــدى ويمينـــــى..

مُلكى، فلست إذن صلاح الديـــــــن..

وبعد هذا قام نادى الخريجين بتمثيل رواية « عطيل» لشكسبير، وكل هذا كان يصب فى إنشاء مدرسة الطب ويقول حسن نجيله: إنه من حُسن طالع البلاد أن بدأ التفكير فى إنشاء مدرسة الطب قبل ثورة ١٩٢٤م.. والتى قرر الإنجليز بعدها وضع حصار على التعليم حيث حرم السودان ولمدة عشرة أعوام من كل مدرسة تعلم، وأغلقوا المدرسة الحربية ، وأغلقوا مدرسة العرفاء التى كانت تخرج أساتذة المرحلة الإبتدائية.. ويسمى المعلم عريفاً.. وعريف هذا هو لقب معلم الكنيسة والذى كان على الأغلب كفيفاً..

وقرر الإنجليز عدم زيادة المدارس الإبتدائية ولا يضاف تلميذ واحد فوق المقرر، ولكن الحمدلله مرت السنوات الأربع وفى نهاية عام ١٩٢٧ تمّ تخريج أول فوج من أطباء السودان وكانوا سبعة أطباء تألق بينهم :على بدرى ، وأمين السيد، والفاضل بشرى، والقبطى داؤد إسكندر، وأحمد عكاشة، والطاهر يوسف، والنور شمس الدين.. وكانت المطالبة شعراً برقى البلاد من خلال الأطباء والمحامين وقال الشاعر على البنّا :

لنا بالطــب جهـــــل أى جهـــــل..

وإن الجهـــل مــــن شعــب ممـــات..

وكيف يجـــوز قصـــب السبـــق قطـــر..

جفـــاه مــع المحاميـــن الإســـــاة..؟

أما الشاعر عبد الله عبد الرحمن فقد أشاد بهذه المناسبة السعيدة فى قصيدة خفيفة الظل، طالب فيها الأطباء بالإبتسام، وأن يمزجوا الضحك السعيد بالدواء حتى يأتى فعله فى القناة الهضمية.. وهناك أيام صعبة كصبغة اليود، ولكن علاجها وصفة طبية.. وطالب الأطباء بعدم الإبتزاز المالى من المرضى حتى يكون الطبيب مريحاً وقال :

مهنــة الطـــب مالهـــا من مثيـــل ..

هى إحـــدى الوظائـــف العلويـــــة..

راجعـــوا كتبـــه ولا تهملوهــــا..

ولتحيلوا علـــى الزمـــان رقيـــة..

وأبسموا للعليـل فـى كـل وقـــت..

فإبتسام الطبيـــب يحيـى الشهيـــة..

قد يضـــر الطبيـب مهمـا تعالـــى..

شهـــرة بإبتـــزازه الماليـــــة..

ليـس جسـم المريض ياقـــوم حقـلا..

فيـــه تجـــرى تجـارب وقتيـــة..

عمـرك اللـــه هل سمعـــت بأحلـــى..

موقعـاً كالنجـــاح فـــى العمليـــة..

ويشهدون أن هؤلاء الأطباء أدوا واجبهم أروع آداء وكانوا يخفّون لعلاج المرضى فى منازلهم ويرفضون أى أجر على ما فعلوا.. والحمد لله فإن الأطباء من زمان وحتى الآن ملتزمون بالإنسانية والعطاء..

٩. أول نهضة تربوية سودانية

العملية التربوية: تُعد التربية عملية نفسية ضرورية.. وقبل أن توجد المدارس والجامعات كان البيت هو مهد التربية.. فلقد ذكر إنجيل لوقا : إن السيد المسيح جاء إلى الناصرة حيث كان قد تربى.. وكانت العملية التربوية قد أخذت لها على مر الحياة طرقاً متعددة.. وكان كبار القوم يحضرون مربين ومربيات، وكان المُربى يتفوق علماً على الآخرين.. فلقد كان أرسانيوس فيلسوفاً ومعلماً لأولاد الملوك ثم ترك العالم وعاش للرب مع رهبان البرية.. ويقول سليمان الحكيم: رب الولد فى طريقه متى شاخ لا يحيد عنه.. أدب إبنك لأن فيه رجاء..وأما الذين يؤدبون فينعمون وبركة خير تأتى عليهم..

ويوصى بولس الرسول الآباء: أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم بل ربوهم بتأديب الرب وإنذاره.. ويقول الحكيم: ياإبنى لا تحتقر تأديب الرب ولا تكره توبيخه لأن الذى يحبه الرب يؤدبه وكأب بإبن يسُر به..وكانت صفات المرأة الخادمة ولم تزل أن يكون مشهوداً لها إنها قد ربت الأولاد وأضافت الغرباء، غسلت أرجل القديسين، ساعدت المتضايقين، إتبعت كل عمل صالح.. وقد بدأت العملية التربوية بجوار هياكل الآلهة.. وفى داخل الكنائس كتاتيب وفى المساجد خلاوى.. وكان التعليم دينياً كله وبعد هذا صار لزاماً أن يفتح الذهن لعلوم الدنيا والتى كان التفوق فيها عند الإنسان رصيداً يرثه الأبناء عن الآباء..

المجتمع الجديد: وفى السودان كانت الخلاوى كثيرة والمدارس الإبتدائية قليلة جداً، وبدأ الخريجون طبقة مثقفة حفنة قليلة يعملون فى دأب وصبر لمواصلة رسالة التعليم رغم أن الإستعمار وضع أمامهم حجراً كؤوداً عندما قال عنهم: إنهم حكومة الأفندية، وأخذ المستعمر يسجل لهم كل حركة وسكنة.. كل همسة وشبهة.. ويعلنونها ضدهم حرباً عوانا.. ولكن أهلنا صمدوا.. وبدأوا يتحركون..

وكما يضيف حسن نجيله فى» ملامح من المجتمع السودانى» ، فإن جمعية التمثيل حملت مسئولية بناء جيل جديد وأعلنت عن مسابقات لبناء هذا المجتمع واحدة للمدرسين وأخرى للمهندسين وثالثة للقضاة ورابعة لذوى الثقافة العامة.. وكانت أولى المسابقات عن « تربية الطفل «.. وفى يوم الخميس ١١ رمضان

مارس ١٩٢٦م أعلن رئيس النادى السيد حسين شريف عن الفائز بالجائزة الأولى وهو الأستاذ عبد الرحمن على طه المدرس بمدرسة أم درمان الإبتدائية والذى صار فيما بعد مسئولا عن معهد بخت الرضا ، وأعطيت الفرصة له لكى يقدم بحثه عن تربية الطفل.. وقال : إنه يعتمد فى بحثه على تجاربه مع أبناء السودان، وإنه ليس غرضه أن يستخلص شيئاً من حديث « ملتون» أو ما رآه « سبنسر» أو إبن المقنع أو أفلاطون، ولكنه يستفيد بما شاهده فى المجتمع من معاملة الناس لأطفالهم حتى ينجبوا ما قبح ويعتمدوا الطريقة القديمة .. ويذكر الناس بما جهلوه أو أهملوه حتى يسلم الطفل من جراثيم تلك التربية العقيمة..

ويتحدث الفائز بالجائزة قبل أن يتسلمها عن أهداف التربية وواجبات الوالدين ، وإنتقد عادة الزواج المبكر، والذى كان يبدأ عند الذكور من الرابعة عشر.. وقال: إن هذا مضر جداً بالنسل حيث يولد الطفل عرضة للأمراض.. ثم كان الحديث عن المرأة الحبلى والرياضة لأن المرأة الحبلى عندنا لا تزاول عملا ولا تريض جسماً مطلقاً ولا تعنى بغذائها، بل تظل نائمة على الفراش كل يومها.. وهى تجهل تمام الجهل إن نمو الجنين فى هذا الدور يتوقف على حركتها وحُسن غذائها، وإن الرياضة البدنية ولو قليلا كل يوم تؤثر فى دورتها فيستفيد الجنين كثيراً من جراء ذلك ، ويهاجم الأستاذ بعض الأغانى الشائعة التى تدفع المرأة إلى الخمول والكسل بدعوى أن فى ذلك أنوثة وجمالا..

وذكر بيتاً يقول: خلى شوف تومتى الهلوعا.. تشتكى العتبة الطلوعا.. وهذا يعنى إن المرأة ترفض أن تخطى عتبة الباب وهذا تعطل للجسم.. وأين هذه المرأة من النساء اللواتى يمتطين الجياد.. ويخترقن طبقات الجو على الطائرات ويسبحن تحت الماء بالغواصات ويأتين من الأعمال ما تندهشن منه الرجال.. ويستمر الأستاذ الفائز وهو يستحق الفوز فى شرح العديد من النظريات التربوية، وقد جعلها واقعاً معاشاً فى البيئة السودانية.. ويقول: إنه يرغب فى ان يرفع مستوى المرأة ويوجهها إلى حياة أفضل.. ويذكر إنه قدم أبياتاً من شعر لأحد أصدقائه الذى يعمل فى الحقل الغنائى حتى تكون الأغانى دافعاً لمزيد من الأمانى نحو تربية صالحة

سليمة.. وفى بعض أبيات قال :

ماذا تفيـــد لبــنى وسعـــــاد....

إن لــم تكـــن ذات إقتصـــاد....

فــى المعايـــش ذات ســـداد....

وإحتفاظـــــأ بالــــــــوداد....

ماذا يفيـــد مـوت الخـــدود ؟...

والمـــوت وراء شكـــل النهــود....

وصغارنـــــا أفـــلاذ الكبـــود....

لا عنايـــة بينهـــم فى الوجــود....

إن شئتمــــوا سُبـــل الرشـــاد...

كفـــوا سهـــام الإنقيـــاد....

ودعـوا التعصـــب والعنـــاد....

ربـــوا البـــنات ترقى البـــلاد....

وقد أفاض عبد الرحمن على طه فى محاضرته التربوية القيمة وطالب طلبة مدرسة الطب أن يقدموا محاضرات عامة عن العادات الضارة.. وتكلم عن أثر البيئة فى تربية الطفل، وإستلم الهدية والتى كانت ساعة جيب ذهبية.. وأعتقد إن بحثه الشيق يصلح أن يكون خطة عمل للتربية والتعليم الآن..

١٠. إسماعيل الأزهرى وبئر دنقلا

بئر دنقلا: يحكى الأستاذ حسن نجيله فى كتابه « ملامح من المجتمع السودانى» عن حدث تناقلته الصحف وشغل الرأى العام ، نشرته جريدة الحضارة يوم ٢٦ مايو ١٩٢١ تحت عنوان « بئر غريبة» جاء فيه « جاءنا من مكاتبنا من دنقلا ما يلى: فى آواخر شهر أبريل الماضى نزل أحد الأهلين داخل بئر مهجورة لحاجة فيها فغاب مدة إستدعت أخاه ليكشف خبره ، ولكن هذا الثانى لم يخرج أيضا فتبعها ثالث فرابع فخامس فسادس.. والكل لم يخرجوا، ولما نزل السابع خرج بثلاث جثث ونزل بعده الثامن إلا إنه لم يخرج كما خرج سابقه، وفى الآخر تدلى إبن شيخ البلد لكى يطلع على حقيقة أمرهم، ولكنه ذهب أيضا مذهبهم ولم يخرج، وحينئذ كان الخبر قد بلغ مركز الخندق فحضر الملازم ثانى حمزة أفندى عبد الرحمن فأنزل فى البئر كلباً بقصد التجربة فيه أولا وبعد قليل أخرج الكلب بواسطة الحبل الذى أدلى به فوجده ميتاً فأتبعه كلباً ثانياً فكذلك خرج ميتاً ثم أنزل فانوساً ولكنه خرج منطفئاً.. فما قولكم فى هذه البئر الغريبة ؟.. وقد شاع عن هذه البئر إنها مسكونة بالشياطين وإن الجن قد قضوا على هؤلاء الذين إقتحموا مسكنهم، وهذا طبعاً فكر غير علمى ولا يوافق الدين الذى يرفض مثل هذا الكلام..

إسماعيل الأزهرى: لقد قال الناس عن البئر إنها فيها س من الشيطان، بل يسكنها الشيطان، ولكن رسالة جاءت من طالب بكلية غوردون تقول : سيدى رئيس تحرير الحضارة.. بين أعمدة العدد ٤٤ الصادر بتاريخ ٢٦ مايو رسالة من مكاتبكم بدنقلا بعنوان « بئر غريبة» خلاصتها..... وأورد التلميذ الخلاصة ثم إستطرد يقول : كأنى ببعض القوم يذهبون فى السبب لتلك الخرافة بان البئر مسكونة نفر من الجن تجرى على أيديهم تلك الأفاعيل الغريبة، وما زالت هذه الخرافة فى أدمغة المتهوسين.. أقول لهم: إن السبب هو إختناق أولئك المساكين بحامض الكاربونيك وهو غاز لا يخل منه مكان.. وجميع الكائنات تنفثه بحركة الزفير فى الهواء بنسبة أربعة أجزاء منه إلى عشرة آلاف جزء من الهواء وهو ينتج من إحتراق أى جسم يشمل على الكربون ، وهو غاز لا لون له ولا طعم ولا رائحة ولا يساعد على إحتراق..

وإذا تواجد مع الهواء فى مكان رسب إلى أسفل.. وهناك طرق شتى للحصول

عليه ويستعمل فى أغراض مخصوصة.. وإذا وضع حيوان فى حوض من ذلك الغاز تتضايق أنفاسه ثم تقف حركته ويعقب ذلك الموت.. كذلك إذا وضع فى نفس الحوض مصباح أو شمعة متقدة فإنها تنطفىء لإحتياجها كالإنسان إلى الأوكسجين الذى يساعد على الإحتراق.. وكثيراً ما يوجد غاز حامض الكربونيك فى الآبار المهجورة ، وهو ليس ساماً وإنما يحصل منه الإختناق لعدم وجود الهواء اللازم للتنفس داخل طبقاته المتكاثفة فى قاع البئر، فقبل الدخول فى تلك الآبار المهجورة يجب إنزال مصباح أو شمعة متقدة للتحقق من وجوده أو عدمه كما صنع حضرة الملازم ثانى حمزة افندى عبد الرحمن على ما جاء بتلك الرسالة، فإذا إستمرت الشمعة متقدة دل على عدم وجوده ، وإذا إنطفأت كان ذلك دليلا على وجوده.. ولإزالته يصب قليل من محلول الجير فى البئر ثم تنزل الشمعة المتقدة ، وإذا إنطفأت صبّ المحلول مرة أخرى وتنزل الشمعة مرة ثانية، وهكذا حتى ينظف من ذلك الغاز ثم تستخرج جثث المساكين..

وهذه الرسالة موقعة بتوقيع: إسماعيل الأزهرى طالب بكلية غوردون.. وهناك من تأمل فى الشجاعة الخارقة للرجال الذين ماتوا وهم يحاولون إنقاذ زملائهم.. ولكن الحل الذى قدمه الطالب إسماعيل الأزهرى يؤكد إنه كان يعتمد الحلول العلمية، وكان فى نضوج مبكر، ولقد صار الغاز الذى يخنق الهواء هو الإستعمار، وقد أشعل الأزهرى شمعة هى حياته لكى يبدد آثار الإستعمار ويعلن إستقلال السودان، ويطهر آبار الخير فيها، ويرفع عليها علم الحرية خفاقاً، ويموت هو داخل السجن بعد أن أشعل الحرية نوراً وناراً وأشرق بالإستقلال على وطن كبير لن ينسى مآثره الجميلة وفضائله النبيلة..

ونحن ما زلنا نحارب الشيطان الذى يحاول جاهداً أن يخنق كلمة الله فينا ويدركنا الموت الروحى وبعده الموت الثانى..

١١ ـ تاريخ السودان القديم

إبراهيم بكر: يُعد كتاب الدكتور محمد إبراهيم بكر وعنوانه« تاريخ السودان القديم» من أكثر الكتب دقة فى البحث العلمى التاريخى، وناشر الكتاب مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٨م، وهو أستاذ فى الجامعات لمادة آثار وتاريخ السودان، ويهدى

الكتاب إلى الشعب السودانى، ويرى أن المواطن السودانى هو الوحيد الذى يقدر أن يتذوق حضارته تذوقاً سليماً، وهو أيضا عنده الإحساس بالتراث والتفهم الصادق لتراثنا القديم ، وهو يرى أن المكتبة العربية خالية من كتاب فى قامة كتابه، ويرى أيضا إن العصر الحديث لا يتحمل ما كتب ونسب إلى الدراسات القديمة..

كما يؤكد إن دراسة التاريخ القديم لأمة من الأمم من واقع آثارها لهى المدخل الطبيعى لتفهم حاضر شعبها، فلاشك أن كيان كل ما فيه شىء ما من تراث آلاف السنين من الحضارة التى إبتدعها فكر وعمل أجدادنا القدماء، ومحال أن تنطفىء كل تلك الأضواء وتصمت تلك الحياة دون أن تخلف وراءها جذوة أو رجعاً لصدى تلك الأيام فى ضمير أحفاد آولئك القدماء خلفاء تلك الحضارة.. والحمد لله فإن عالم اليوم أخذ يتبين أبعاد الدور الذى يمثله تاريخ السودان القديم بالنسبة لتاريخ الحضارة الإنسانية عموماً بعدما توالت أعمال الحفر على يد رجال الآثار فى مناطق مختلفة من السودان وعلى الأخص فى شمال البلاد وقبل أن تغمر بحيرة السد العالى كثيراً من المناطق الآثرية الهامة..

وقد طبع الكتاب قبل تنفيذ سد مروى والذى تم إكتشاف آثار هائلة وعظيمة فيه قبل أن تغمر المياه هذه المنطقة، وفى إعتقادى إن المكان الذى يحتاج إلى إستخراج كنوزه الآثرية من باطن الأرض هو منطقة مملكة سوبا، ولكن يبدو إننا فى إنتظار إقامة سد فى هذه المنطقة حتى يأتى علماء الآثار ويخرجون كنوزنا من باطن الأرض ليس من تحت الرمال كما حدث فى حلفا ومروى، لأن حضارة سوبا كانت تدفن الموتى فى حفرة عميقة فى باطن الأرض، وهذا غير ما كان يحدث فى المناطق الأخرى، وأريد ان أقدم دعوة للمتحف القومى السودانى حتى يشرف على حملة للتنقيب عن الآثار فى منطقة سوبا قبل أن تتحول إلى منطقة سكنية يصعب العمل فيها، وتختفى كنوز حضارتنا ويخبو نورها الذى أضاء على المنطقة، ومنها خرجت الحضارة إلى كل بلاد المسكونة..

ونعود إلى دكتور بكر لنراه منفعلا منذ الصفحة الأولى بحضارة السودان القديم مستنكراً تطاول البعض على كتابه، وهذا البعض ينقصه الدراية باللغات القديمة والآثار، ويرى أنه لا يمكن لدارس واحد أن يلم إلماماً بكل هذا التاريخ المجيد خاصة وإن زماننا هو زمن التخصص بكل ما تعنى الكلمة من دقة فى البحث، وإستخلاص

للنتائج، وإنه هو نفسه من منطلق مجال التخصص الدقيق والجاد يقدم كتابه إلى المكتبة العربية، ولكنه من ناحية أخرى يقول: إن كتابه ليس من أجل الدارس المتخصص وحده وإنما لكل قارىء مثقف يسعى إلى المعرفة من مصادرها الأصلية ، وبهذا وسع دائرة الكتاب لتشمل كثيرين من بينهم كاتب هذا المقال والذى هو شغوف بتاريخ السودان ومؤمن بأن الحضارة بدأت من عندنا من كوش العظيم بن حام الشقيق الأكبر لمصرايم أبو المصريين..

النوبة وكوش: ويرى الدكتور إبراهيم بكر أن إسم النوبة إسم حديث إذا ما قورن بإسم كوش، ويعتقد إن منطقة النوبة الممتدة من جنوب أسوان شمالا حتى جزيرة تنقستى إلى الجنوب من دنقلة العجوز جنوباً لم تحمل هذا الإسم إلا منذ القرن الثالث الميلادى تقريباً عندما إستقرت الهجرات النوبية من حول النيل فى تلك المنطقة، وهو يرى من ناحية أخرى إنه فى الزمن القديم أطلق إسم الواوات على المنطقة الممتدة من أسوان شمالا حتى الشلال الثانى عند وادى حلفا، أما المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الشلال الثانى وتمتد جنوباً فسميت كوش، ثم أصبح كوش يطلق على المنطقتين معاً، وعرفت به المنطقة بين غيرها من بلاد العالم القديم فصارت المملكة التى تضم واوات وكوش تسمى بلاد كوش أو مملكة كوش..

ولكن المؤرخين رغبة منهم فى تبسيط الأمور أنشأوا تقسيماً آخر لمملكة كوش، فعندما كانت عاصمة تلك الدولة فى مدينة نبتة جنوبى الشلال الرابع بالقرب من كريمة الحالية أسموها مملكة نبتة، وعندما إنتقلت العاصمة إلى الجنوب وإتخذت من مدينة مروى عند البجراوية شمال شندى موطناً لها أطلقوا عليها إسم مملكة مروى، مع العلم إن هذه التقسيمات لا توجد فى الوثائق القديمة ، بمعنى إن أهل البلاد لم يطلقوا على أنفسهم أو على بلادهم تلك التسميات تماماً، كما هى الحال بالنسبة للسكان الحاليين لمنطقة النوبة الذين نطلق عليهم إسم النوبيين ، فى حين إنهم لهم فيها بينهم أسماء أخرى طبقاً للتقسيمات النيلية الشائعة..

أما نحن فنشكر المؤلف على كتابه القيم، ونلتزم بنصيحة السيد المسيح : فتشوا الكتب» وليس علينا فقط تفتيش الكتب وإنما تنقيب الآثار والذى يخفى الكثير من الأخبار تحت ما على الأرض من غبار..

١٢ـ اليهود يبنون الأهرامات

مصر والسودان: كان بناء الأهرامات فى مرحلة ما قبل المسيحية دليلا واضحاً على الإهتمام بالحياة الأخرى، وكان التحنيط فناً لكى يظل الجسد كما هو حتى عندما تأتى الروح تجده جاهزاً، وكان يدفن مع الميت أدوات يستعملها لكى يستأنف إستعمالها فيما بعد الموت ، وأشار أيوب إلى بناة الأهرام عندما قال بعد التجربة المرة التى دقت أبواب حياته: لم لم أمت من الرحم عندما خرجت من البطن ؟ لم لم أسلم الروح؟ لماذا أعانتنى الركب ولم الثدى حتى أرضع لأنى كنت الآن مضطجعاً ساكناً حينئذ ، كنت نمت مستريحاً مع ملوك ومشيرى الأرض الذين بنوا أهراماً لأنفسهم (أيوب ٣: ١٤)..

وواضح هنا إن أيوب أشار إلى الأهرامات ولكنه لم يتحدث عنه إنه بنى هرماً له، وفى هذا تلميح إلى أن الأهرامات أقدم من سفر أيوب ، أما الأهرامات فلها أثر عميق فى خيال العالم كله لأنها أثر أعظم من كل آثار الفراعنة ، أما التسمية فهى كما يرى معجم الحضارة المصرية القديمة من إبتكار الإغريق الذين أطلقوا على الأهرامات مزاحاً الكلمة الإغريقية PYRAMIS والتى تعنى كعكة من القمح، والأهرامات هى مقابر للملوك أقامها الفراعنة كما أيضا الحكام السودانيين بدءاً بالأسرة الخامسة والعشرين من القرن الثامن قبل الميلاد والذين حكموا السودان حتى القرن الرابع الميلادى..

والأهرامات فى مصر معدودة ومحدودة ، ولكن فى السودان لدينا مائتان واحد وستون هرماً موزعة على أربع مناطق هى: الكرو ، نورى ، البركل ، مروى ، ومرتبطة بملوك نبتة ومروى ، وقد أخبر الرحالة الفرنسى " فريدريك كاى " إنه فى سنة ١٨٢١ م رأى الطرابيل وشعر بالفرح عندما وقع نظره على حشد من الأهرامات فى مروى أطرافها تتلألأ بجلال بواسطة اشعة الشمس والتى إرتفعت فوق الأفق بينما لمح مجموعة أخرى على مقربة من النيل ، أما الطرابيل فهى مجموعة أحجار تهدف إلى إخفاء غرف الذهب فى أهرامات السودان ..

وعند الفراعنة كان أنصار الشمس وهم يعبدون الشمس يعتقدون أن الملك يقضى حياته الثانية إما صحبة إله الشمس أو بصفته إله الشمس نفسه ، ولكن يجب عليه أولا أن يصل إلى المنطقة الشمسية ومن بين طرق الصعود العديدة المذكورة فى

نصوص الأهرام تسلق سلم الشمس وأشعة الشمس ، وكان الهرم المدرج الذى إخترعه " أمنحوتب" كاهن هليوبوليس القصد منه تمثيل ذلك السلم ، وكان يعكس أشعة الشمس النازلة لتضىء الأرض خلال فرجة فى السحب، فإذا ما كان فى حوزة الملك أحد هذين النوعين من الأهرام سواء كان مصطبة أم مدرجاً فإنه يستطيع أن يصعد إلى السماء ويود تبعاً لمشيئته إلى قبره كى يتناول من تقدمات الأطعمة التى يضعها الكهنة يومياً فى المعبد الجنائزى..

اليهود والأهرامات: يذكر سفر المكابيين فى العهد القديم إن سمعان المكابى شيّد على قبر أبيه وإخوته بناء عالياً منظوراً بحجارة نحتت من وراء ومن أمام ، ونصب على القبور سبعة أهرامات، واحداً بإزاء واحد لأبيه وأمه وإخوته الأربعة وزينها بفنون النقوش وجعل حولها أعمدة عظيمة مرسوماً على الأعمدة أسلحة تخليداً لذكراهم ، وبجانب الأسلحة سفن منقوشة وكانت منظورة لجميع ركاب البحر ، وقد ذكر هذا فى الإصحاح الثالث عشر من سفر المكابيين الأول وقصة المكابيين ترجع للعام ١٦٨ ق.م.. حيث قام يهوذا المكابى بثورة ضد أنطيوخس أبيفانيوس الذى إشتهر بإضطهاد اليهود وتمكنت حركة المكابيين من الإنتصار عليه ويقولون: إن كلمة مكابى مجموع الحروف الأولى فى العبرية للكلمات من مثلك بين الآلهة يارب، وكانت مكتوبة على راية يهوذا من الكاهن « منتيا» المكابى ...

ويقول البعض : إن مكابى تأتى من مكبة وتعنى مطرقة وهو وصف لشجاعة يهوذا الذى كان كالمطرقة على أعدائه مثلما أخذ الملك شارل الفرنسى جد شرلمان بطل معركة بواتييه لقب مارتل أى المطرقة بالفرنسية، وفى هذا إشارة إلى ما فعلته إمرأة إسمها ياعيل بعدو بلدها سيسرا عندما إستضافته وأراحته ثم جعلت المتيدة أو المطرقة فى يدها وضربته فى صدغه فمات هذا العدو الغازى لبلادها..

ولقد تتبعت بناء هذه الهرامات السبع فى كتب تفسير عديدة فلم أجد أى شرح لها، ويبدو إنها كانت صغيرة لا تضاهى أهرامات مصر والسودان، وإنها كانت للتفاخر حتى تكون قبور الأسرة واضحاً كمعلم من معالم البلاد، وعلى الأخص إن هذه الأسرة قادت حركة التحرير من العدو الأجنبى والحق إنه لا يوجد مثل أهرامات مصر والسودان والتى كانت فيها مخازن للذهب فى أهرامات مصر، وكانت أهرامات السودان فوق كل منها هرم مدبب من ذهب، وكل هذا كان تعبيراً عن حب الحياة الأبدية وطموحاً نحوها..

١٣ - مجتمع الخرطوم وتباين العادات والتقاليد

أوروبا صغيرة: وفد عدد كبير من أهل أوروبا إلى الخرطوم منذ أيامها الأولى سنة ١٨٢٠م ، وتكون مجتمع أوربى فى الخرطوم يتفاعل مع قضاياها ، ويعيش أيامها السعيدة، وكانت هناك صالونات أدبية يتم فيها الإحتفال بمناسبات متعددة مثل التأبين والأفراح والندوات والمحاضرات، وكانت العلاقة بين الأوربيين والمواطنين على درجة من الرقى، علاقات طيبة لا يشوبها شائبة، وهذه شهادة للمواطن السودانى الذى يرحب بالأجانب ويكرمهم إكراماً كبيراً ، لكنه يرفضهم متحكمين فيه مستبدين عليه..

ويذكر عن الدكتور ريتز نائب قنصل النمسا إنه إستضاف مشايخ قبائل ما بين البحر والنيل بدار القنصلية سنة ١٨٥٢م، وكان من برنامج الحفل إستعراض للالعاب النارية، وكان الأوربيون متواجدون فى الخرطوم يراهم المواطن السودانى ويحترمهم، وقد ألف رؤياهم فى كل مكان، كما إستضاف السودانيون بعض الرحالة من أوروبا، ورحبوا بهم فى بيوتهم، والسودانى يتمتع بكرم الضيافة ويهتم بإضافة الغرباء التى قال عنها بولس الرسول: لا تنسوا إضافة الغرباء التى بها أضاف أناس ملائكة وهم لا يعلمون ..

وفى هذا إشارة إلى الثلاث الملائكة الذين زاروا إبراهيم أول المتوحدين وحملوا إليه البشارة بولادة الإبن إسحق، ولا غرو فى ذلك لأن الخلفية الروحية عند أهل السودان تختزن مدة ألف عام من المسيحية ومبادئها السمحة، ويذكر التاريخ أن الرحالة « بايارد تايلر» دُعى إلى ولائم متنوعة، تناول الطعام على الطريقة العربية عند مضيفته السلطانة « نصره» إبنة آخر ملوك سنار، والشراب والقهوة على الطريقة التركية عند الحكمدار، والشاى المهيأ على الطريقة الإنجليزية الصحيحة عند احد الأوربيين..

وكان من مميزات المجتمع القبطى فى الخرطوم إنه وكما يقول كتاب» تاريخ مدينة الخرطوم» إن الموظفين القبط كانوا يحاولون لغاية فى نفوسهم الإرتباط بالموظفين السودانيين، وأنا أعترض على كلمة» لغاية فى نفوسهم» لأنها حكم باطل

على قبيلة تعيش فى الحق الإلهى وتفتح بيوتها وقلوبها للآخر، وكانت أجمل الموائد فى بيوت الأقباط أثناء صوم الميلاد ومدته ثلاثة وأربعون يوماً، والصوم الكبير ومدته خمسة وخمسون يوماً ، وكان الأكل الذى يقدم أكلا صيامياً خالياً من الدسم الحيوانى ، حيث لم يكن هناك بيت لا يقدم لله صوماً مقدساً فى نسك وتقشف..

وبالتالى كان الأقباط يأكلون مع أخوانهم المسلمين فى موائد رمضان هذا منذ القدم فى الخرطوم وحتى الآن، والحمدلله حيث صارت مائدة رمضان السنوية والتى بدأها من أكثر من عشر سنوات الأب القمص فيلوثاوس فرج فى مزرعته، وبعد هذا فى النادى القبطى بأم درمان ثم صارت تقليداً سنوياً يقيمه أقباط السودان وأساقفته الأجلاء، ويحضره رئيس الجمهورية..

ولقد كانت موائدالقبط فى الصوم تزدحم سابقاً فى أول أيام الخرطوم بأصناف الطعام المصرية ، وقد قرر الشيخ القبانى : إن شعار هذه الموائد كان إذا طعمت فأشبع، وإن المائدة التى تقام لعشرة أفراد كانت تكفى عشرين بل ثلاثين، أما الان فالأكل السودانى مائة فى المائة يبدأ بالتمر والبليلة ثم بما لذ وطاب فى مائدة رمضان

جمهورية صغيرة: قال « هجلن» الأوربى : إن الخرطوم هى جمهورية صغيرة قامت تحت ظروف إجتماعية بسيطة غير محددة ، يحيا فيها الفرد بلا مسئوليات كبيرة ومطالب روحية، أما « ليجان» فقد قال : إن الخرطوم أوربا صغيرة غير فاضلة وربما أشار هنا إلى الإنفلات الأخلاقى الذى كان يحياه بعض الأوربيين بسبب أطماعهم فى التجارة والربح الكبير أو بسبب عدم السلوك الأخلاقى الذى يتناسب مع مدينة الإستضافة، وما حدث من إفراط للتسرى وبعد عن الفضيلة، وهذا بسبب فئة معينة من التجار المفلسين والمجرمين العتاة الذين قدموا ليجربوا حظهم فى جمع الثروة أو ليحفروا قبورهم بأيديهم ويموتوا ضحايا الشهوة ، غير خائفين خسارة شىء لأنهم لا يملكون شيئاً ، لهذا عاشوا الغش والخداع والعنف، ولكن لم يكن هذا سمة لكل القادمين من أوربا..

وإذا كنا نذكر هؤلاء فإننا أيضا نذكر الرحالة الذين أحبوا الخرطوم وكانوا ملتزمين أخلاقياً، وكتبوا عنها أجمل ما كتب عن مدينة فى العالم، وقد حاول بعضهم كشف منابع النيل وعملوا أطباء فى الحكومة وجراحين ومهندسين، وقد كتب الأب

« مسايا» وزميله « بلترام» عن رحلتهما للنيل الأزرق مذكرات هى نمرة مشرفة فى جبين الكشف الجغرافى ، ويرفع من قيمة هذه المذكرات..

إن المواصلات بين الخرطوم وهذه المناطق كانت مستحيلة فى ذلك الوقت كما أن بعضهم وهو « كرشر» kircher درس اللهجة البشارية وحاول وضع قواعد النحو فيها، كما درسوا لغة الدينكا والنوير، بل وقد حاول بعض الحكام أن يطالبوهم بدراسة بعض المناطق مثلما طلب الحكمدار " رؤوف باشا" من الأب " كمبونى" دراسة منطقة جبال النوبة لكى يقام فيها نظام إدارى ناجح، إن مجتمع الخرطوم كان عالماً مصغراً متعدد الأديان والأعراق والثقافات مثلما كل السودان الآن..

١٤. المواطنة ومناهج التعليم

تجربة سويسرا: يحكى أن سويسرا بلد عظيم يدعو إلى الإحترام والتقدير ، وذلك لقدرته على تدعيم وحدته الوطنية على الرغم من الإختلافات الموجودة فى تكوين الشعب نفسه، لأن الإتحاد السويسرى صار مثالا يحتذى به وعلى الأخص فى المناطق التى تعانى من الخلافات العرقية أو الدينية، وفى سويسرا تتعدد اللغات الرسمية، فرنسية، ألمانية وإيطالية وورومانش، كما تتعدد الأديان بين يهودية ومسيحية وإسلام..

وعندما زار رئيس الإتحاد الأوربى سويسرا أعرب عن تقديره وإعجابه بالوحدة الوطنية هناك، ويرى كثيرون إن الوحدة الوطنية فى سويسرا لم تأتى من فراغ، ولكنها جائت نتيجة الإهتمام بتعميق هذه الوحدة الوطنية لأفراد الشعب على مر السنين، وبجميع الوسائل الممكنة من تعليم وتدريب وترغيب ، فالمواطنة لا تولد مع الأفراد والوفاق الوطنى لا ينمو مع نماء الإنسان بل هو نتاج التعليم والتدريب حيث وفى أسلوب حضارى يصبح التنوع الدينى والعرقى والثقافى سبباً فى الإنتماء المشترك للمكان والزمان، وهنا تكون حضارة التعايش رغم التعددية والإتجاه نحو قبول الآخر رغم الإختلاف معه، وقد سارت سويسرا على مر السنين ونجحت فى إذابة عناصر الأمة المختلفة فى بوتقة واحدة هى بوتقة الإتحاد السويسرى الحالى..

نموذج السودان: وإذا كانت سويسرا تستحق التقدير والإعجاب لأنها صنعت إتحاداً مثالياً فكم وكم يكون السودان، فالسودان هو بلد التعددية الدينية والثقافية والعرقية، وهو البلد المتحضر الذى يحيا مواطنوه معاً فى وفاق وطنى ليس له مثيل.. ولم يكن الدين سبباً للإختلاف، إنما هو دوماً سبب لتجميع الناس معاً من منطلق أن الله لم يجعل لنا ديناً واحداً، لا لكى نفترق ونحترب، إنما لكى نتفق ونتجاوب ونحيا فى ظل الإحترام المتبادل، وبقدر ما أن تاريخ السودان ضارب فى القدم بقدر ما نرى أن التعايش قديم وسليم وعميق، ولهذا فإننى أرى دوماً إن السودان هو الجدير بجائزة التعايش فى العالم..

والمواطنة مظلة عظيمة تحتاج دوماً إلى الوقاية وتحتاج إلى الصيانة وإلى تعميق هذا المبدأ فى قلوب المواطنين، فليس هناك فرق بين مواطن وآخر، لا يتميز أحد على أحد بسبب العرق أو الدين، فكلنا لآدم وآدم لله..وكلنا لله معاً فهو الذى خلقنا متمايزين، وفى الخلقة العجيبة للإنسان لا يوجد إنسان يتطابق مع آخر، هناك فروق تظهر فى أشياء كثيرة أوضحها بصمات الإنسان، ولكن أحياناً تطفو على سطح الحياة بعض التوترات وتأتى هذه التوترات من واقع غريب قد يظهر فى قهر الأغلبية أو التوجه نحو شعارات محددة لدين بعينه مع تجاهل الدين الآخر أو الثقافة الأخرى، بينما التعددية هى ثروة يمكن أن يغترف منها الكل، ولكن الإنغلاق على ثقافة واحدة يجعل أهل الثقافة الأخرى يعترضون ويرفضون وربما يعتزلون متوترين أو يتوتروا مواجهين لكى يرفعوا عن أنفسهم قهر الثقافة الآخرى..

مناهج التعليم: وعندما نرغب فى تعميق الوحدة الوطنية علينا أن نهتم جداً بمناهج التعليم لكى نقود المجتمع إلى السلام والمواطنين إلى تبادل الإحترام، وإذا كان التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر فإننا كباراً مع صغار نحتاج إلى حماية وحدتنا الوطنية لئلا يصبح الحديث عن الوحدة الوطنية بكاء على أطلال قديمة أو حديثاً « ماضوياً» أى حديث عن ماضى.. الوحدة الوطنية هى الحاضر وهى المستقبل، وفى السودان تحتاج مناهج التعليم إلى مراجعة وفق مبدأ المواطنة، وقد كانت فيما سبق أفضل من الآن، وإعتقدنا أن التغيير سوف يأتى بجديد مما يساعد على تماسك الوحدة الوطنية، ولكن ما حدث هو العكس، وعندما تقرأ الآن كتب مرحلة الأساس والمرحلة الثانوية تلاحظ وبوضوح تغليب ثقافة على أخرى، ودين على آخر، بل تلاحظ أيضا غياب تاريخ مجيد فى وطننا العظيم..

فالمنهج الدراسى الآن هو عبارة عن آيات متراصة من القرآن الكريم دون أن تجد آية واحدة من الكتاب المقدس ، هذا رغم أن الدارس يعلم مدى التوافق بين الكتابين ، هذا عدا إهمال لمرحلة هى ألف سنة فى تاريخ السودان ، عندما كان السودان مسيحياً فى كل شىء، كانت هذه المرحلة موجودة فى المنهج القديم ثم بعد هذا قاموا بتجميدها ، وفى المنهج الجديد تم إلغاؤها.. ياسادة إن الوحدة الوطنية لؤلؤة غالية علينا أن نحافظ عليها، ومناهج التعليم الآن ليست هكذا.. فهل نعد أنفسنا للزمن الآتى ؟ هل نراجع مناهجنا ؟ هل نجعل الوحدة الوطنية هدفاً لمناهجنا التعليمية ؟ هل نأخذ من الماضى عبراً لمسيرتنا المنطلقة نحو المستقبل السعيد ؟ عموماً هذه دعوة محبة..

١٥- إلى الأمام نحو مائة عام لنجم جريدة الأيام

لفت إنتباه: لفت الأديب المرموق دكتور قاسم محمد نور أنظارنا إلى مناسبة سعيدة كان لابد لنا أن نقف عندها وقفة تأمل، وهى بلوغ الأستاذ محجوب محمد صالح الخامسة والسبعون عاماً وهو الصحفى الأمين الناضج الذى يحمل خبرة تزيد عن الخمسين عاماً، حيث بدأ الدخول إلى صاحبة الجلالة وهو فى ريعان الصبا.. ويبدو أن أول مقال كتبه كان له من العمر عشرون عاماً، وقد بدأ قوياً، وهو الآن أقوى حيث يستنير برأيه أهل الفكر والرأى، فلقد أوقف هو نفسه للدفاع عن قضايا الإنسان من مساواة، إلى حقوق، إلى وقفة ضد إستبداد الحكام، وكان لابد أن يدفع ضريبة النجاح وتوقف جريدته، وتصادر حريته، ويودع فى السجون معتقلا، ولكنه رمزاً للسلام ورمزاً للمدافع الجسور، ورمزاً للعدالة الإجتماعية، وهو رمز للسودان الواحد والإهتمام بقضاياه مثل النزاعات القبلية والعرقية..

ومشكلة الجنوب فى وطن تتعدد فيه الأعراق والأديان والثقافات ، ويرى هو فيه وطن عظيم يسع الجميع دون إستعلاء من أغلبية على أقلية، أو من دين على دين، أو تسامى من عرق وقبيلة على عرق وقبيلة، فالوطن أعظم من أن نتخاصم عليه، وأنبل من أن ننقسم لأجله، وليس هناك مظلة تجمعنا وتحمينا وتقينا شر أنفسنا

سوى المواطنة والتى سوف تظل هى المقياس والمعيار والنهر الذى منه نرتوى، والخلود الذى إليه نسير ونسعى، والمحبة التى هى قوية كالموت مياه كثيرة لا تطفىء دفئها لأنها محبة حية أقوى من الموت، وفوق مستوى كل الأحقاد..

نجم ساطع: إن الفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى دهر الدهور، وكثيرون يتطهرون ويبيضون ويمحصون، أما الأشرار فيفعلون شراً، لكن الفاهمون يفهمون، وطوبى لمن ينتظر (دانيال ١٢).. لأن نجماً يمتاز عن نجم فى المجد (كورنثوس الأولى ١٥:٤١).. وأستاذنا محجوب محمد صالح هو ليس من الفاهمين فقط، ولكنه نجم ساطع فى سماء صحافتنا ونجم ساطع فى سماء طموحاتنا الروحية ، فنحن نحلم بوطن الرخاء، ونطمح لوطن بلا أعداء، وطن يسع أهله، ويحترم الآخر، ويجادل الجدال الحسن بل يقدم دوماً الأحسن، وطموحنا فى وطننا أن نحيا جميعاً فى المحبة، وأن نزيل الفوارق التى بيننا، الفوارق التى صنعناها وأرسيناها حجر عثرة فى طريق تقدمنا..

ولو لم نعالجها سوف تكون سبباً فى سفك دم وطن عظيم وتقطيع أجزائه لا سمح الله إلى أقسام لن نعرف كيف نلمها ونجمعها، ونتصارع شمالا وجنوباً شرقاً وغرباً، مواطنين ومتمردين ، أمناء وخونة ، ولقد كان قلم محجوب ولم يزل قلماً يحقق طموحاتنا ويطالب بالديمقراطية والمساواة، ويجاهد لكى يحقق كرامة الإنسان فى وطن الأباء والأجداد..

سطور من حياته: لقد ولد نجم جريدة الأيام الساطع فى عام ١٩٢٨م وعاش فى أم درمان، وتعلم الوسطى فى أم درمان الأميرية ثم درس فى كلية غوردون، وكان من الرعيل الأول فى جامعة الخرطوم، ودخل إلى إتحاد الطلبة سكرتيراً عاماً، وكان لابد أن يكون نصيبه الفصل من الجامعة خاصة بعد إعلان إضراب الطلاب، ومن هنا بدأ حياته الصحفية مثل رجل أمين شجاع فى شبابه المبكر فى جريدة « سودان إستار «.. وكان نجماً فيها ، وجريدة السودان الجديد، وفى عام ١٩٥٣م تلاقى مع نجمين آخريين فى تاريخ صحافتنا السودانية وهما المبدعان: بشير محمد سعيد ومحجوب عثمان.. ومن هنا بدأ هذا الثالوث المحترم فى تأسيس جريدة الأيام الغرّاء لكى تكون أول صحيفة سودانية صباحية، وكانت الجرائد يومها مسائية، وولدت» الأيام» فى أهم الأيام حوجة إلى « جريدة الأيام «..

١٦. يوسف ميخائيل سجيناً ومؤرخاً

يوسف ميخائيل: إن كردفان الجميلة الغرّة أم خيراً جوه وبره ، لا يمكن أن تنسى هذا القبطى العملاق يوسف ميخائيل الذى أحب كردفان وعاش لأجلها، والذى سجل مذكراته عن ثلاث حقب تاريخية عاشها هى : المهدية ، والتركية، والحكم الثنائى، وقد كتب هذا فى مخطوط قيم فى تفاصيله قراءة للواقع السياسى والإقتصادى الذى شهدته كردفان قبل ظهور المهدية، وفيه تسجيل لدينامية الصراع المحلى الذى أسهم فى نجاح الثورة المهدية..

إن يوسف ميخائيل هو شاهد عيان لما يكتب وقد تتبع كل شىء بتدقيق، فلقد وعى عقله الكثير من الأحداث ولم يكن مجرد شاهد عيان ، ولكنه كان شريكاً فى هذه الأحداث وهو يشبه هنا لوقا الطبيب كاتب إنجيل لوقا، والذى دقق وحقق وكتب الأحداث كلها بدءاً من إنفتاح السماء على الأرض وبشارة الملاك جبرائيل بميلاد يوحنا المعمدان ثم بشارة نفس الملاك لمريم العذراء بميلاد السيد المسيح، ثم زيارة مريم لأليصابات ومولد يوحنا المعمدان ثم مولد المسيح، وتتبع لوقا حركة الملائكة فى أحداث الميلاد العجيب تبشيراً وحضوراً وترنيماً..

وحركة الله نفسه الذى يقف خلف كل أحداث التاريخ ، وقراءة تاريخ كتبه يوسف ميخائيل تقودنا إلى الخروج من دوامة التفسير الأحادى للتاريخ، فمثلا لم يكن المهدى وحده وراء نجاح الثورة، وإنما كان أيضا البنيات المحلية لمجمع كردفان والذى كان أكثر الأماكن ملاءمة لإستقبال الثورة المهدية، وتفعيل آلياتها ، فلقد كان ما يحدث فى كردفان تمهيداً لقبول ثورة المهدية، فالصراع بين السلطة الحكومية والسلطة الشعبية صداماً مسلحاً بين « إلياس باشا» والشيخ « على كنونه» ..

ورفض أهالى كردفان للحكم التركى الذى كان قاسياً وعنيفاً فى التسلط وجمع الضرائب والمظالم المتعددة، كل هذا جعل الناس يحلمون بالمهدى ويتوقعون على يديه الخلاص من الظلم والجور والعنت والمعاناة والخروج إلى رحاب العدالة والحرية ، والولوج إلى الحرية شجرة لها ظللا وارفة يستظل بها الناس من الحر اللافح الذى كان كرباجاً على ظهورهم، ومحاولة لسلب ثقافى ، ومحاولة لإبهات قيم روحية، وفرض متاعب ومصاعب تفقد الراحة والأمان..

ومخطوط يوسف ميخائيل يؤكد النظرة الشمولية للتاريخ عندما نقرأه قراءة نقدية مقرونة بأدبيات معاصرة لها مثل كتابات إسماعيل عبد القادر الكردفانى، سعادة المستهدى بسيرة الإمام المهدى، الطراز المنقوش بشرى قتل يوحنا ملك الحبوش، وأيضا أوراق على المهدى جهاد فى سبيل الله، ومذكرات الشيخ بابكر بدرى تاريخ حياتى، والذى كان يتسامر مع كتشنر فى مجلسه وكان كتشنر ينادى إبراهيم بك خليل بالعم إبراهيم إحتراماً لمكانة هذا القبطى العريق الذى عندما ردت إليه أملاكه كان من بينها مكان الجامع القديم وتنازل عن هذا المكان ليظل جامعاً، وهذا إحتراماً لأخوانه المسلمين الذين سجدت جباههم لله فى هذا المكان ..

وأيضا يقارن مخطوط يوسف ميخائيل بأدبيات سجناء المهدية والتى لابد أن تكون مشحونة بعدم الرضا على المهدية التى أودعتهم السجون، كما من المهم مع دراسة مخطوط يوسف ميخائيل الإهتمام بوثائق المهدية التى نشرها محمد إبراهيم أبو سليم والتى لم تزل حتى الآن فى أضابير دار الوثائق القومية فى إنتظار باحث مدقق ومحقق يخرجها إلى الوجود وينزلها إلى علماء التاريخ توطئة لتنزيلها للشعب السودانى..

السجين والمؤرخ: ويرى مكى أبو قرجة فى كتابه « أصوات فى الثقافة السودانية» إن يوسف ميخائيل صار مؤرخاً بمحض الصدفة، وإنه بالرغم من أنه شاهد عيان لأحداث تاريخية مهمة هى فترة عاصفة من التاريخ السودانى فهو لم يفكر فى أن يكتب هذا التاريخ، ولكن القصة تبدأ من مطحنة للحبوب بالأبيض كان يديرها يوسف ميخائيل مع شقيقه إسحق، وكان الحاكم الإدارى الإنجليزى لمدينة الأبيض صديقاً له، كان يلتقى به وكانا يتسامران فى تاريخ السودان، وتاريخ كردفان قبل الإحتلال البريطانى..

ووصف هذا الإدارى البريطانى يوسف ميخائيل بانه كان نحيلا واهن البدن وأبيض الشعر، والإنجليزى هو مستر « أفسين» نائب مفتش المركز وذات يوم كان الإنجليزى راجعاً من مهمة خارج المدينة ودلف إلى مكتب بلاغات الشرطة وفوجىء بوجود يوسف ميخائيل وزوجته فيكتوريا فى الحراسة ضحيتان لعملية» كشة» بتهمة صناعة العرقى، وقد كان يوسف ميخائيل يحب هذا ، حتى إنه عندما طلب منه بناء مخزن كبير يسمى الكرنك قال للمأمور: فيها قزازة كونياك.. ورد المأمور بالموافقة..

ولكن رغم وساطة الكثيرين حكم على المرأة بسجن مع إيقاف التنفيذ، وحكم على يوسف ميخائيل بالسجن لمدة شهر، وشجع البريطانى يوسف ميخائيل أن يعتبر هذه الفترة هى كتابة للتاريخ، وأحضر إليه الأوراق والأقلام الرصاص ليحكى قصة حياته الغنية بالأحداث، وهكذا صار مؤرخاً لمدة ثلاثين يوماً وقدم أفضل خدمة لبلاده، وهكذا كانت سجون السودان وحتى الآن..

١٧ . رئيس إيران مع المسيحيين في السودان

رئيس إيران: إستقبلت الخرطوم عاصمة الثقافة العربية والإفريقية والعالمية سعادة رئيس جمهورية إيران الإسلامية ، دكتور محمد سيد خاتمى، كان هذا فى يوم الثلاثاء الخامس من أكتوبر شهر الإنتصار على المستوى العربى ، وشهر الإنتفاضة على المستوى السودانى..

والضيف الكبير لبلادنا هو شخص كبير يرتفع فوق مستوى الصغائر ولا يمشى وحده فى دروب الكبار، وإنما يريد أن يكون الكل كباراً، وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجساد، عندما تحدث العالم عن صراع الحضارات كان هو كبيراً وقال : لا بل نتحدث عن حوار الحضارات، وعندما كثرت التوترات فى العالم حاول خاتمى أن يخفف من حدة التوتر وينادى بالحوار طريقاً للكل..

وعندما صارت التوترات إرهاباً قال : لا إن الإرهاب لن يحل مشاكل، والإرهابى يحيا فى خطيئة فادحة بل فى ثنائية الخطايا، فهو قاتل من ناحية وهو مستغل للدين إستغلالا سيئاً من ناحية أخرى ،وقد وصل خاتمى إلى رئاسة الجمهورية عن طريق الإنتخاب منذ عام ١٩٩٧ م ، وعاد شعب إيران لينتخبه مرة ثانية وبعد هذا وبحسب النظام الديمقراطى فى إيران سوف لا تجدد فترته مرة أخرى ويفسح المجال لآخر.. وقد كنت أعتقد إن من يعتلى عرش إيران بعد ثورة الزعيم « خومينى» سوف يستمر على الكرسى لسنين عديدة وآزمنة مديدة..

خلفية حضارية: وإيران دولة عظيمة ذات خلفية حضارية مجيدة وتليدة وضاربة بجذورها فى عمق التاريخ، فلقد كانت مملكة فارس مملكة متسعة الأطراف تمتد من مملكة الهند شرقاً إلى الأرجنتيل الإغريقى غرباً، ومن بحر قزوين والقوقاس والبحر الأسود ونهر الدانوب شمالا إلى الصحراوين العربية والنوبية جنوباً ، وكانت وقتها

مساحتها إثنين مليون ميل مربع، وعاشت تاريخاً سعيداً بملوك مشهورين ، ذكر منهم الكتاب المقدس كورش ونبوخذ نصر، وداريوس ، وأرتحشستا ..

وذكر الكتاب المقدس إن الله نبه روح كورش فأمر بإعادة بناء الهيكل، وبهذا يكون حوار الأديان فى إيران قد بدأ منذ زمان ، لأن الملك الفارسى أكرم اليهود فى إعادة بناء الهيكل، وأيضا كانت ديانة هذه المملكة القديمة هى الزداشتية التى تؤمن بإله للخير، وإله للشر ، وتقسم الكون إلى مملكتين، مملكة الأرواح الخيرة الطاهرة، ومملكة الأرواح الشريرة ، وتجدد أن واجب المرء هو إستئصال الشر وزرع الخير والسعى نحو القداسة قولا وفكراً وعملا ، حتى يكافأ بالخلود فى السماء..

والملاحظ إن هذا الدين لم يفرضه الفرس على الشعوب الخاضعة لحكمهم ، وهذا أيضا جانب مشرق فى حضارة الفرس، هذا عدا القوانين المنضبطة التى تحدد علاقات الناس معاً والتى هى أساس حتى الآن للمشرعين فى شرع القوانين ، وبطلها الأول هو « حمورابى «..

ويذكر لنا الكتاب المقدس كلمات فارسية مثل : مرازبة، شحن ، ولاة ، نيروز أى أول العام ، وقد حمل بعض شباب اليهود أسماء فارسية بعد أن صاروا وزراء فى القصر الملكى، فلقد حمل دانيال نبى الله إسم بلطشاصر.. وحنانيا شدرخ.. وميشائيل ميشخ.. وعزريا عبدنغو.. ولقد فسر دانيال النبى حلم نبوخذنصر وكان الحلم قد نسيه الملك ففهم دانيال الحلم وقدم له تفسيراً..

ومن يقرأ سفر دانيال فى الكتاب المقدس يقف أمام ملحمة عميقة بطولتها ملوك فارس ورجال الله، وعندما طرح دانيال فى جب الأسُود لأنه لم يسجد لتمثال الملك ، كان الملك نفسه متألماً، وقد تمكن دانيال الشاب القوى أن يقول للملك: لذلك أيها الملك فلتكن مشورتى مقبولة لديك، وفارق خطاياك بالبر وآثامك بالرحمة للمساكين لعله يطال إطمئنانك ، وكتب أحد ملوك فارس وهو داريوس يقول : من قبلى صدر أمر بانه فى كل سلطان مملكتى يرتعدون ويخافون قدام إله دانيال لأنه هو الإله الحى القيوم إلى الأبد وملكوته لن يزول وسلطانه إلى المنتهى وهو ينجى وينقذ ويعمل الآيات والعجائب..

مبادرة خاتمى: وإذا كنا نتحدث عن خلفية حضارية لجمهورية إيران، فإن هناك خلفية حضارية لرئيس جمهورية إيران، فهو الشاب الغض الذى نشأ فى أسرة

متدينة ووالده من علماء الدين المرموقين، وهو طالب متميز فى دراسة الفلسفة، حصل على بكالوريوس وماجستير ودكتوراة، وكان مواظباً على حلقات الدرس، وله مشاركات سياسية فى النضال الثورى للشعب الإيرانى ، وهو مهتم بأن يعرف الكثير عن فلسفة الغرب، وهو ضد الإنغلاق على فكر محدود لبلد محدود أو لدين بعينه، وهو مهتم كيف يستفيد من التقليد وكيف يستفيد من الحداثة..

وبالنسبة لنا نحن رجال الدين المسيحى فى السودان يُعد الرئيس خاتمى أول من بادر لكى يلتقى بنا لقاءاً خاصاً مميزاً.. وقد قدمت أمامه حديثاً مختصراً وقدمت له تهنئة لأنه يهتم بالحوار، ولأنه يحيا فى بلد ديمقراطى فيه كرسى الرئاسة ملكاً لكل مواطن، وهذا يجعل الأحلام لدى الشباب مشروعة وغير مصادرة ، ولقد كان هو وزيراً للإرشاد مما جعله سعيداً باللقاء بالمسيحيين وقد أطال هو الحديث على سجيته، وكان تفسيرى له إنه قد وجد نفسه معنا لذلك أطال الحديث..

لقد أسعدنا بهذا اللقاء وعاصمتنا الآن تستقبل الكثير من الرؤساء ولكن واحداً منهم لم يهتم بنا مثلما إهتم هو ، ولقد كرمته جامعة النيلين ومنحته شهادة الدكتوراة وهو قبل هذا دكتور وعالم..

مرحباً بخاتمى وشكراً لسفير إيران ، وشكراً للملحق الثقافى صادق رمضانى الذى كان صادقاً صدوقاً صديقاً فى مشاعره معنا ، وفى تقديمنا لرئيسه العالم المتحضر..

١٨. عيد الصليب والأمطار

الكنيسة والزرع: تُعد الكنيسة القبطية كنيسة زراعية ، فلقد كانت الزراعة ذات يوم هى المهنة الأولى لكل الأقباط، ولهذا إشتملت صلوات الكنيسة على عدة طلبات روحية من أجل الزروع والعشب ونبات الأرض ، وتنقسم السنة التوتية أو السنة القبطية إلى ثلاثة أقسام هى :

موسم المياه والفيضان: وهو موسم إحتفالى جميل فيه تحيا الكنيسة خيرات الأمطار وتصلى من أجل مياه الأنهار وهطول الأمطار، وتطلب من الله أن ترتفع مياه النيل كمقدارها أى بالقدر المقدر لها، فالزيادة عذاب والنقصان ألم وحيرة ، فعندما تزيد المياه يأكل الفيضان كل الزروع ويهدم المنازل، وعندما ينقص يحدث الجفاف الذى هو الطريق

إلى التصحر لأن النيل يشق طريقه وسط الرمال والصخور ويبدأ موسم المياه من الثانى عشر من شهر بؤونة الذى يوافق ١٩ يوليو والذى هو عيد النقطة، وهذا العيد عيد قديم قدم حضارة الفراعنة، وكان المصريون القدماء يحتفلون فيه بنزول أول نقطة مطر على هضاب الحبشة، وكانوا يعتقدون إن نقطة المطر هذه هى دمعة الآلهة» إيزيس» آلهة الخصب والنماء، والمسئولة عن زيادة مياه النيل وعن رعاية الرى، ويستمر هذا الموسم حتى ٩ من شهر بابة أى إنه يمر بالشهور القبطية : بؤونة، أبيب، مسرى، توت، بابة، وهذه الفترة هى فترة الأمطار المبكرة والمتأخرة..

موسم الزروع: وهو موسم يبدأ فيه إلقاء البذار فى الأرض وإنتعاش هذه البذور فى الأرض وهذه حياة جديدة ورمز للقيامة وحياة الأبد، ويبدأ هذا الموسم فى العاشر من شهر بابة إلى العاشر من شهر طوبة، وهو موسم خصب يمر بالشهور القبطية : بابة ، هاتور ، كيهك، طوبة ، وهو موسم يميل إلى البرودة، ويوافق ١٠ بابة يوم ٢٠ أكتوبر.. وفى هذه الفترة ترفع الكنيسة قلوب المؤمنين نحو الله فى صلاة من أجل الزروع والعشب ونبات الحقل لكى يأخذ نموه، ويعطى عطاءً جيداً ويكون ثمره متزايداً راحة للبلاد ورخاءً للعباد.. وفى شهر هاتور من هذا الموسم يأكل الناس القمح الأخضر قبل جفافه ويسمى « الفريك» ولهذا يقولون: برمهات برمهات فرّك وهات.. أو روح الغيط وهات من القمحات للبصلات، فهو شهر نضوج الزروع، ومع صلوات الزروع هناك صلوات من أجل الضرع أى الثروة الحيوانية من أجل نجاة الناس والبهائم..

موسم الحصاد: ويبدأ من الحادى عشر من شهر طوبة مروراً بشهور قبطية هى : أمشير ، برمهات ، برمودة، بشنس ، بؤونة.. والشهور الميلادية: يناير، فبراير، مارس، أبريل، مايو، يونيو.. وفى موسم الحصاد تصلى الكنيسة من أجل أهوية السماء وثمرات الأرض والشجر والكروم ، وكل شجرة مثمرة فى كل المسكونة لكى يباركها الرب ويكملها بغير آفة ويغفر لنا خطايانا..

وهنا نرى الكنيسة ترفع القلب إلى الرب من أجل الآفات التى تهاجم موسم الحصاد وتحول الحصاد إلى مأساة، وكانت أول معرفة لهذه الآفات من خلال الضربات العشر التى أتت على مصر فى زمان موسى ، وعقاباً للملك الذى رفض لموسى أن يأخذ شعبه ويخرج من مصر..

عيد الصليب: ويأتى عيد الصليب فى يوم ١٧ توت لكى يكون خاتمة لإحتفالات أول السنة القبطية أو عيد النيروز، وتستمر الصلوات بلحن الفرح خلال مدة ستة عشر يوماً، وبعد هذا ثلاثة أيام عيد الصليب لتكتمل الأيام تسعة عشر يوماً، وعيد الصليب ثلاثة أيام ويرتبط عيد الصليب بالسنة الزراعية كما إنه يرتبط بإكتشاف مكان الصليب على يد الملكة هيلانة، ويُعد الصليب وهو فى سيبتمبر هو آخر وقت لزيادة مياه النيل، حيث يختفى خطر الفيضان ولا يمكن للماء أن يرتفع بعد عيد الصليب، ولهذا يقال : إن المياه « صُلبت» ولكن هذا لا يمنع أن تأتى الأمطار بعد عيد الصليب، ولهذا تُعد مناسبة عيد الصليب مناسبة قومية لدى أهل الزراعة، وهذه المناسبة تعيد السلام إلى القلوب وتعطى إطمئناناً بأن نهر النيل لن يزيد، وأن الناس يكونون فى مأمن من خطر الفيضان الذى يكون سبباً فى مشاكل كثيرة تنعكس سلباً على الزرع والضرع وعلى سلامة المواطنين، وإحتفال عيد الصليب لم يقتصر على الصلوات بألحان الفرح فى الكنائس، إنما يحتفل به بمواكب إيمانية يرفع فيها الصليب الذى يملأ القلب بسلام الرب فى إطمئنان القلب..

١٩. من ذهب مروى إلى سد مروى

ذهب مروى: قام الدكتور صلاح عمر الصادق بترجمة كتاب « كارل هانز بريشة» عن ذهب مروى، ذلك الذى إمتلأت به مملكة مروى والذين حكم ملوكها السودان لمدة ثلاثة عشر قرناً من الزمان وبصورة متواصلة من ٩٠٠ ق.م إلى ٣٥٠ م.. وفى متحف برلين وميونخ الان ثلاث قاعات تمتلىء بذهب مروى والتى شُيدت فى حضارتها ٢٦١ هرماً، وكان كل هرم يمتلىء من الداخل بذهب الملوك وفوق قمة الهرم كان هناك هرم من ذهب ..

ومر على مملكة مروى ملكات كنداكات، والمرأة لها رغبة لا تتوقف فى إقتناء الذهب، وما وجد عند الملكة « أمانى شيختو» من حلى ذهبية شىء كثير جداً، وجميل جداً تتجلى فيه صور رقى وتقدم وحضارة مملكة مروى فى نقوش ذهبية جميلة تضارع وتتفوق على نقوش اليوم..

وفى تقرير متحف برلين ومتحف ميونيخ حديث عن ملك بافاريا لودفيج الأول والذى إشترى سنة ١٨٤٠م أجمل القطع من الكنز الذهبى غير العادى والذى مثله

مثل قصة خرافية، وكان قراره شجاعاً فى نظرهم لأن جذب الذهب السودانى إلى هناك سوف يساعد على زيارة أهل أوربا له..

وعندما نذكر ذهب مروى نذكر أمهر لصوص الآثار سارق الذهب الطبيب الإيطالى « جوزيف فرلينى» والذى قال عنه صلاح الصادق : إنه لص وضيع يسرق ضحيته ويتعالى عليها ، وأما اللص الإيطالى فيقول : إنه عندما فحص الذهب كان الفرح يغمره كلياً واعجب بصناعة القطع الذهبية وعندما رأى كمية الذهب ادرك إنها تفوق عدداً وعظمة كل ما يوجد فى متاحف أوربا، واحس بأن أعمال نحت الحجر فى مروى ليس لها نظير وهى أحسن من أعمال الإغريق بل تفوقها روعة، وإنه عندما فكك الهرم عثر على قطع من الحبل المجدول من أغصان النخيل ومطارق من الخشب يبدو إنها تركت سهواً من نبات الهرام، ونشر فرلينى تقريره عن مكتشفاته لكى يبيعها..

إن مروى حضارة قديمة وأصيلة ذات فن مروى متميز فى صناعة الذهب وفى تماثيل الالهة والملوك ، وفى علامة الحياة والنحت البارز وأختام الدروع وخواتم الصوابع وعقود من اليشب والعقيق وأقراط الذن الصغيرة والجميلة ، والدلايات والخرز، ورؤوس الثعابين والجعارين ، والعين والقلب، والسمكة، والفواكه، والتمائم، والكباش، والأسود الصغيرة، ورسومات الحية ربما ترمز إلى وعد الله لحواء : إن نسل المرأة يسحق رأس الحية، ولأن الحية أحيل حيوانات البرية، ولأن الحية أيضا تمتاز بالحكمة : كونوا حكماء كالحيات، والحكمة مطلوبة لملوك مروى الذين ينبغى أن يكونوا حكماء وعادلين..

سد مروى: وننتقل من الذهب إلى الذهب، لأن ذهب مروى قد ذهب منا وضاع ، والآن مروى موعودة بما هو أثمن من الذهب، بذهب يأتى إلى السودان بالكهرباء والزراعة من ماء النيل الذى كان يذهب هباءاً منثوراً ،وسوف تصبح مروى هى مملكة الزرع والضرع والطاقة حيث تبدأ حضارة بيد الإنسان فى مشروع القرن.. سد مروى..

ولقد ولدت فكرة السد منذ ستين عاماً بالتمام والكمال كما يقول إستطلاع العربى سبتمبر ٢٠٠٦م ، وكان تقرير العلماء: إن منطقة مروى هى أفضل موقع لإنشاء خزان لحماية الأراضى المصرية، لأن التقرير من دراسات مصرية، من الفيضانات

المدمرة وتخزين كميات المياه الزائدة عن الحاجة للإستفادة منها فى فصول الجفاف

وأثبتت الدراسة إن ماء يمكن أن يحجز حتى مستوى ٢٩٨ متراً، وقد بدأت منذ أمد عدة دراسات كلها أكدت على موقع السد الحالى، وبدأ العمل والذى يقف وراءه التمويل العربى والحس العربى الذى حوّل حلم السودان إلى حقيقة، وكان التمويل من صناديق عربية، الصندوق العربى للإنماء الإقتصادى والإجتماعى، والصندوق السعودى للتنمية، وصندوق أبو ظبى، ومساهمات حكومة قطر، وما دفعته دولة الصين الشعبية..

وبدأ العمل فى السد على قدم وساق ، وعرض السد الخرسانى ثمانون متراً، وإرتفاع سبعون متراً ، وتستخدم فيه الحجارة الطبيعية، وقد تم تحويل مجرى نهر النيل بسهولة لأن السد يقع فى جزيرة صغيرة، وإن كان أمر التهجير ليس سهلا بل تقابله العديد من المشاكل التى سوف يجتازها الشعب السودانى من أبناء مروى لصالح أخوانهم فى الوطن ولصالحهم أيضاً، وكما تقول مجلة سد مروى إنه مع مضى عجلة الزمن يرتفع جسم سد مروى ويزداد كل يوم شموخاً يحكى ملحمة إلتقت فيها الخبرات المتعددة من أجل نماء السودان..

وخلف الكواليس تعمل اليدى بصمت من أجل بلوغ الهدف والوصول إلى الغاية بسريان الكهرباء عبر الأسلاك إلى كل أجزاء السودان، وإننى أرجو وأصلى أن يكتمل المشروع بخير وسلام، وان يكون خيراً لنا وتخفيضاً لسعر الكهرباء، وأرجو أن لا يكون حلمنا فى كهرباء سد مروى مثل أحلامنا عن البترول الذى رغم إننا ننتجه يتزايد سعره زيادة لا تحتمل..

لقد رأى يوحنا الرائى فى رؤياه سبع منائر من ذهب وآمل أن أرى مروى تنتقل من الذهب الأصفر إلى ذهب هو الكهرباء يملأ حياتنا رخاء ونماء، والتحية لكل العاملين فى السد، وفى إنتظار الخير أتمنى لكم كل الخير..

٢٠. النوبة واحدة في الشمال والجبال

النوبة واحدة: أميل جداً إلى الرأى القائل بأن النوبة فى الشمال إرتحل البعض منهم وأسس نوبة الجبال، لقد إرتحلوا فراراً من بطش الحكام والضرائب المبالغ فيها ولاذوا بالجبال مأمناً من كل خطر، فالجبال عديدة ربما تزيد عن المائة، والجبال شاهقة ولا يقدر أحد أن يصعد إليها إلا الأقوياء..

وكما يقول الكتاب المقدس: ما أجمل على الجبال قدمى المبشرين بالسلام ، وكان السيد المسيح يصعد إلى الجبل ليصلى وعلى جبل التطويبات قدم السيد خطاب العرش، والله هو المنبت الجبال عشباً والذى يوزن الجبال بالقبانى، وهو الذى ترتعش أمامه أسس الجبال..

وكان صاحب المزمور يرقب الجبال طالباً المعونة : أرفع عينى إلى الجبال من حيث يأتى عونى، معونتى من عند الرب صانع السموات والأرض لا يدع رجلك تزل، لا ينعس حافظك، إنه لا ينعس ولا ينام، الرب ظل لك عن يدك اليمنى لا تضربك الشمس فى النهار ولا القمر بالليل، الرب يحفظك من كل شر يحفظ نفسك ، يحفظ خروجك ودخولك من الآن وإلى الدهر..

لقد صارت جبال النوبة مركزاً للتأمل، ومأوى للهاربين، وفى رأيى الذين هاجروا من النوبة شمالا إلى الجبال النوبية غرباً كانوا من أبناء العصر المسيحي، ولكن يبدو إنهم لم يأخذوا معهم أحداً من رجال الدين الذين صمموا أن ينالوا إكليل الصابرين فى موقعهم، ولكن هؤلاء الذين وفدوا إلى الجبال كانوا ملتزمين إلى وقت كبير بعادات بلادهم والتى منها نقش الصليب على البيوت فيما أسماه الكتّاب» الخطوط المتعامدة» ..

وفى دفن الميت وجهه نحو الشرق ويذكر هذا الأمر كتاب « جبال النوبة» عند الطروجيين من جبال النوبة بحيث الرأس إلى جهة الشمال والوجه إلى الشرق، وهذه عادة مسيحية حيث ينتظرون المجىء الثانى للسيد المسيح والذى سوف يأتى من المشارق، وقد دعى أيضا شمس البر والعدل الذى يشرق بغير إنقطاع ليبدد الظلمة ..

ويصلى المسيحيون فى الشرق متجهين نحو الشرق وتبنى الكنائس نحو الشرق

تذكاراً للفردوس المفقود وإنتظاراً لمجيء الرب من الشرق لأنه يأتى كالبرق المشرق يضيء حتى المغرب، وفى المزمور: أعط مجداً لله الراكب سماء السموات نحو الشرق ، حتى صلب السيد المسيح كان متطلعاً هو نحو الغرب ونحن ننظر إليه عن طريق الشرق..

وقد لاحظ أحد البحاثة إنه فى أغلب المدافن بالنمسا إن المقابر موضوعة بشكل فيه تتطلع وجوه كل الموتى نحو الشرق، وقال: فى هذا يشبه الموتى جيشاً عروماً يتطلع إلى الرب القائم من الأموات وينتظرون دعوته لهم عندما يدعوهم إلى القيامة، وفى مدينة « تيرول» أوضح مدخل أحد المدافن الكبرى هذا الرمز بكلمة واحدة هى « القيامة»..

دليل الوحدة: وهناك دلائل أخرى تؤكد إن أهل الشمال والجبال فى النوبة هم أسرة واحدة لأنه أولا وقبل كل شيء الإسم واحد ويعنى» الذهب».. والنوبة هى وطن الذهب، وهو الإسم الذى أطلقه الفراعنة على جنوب الوادى وذلك تعشماً فى الذهب وتواجده فى النوبة، ولم يخيب الله للفراعنة أملا، فلقد عثروا على كميات كبيرة من الذهب، وهناك أسماء مسيحية لبعض مناطق جبال النوبة مثل : جبال ميرى، وميرى هى العذراء الطاهرة مريم التى إنتبذت مكاناً شرقياً ، وكانت أعمق العبادات فى تاريخ العبادة عند الرجال والنساء..

وأيضا قرية « مرثا» وهو إسم لإحدى ملكات النوبة الأميرة مرثا والتى يزخر المتحف القومى السودانى بصورة لها وهى فى حماية القديسة مريم العذراء حواء الجديدة، والتى جددت حياة البشرية بفضيلتها وتقواها، حتى أن الله إصطفاها وأصطفاها لتكون أماً للسيد المسيح والذى هو الشخص الوحيد بين البشر الذى إختار أمه..

ودليل آخر يؤكد إنتقال أهل النوبة شمالا إلى جبال النوبة يحملون معهم عاداتهم وتراثهم فيما يخص تذكار الأربعين وتذكار العام، حيث ذكر عن بعض قبائل جبال النوبة إنه عند وفاة الشيوخ وأعيان القبيلة يسير الرجال بعد أربعين يوماً موكب زفة مصحوبة بالأناشيد ويذهبون إلى مقبرة المتوفى بعد أن يجمعوا شيئاً من الحجارة البيضاء وتسمى « بالمرو» ويضعونها حول مقبرة الميت..

وعادة الأربعين عادة قديمة جداً قدم وادى النيل وهى موجودة حتى اليوم عند

الأقباط وعند المسلمين أيضا، وتأخذ هذه العادة عند الأقباط مرجعاً لاهوتياً حيث أن السيد المسيح بعد أن قام من بين الأموات فى اليوم الثالث صعد إلى السماء بعد أربعين يوماً من قيامته حيث رُفع حياً إلى السماء أمام شهود عيان كثيرين نظروه وهو يرتفع على سحابة حتى إختفى عن أعينهم ، وفيما هم يشخصون إلى السماء وهو منطلق إذا رجلان بثياب بيض قالا لهم: ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إن يسوع هذا الذى إرتفع عنكم إلى السماء سيأتى هكذا كما رأيتموه منطلقاً نحو السماء..

هذا عدا أن هناك عادات ترتبط بشرب اللبن ليلة الزفاف للتأكيد على أن المتزوج داخل إلى حياة تفيض لبناً وعسلا، ولاشك إن هناك دلائل أخرى تؤكد إن النوبة واحدة فى الشمال وفى الجبال..

٢١. صالون عبد الرحمن المهدى

عبد الرحمن المهدى: فى كتاب « معهد بحوث ودراسات العالم الثالث» أصدر بروفسور أحمد إبراهيم دياب ترجمة لحياة رجل السودان عبد الرحمن المهدى ذلك الزعيم السودانى المميز والذى وهب حياته للسودان علماً وخبرة وعطاءً وقدم للكتاب الدكتور الباقر أحمد عبد الله مقدمتان واحدة فى ١٩٩٢م والثانية فى ١٩٩٩م.. فى الأولى وتحت عنوان « وقفة متأنية أمام مسيرة الأحلام السودانية» ذكر فيها إن بروفسور دياب فاجأه بالعرض العلمى المتميز والجديد فى دراسته التاريخية..

وكانت المفاجأة فى الرؤية الجدية للتاريخ كما يصفه دياب والفلسفة التى يتجاوز فيها البحث النظرى، ويمخر عباب باخرة الفلسفة الثورية للتاريخ أى النظرة التأملية لتاريخ ما هو آتٍ، بروح ثورية شابة جبل عليها دياب كعالم متخصص ووطنى وملتزم وأمين لأن التاريخ لا يكتب عنده كتمرين أكاديمى يصبح جزءاً من ثرثرة الأكادميين وتناطحهم الثقافى..

أما فى المقدمة الثانية فيقول : إن دياب أحلامه معه، كانت الحلم بوطن واحد ديمقراطى، حدادى، مدادى، نبنيه بالحلم الذى نحلم به يوماتى.. وإن دياب مقاتل شرس لأجل الوطن، أما كتاب « الوثيقة «عن الإمام عبد الرحمن المهدى فيشمل

على عدة وثائق عن نسبة وعن وطنيته، عن حبه للسودان ورغبته فى علاقة متألقة مع مصر دون المساس بحريته كسودانى ، وفيما كتبه الإمام نيابة عن حزب الأمة إلى الزعيم مصطفى النحاس يعتب عليه فرض الملك الجديد على السودان فى ديكتاتورية يخضع لها « هتلر» وينحنى إجلالاً لها « موسولينى» ، ديكتاتورية لا تعبأ بكرامة السودانيين ولا تقيم وزناً لحقوقهم التى يرونها ويراها العالم..

ويشهد ضمير النحاس بأنه هو نفسه يعتقد إنها غير عادلة وغير مشروعة، وإن أهل السودان ثائرون بصدور مفتوحة لإستقبال الرصاص وتسابق إلى الموت فى سبيل حياة كريمة ، ويقول للنحاس: إن الإنسان حين يرجع إلى حكم العقل والمنطق لا يسعه أن يسخر بجرأة النحاس الذى أعلن الملك الجديد ولم يجرد له سيفاً ويخضع الملوك بقوة النار والحديد، وقد كنا منهم هذه الجرأة ونحمدها لو أن النحاس رجع إلى الشعب السودانى أو إلى مجلس الأمن للإستفتاء..

وإن إعلان ملك مصر ملكاً على السودان بهذه الطريقة السهلة الميسرة ما هو إلا مسرحية يندى لها خجلا جبين القرن العشرين ، وجبين الديمقراطية التى ينادون بها ويزعمون غنهم من حُماتها، ويمتلىء كتاب دياب بالوثائق العديدة عن عبد الرحمن المهدى وعلاقاته الطيبة بنفر كريم من أبناء الوطن ومن أبناء مصر الشقيقة، والذين يحادثه البعض فيهم طالباً مساعدته فى التنفيس عن كربه لأن من نفس عن كرب إنسان سلم من كرب أو ضيق يوم القيامة.. وفى رسائل عبد الرحمن المهدى إستنكاراً لقول بعض الناس إنه صنيعة الإنجليز لأن له أصدقاء منهم ، وقال : إنه مما يدعو للدهشة أن يقال عن إبن المهدى إنه صنيعة هذه الأمة أو تلك، فإن إبن المهدى مكوّن من يوم أن قام أبوه ورفع إسم السودان ، وبنى تاريخه الحديث..

صالون الإمام: إننى عندما أتحدث عن صالون الإمام أذكر صالون مطران الخرطوم الأنبا دانيال والذى كان صالوناً وطنياً أدبياً راقياً ، وكان الحديث فيه يختلط الدين بالوطن لأن الله أوصانا بمحبة الأوطان ، وقد قيل عن السيد المسيح: ولما جاء إلى وطنه «.. لقد كان السيد وطنياً مخلصاً لم يترك وطنه ويذهب إلى أى وطن آخر لكى يُعلى من شأن القيم الروحية السماوية فى بلاده قبل أى وطن آخر .. وتحدث مكى أبو قرجة تحت عنوان « موت حلم» عن توماس جراهام الإنجليزى الذى ظروفه أن تقوده يوماً إلى السودان وكيف إنه لم يجد صعوبة فى الولوج إلى مؤسسات

المجتمع السودانى والإرتباط به والإتصال بشخصيات إجتماعية وسياسية وثقافية، وكيف أقام هذا الإنجليزى علاقة وثيقة عراها مع الإمام عبد الرحمن المهدى الذى كان قد بلغ ذروة تألقه وعطائه الغيداق، وكيف كان يتردد على مجلسه العامر الذى ضمّ الصفوة من كبار المتعلمين والمثقفين..

فلقد كان الإمام ولوعاً بالعلم والعلماء متصلا ببقية الكرام ممن عاصروا الدولة المهدية وعملوا فى دواوينها كالشيخ الطيب أحمد هاشم مفتى السودان ، والشيخ محمد عمر البنّا العالم والشاعر، والشيخ مدثر الحجاز ، وقد ضمّ صالون الإمام العديد من الأدباء والشعراء الوافدين من مصر والشام مثل المراغى وماضى أبو العزائم، وفؤاد الخطيب، والقبطى الأديب اللامع نسيم قلدس.. ومن خلال صالون الإمام ظهرت الشخصيات البارزة فى الحركة الإستقلالية والتى رعاها هو ، ومن بينهم الزعيم محمد أحمد محجوب رائد الدبلوماسية ورئيس الحكومة، وعبد الرحمن على طه وزير التعليم الذى ساهم فى التكوين الوجدانى لأبناء شعبه يوم كان الوطن هو الأدب وهو القصيدة وهو النشيد وهو الرؤيا، مثلما عضو الصالون يوسف مصطفى التنى صاحب « فى الفؤاد ترعاه العناية» والتى هى بلسم الجراح كلما ظهرت جراح الوطن.. وكثيرون كانوا من رواد صالون عبد الرحمن المهدى ، وأملى أن تتعدد الصالونات الأدبية فى بلادنا، والتحية وروداً زكية الرائحة لندوة السبت والتى يرأسها دكتور عمر قدور، وأركان حربه الشاعر الفاتح حمدتو ورفاقه، والتحية بركة ونعمة لندوة الإثنين التى تنعقد على نهر النيل العظيم وترأسها الشاعرة بثينة خضر مكى، وإلى صالونات أكثر وأكبر وأعمق وأجمل..

٢٢. منصور خالد والقديسة السودانية

ذكرى محجوب: فى عام ٢٠٠١ م أقيمت إحتفالية فى مركز جامعة كمبردج بمرور ربع قرن على رحيل الزعيم المرموق، والمهندس الجسور، والمحامى الجرىء، والشاعر الثائر محمد أحمد محجوب، وفى تلك الذكرى المجيدة كان حديث منصور خالد ذلك الذى وكما كتب عنه مكى أبو قرجه متميز عن أقرانه من السياسيين السودانيين بعمق الرؤية وفخامة الأسلوب الذى يأسر قارئيه متفقين معه أم مختلفين..

وله كتب قيمة وعظيمة مثل حوار مع الصفوة، والنخبة السودانية، وإدمان

الفشل، وقد إلتقيت به وسُعدت بما يقدم من أدب رفيع وأسلوب بليغ وثروة ثقافية لا تضاهى ، وتوغل فى المعرفة ، وإبداع بما يكتب من جديد، وهو الآن على القمة فى وطن القمة مستشاراً لرئاسة الجمهورية مشارك فى قضايا الوطن وقضايا الحوار، وكلما كانت له الفرصة أن يتكلم كلما أتى ما يؤكد ثقافته الإنسانية وإعتزازه بتاريخ السودان..

ولهذا فهو عندما تحدث فى مناسبة ربع قرن على رحيل محجوب، تحدث عن تاريخ السودان وعن الخلفية المسيحية لتاريخ بلادنا والتى إمتدت فى عمر الوطن إلى أكثر من عشرة قرون من الأمجاد الروحية، والتى فيها إعتز الإنسان بإنسانيته، وإعتز السودانى بلاده، وملك ناصية الحوار الروحى ، حتى كان ملوك النوبة المسيحيين يتبنون أخلاقاً سامية رفيعة فى التواضع الجم والأدب الرفيع، والسمو الروحانى، وقد رسم الملوك فى حماية الله وفى حماية القديسين والملائكة النورانيين..

وهذه المرحلة المسيحية قلّ الكلام عنها ، ولكن منصور خالد وفى كلمته الممتازة تحدث عن الحضارة النوبية المسيحية فى تاريخنا المجيد ، ملقياً الضوء على ثروتنا الروحية، وأشار فى حديثه إلى تجربة أسطورية لإمرأة سودانية جنوبية خاملة الذكر تدعى « جوزفينا بخيت» عاشت كرقيق فى أواخر القرن التاسع عشر، وجىء بها إلى الخرطوم بعد أن تعرضت لعذابات مريرة على أيدى تجار الرقيق، وكان خلاصها على يد القنصل الإيطالى العام فى زمن الدولة التركية السابقة، والذى أخذها معه إلى إيطاليا حيث تمت هناك معموديتها وصارت مسيحية وسميت جوزفينا.. إلا إنها أصرت على الإحتفاظ بإسم « بخيتة» فخراً وإعتزازاً بسودانيتها، وإنضمت إلى مجموعة الراهبات « أخوات كانوسيان» واصبحت معروفة بإسم « الأخت السوداء»، كما كان القديس النوبى « موسى» فى القرن الرابع معروفاً بإسم « موسى الأسود»..

القديسة السودانية: إن هذه القديسة وكما ذكر عنها منصور خالد أتت بأعمال إنسانية أثارت الإعجاب حين أنبرت لحماية سكان ستيو خلال عمليات القصف، وهكذا الرهبان والراهبات والمبشرين والمبشرات يقدمون الحماية والرعاية لكل من يحتاج إليها، وهنا أذكر المطران « كمبونى» والذى نال لقب « أبو السودان» والذى أعطاه اللقب هو شعب السودان لأنه كان بطلا للإنقاذ الروحى والجسدى فى درع آثار

الفيضان الجارف، والذى كان عام ١٨٧٩ م والذى نكب فيه كثيرون، ولكنه لم يقف مكتوف الأيدى ، بل سافر إلى بلاده وجاء عائداً بالكثير من المساعدات الإنسانية لمنكوبى الفيضان ، ولذلك لقب بأنه « أبو السودان « ..

ويُعد كمبونى أول أخصائى إجتماعى فى السودان ساعد أهل السودان على الإكتفاء الذاتى بالزراعة لتأمين حياة الناس، وهو ما يعرف الآن بالعون الذاتى ، وقد بدأ بهذا فى الأبيض وجبال النوبة وبربر والقضارف، وبعض بلدان الجنوب ، وقد إنتقل كمبونى إلى أمجاد السماء مريضاً بمرض الحمى، ومريضاً بحب الوطن السودان والسودانيون الذين أحبهم ومات فى وسطهم ودفن فى حديقة الكنيسة الكاثوليكية والتى كانت فى موقع رئاسة مجلس الوزراء الان، وكان هذا فى العاشر من الشهر لعام ١٨٨١م..

أما القديسة « بخيتة» فقد طوبها البابا فى عام ١٩٩٢م وجعلتها الكنيسة قديسة مع مصاف القديسات لتنضم مع نفر قليل من الكاثوليك السود الحبة السوداء، وقد إبتهج العالم كله بها ، ما عدا السودان كما قال منصور خالد حيث تجاهل الإعلام الحكومى نبأ إختيارها قديسة، وكان هذا بعد خمسون عاماً من رقادها فى الرب وإصرارها على إسمها السودانى والذى يعنى « الطوباوية» وهو إسم مشتق من مكاريوس، ومكى، ومقارة، وماكرينا، ويعنى» صاحب « الحظ السعيد» وهى صاحبة حظ سعيد ليس معنا كلنا فى السودان إنما مع الدكتور منصور خالد صاحب الفكر الواسع والقلب الكبير والذى يعيش الآن سعيداً فى وطنه..

٢٣. الصادق بخيت الإعلام والإرهاب

عرفت الصادق بخيت منذ أمد بعيد، وعندما كان مستشاراً إعلامياً لرئيس الجمهورية، وكنت أحاوره كثيراً فى أن رئيسنا المفدى وفى المحافل العالمية داخلياً وخارجياً يفضل أن يتحدث من خطاب مكتوب حتى لا يأخذه الحماس وندخل فى متاهات وتوترات ورئيسنا يمتاز بالكلام على سجيته، وهذا أمر يحدث بطلاقة وبحرية فى اللقاءات الأسرية مثل إفطار رمضان الذى يقيمه أقباط السودان وما يحوى هذه اللقاءات الأسرية من دفء روحى يستلزم حديثه القيم الجميل..

وقرأت للصادق بخيت ورأيته صادق المشاعر فى جبة صوفى فقيه ، فكلامه

فقه له معناه، وفقهه أدب جم وحب وافر لبلادنا العظيمة التى ما بخل عليها أبناؤها بالفكر أو بالقلم ، وها هوذا يكتب كتابه القيم عن الإعلام والإرهاب ويحاور فى جدل التجاذب والإفتراق، وكتابه قليل الصفحات كثير النفحات، وهو يتساءل الإعلام أم الإرهاب ؟..

من يتقدم ومن يسعى منهما وراء الآخر ؟ ويقول : إنه حاول توضيح هذا السؤال فى بحثه أكثر من محاولة الإجابة عليه، وهو يرى إن أغلب النظريات الإعلامية قد إستندت إلى جملة من الفرضيات الأساسية فى توصيف ماهية الإعلام من حيث الوظيفة والأهداف وتأثيراته البينية فى العلاقات المجتمعية ووضعه لأجندة حوار السياسة والإقتصاد والثقافة إلا إن هذه النظريات يبدو إنها أغفلت علاقة الإعلام بالإرهاب ولم تضع لها وصفاً أو قياسات موضوعية ..

وإذا كان هنا البعد قد غاب طويلا عن المباشرة فى الإستخدام النظرى أو الإفتراضى فإن الأحداث والوقائع العالمية تكشف لنا توظيفه بشكل أو بآخر فى الإعلام العربى من خلال عشرات الإستخدامات المدروسة بعناية فائقة، التى ينبغى الإنتباه إليها وتحليلها ووضعها بين يدى العرب والمسلمين.. فقد ساهم الإعلام الغربى فى إضفاء الكثير من التشويه على صورة العربى المسلم وطبع كل أشكال مقاومته المشروعة لصنوف الظلم الواقع عليه بالإرهاب عبر إنتاجه الإعلامى مولداً بذلك موجة من العداء والكراهية من قبل المشاهد الغربى وليس واضح فى معارفه عنهما فى الوقت ذاته..

وأعتقد إن ما كتبه الصادق هو صدق صادق، وأعتقد أيضاً إننا ضحايا وسائل الإعلام، الإعلام الخارجى يقدمنا فى صورة لا تتوافق مع ثقافتنا وهدوء طباعنا ومحبتنا للسلام، والسبب هو إعلامنا الداخلى والتصريحات المتعددة والمتباينة والمتطرفة ، وغير المسئولة حيث يقف شخص مسئول وهو غير مسئول ويتحدث : إننا أعددنا لأمريكا ما إستطعنا من عدة وعتاد، وإننا نطالب أمريكا أن تلم الدجاج وإلا، كما يقف آخر ليعلن الجهاد، وهو بهذا يفقد قضية الدفاع عن الوطن قوميتها، هذا عدا الشعارات المتعددة والحماس المتوتر لدين بعينه فى مجتمع متعدد الأديان أو لثقافة بعينها فى مجتمع متعدد الثقافات..

وإن كنت أحس الآن أكثر مما مضى بتباين التصريحات وعلى الأخص فى حكومة

الوحدة الوطنية التى لم تتبنى موقفاً موحداً فى القضايا الوطنية، ورغم إختفاء الحديث السياسى الذى كان غير سياسياً ، فإن تضارب التصريحات ينهال أمطاراً أكثر من أمطار موسم الخريف عندنا..

الإعلام والإرهاب: كلما جلست مع الصادق بخيت كلما تمتعت بآرائه الحرة وثقافته العالية، وهو مثقف لا يتعالى على جليسه ، إنما فى هدوء وتؤدة يثبت رأيه المتزن، ويحاول أن يشرح بأسلوب أبسط مما يكتب به ما هىّ رؤياه وتطلعاته ؟ وما هو معنى أبحاثه ؟ ، وعندما تتجول فى كتابه « الإعلام والإرهاب» سوف ترى إنه كاتب ناجح وموفق ، يأخذك من موقع إلى موقع ويرصد الموضوع رصداً علمياً وأكاديمياً ..

ويتحدث عن أصل العلاقة بين الإرهاب والإعلام، ثم عن رؤية إختزال الآخر وهى أصعب القضايا ، عندما يختزل الآخر من الغرب، وعندما يختزل الغرب من الآخر، والعالم كله يشكو من إختزال الآخر، والمختزلون يتالمون ليس على مستوى دولة لدولة أخرى، وإنما على مستوى التعددية فى المجتمع الواحد..

وقد حاولت أمريكا فى بيان حقائق حول رأى الحكومة الأمريكية فى الإرهاب أن تفك الإشتباك بين الإسلام والإرهاب ، حتى لا يتم تحديد الإرهابى على أساس العرق أو الجنس أو الدين، لأن معظم الأمريكيين والمسلمين يتشاطرون قيماً أساسية..

ولقد قدم بروفسور الطيب زين العابدين لهذا الكتاب، والذى يرى أن البحث إضافة جيدة لقضية الإعلام والإرهاب التى تؤثر سلباً على صورة العرب والمسلمين، وتمثل تحدياً للسياسيين والإعلاميين فى المنطقة لمواجهتها بحكمة وذكاء وموضوعية، وأقترح أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية حتى يكون شهادة موضوعية لإعادة النظر فيما تتهم به بلادنا من إرهاب، على أن يستمر كل وطن فى تحرير الفكر من إنحراف العداء والعدوان على الآخر..

٢٤. محمد إسماعيل الأزهرى

بيت الأمة: إلى بيت الأمة دخل الحزن الشديد بالفقد المجيد، وليس بيت الأمة فحسب هو الذى بكى الفقيد ، وإنما كل بيت فى الأمة، فالفقيد هو الزعيم إبن الزعيم، الصوفى إبن الصوفى، النزيه إبن النزيه، يتحدثون اليوم عن الشفافية والتى هى نقاء القلب، والتى قال عنها السيد المسيح فى تطويباته : طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله، وهم يعاينون الله فى كل شىء حولهم، ويتقون الله فى وطنهم وأبناء وطنهم ، ويحاول أهل الدين اليوم أن يدخلوا إلى عالم السياسة لكى يحيا أهل السياسة فى شفافية نقاء القلب، ولكنهم ينقرون فى الصخر الوعر طريقاً للقيم الروحية النبيلة.. ويتحسرون على الماضى المجيد يوم أن كان السياسى نزيهاً، عف اللسان، حر البيان، نقى السريرة، طاهر السلوك..

ويظل أمام أمتنا الزعيم إسماعيل نموذجاً يحتذى فى الشفافية ولقد سار إبنه على هدى مبادئه العظيمة، ولكن وبكل أسف رحل إسماعيل الأزهرى وهو سجين فى سجن كوبر، ورحل إبنه محمد أثر حادث حركة صعب وكأن هناك قوى ضد إرادتنا تسجن الحق، وتدفنه ميتاً من سجن سجين.. ولكن ثقتنا فى مراحم الله، وإعترافاً منا بان الموت هو المكتوب وبأنه قد كتب على جميع الناس أن يموتوا مرة واحدة وبعد ذلك الدينونة..

هذا يجعلنا نتعزى ونقبل إرادة الله الذى لا يقدر أحد ان يرد قضاؤه، هو الرب وما يحسن فى عينيه يفعل، ولأننا نعلم قول السيد المسيح : الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة فى الأرض فهى تبقى وحدها، ولكن لإن ماتت تأتى بثمر كثير، وإذا كان الموت طريق الأرض كلها فإننى متيقن إن موت محمد إسماعيل الأزهرى سوف يكون بركة لكثيرين وثماراً روحية لكل أحبائه وعهداً جديداً من العمل والأمل..

ونقطة إنطلاق نحو إنبثاق فجر سياسى جديد يمجد الحرية ويحيا الديمقراطية ويحقق الرخاء لوطن قد قصمت ظهره الحروب وما بعد الحروب، وحتى السلام صار قاصماً لظهر المواطن الذى يدفع كل إمتيازات الذين اتوا بعد السلام يعيشون المناصب والمخصصات والمكاسب، والأمل منعقد على أن يكون رحيل محمد إسماعيل الأزهرى هو بعث جديد لمفاهيم جديدة ، وسوف يحّول خريف الخير فى

بلادنا الأشجار العارية والأوراق السياسية اليابسة إلى خضرة وحياة..
أتموت الأوطان ؟: ولى مع محمد إسماعيل الأزهرى ذكريات يفوح عبيرها من رائحة وطنية محمد التى كانت وتراً يعلو على كل الأوتار، كنت ألقاه فيمتلىء قلبى بالأمل وأرى فيه صورة أبيه ووطنية أبيه، وعندما كنت أتجاذب معه أطراف الحديث أذكره بأننى أملك توقيع أبيه فى وثيقة تدشين كنيسة الشهيدين يوم ١٩٦٨/٤/٦م وكنت أقول له: لا أدرى لماذا إختار الأقباط السادس من أبريل لهذا الحدث العظيم؟ ولماذا إختار الشعب السودانى السادس من أبريل للإنتفاضة الشعبية الرائعة ؟ وهذا توافق إلهى، فالكنيسة بناء روحى يأخذ بيد الإنسان فى طريق الحرية وينقذه من ذل الإستعمار للشيطان..

وقد تحدثت مع محمد عن الصورة القديمة الوقور للزعيم إسماعيل الأزهرى وهو يقف فى وقار على منبر كنيسة الشهيدين والذى رسم عليه صليب المسيح إعتزازاً بآلامه التى كانت عبوراً إلى القيامة المجيدة ، وكان قد ألقى كلمة فى الإحتفال وكنت أؤكد لصديقى محمد إنه كان حاضراً للإحتفال، فلقد كان محمد فى طفولته جزءاً من بروتوكول رئيس مجلس السيادة..

وكان محمد إسماعيل يتابع الأعمدة التى أكتبها وكنت ألتقى به فى بيته مع أسرته العظيمة الوالدة والخوات والأنسباء ويفيض الشعر رقراقاً على فم البروفسور عبد الرحيم كرار زوج جلاء إبنة الزعيم التى ولدت فى يوم جلاء آخر جندى إنجليزى عن السودان، وقد كان محمد يعبر عن إعجابه بمقالاتى ، وذات مرة كان سعيداً جداً بمقال عن الثالوث فى رقم ثلاثة عند المسيحيين والمسلمين..

وفى أحزانى لفقد محمد أقول ما قاله الشاعر الأديب النسيب الفاتح حمدتو : عفواً أتموت الأوطان؟.. فالفقد عزيز ياوطنى.. والخطب يهز الوجدان.. من قال محمد قد مات ؟.. أيموت الفكر المزدان ؟.. أيموت نضال الفرسان ؟.. مهلا أيموت الفنان ؟.. فمحمد روح تجمعنا.. قد عاش بحب السودان، ومحمد صار لنا وطناً، عفواً أتموت الأوطان ؟..

التحية لذكرى الزعيم إبن الزعيم ، أما نحن فسوف نبقى مثل نجم السعد نحيا بالدواخل ريثما تصفو السماء..

٢٥. ندوة أم درمان

مركز عمر بشير: أقام مركز عمر بشير للدراسات السودانية ندوة عنوانها « أم درمان» وقامت أمل عمر وهدى مبارك بتحرير هذه الندوة فى كتاب عنوانه « أم درمان مجموعة أوراق للتوثيق» مداولات الندوة الأولى لتوثيق وكتابة تاريخ ام درمان ٢٩-٣١ يناير ١٩٩٤ م، والكتاب يقترب إلى مائة وثلاثون صفحة، ويحكى إن عمر بشير كان يحب أم درمان حباً جماً كان يعشقها عشق أهل الصوفية لعالم الروح ..

كانت أفريقيا عشقه والسودان هاجسه قال عنه دكتور إبراهيم دقش: إنه عندما شهد فيلماً وثائقياً عن إحتفال العاصمة الأثيوبية بعيدها المئوى ، يحلم بمثل ذلك الإحتفال لأم درمان ويقارن لك ما فى تراب أم درمان ونبضها بمدن أخرى فى أفريقيا.. ولقد بدأ مركز محمد عمر بشير بداية صحيحة كما يرى دقش بأم درمان، وأم درمان ليست مجرد بيت الخليفة وقبة المهدى والطابية والمسالمة وغزال المسالمة الشارد، بل هى ما وراء كل ذلك وما بينه وأم درمان لها عشاق كثيرون يتغنون بها ويبتهجون ويسعدون ويتحاورون ويكتبون الشعر الرقيق لهذه المدينة الوطنية..

ولقد رأيت إن ندوة « أم درمان» تتحدث فقط عن أمجاد أم درمان وكأنه لا يوجد فى السودان غير أم درمان، وربما ما دفع بروفسور عون الشريف أن يكتب عن أمجاد الخرطوم بحرى وحلفاية الملوك وهو عينه كان وراء كتابة بروفسور سعد محمد أحمد سليمان كتابه « الخرطوم عبر العقود النشأة والتطور ١٨٢١م-١٩٧٠م «.. وهو مهندس وأستاذ لهندسة عمليات ونظم التصنيع بجامعة البحرين، ورغم إن الهندسة هى تخصصه الأكاديمى ولكنه من فرط حبه للخرطوم ورداً مهذباً على عاشقى أم درمان كتب كتابه الأدبى الجميل عن الخرطوم..

وفى إعتقادى إنه لا مانع أن يتنافس المتنافسون فى حب مدنهم الجميلة التى تزين وطنهم الأصيل، أما عن أم درمان فلقد رأت الجامعة الأهلية أن تكرم بروفسور عمر بشير بأن يكون التوفيق لأم درمان هو فاتحة أمان لندوة « أم درمان» وكانت خطة مشروع الندوة أن تكون مواضيع البحث « أم درمان والمهدية «..» أم درمان والحركة الوطنية».. «نساء أم درمان» ، « ظرفاء أم درمان»..

وأعتقد إن الظرف ليس قاصراً على الرجال، وأم درمان وتنمية المصنوعات الشعبية وأم درمان ودورها فى ترقية الأطعمة الشعبية، وتجار أم درمان وأهل الصحافة وأرباب الطرق الصوفية ومنتديات أم درمان والتى يظهر فيها نجم جورج مشرقى والذى كان دكانه صالون أدبى يلتقى فيه كبار العلماء والأدباء والشعراء، وكان هو فى وقار يراقب تحركاتهم ويقدم لهم التسهيلات، وعندما أعجب مثلا بالبروفسور على شمو عندما كان فى بداية عمله الإذاعى وعرف إنه المذيع صاحب الصوت القوى ورآه ضعيف البنية كافأه بطعام ومشروب مجاناً ، وأم درمان لديها الكثير من الإمكانيات التى تساند العديد من الموضوعات السياسية والأدبية والدينية والخيرية..

ندوة أم درمان: ولقد إنعقدت الندوة وقدمت فيها الكثير من الأبحاث عن أم درمان لأن أم درمان كانت العاصمة الوطنية ويفد إليها من الأقاليم من يرغبون فى العلم والتجارة، وأذكر هنا : إن التجار الأقباط عندما يبدأون عملهم فى الأقاليم ويرسمون خطى كتبت عليهم ، ومن كتبت عليه خطى مشاها وعندما تنجح تجارتهم ويكبر أولادهم يأتون إلى العاصمة ويفضلون أم درمان اكثر من أى مدينة أخرى، ويشترون بيتاً بجوار الكنيسة فى المسالمة ليطمئنوا على الأسرة..

ويحشرون أنفسهم حشراً فى سوق أم درمان والذى يسمى « سوق النقادية» لأنهم رواد تجارة الأقمشة، ولما ضيقت عليهم الدولة الخناق، ليس دولة السودان فقط إنما دولة الصين الشعبية بالملابس الجاهزة إتجهوا إلى تجارة الأدوات المنزلية وتجارة الخردوات ولكن تبقى أم درمان حتى الآن حلم تجار كل ولايات الخرطوم حتى يتحقق الحلم وتصبح حياتهم فى الأقاليم ذكريات جميلة يردد الدهر صداها وأثراً طيباً فى أخلاقهم وكرمهم وحبهم للآخر وعشقهم لإضافة الغرباء وحياتهم مع أهلهم وكأنهم أسرة واحدة، وينعكس هذا إيجاباً على الكتابات الأدبية والصحفية والتى فيها يعتز المسلمون بصداقاتهم مع أقباط السودان ، تلك الصداقة التى تجعل المسلم يؤمن القبطى على بيته وأسرته عندما يتغيب والقبطى جدير بهذا وحفى بأن يحترم المسلم جاراً له مكانته فى قلبه ، فلقد طلب السيد المسيح أن نحب الجار وقالت الوصية : أن تحب قريبك كنفسك..

إن أم درمان جديرة بأن يكون لها أكثر من ندوة، وأكثر من توثيق وجديرة بأن تحظى بإهتمام طلبة الدراسات العليا فى الجامعات إن أم درمان حظيت بالكثير من الإهتمام فالإذاعة عندما انشئت أثناء حكم الإنجليز إختاروا أم درمان وحتى إذاعة الخرطوم تبث الآن من أم درمان..وأيضا عندما بدأ تلفزيون السودان بدأ فى وزارة الإستعلامات أيام طلعت فريد فى أم درمان، وحتى عندما فكرت ولاية الخرطوم فى تلفزيون ولاية الخرطوم جعلت مكانه أم درمان.. ويقول محبى أم درمان : إن ثورة ١٩٢٤م أبطالها من أم درمان وهكذا إشتعلت الحركة السياسية والمسرحية والصحفية من أم درمان..

٢٦. مفاهيم يجب تصحيحها

دكتورة نعمات فؤاد: هذا المقال فى هذه المرة للدكتورة نعمات أحمد فؤاد وهى مصرية صميمة ومتميزة وتعرف جيداً كيف تتكلم عن مصر، هى أديبة تعرف كيف تختار الكلمات، وهى صورة للوحدة الوطنية ، فهى تخلص لمصر وطنها قبل كل شىء وترى إن حضارة مصر سبقت كل الحضارات، وهى صاحبة الكتاب الموسوعة» شخصية مصر» والذى طبعته الهيئة المصرية للكتاب فى ١٩٧٨م..

ومنذ صدق هذا الكتاب كتبت عدة مقالات فى الجرائد المصرية ومن بينها المقال الذى سأنقله إلى القارىء السودانى ليرى كيف يعتز المواطن بوطنه وكيف يرى بواطن الجمال فيه، ومعروف عن المصرى إنه يقبل منك أى كلام عن نفسه ، عن أهله، ولكنه يرفض أن تتكلم ببنت شفة ضد مصر لأن مصر هى حبه الأول وحبه المستمر وحبه الآخير ..

وفى أول الكلام لكتابها قالت عن مصر: شخصية قاهرة، وروح آسرة، وعطاء لا يضن، ووفاء لا يمن، ورجاء لا يخيب، تمضى الدول، ويذهب أصحابها، وتظل مصر الباقية، شخصيتها هى، هى.. لا تتبدل ، ولا تتبدد، ولا تتحول، إننى أشعر بقوة كلمات الدكتورة نعمات، ولهذا رأيت أن أقدم لقارئى موضوعها هذا الذى نشر فى جريدة الأهرام ١٨ أغسطس ٢٠٠١م..

تصحيح المفاهيم: قالت الدكتورة نعمات: أبدأ بكلمة هى أقرب الكلمات إلينا وهى أبعدها عن المفهوم الصحيح، كلمة قبط.. دائرة المعارف البريطانية الجزء السادس

تقول: إن كلمة قبط معناها» أهل مصر» المصريون منذ القدم، أى قبل أن تأتى الأديان، وفى المعجم المصرى الموسوعى للمصطلحات الثقافية للدكتور ثروت عكاشة الذى شرفت به يوماً وزارة الثقافة إنساناً وقيمة ومحتداً يقول: ترجع كلمة قبط فى الأصل إلى الإسم القديم لمدينة منف وهو « حت كبتاح» ومعناه معبد قرائن الإله بتاح.. وكان إسم العاصمة منف يطلق مجازاً على مصر كلها، أى أن كلمة قبط إسم جنس لا إسم دين..

وتقول الموسوعة الميسرة ص ١٣٦٩ إن كلمة قبط معناها عند اليونانيين « سكان مصر»، أضيف إن اليونانيين وجدوا كلمة جبت المنحدرة عن قبط وأضافوا إليها OS»“ أداة التعريف عندهم فكانوا يقولون: جبتوسن، وهكذا تلتقى المصادر كلها على أن كلمة قبط تعنى المصريين وأوقن إن المصريين تمسكوا بها إعتزازاً وإستعلاء على الرومان لعنجهيتهم ، ثم جاءت المسيحية وإعتنقها المصريون بحاستهم الدينية وإيماناً بها ونكاية فى الرومان الذين عارضوا المسيحية وآذوها فيما قبل إعتناق الملك قسطنطين المسيحية..

وتداخلت الصفتان المصرية والمسيحية فظل المسيحيون من المصريين يسمون أنفسهم القبط أى المصريين إعتزازاً.. وحين جاء الإسلام بعد هذا أى فى القرن السابع الميلادى ودخل المصريون فيه أفواجاً ساير « التسمية» فى بساطة حتى أثر عن النبى الكريم بقوله: سيفتح الله عليكم مصر فإستوصوا بأهلها من القبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً..

جاءت المسيحية من بيت لحم بفلسطين وجاء الإسلام من الجزيرة العربية ولما كانت مصر بعراقتها ونقائها ومسيرة تاريخها متدينة منذ آلاف السنين فقد إستقبلت المسيحية فى توقيتها التاريخى ودافعت عنها كما لم يفعل أحد.. ثم إستقبلت الإسلام فى توقيته التاريخى ووقفت وراءه فى السلم والحرب، كما لم يفعل أحد..

فعلنا هذا بإعتبارنا أقباطاً أى مصريين وفقاً لمدلول اللفظ لغوياً.. فالمسلمون أقباط إعتنقوا الإسلام أى مصريين أسلموا، والمسيحيون أقباط دانوا بالمسيحية، أى مصريون مسيحيون.. الإنسان المصرى المعروف فقط من عمره على هذه الأرض مائتا ألف سنة، وفقاً لما وجد من أدواته فى الصحراء المصرية كما يقول الدكتور جمال حمدان فى موسوعة» شخصية مصر» وعمر هذه الأدوات مائة وثمانون ألف سنة..

الأديان جاءت بعد الإنسان..

ونحن مصريون قبل الأديان..

ومصريون بعد الأديان..

ومصريون لآخر الزمان..

فلا مكان لإدعاء أحد « المصرية» قبل الآخر، أو أعرق من الآخر، أو دون الآخر، فقد إرتبطت مصر بالدينين فى التوقيت التاريخى لهما.. إن التعاطف مع الإنسان والحيوان رمزاً للطيبة والودادة التى تصادق كل شىء، رمز إيمانهم بوحدة الوجود قبل الفلاسفة والمتصوفة وأصحاب النظريات، التقوى الحقيقية عند مصر تتمثل فى الفن..

وفى الفن المصرى تعانق الإسلام والمسيحية لأنهما معاً ينبعان من الفن المصرى القديم، وفى مكتبة جوتا فى مدينة ميونخ رق يتضمن صفحة من القرآن الكريم بها زخارف هندسية متأثرة بالفن القبطى ، ويقول الأستاذ شفيق غبريال : إن طرائق الفن القبطى وأساليبه كانت عاملا من العوامل المؤثرة فى فنون مصر وصناعاتها، وهكذا تعنى كلمة قبطى كل مصرى، وتظل مصر القبطية رصيداً لا يفنى من التراث والخلود ، ومكانة الإنسان والرفق بالحيوان..

٢٧. رائحة الخريف

مجموعة قصص: أهدتنى الأستاذة الأديبة بثينة خضر مكى كتابها الآخير «رائحة الخريف» وفى أسلوب أدبى بليغ كتبت فى الإهداء « إلى أبونا فيلوثاوس فرج، هذه هى رائحة الخريف، رائحة الأرض الطيبة ، أرض السودان أهديها إلى إبن السودان البار محبة وإحتراماً وتقديراً، والكلمات رقيقة رقة النسيم، ومعبرة مثل تعبيرات صادقة تدخل إلى المخاخ وتميز الأفكار، والحقيقة إنها شعرت بمحبتى الشديدة لوطنى السودان الذى أرفض أن أختار غيرة مهما كانت الإغراءات..

وفى أول أيام خدمتى كاهناً لكنيسة الشهيدين تحركت نحو العالم الخارجى وذهبت إلى بلاد عربية وبلاد أوربية، وكان يعرض على هناك أن أعيش وأخدم معهم ولكنى لم أفرط أبداً فى السودان لأننى أعتبره كنزى وبركتى ووجدى وفرحى وألمى، ولا

أرتضى به بديلا، فالسودان يعيش فى قلبى نبضاً وحباً وعندما أذهب لزيارة بلاد المهجر وألتقى هناك بأحبائى أقباط السودان أشعر بمحبتهم الشديدة للسودان ولكل ما فى السودان حتى الهبوب وإنقطاع التيار الكهربائى وندرة السلع..

ويتهامس كثيرون بأننى أتصل بالسلطات فى بلاد المهجر لأنظم رجوع الأقباط إلى السودان وهذا لم يحدث طبعاً ولن يحدث، ولكن هو أمل فى قلبى أن يرجع أقباط السودان إلى السودان لأنهم حتى فى بلدهم الأصلى مصر العظيمة يطلق عليهم أقباط السودان لأن السودان هو أملهم وحبهم وعشقهم..

رائحة الخريف: وكتاب «رائحة الخريف» للأديبة الليبية هو تعبير عن حب الوطن فى عدة قصص من بينها قصة « رائحة الخريف» ، فهى كما قال الروائى فتحى أمباتى تقدم القص العربى الذى يحمل فى أجد ملامحه الهم القاسى فى الواقع المنهار الذى ما إنفك يبحث عن السلام حتى ينفرط فى الإقتتال الداخلى وعلى كاهل المرأة العربية الكاتبة تجتمع تلال من الهموم بدءاً من التعرف على الذات وفتح مغاليق الهوية الثقافية والإجتماعية وحتى جداول الدم الجارية فى أرجاء الوطن..

وقد عبرت الكاتبة عن السودان الممزق الذى يحاول جمع شتاته على فم أبطالها فى قصة « حجوة» وتقول باللغة العامية على فم عشمانة وعزة : عشمانه تبكى.. وعزة بتحاول تقيف وصوتها يمرق من بعيد.. صوتاً ضعيف، زى هلاهيل توبها، زى بلداً موحداً قسموها حتت حتت..زى شعباً تفتت لكويمات وأصبح صرر.. كل ما يلموه فى ربطة سلام ينبهل.. صرة حرابة من الجنوب، وصرة حرابة من الغرب.. وصرة حرابة من الشرق، وصرة زيادة جاية من الخزان شمال..

وعزة يا خسارة، صوتها أصبح ضعيف من المجاعات والحروبات والمرض، صوتها صوتاً ضعيف ومهلهل زى توبها ، لكنها تتجبر وتتحزم ويمرق صوتها زى مطر الخريف وكيفن يهادن.. النوم حليلو.. سافر خلاص، حتى الحلم بقى لى صعب.. حلم السلام ، حلم الأمان بقى لى صعب.. ووبين علىّ يابلداً ممزق بالحروبات والهوايل والمحن.. ووب السجم، ووب ووب يابلد..

وتاريخ كتابة هذه القصة هو مارس ٢٠٠٦ م، ومن داخل الخرطوم وهو تعبير عن أحلامنا الضائعة ، وآمالنا المفقودة، ولكن إعتمادنا على الله الذى به سوف يعظم إنتصارنا، ولقد تحقق بعض السلام ولكن التوب مهلهل ، بل يريدون منا أن

نكره السلام لأن للسلام تكاليف كثيرة ووزارات وبدلات ومصاريف بذخية كانت هى السبب فى زيادة سعر السكر وسعر المحروقات ، وما كنا نأمل أن يقول المسئولون: إن هذا هو ثمن السلام، وما زلنا نقول : لا تجعلوا حتى أحلامنا تصبح صعبة وأثواب آمالنا مهلهلة..

وقد إختارت الأديبة بثينة قصيدة للشاعر محمد عبد الحى تفتح بها مجموعة قصصها من ديوان « الله فى زمن العنف» وتحت عنوان» الملاك الأبجدى» وتقول الأبيات:

سورة الليل فوق لوحك أفق..

من كلام إنطوى فى المداد..

فرّعته كتابة تتلوى..

كلمة أثر كلمة فى عناد..

يفتح الليل فى الدواة شغوفاً..

بطرير من زهرة الأباد..

وملاك مستوحش أبجدى..

بين ضوء السراج والحلم غاد..

أما قصة « رائحة الخريف» للأديبة بثينة خضر مكى وفيها تقول الأديبة إنه فى الخرطوم غبار يملأ الأفق، لون السماء ترابى وغائم، أكياس من البلاستيك تحلق عالياً فوق مستوى الرؤية، ويأتى الخريف بعد صيف قائظ ، وحرارة شديدة وجفاف فى الجو، وتكون الشمس قرصاً دائرياً شديد الصفرة بينما يعانى سكان المدينة من إنقطاع الماء والكهرباء لفترات تمتد من ساعات معذبة، نذر الخريف تأتى دون أية مقدمات ، فجأة يثور الغبار الناعم ويملأ الأفق، وتحاول بثينة أن تتصالح مع عناصر الطبيعة مهما كانت قوتها..

ويبدأ الخريف هبوباً وتراباً وينكسر غصن كبير من أغصان شجرة المانجو التى تحبها، وتحاول هى أن تعود إلى حجرتها ، ولكن نقطة مطر تنزل، بعدها نقطة أخرى باردة كأن سماء الخرطوم تصالحها وقطرات المطر تقبل وجهها وتطلب منها السماح

عن جريمة الرياح الهوجاء..مطر، مطر، تتساقط قطراته، دافئة قوية، تغمر الروح بمتعة لا حدود لها، للمطر فى سماء السودان نداء غامض يهز أقطار الروح..

صوت الرعد يدوى قوياً ، يتمشى الهوينا بين السحب الكثيفة الملبدة بالنماء والخصوبة، يتدرج عنيفاً فى صوت هادر ويسيل فوق كتل الأرض البكر وسرعان ما تنقلك بثينة خضر مكى فى رائحة الخريف إلى ما يحدث فى الساحة السياسية للوطن العظيم حيث تقتادها اللغة الوضيئة عبر طرق يدلهم فيها المعنى ويفيض آفاقاً سامقة فى مسارات الظمأ..

مطر النقوع عادت.. والسأم يفتك بها فى أروقة النقاش المحجوج لينتهى من حيث بدأ فى دائرة غبية فارغة، وإجتماعات جدل وهمية بين حكومة ومعارضة كلاهما تحصد حرثاً فى أرض جدباء هشة غير حقيقية.. وتناجى الأمن والسلام وتقول « يا أيها الأمن الذى إستعصى علينا، أيها السلم المجنح بخيار الإنفصال، إمتلأت الأرض بالسقيا وبنت شعيب تشتد حيرتها ولا تزال تبحث عن القوى الأمين..

وأخيراً دخلت الكاتبة إلى حجرتها بعد قصتها مع الخريف، ونحن نأمل أن يكون الخريف هو خريف الفرح ، وأن تكون رائحة الخريف هى السلام لوطن لم يزل يبحث عن السلام، ليس فقط فى عودة الجنوب والشرق، إنما فى عودة الرخاء والأمان لوطن الرخاء والأمان..

وشكراً للأستاذة الأديبة على قصصها الأدبية الأستاذة..

٢٨. بابكر بدرى

تادرس تادرس: إلتقيت فى سيدنى بواحد من أقباط السودان ، وكان هذا اللقاء شرف لى لأن هذا القبطى العريق تادرس تادرس بحر زاخر بعلم تاريخ السودان، فهو يعرف أغلب الأحداث التاريخية ولديه أهم المراجع عن السودان وهو يمت بصلة قرابة إلى عائلة إبراهيم بك خليل، وأيضا بصلة نسب فزوجته هى من هذه العائلة المجيدة الراقية والتى ترجع فى الأصل إلى المعلم إبراهيم الجوهرى، والذى كان رئيس وزراء مصر، وكان قبطياً فاهماً، وله مكانته فى الدولة وبين أقباط مصر..

وعند لقائى مع تادرس تادرس إمتد بنا الحوار حول تاريخ أقباط السودان.. وله هو فى هذا عدة كتابات على صفحات جرائد تصدر فى سيدنى باللغة العربية، وتعرض تادرس إلى عميد العائلة إبراهيم بك خليل وكيف مات مقهوراً من الإستعمار عندما صمم كتشنر الإستيلاء على موقع على النيل وأقام حديقة الحيوان عليه، ولهذا الشعور بالقهر دفن إبراهيم بك ومعه زوجته بعده فى حديقة الحيوان بحسب وصيته، وبعد دفنه بمدة ما نقل جثمانه وزوجته إلى مقابر الأقباط والتى كانت تقع مكان داخلية كلية الطب..

وعند الحديث عن إبراهيم بك خليل ذكر لى: إن بابكر بدرى فى مذكراته الخاصة تحدث عن إبراهيم وعن علاقته بالحاكم الإنجليزى، وكيف كان كتشنر يناديه بالعم إبراهيم إحتراماً له ولمكانته الرفيعة، ومنذ هذا الوقت فكرت أن أحصل على مذكرات بابكر بدرى، وفى إعتقادى إن من يكتب عن تاريخ السودان لا يكون منصفاً إذا لم يتحدث عن بابكر بدرى ويوسف بدرى وما قدماه من خدمة للمرأة السودانية..

فلقد أخرجوا المرأة من دياجير ظلمة الجهل وعبروا بها إلى نور العلم حتى صارت كلية الأحفاد جامعة لها مكانتها فى قلب السودان وصارت خريجة الأحفاد تمثل المرأة السودانية المثقفة صاحبة الفهم الواسع والمعرفة بشئون الحياة، والتى تقدر أن تكون معيناً نظير الرجل مثلما قال الكتاب المقدس فى الهدف من خلقة حواء: إذ لما رآه وحيداً ألقى عليه سباتاً فرقد وأخذ من جنب آدم ضلعاً وخلق من هذا الضلع إمرأة وسماها حواء، وحواء هنا معيناً نظير الرجل أى مساوية له فى الحقوق والواجبات، ولم يخلقها إلا من أضلاع آدم ، فهى ليست من فوق لكى لا تعلو عليه ، وليست من تحت لكى لا يعلو هو عليها..

وإننى لا أنسى البروفسور يوسف بدرى ونشأت بيننا علاقة حب وإحترام، وكان يزورنى دوماً فى الأعياد وفى وقت وجيز ملأنى بشعور عميق وأشعرنى إننى واحد من أفراد أسرته ودعانى إلى لقاءات أسرته الخاصة جداً، ودعانى أيضا إلى أن أقدم محاضرات فى التربية المسيحية لبنات الأحفاد وقمت بهذا لعدة سفرات ثم إنقطعت ولا أدرى لماذا، فعاد بروفسور يوسف يطلب منى أن أعطى محاضرات عن المسيحية كما يراها المسيحيون، وذلك توسيعاً لمدارك بناته وإزدياداً لرصيدهن ، وإنفتاحاً على الآخر، وفعلا قمت بهذا وكانت محاضرتى تتمتع بتجاوب كبير ولكن

صوت تعصب بغيض من البعض القليل جداً عصف بهذه التجربة..

والآن أعتز جداً بعلاقتي بالبروفسور قاسم بدرى والذى هو خير خلف لخير سلف، والذى يقود ركب الأحفاد والذى تنامى وتزايد أفقياً ورأسياً وهو يقول: إن الأحفاد هى خلوته وإنه هو الفكيه فيها، وهو أستاذ مهذب هادىء قليل الكلام كثير العمل ، يسعدنى فى أعيادى بزيارة ومعايدة أتشرف بها..

بابكر بدرى: وفى كتاب بابكر بدرى « تاريخ حياتى» يدون بابكر بدرى بقلمه الساحر الواقعى وفى أسلوب سهل ممتنع قصة حياته وكفاحه لأجل العلم ، ولأجل رُقى المرأة السودانية، وفى ثلاث أجزاء يأتى الكتاب صفحات تقترب إلى السبعمائة صفحة، ويسجل على الغلاف: إن التاريخ يكتب الحوادث منه العادية للفكاهة وغير العادية من الحقائق للإقتداء بها حسناً وقبيحاً.. وفى صفحة كاملة هى الصفحة الأولى يكتب أصدق التاريخ ما كتب فى زمانه وصدق فيه كاتبه وصدقه معاصروه فيما روى..

ويهدى يوسف بدرى مذكرات أبيه إلى الإمام عبد الرحمن مهدى وإلى أبيه الشيخ بابكر بدرى فى ١٩٥٩/٩/٥م، ويهدى الجزء الثانى إلى أولئك النفر من الآباء والأخوان الذين بنوا سودان اليوم فى فترة الخمسين عاماً الأولى من هذا القرن ، من لحق منهم بالرفيق الأعلى ، ومن لا يزال منهم يساير تقدم البلاد وتطورها..

ويهدى السفر الجليل الذى كتبه أحدهم إعترافاً بفضلهم فى الجهاد وإقتداء بأعمالهم فى التضحية والصبر لتكون للأجيال قبساً يستضاء به فى حوالك الدجنة وحافزاً للسير قدماً على نهجهم، والمحافظة على ما أسسوا وشادوا.. أما الجزء الثالث فقد أهدى إلى مجلس أمناء مدرسة الأحفاد إعترافاً بفضل السابقين ، ومهدى من مجلس أمناء ومعلمى وتلاميذ الأحفاد فى ١٩٦١/١/١م..

أما يوسف بدرى فكان يطلب خمسة جنيهات للثلاثة أجزاء هى ليست قيمة الكتاب فحسب، إنما فيها أيضا تبرع لبناء مدرسة الأحفاد ،ويقول: ولا شك إن ذكرى مؤلفه وما يحويه الكتاب من إمتاع ومعلومات والغرض النبيل من بيعه وأريحيتك المعهودة كل هذه ستجعلك تجود لنا بالخمسة جنيهات والله يجزيك أجراً وخيراً..

ولقد رحل يوسف بدرى عام ١٩٩٥م.. وكان الجنيه السودانى لم يزل فى مكانته، ولكن ماذا كان سيقول عنه إذا إمتد به العمر ؟ لقد دفن الجنيه السودانى مع هؤلاء العظماء. ونعود إلى بابكر بدرى وإلى ما كتبه عن نفسه لنؤكد إنه من عظماء السودان أصحاب الأهداف العظيمة..

٢٩ـ ملك كوش والشمس

شمس البر: عند أهل الشرق إحترام كبير للشمس لأنها تشرق من الشرق، ولأن شروقها يعنى الأمل والحياة الجديدة، ولهذا تبنى الكنائس الشرقية متجهة نحو الشرق وفق إعتقاد بأن الجنة التى طرد منها آدم كانت شرقاً.. وإن المجىء الثانى للسيد المسيح سوف يكون من المشارق لهذا يدفن الميت ووجهه نحو الشرق وهذا وجد ليس فى ممالك النوبة شمال فقط، إنما أيضا فى جبال النوبة غرب السودان..

وفى الكتاب المقدس حديث عن الشمس المُجنحة أى ذات الأجنحة ، وقد رسم فنان وادى النيل الشمس بأجنحة بإعتبارها كوكب سماوى مثل الملائكة يطير فى السماء، ويقول ملاخى آخر أنبياء العهد القديم: ولكم أيها المتقون إسمى تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها.. ويرى المسيحيون إن يسوع هو شمس البر الذى أشرق من السماء وفتح قلوب بنى البشر على السماء لكى يكون البشر سمائيون يتطلعون إلى عالم الروح ويتألقون ألق الروح وينشدون السماء لأنهم خلقوا للسماء، ولأن الإنسان هو الكائن الوحيد بين الكائنات الحية الذى يتطلع إلى السماء..

وكان إعتقاد أهل النوبة بأن الملك هو إبن الشمس وبالتالى فهو إله شمس على الأرض، وعلى هذا كان يتم وصف النشاطات اليومية للملك حسب المصطلحات الشمسية، فعندما يستيقظ فى الصباح فإن إستيقاظه يمثل الفجر، وعندما يخرج من القصر فإن هذا يعنى إنه يسطع فى الأفق، وعلى قوارير العطر كان يتم وضع عبارات مثل « عرق رع»..

أما المرايا المستديرة فكانت ترمز إلى الشمس وكانت مصممة بحيث ينظر الملك إلى نفسه فيها وتنعكس ملامحه فى المرآة فيرى نفسه بصورة والده، وكان الملك لديه فى وقته ما يسمى « العزلة الإلهية» وفيها يمكث فى القصر ويعتزل الناس ويتعبد للإله، ولاشك إن هذا كان يجعله هادىء الطبع وقور القرار لأن الإختلاء بالله يحقق الإمتلاء الروحى..

نشاطات الملك: وكان ملوك كوش لهم نشاطات معينة مثل الصيد أو الرمى بالقوس أو الذهاب لزيارة المعابد والإحتفال بالطقوس المعتادة التى تقام تحت رئاسته وأيضا السفر إلى الأقاليم لحضور إحتفالات تقام كل ستة أشهر فى مدن أخرى ضمن

المملكة ولكن تقاليد ملوكنا الأولين تقول: إن العزلة الإلهية هى أهم تقليد ملكى ، ففيها يستمد السلام والسكينة..

وكان الملوك يقودون جيوشهم بأنفسهم لأنهم قبل العرش كانوا يشكلون جزءاً من المؤسسة العسكرية وكان الملك لديه العديد من القصور فى طول البلاد وعرضها، ولكنه يقيم بشكل أساسى فى مروى ، ويُعد قصر نبتة هو أهم قصر مكتشف حتى الآن.. وكان الملك ينتقل هو وعائلته وحاشيته ، وفى القصر يتم تنصيبه ويبدأ حكمه وإليه يأتى بإستمرار لممارسة شئون الحكم وطقوس الإحتفالات وإستشارة معبد الإله..

وكان القصر ضخماً بأبعاد ٧٠×٤٠ أى ما يعادل ٢٨٠٠ متراً.. وهذه الأبعاد مضاعفة الرقم ٧ عشر مرات وهكذا مضاعفة الرقم عشرة أربع مرات، ورقم عشرة رمز للكمال، ورقم سبعة رمز لأيام الأسبوع الكاملة، ورقم أربعة رمز لجهات الأرض الأربع.. وهذا يعنى كمال القصر كما يعنى إن الملك يسير فى طريق الكمال..

وكان القصر من طابقين ويحوى ستون غرفة والجدران مغطاة بالجبص الأبيض وملونة برسوم وأشكال بثلاث ألوان: الأحمر والأصفر والأزرق، وهناك فى القصر صالونات كبيرة فيها تتم الإجتماعات واللقاءات وعندما يستقبل الملك فى قصره يستقبله الضباط والعيان والكهنة، وفى أحد الصالات كان مكان للتطهير الشخصى عندما يذهب الملك لزيارة المعبد وأعتقد إن التطهير كان بالماء مثلما يحدث حتى الآن فى معابد اليهود وفى الجوامع المقدسة..

وكان فى قصر البركل صالون مساحته ٨١ متراً مربعاً وفيه أربعة أعمدة فقط وهذا يعنى هندسة بالغة الدقة، وبالصالة تجاويف حجرية مثل حضن الآب الآن فى الكنيسة والمحراب فى الجامع.. وبهذه الصالة قبة متجهة نحو الشرق لأن ملك كوش هو إبن الشمس التى تشرق من الشرق، وكان فى القصر صالات مكشوفة تتعرض لأشعة الشمس المقدسة التى تطهر القصر وكل من فيه..

٣٠. زارنا طفل وديع

ترنيمة الميلاد: هناك عدة ترانيم وأناشيد تسجل ذكرى ميلاد السيد المسيح ومن بين هذه الأناشيد زارنا طفل وديع قدره رفيع كل ذا الصنيع من أجلنا، وهو نشيد يتحدث عن الطفل الملك الذى يستوى عنده أن يكون مستوياً على عرش أو مضجعاً فى مزود.. فى مجد العرش يكسبه مثقال حبة من الجلال، ولا هوان المزود يسلبه مثقال ذرة من الجمال ، إنه وليد بيت لحم الذى زارنا طفلا والذى نور جبينه الوضاح يسطع وهو متوج بالمجد والفخار مثلما يلمع، وهو مكلل بالشوك والغار، فعرشه صليب مرتفع وصليبه عرش متضع.. وهو ملك فى كل حال، فلن يكبر جرم القمر وهو بدر، ولن يصغر جوهره وهو هلال..

وكان العالم كله قبل مجيئه فى إنتظار بدر البدور، فى إنتظار شمس النور وكان الإشراق يوم مولده إشراقاً سمائياً ملائكياً ، لقد ولد ملكاً لكن الأرض لم تستقبله إستقبال الملوك الفاتحين الذين شقوا كبدها ليسعدوا هم بشقائها مع إنه جاء هو ليسعدها فأضحى فى سبيل إسعادها شقياً ، فأعرض عنه يوم مجيئه فإنتبذت به أمه مكاناً قصياً وقبلها إنتبذت مكاناً شرقياً، فيه تتعبد لله عبادة حقيقية، ولذلك صارت مؤهلة أن يصطفيها الله وتكون هى المصطفية.. وأن يختارها الله لتكون مسكناً للكلمة وتكون هى المختارة..

ومن أجل هذا الإستقبال الفاتر من أرض الشر والمعاثر لا يدرى أحد فى أى يوم زارنا هذا الطفل الوديع ، أفى السبت أم احد ؟ ولهذا يأتى عيد الميلاد فى أى يوم من الأيام بينما القيامة تكون بالتحديد فى أحد الآحاد بعد عيد الفصح اليهودى، لأنه كان رمزاً للحمل الوديع الذى حمل آثامنا ولا ينبغى للرمز أن يسبق المرموز إليه، وكأن هذا الطفل وبهذا رغب أن ينتفخ بمجد ميلاده كل يوم فيرتفع على سائر الأيام متفاخراً بأنه هو ذلك اليوم الغر..

ولكى يفخر بشرف ميلاده كل يوم، لقد جاءنا كلمة الله طفلا فى بطن مريم ، سكن تسعة شهور بالكمال والتمام ، جاء كلمة الله قاطعاً كحد السهام ساطعاً كنور شمس النام عندما تشطر قلب الظلام إلى ليل ونهار، وإنشطر قلب التاريخ شطرين متميزين يقال لأولهما قبل الميلاد وللثانى بعد الميلاد.. وأصبحت تواريخ الأجيال أمام أنوار يوم ميلاده نسياً منسياً..

لقد صار يوم ميلاده محور التاريخ كل التاريخ، وصار الحديث فائقاً عن ظلمة ما قبل الميلاد، ونور ما بعد الميلاد كيف لا والميلاد كان نوراً أشرق على الجالسين فى الظلمة وظلال الموت، وكان دعوة لنور الحياة الجديدة نور المحبة ونور التواضع، وعاش التاريخ فى النور مع المسيح نور العالم والذى جعل من كل إنسان نوراً للعالم منذ أن خاطب سامعيه» أنتم نور العالم لا تخفى مدينة كائنة على جبل ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت مكيال «..

وإنبعث النور من الإنسان الذى اتى من أجله إبن الإنسان، والنور هنا نور حق ونور فضيلة ونور إيمان حى وضمير مستيقظ، ولهذا كان العتاب موجهاً إلينا إذا كان النور الذى فيكم ظلاماً فالظلام كم يكون ، وأضحينا من نور التعاليم المسيحية السمحاء نستمد نوراً لطريقنا وسراج لسبيلنا حتى نسلك دروب الحياة فى نور الطفل الوديع..

الطفل الوديع: وهذا الطفل الوديع الذى زارنا منذ ما يزيد على ألفى عام ، صار نموذجاً للوداعة ومثلا أعلى للتواضع ، وطلب من تلاميذه أن يتعلموا منه لأنه وديع ومتواضع القلب، لا يصيح ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته، قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة مدخنة لا يطفىء، إنما يملأ القلب بالبهجة والتفاؤل ويتعامل معنا معاملة رقيقة يشجعنا فيها أن نعمل ولا يطفىء نور حماسنا إنما يشعله أكثر نحو عمل أكبر، ولرب الجنود دوماً على متعظم وعالٍ، وعلى كل مرتفع فيوضع.. وعلى كل الجبال العالية والتلال المرتفعة..

وقد ترنمت أم الطفل الوديع مؤكدة إن الرب ينزل الأعزاء من على الكراسى ويرفع المتضعين، يشبع الجياع خيرات ويصرف الأغنياء فارغين، وقد سلك سيدنا العظيم الطفل الوديع عظمة الودعاء، ونبهنا إلى إن من أراد أن يكون عظيماً فليكن للكل خادماً ، وخدمنا وغسل أرجلنا مع التلاميذ كنموذج عملى للوداعة، ودخل إلى أورشليم وديعاً هادئاً على آتان راكباً بينما غيره يركب الخيل الدهماء الشهباء..

فلنحتفل اليوم بذكرى ميلاده المجيد وكلنا توجه نحو الله لكى يملأ تخومنا بالسلام والخصب والنماء، يملأ سوداننا بالأمل الكبير والعمل العظيم والسلام الذى لا ينزع منا، ويكون سوداننا كبيراً وأبناؤه كبار وسياسيون كبار، يعملون لخير الوطن، وسلام لأبناء السودان..

٣١ - المعجم يتضخم والمؤلف يتناقص

جان شامبليون: نذكر هنا العالم الفرنسى « جان فرانسوا شامبليون» الذى ولد بمدينة فيجاك سنة ١٧٩٠م ورحل عنا إلى العالم الآخر فى ١٨٣٢م ، ويرجع إليه الفضل فى إنتشار وإستقرار علم القبطيات، كانت حياته القصيرة التى لم تزد عن الإثنى وأربعون ربيعاً سباقاً مع الزمن، ولقد إهتم بالبحث العلمى وتفرغ للغة القبطية كهواية بجوار عمله السياسى فى الإدارة، وعندما عثر على حجر رشيد إلتقى بكاهن قبطى دارس للغة القبطية وفك رموز حجر رشيد وقرأ أكثر النصوص القبطية وكون لها معجماً كبيراً حتى قال: يتضخم معجمى القبطى كل يوم أما مؤلفه فيزداد نحافة..

وفى عام ١٨٢٢م نشر خطابه الشهير حول كتابة الرموز الهيروغليفية الصوتية والذى شرح فيه مبادىء الكتابة المصرية القديمة التى إكتشفها منذ فترة وجيزة، وهنا نذكر إنه رغم إختفاء اللغة الهيروغليفية لتحل مكانها اللغة القبطية منذ القرن الرابع الميلادى ولكن ظل الأجانب يهتمون بغوامض هذه الكتابة، ومنذ العصور القديمة فسّر الكتاب الإغريق كثيراً من غوامض تلك الكتابة ومن بينهم « خايريمون» الفيلسوف الرواقى والنحوى والذى عهد إليه بمتحف الإسكندرية فى النصف الثانى من القرن الخامس..

كما ترك آباء الكنيسة ومنهم أكليمنتوس الإسكندرى كتابات إهتم بقراءتها وإستعمالها باحثو العصر الحديث، وقد وجد كيرشر فى منتصف القرن التاسع عشر إن معظم الأسماء المصرية القديمة التى يشملها التراث المصرى يمكن تفسيرها باللغة القبطية مستنتجاً إن اللغة القبطية صورة من اللغة المصرية القديمة، وكان هذا فتحاً لشامبليون الذى وجد أن الهيراطيقية ليست سوى صورة مبسطة من الهيروغليفية..

ويُعد هذا من نتائج حملة نابليون على مصر والتى زودت بعدد من العلماء عثروا على حجر رشيد وعلى متون أخرى جعلتهم يتعرفون على اللغة، وقد ظهرت أولى النتائج فى سنة ١٨٠٢م على يد « دى ساسى» و «أكربالد» فى دراسة النص الديموطيقى ونجحا معاً فى التعرف على الرموز وتحليل الأجزاء المكونة للأسماء

وبعدها شرع شامبليون يدرس من جديد وساعده نقش من جزيرة فيلة مدخل النوبة..

وأفاد من مؤلف قديم شرح بطريقة غامضة إن القيمة الصوتية للرموز المصرية تؤخذ من الحرف الأول لإسم الشيء الذى يمثله ذلك الرمز، وعندما يتعرف شامبليون على رمز يبحث عن إسمه فى اللغة القبطية كما إستعان أيضا بالنصوص الإغريقية وأمكنه ملئ الفراغات الشاغرة بتخمين المعنى القبطى للكلمة اليونانية، وكانت هناك كثير من الكلمات اليونانية التى دخلت إلى اللغة القبطية ، وحتى الآن توجد ألحان فى الكنيسة القبطية باللغة اليونانية وتسمى الألحان الرومية أو لحن رومى ..

كما أن اللغة القبطية نفسها تبدو وكأنها لغة يونانية لأنها إستعانت بخمسة وعشرون حرفاً من الأبجدية اليونانية وسبع حروف من الديموتيقية مما جعل الكثير من المؤرخين يخلطون بين القبطية واليونانية وعلى الأخص من يؤرخ للسودان حيث كتبت اللغة النوبية بحروف قبطية ويقولون: إنها باللغة اليونانية التى لم تكن قريبة إليهم إقتراب اللغة القبطية التى كانت تستعمل فى العبادة حيث بدأ التبشير فى بلاد النوبة بواسطة رهبان أقباط نقلوا كل ثقافة وحضارة وكتب الكنيسة القبطية إلى الكنيسة النوبية، وحتى الصور والأيقونات والإتجاه نحو الشرق والدفن نحو الشرق..

المعجم القبطى: وإستمر شامبليون يفتش فى كنوز اللغة القبطية وينسخ النصوص ويضيف كل يوم كلمات جديدة إلى معجمه الذى تضخم بينما هو من محبته للعلم كان يسهر ويتعب وجسده المنهوك يتضاءل، وعين أميناً للآثار المصرية بمتحف اللوفر، وجاء فى عدة رحلات إلى مصر وألف أربعة مؤلفات هى:» آثار مصر والنوبة «، «ومخطوط المذكرات التفسيرية» «والمعجم»..

كما نشر مؤلفه المدهش مذكرات عن» مصر والنوب» الذى سجل فيه مشاهداته يوماً بيوم عند زيارته للآثار الفرعونية وتعليقاته المستفيضة وقراءته للأسماء والنصوص التاريخية ، وكم أود أن يقوم أحد البحاثة من السودان بتقديم أطروحة دكتوراة عن ما كتبه شامبليون عن بلاد النوبة بالذات لكى يلقى الضوء على مرجع مهم من تاريخ السودان..

فلقد مات شامبليون مرهقاً من كثرة البحث وترك كتبه تذكاراً عن نفسه، وأرجو

أن نزيح الستار عنها وسوف نجد منها ما يفيد تاريخنا لأن تاريخ ممالك النوبة المسيحية بالذات لم يزل سفراً مختوماً ونحن نحتاج إلى من يفك ختوم هذا السفر النفيس.. وتاريخنا حتى الآن جنة مغلقة، عين مقفلة، ينبوع مختوم..

وسوف ندخل معاً هذه الجنة، وسوف يهيىء الباحث السودانى طريقاً لنا لكى ندخل جنة تاريخنا، ونفك ختوم ينبوعنا، وكلما إزدادت الجامعات فى السودان كلما إزداد الأمل أمامنا أن نصل إلى تاريخ ما أهمله التاريخ، ونزيح التراب عن كنوزنا، ومعنا علماء الآثار يكتشفون الأمجاد السودانية المختفية تحت عباءة رمال السودان ، وفى إنتظار بحثكم، دام فضلكم..

٣٢. كرسي التعايش الديني

كرسى اليونسكو: تقدمت بروفسور فاطمة عبد المحمود مدير كرسى اليونسكو للمرأة فى العلوم والتكنولوجيا بدعوة نفر كريم مقدّر من رجال الدين المسيحى، والدين الإسلامى ومشايخ الصوفية أرباب الحكمة والموعظة الحسنة وأعلنت فى اللقاء مولد كرسى اليونسكو للتعايش الدينى ، وذلك بالتعاون مع أعالى النيل، والنيل هو الجامع هو الجامعة حيث كان اللقاء فى كرسى اليونسكو للمرأة والذى يقع على شاطىء النيل سليل الفراديس الذى إختار له أجدادنا السماء منبعاً وينبوعاً والأرض مصباً وإرتواءاً..

وتبادل الحديث مسلمون ومسيحيون من بينهم بروفسور فاطمة وبروفسور فيصل والسفير والشيخ إسماعيل أحمد إسماعيل والذى أصر الصوفية ان ينضم إلى زمرتهم ويكون شيخاً، وقد وضحت للحاضرين إن شيخ هو لقب من ألقاب القس والأسقف فى الكنيسة مثلما قال يعقوب الرسول: أمريض أحد بينكم فليدع شيوخ الكنيسة ليصلون عليه وصلاة الإيمان تشفى المريض والرب يقيمه وإن كان فعل خطية تغفر له..

وكان شيوخ الكنيسة يدهنون المريض بالزيت والذى لم يزل ومنذ القدم فيه شفاء للناس وفيه ترطيب للجسد حيث عندما وقع إنسان بين اللصوص فى مثل السامرى الصالح وكان جسمه ملىء بالجروح وضع عليه السامرى زيتاً وخمراً ، الزيت للكدمات والخمر مطهراً للجراحات.. وقد توجه الكثيرون بالشكر لبروفسور فاطمة

التى حازت على إعجاب رجال الصوفية ورئيس مجمع كنائس السودان لفكرتها فى كرسى التعايش الدينى، والذى أعتقد إنه سوف يكون منبر من لا منبر له، وكرسى من لا كرسى له، ومظلة من لا مظلة له..

وذلك لأنه رغم تعدد جهات حوار الأديان فى الجامعات وفى الوزارات ومجلس التعايش الدينى إلا إنه وحتى الآن لم يصل الحوار إلى الشعب ولم يدخل الناس فى حوارهم تحت شجر النيم والسيسبان حوار الأديان، ولم تعقد لقاءات شعبية فى أحياء شعبية، ولم تعقد لقاءات طلابية فى وسط الطلاب فى الجامعات والمدارس الثانوية ، وكرسى تعايش الأديان سوف يكون بعيداً جداً عن الحكومة التى نقدر لها مساندتها دون تدخلها ..

وسوف يجد هذا الكرسى دعماً من الأمم المتحدة اليونسكو، ودعماً من جامعة أعالى النيل محراب علم أصيل ، وأمل فى مستقبل واعد وجميل، وقد طالب الكرسى دعم وزارة الإرشاد الدينى وأعتقد دعماً معنوياً قال دكتور معاوية زروق: إنه سوف يدرس مع وزيره درجة هذا الدعم..

التعايش الدينى: ونحن فى السودان أول من عاش التعايش الدينى، وتعايشنا حتى الآن فوق مستوى الشبهات، وعندما يحدث من الخارج ما يقلق هذا التعايش مثل الرسوم المسيئة للرسول الكريم ومثل محاضرة الحبر الأعظم والذى يقول ويؤكد إنه لا يقصد منها شيئاً فإن هذه الأجواء المتوترة لا تنقل إلينا التوتر بل تجعلنا نتماسك اكثر، وتكون محبتنا أكبر واكبر، وفى السودان نتعامل بالحكمة التى تجعلنا لا نتسرع ولا نتطرف، نحن فى السودان مثل أعلى فى التعايش الدينى ..

وأعتقد إن كرسى اليونسكو سوف يكون مهامه تقديم التجربة السودانية فى التعايش إلى العالم لنحظى بأعظم درجة رفيعة، لأن تعايشنا فوق مستوى الشبهات، ولأنه يأتى من أعماق أبناء السودان وليس بأوامر الحكومة ، فالوحدة الوطنية عندنا ليست بدلة أنيقة تلبسها الحكومة وزى دينى يلبسه رجال الدين ، ويتبادلون الكلام المنمق، إنما وحدتنا وحدة طبيعية تنبع من قلوبنا التى ما عرفت قط طريق الكراهية، ومنطقنا الذى ما عرف قط سوى العبارات ذات القيم الأصيلة ، وسوف نظل نحن هكذا..

ويستنكر الكتاب المقدس عدم إحترام الإنسان لأخيه الإنسان ويقول فى صيغة

تعجب : أليس إله واحد خلقنا ؟ أليس أبٌ واحد لجميعنا ؟.. ونحن نقول: إن البشرية بدأت بآدم واحد وحواء واحدة ومنهم جاء كل الناس فلماذا نفرق بين الناس ؟ لماذا لا نجتمع معاً على توحيد الله وكلنا موحدون وفى هذا فليتنافس المتنافسون..

إننى أهنىء الجميع بكرسى التعايش الدينى فى اليونسكو وأرجو أن يظل كرسياً ساخناً حاراً مثل حر بلادنا، حر مثل حرية شعبنا، يستمد حرارته من الشعب ويكون دوماً فى حرارة مشاعرنا وتآخينا معاً ، لأن التعددية عندنا تميز لنا، تعدد الأديان ليس من الإبتلاءات إنما من البركات حيث نعمل معاً ، ونتنافس معاً ، ونقبل بعضنا بعضاً فى الله الذى جمعنا، وما جمعه الله لا يفرقه إنسان..

٣٣ـ هل سوف تمطر دارفور ؟

جمال الأمطار: إن أجمل أيام دارفور هى أيام الأمطار، يوم يتطلع الناس إلى الخير القادم من السماء وهم ينشدون ويهتفون ويتهللون ويصرخون : كيل كيل ياميكائيل بالمد الكبير، وفى موسم الأمطار كان يتم تنصيب الملوك، وفى جبل ميدوب وعند الصخرة المقدسة يخرج موكب الأهالى ومعهم الملك الجديد الذى يتم تنصيبه عندما يذبح الكاهن ضحية من الأضاحى خروفاً أو ثوراً ويأخذ من الدم ويرشم منه صليباً على جبهة الملك وعلى الصخرة ثم يقوم الملك الجديد والذى بعد تنصيبه صار مسئولا ويرشم من الدم صليباً على جبينه وصليباً على الصخرة..

وفى موسم الأمطار يصعد الملك إلى تل مرتفع ومعه وفد من الأهالى ويذبحون « عنزة» من قطيع الماعز فى قريتهم الكبرى « تورتى» ويقومون بتنظيف قربة الماء وهى من جلود الحيوانات ويملأونها ماء فى عين إسمها» أنويرو» دون سواها ثم يحملون القربة إلى الملك والذى يأخذ قليلا من الماء فى موكب مهيب إلى كوخه قطية الملك وعلى ألحان النقارة تنشد الأناشيد ويقول الملك: يارب جود علينا بأمطار غزيرة.. ليمنحنا الله المطر، وفى الطريق يرش الملك أرض مملكة دارفور بالماء المقدس، وعندما يصل إلى الكوخ يدور حوله عدة دورات ويرشه بالماء، ويرش النقارة أيضا بالماء..

وينام الملك مع حاشيته بجوار الكوخ وقبلها يرش الناس كلهم بالماء ووجوههم نحو المشرق الذى هو قبلة المسيحيين حتى الآن، حيث تبنى الكنائس نحو الشرق،

ويدفن الميت ووجهه نحو الشرق فى إنتظار المجيء الثانى الذى سوف يشرق فيه شمس البر من ناحية الشرق.. وتعبر البركة من هذا الماء إلى بيوت أهل دارفور شفاء للمرضى وإستجلاباً للبركة..

ثم يعود الموكب من التل إلى القرية والكل مؤمن إنه بهذه الطريقة سوف تأتى الأمطار لا محالة، فلقد قصدوا الرب، وصلوا إليه، وذبحوا له الذبائح، وتباركوا برشم الصليب والذى كما تقول مديحة الصليب لشعراء النوبة: إن الصليب هو إرواء الجفاف، والأمل لمن ليس له أمل، وحجر الزاوية للرباع الأربع، ولم يزل حتى الآن أهل ميدوب يمارسون هذا الطقس بحسبما أكد لى الأستاذ سليمان الشنقيرى زميلى السابق فى المجلس الوطنى المنحل وهو من أهل دارفور، وكان يرغب فى زيارتى ومعه ملك ميدوب ذاته..

ولكن لم نلتق ، وسوف أستقبله يوماً وأفهم منه أسرار هذا الملكوت العظيم الساكن مستقراً فى عادات أهل دارفور.. هذا ومن المعروف إن أهل ميدوب يعتبرون النقارة التى تحضر الإحتفال نقارة مقدسة ويجدون جلدها ويحفظون الجلد القديم لمدة سنة ثم يحرقونه بالنار، مثلما يحدث فى الكنائس المسيحية عندما يأخذون من الزيت القديم ويصنعون الزيت الجديد ويحرقون ما تبقى من القديم..

ويؤكد هذا ما ذكره سليم الأسوانى سنة ٩٧٠م عندما زار السودان وحكى له مواطنى دارفور عن طقوسهم هذه، وذكر إنهم يسمون « الأحاديين» وهم من سكان دنقلا وهجروها إلى دارفور وربما تعنى الأحديين الذين يحترمون يوم الأحد ويقدسونه للعبادة، وربما تعنى الموحدين الذين يؤمنون بإله واحد، والبحث ينبغى أن يستمر حتى نتعرف على جذورنا الروحية فى أيامنا الخوالى والحضارية، والتى تؤكد إن الحضارة المسيحية لها موقع فى قلب الحضارة السودانية..

هل تمطر دارفور ؟: إن دارفور الآن ومن خلال أحداث دامية وحروب شرسة لا تمطر سوى التصريحات غير الشفافة من كل أصحاب الشأن، ولكن الأمل مستمر وباق أن تمطر دارفور خيراً ونعمة وتخرج دارفور من مازقها التاريخى وتعيد إلى دارفور أيامها الخوالى وزمنها الجميل وتحيا دارفور معنا وبيننا وفى سوداننا الواحد.. تحيا حياة حضارية ويتسع فيها الرخاء وتكبر الآمال وتتحقق الأحلام السعيدة..

لقد إعتصرت بمرارة الألم عندما زرت دارفور ورأيت المواطن المهمش المسحوق الذى وهو من أغنى الناس يأكل من الإعانات، والذى وهو من أقوى الناس يحيا فى قيود خيام لا تتحمل هواء البلاد الذى يمزقها، وأرفع قلبى إلى الله أن تمطر دارفور، إتفاقية سلام كامل شامل، أن تمطر محبة على قلوبنا ، تجعلنا نتعايش معاً ، أن تمطر دارفور برداً وخيراً وسلاماً..

أن تتمتع بالمطر المبكر والمتأخر، وسوف تنزل أمطار دارفور بغزارة، وبمنسوب مرتفع ينسيها قحط الحروب وبلاياها، وهذا سوف يأتى عندما نركع جميعاً أمام من لا نركع إلى سواه والذى له نسجد، وله نعبد، وبه نحيا ونتحرك ونوجد ونفرح عندما تمطر دارفور قلبنا الحى..

٣٤. مستقبل حوار الأديان

أهمية الحوار: أعتز جداً بأننى حظيت بشرف رئاسة أول مؤتمر حوار أديان فى السودان.. وكون أن الأعضاء المسلمين ينتخبون رجل دين مسيحى رئيساً لهم يعنى إن الحوار عندنا مولود سعيد يرحب به الكل، وكان هذا عام ١٩٩٢م وكان معى شخصيات ذات معنى من بينهم بروفسور يوسف الخليفة ، وبروفسور مدثر سليمان والذى كان رئيساً لجامعة أم درمان الإسلامية ، والأستاذ المهندس عبد الجبار حسين وزير الزراعة لولاية الخرطوم، والذى كان وقتها وطبعاً لم يزل شاباً هادئاً ثائراً وديعاً طموحاً..

وسارت قافلة حوار الأديان وعقد أول مؤتمر لحوار الأديان وقبلها إستقبلنا بابا روما الحبر الأعظم بيننا فى السودان ، وأؤكد إنه لم يشعر بالأمان فى أى من الأوطان مثلما فى السودان ، وأعتز به عندما نزل إلى أرضنا ساجداً راكعاً يقبل أرض السودان مثلما يركع أمام الله فى كنائسه الكثيرة، حيث يرأس أكثر من مليار كاثوليكى فى العالم، وصلى البابا يوحنا بولس عندنا فى الساحة الخضراء ورأس أكثر من مليونى وصلى وإرتفع الصليب فى الساحة فوق رأس البابا إجلال لكل مسيحى فى العالم وإحتراماً من السودان بلد تعدد الأديان للرمز المسيحى العظيم، وتطور الأمر والحمدلله إلى ما يسمى الآن مجلس التعايش الدينى والذى يتفاخر بأن نصفه من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين، بينما عملياً لا تتاح فرص للمسيحيين حتى فى التعقيب على المحاضرات..

فلقد عقد المجلس لقاءاً فى قاعة الصداقة بحضور محاضر وهو رئيس مجلس وزراء تركيا وأعطيت الفرصة لأكثر من عشر متكلمين ولم يكن بينهم مسيحى واحد ، وعقد لقاءً آخر لمحاضرة للأمير الأردنى الحسن بن طلال ولم تعط فى التعليق سوى فرصتان ، ولا توجد فرصة لاى مسيحى فيهم، وقد طلب منى سفير الأردن أن أعتلى المنصة وكان هذا نوع من الديكور أو الزخرف كما يقول الصادق المهدى، وبعد هذا ولد مولود جديد هو « كرسى التعايش الدينى» والذى سوف يكون تحت مظلة اليونسكو بإشراف الدكتورة بروفسور فاطمة عبد المحمود، والأمل فيه ان يكون للمسيحيين كلمتهم ودورهم ولا يكونوا مجرد زخرف أو ديكور.. وسوف تستمر مسيرة الحوار وأعتقد إنه ليس هناك مانع من تعدد المنابر، فنحن وطن التعدد ، والتعدد ثروة لا يستهان بها..

مستقبل الحوار: وعندما تحدث الحبر الأعظم فى روما أحاديثاً أكاديمياً وذكر عن الإسلام رأياً لم يقله هو ولم يتبناه ثارت ثائرة الجميع وكنت أول من رفض هذا الكلام لأننا لا نقبل المساس بمقدسات المسلمين، فنحن وهم أسرة واحدة ونعتز بعلاقتنا الأسرية وبمحبتنا المتبادلة، وطالب البعض بإيقاف الحوار وبأنه لا داعى له ولكنى أعتقد أن هذا لا ينبغى أن يكون سبباً فى فرملة الحوار، إنما لا تحل مشاكل الحوار إلا بالمزيد من الحوار، والحمدلله إعتذر البابا لأن الفرق بين الأكاديمى وقيادة الدين فرق كبير وما يصلح للمناقشة الأكاديمية لا يصلح لحوار الأديان، لأن الحوار ساحة محبة وتآخى ولقاء حول القواسم المشتركة وهى كثيرة، ونقاط الإلتقاء كثيرة والأديان تتوافق كثيراً ولكن لا تتطابق..

ولقد بدأ الحوار المسيحى المسيحى ، والحوار الإسلامى المسيحى ، والحوار الإسلامى الإسلامى، وسوف يظل حوار الأديان هو الحل لكل قضايا التوتر فى العالم لأن الإنسان يتطرف ويظن إنه هو الذى يحمى الدين، ويقولون: جاهزين جاهزين لحماية الدين، ولكن الدين هو لله والله هو الذى يحمى الدين، ونحن مطالبون الآن ان لا يتوقف الحوار إنما أن تزداد الدعوة إليه، ولو كان البابا من رجال حوار الأديان لما حدث ما حدث، وأنا مع المتفائلين بأهمية الحوار وأرفض رأى المتشائمين من إمكانية نجاح الحوار بسبب المشكلات الأكثر تعقيداً.

ولا تخل أى قضية من الإنتقادات وهناك من يدعو ليس إلى وقف الحوار إنما إلى تصحيح مسار الحوار حتى لا يصل إلى طريق مسدود، والحوار لن يصل إلى

طريق مسدود إلا إذا لم يستمر.. وعلى رجال الأديان أن تكون لديهم رؤيا حضارية تعترف بالآخر وتؤكد تواصل التاريخ وتبلور خطاباً حضارياً على ضوء معرفة الذات ومعرفة ما يحمله الآخر من فهم له.. والدفاع عن القيم والأخلاقيات المشتركة بين الأمم وترفض المقولات التى تفسر العلاقات بين الدول والثقافات على خلفية الصدام بين الحضارات والحرص على إستمرار مشروع حوار الحضارات والعمل على كل ما يجمع بيننا والثقافات الأخرى والدخول فى حوار جاد وذلك رفضاً للإرهاب الذى لا دين له، والإستيعلاء المرفوض لأن الله خلقنا متساوون فى كل شىء.. وفى كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده، لأنه بالحق أنا أجد إن الله لا يقبل الوجوه وليس عنده محاباة..

٣٥. عُرس يهودي في الخرطوم

بركات الزواج: يشمل كتاب العهد القديم الذى لليهود على عدة بركات للزواج اليهودى، فى التوراة وأسفار الأنبياء والمزامير أو الزابور، والزواج هو إختراع إلهى لأن الله هو الذى أوجد حواء من ضلع آدم وصارت له زوجة ، لم يكن آدم يعرف ما هو الزواج، الزواج إذن هو فكرة الله، هو عمل قدسه الله بنفسه، ويذكر الكتاب المقدس زواج إسحق من رفقه فى تكوين ٢٤ وكيف أن أليعازر الدمشقى خطب رفقه لإسحق ولم يكن إسحق حاضراً ووضع الخزامة فى أنفها والسوارين على يديها ثم أركبها هودج وجاء بها إلى إسحق، وكان إسحق يتأمل فى الحقل عند إقبال المساء..

وكما رفعت رفقه عينيها ورأت إسحق وعلمت إنه هو الرجل أخذت البرقع وتغطت حياء وإستحياء، وهى قبل أن تحضر سألوها عن رغبتها فى الرجل قائلين: هل تذهبين معه ؟ وأخذ أخوانها موافقتها لتبدأ رحلة الرحيل إلى الزوج الأصيل ، والزوجية السعيدة، ويذكر الكتاب إن الحب أمر هام للحياة الزوجية لأن يعقوب أبو اليهود كلهم والذى كتب عنه اليهودى ملكاً كتابه» أطفال يعقوب فى بقعة المهدى»، يعقوب هذا أكد على أهمية الحب، فلقد كان يحب راحيل والتى كانت حسنة الصورة وحسنة المنظر، وخدم من أجل راحيل وأعطى مهراً غالياً هو أربع عشر سنة خدمة عند أبيها، بدأت المدة سبع سنوات فأعطاه أختها بدلا منها فقرر أن يخدم سبع

سنوات أخرى حتى قيل عنه يعقوب أبيكم خدم بإمرأة أربعة عشر سنة..

وكانت الأفراح تمر فى شوارع أورشليم صوت طرب وصوت فرح صوت عريس وصوت عروس، وكان الطلاق عند اليهود هو أبغض الحلال، كان الرجل لا يطلق المرأة بإرادته المنفردة بل يكتب لها كتاب طلاق، وهذا الكتاب يعنى إن هناك فرصة التراجع عن الطلاق حتى لا يكون إفزازاً لتوتر فى العلاقات الزوجية.. ويقول ملاخى آخر أنبياء العهد القديم موبخاً اليهود: بأن الله لا يقبل تقدماتهم ولا يرغب فى صلواتهم والسبب هو قسوة الطلاق وخيانة العِشرة من أجل أن الرب هو الشاهد بينك وبين إمرأة شبابك التى أنت غدرت بها وهى قرينتك وإمرأة عهدك، فأحذروا لروحكم ولا يغدر أحد بإمرأة شبابه..

وأتت القاعدة عند اليهود واضحة لأنه أى الله يكره الطلاق ويكره أن يغطى أحد الظلم ثوبه، فأحذروا لروحكم لئلا تغدروا (ملاخى ٢).. وتأتى البركات فى الزوجة والأولاد، طوبى لكل من يتقى الرب ويسلك فى طرقه، لأنك تأكل تعب يديك طوباك وخير لك.. إمرأتك تكون مثل كرمة مثمرة فى جوانب بيتك، بنوك مثل غروس الزيتون حول مائدتك هكذا يبارك الرجل المتقى الرب، يباركك الرب من صهيون، وتبصر خير أورشليم كل حياتك وترى بنى بنيك (مزمور ١٢٨) والزوجة هى إمرأة فاضلة ثمنها يفوق اللآلىء بها يثق قلب زوجها الحسن غش والجمال باطل، أما المرأة المتقية الرب فهى تمدح..

أفراح الخرطوم: وفى يوم من أيام الخرطوم السعيدة فى نوفمبر ١٩٣٤م كان زواج إلياهو ملكا فى معبد اليهود فى شارع القصر الآن، وإزدان الكنيس ، وإرتفعت أغاريد الفرح من الجالية اليهودية بالسودان ، وعلى الأنغام السودانية والتى كان يتقنها اليهود تآخياً مع السودانيين، وقد عاش إلياهو ملكا أحلى أيامه فى الخرطوم مع زوجته دورا جولدنبرج شقيقة موريس جولدنبرج والذى كان دكانه بالسوق الأفرنجى دكان نظارات له شنة ورنة بين أهل السودان، وزوار السودان حتى الثمانينيات تقريباً..

ويحكى إلياهو قصة زواجه من دورا، وقد كانت هى أحد أفراد الأسرة لأن شقيقها موريس كان قد تزوج أخت إلياهو وجاءت هى لزيارة الخرطوم وترددت على النادى اليهودى بالخرطوم مع شقيقتها، وكانتا كما قال محط الأنظار بأناقتهما

وجاذبيتهما، فأخذ شباب اليهود يحومون حولهما مما دفعه إلى أن يستعجل الخطى ، وكما يقولون: مشيناها خطى كتبت علينا، ومن كتبت عليه خطا مشاها.. وعندما عزم أمره وتقدم إليها أبدت موافقتها وإتصل بالشقيق فوافق وتمت الخطبة مثلما حدث مع إسحق ورفقه فى العاشر من يونيو، وكان هذا قبل أيام من زيارة ناحوم سوكولوف رئيس المنظمة الصهيونية العالمية للخرطوم، وقد شارك ناحوم فى إحتفال الخطوبة بالخرطوم..

ويحكى إلياهو فى كتابه « أطفال يعقوب فى بقعة المهدى »والذى ترجمه مكى أبو قرجة عن بداية الحياة الزوجية مع دورا والتى هى من بنات حنة ، ورغم الخلفيات الثقافية المتباينة فإن الحب والشباب كما يقول هو إختصرا الشقة وقربا المسافات وعاش زواجاً سعيداً وتذوق مباهج الحياة فى أقصى درجاتها وإتسعت آفاق ثقافة الأسرة من خلال الأسفار المتنوعة والمغامرات وانجبا ثلاثة أطفال، ولكن الإبنة الأولى راحت ضحية لحادث حريق وبقى طفلان ولد وبنت، كان فيهما العزاء، وكانت الزوجة ترغب فى تعليمهما على الطريقة الأوربية، وبدأ هذا فى الخرطوم نفسها فى حضانة بريطانية تحت إشراف سيدات إنجليز..

وعندما أتم جيفرى إيلياهو تعليمه الذى يؤهله للجامعة وكان موازياً له تعليم دينى اتمه فى معبد الخرطوم أقيم إحتفال كبير حضره حوالى ٣٥٠ شخصاً أغلبهم من اليهود السودانيين وبعضهم من أصدقاء اليهود، وبعد هذا ذهب مع اخته إلى بريطانيا، ويذكر ملكا كيف كانت الحياة تسير فى الخرطوم وكيف أن الإقتصادى الشهير مامون بحيرى كان صديقاً حميماً له، وكان يسهل له تحويل مصاريف التعليم إلى الخارج ليس له فقط وإنما لآخرين أيضاً حتى تستمر الدراسة..

فلقد كان مأمون بحيرى إنساناً سودانياً يحب كل مواطنيه ولم يكن اليهود سوى جزء من المجتمع السودانى دخلوا إلى بوتقة وعاشوا مفاهيمه وقيمه وصاروا سودانيين حتى النخاع، وعندما سافروا إلى الخارج كانوا يستأنفون علاقاتهم مع يهود الخرطوم الذين إستقروا فى الخارج، وألم أعلن دوماً إن السودان هو وطن تعايش الأديان منذ قديم الأزمان يهوداً مسيحيون مسلمون ؟ وكثيرون من كريم المعتقدات..

٣٦. هل تعود حلفا القديمة ؟

تهجير حلفا: قرأت كتاباً عنوانه « هجرة النوبيين» قصة تهجير أهالى حلفا، وهو من تأليف حسن دفع الله، وترجمة عبد الله حميدة، طباعة دار مصحف أفريقيا ٢٠٠٣م.. والكتاب عبارة عن مذكرات حسن دفع الله الذى يعتبر إن أعظم إنجازاته هو تهجير أهالى حلفا إلى منطقة خشم القربة، وتحدث الكاتب عن صدمة التهجير كانت عظيمة لأن أهل النوبة عاشوا حياة متميزة ومنعزلة فى منطقة متفردة من القطر.. وعندما تحركوا غاب عنهم نهر النيل العظيم وغابت عنهم حراسة الأجداد الروحية لأعتاب بيوتهم والتى كانت تزين بالصليب على مداخلها طرداً للقوات الشيطانية وطلباً للبركة والحماية..

وهناك مناقشة تدور حتى الآن حول الربح والخسارة فى مسألة التهجير ، فلقد فقد أهل حلفا النوبيين مكانهم وتاريخهم فيه، ولم يستفد اهل مصر لأنهم فقدوا التربة والطمى وصار النيل لا يحمل إليهم الخصب القديم وكأنه ترك لاهوت الخصب والطبيعة.. لقد تم التهجير كما يقولون بكفاءة عالية ومستوى ممتاز ولكن تبقى ذكريات الماضى أليمة مثل ذكريات أبناء يعقوب عندما تمت هجرتهم القسرية إلى بابل.. طغاة بابل وأباطرتها رأوا أن ينقلوا أبناء يعقوب من فلسطين إلى بابل ، ورغم جمال بابل وحضارتها وتقدمها فإن آلاماً نفسية كان يقاسيها اليهود حتى إنهم رفضوا الترنيمة فى أرض غريبة والتى سجلها صاحب الزابور فى المزمور المائة والسابع والثلاثون « على أنهار بابل هناك جلسنا.. بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون.. على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة، ومعذبونا سألونا فرحا قائلين: رنموا لنا ترنيمات صهيون، كيف نرنم ترنيمة للرب فى أرض غريبة؟ إن نسيتك ياأورشليم تنسى يمينى ويلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك، إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى..

ويمكنك أن تكتب إسم حلفا بدلا من أورشليم وتتصور عذاب هؤلاء النوبيون وبكائهم على بلادهم التى غمرتها مياه السد العالى ولكن يبدو إن اهل حلفا قد إختاروا النكتة تعبيراً عن آلامهم، ربما لأن شر البلية ما يضحك، وهنا أذكر النكات الجميلة والتعليقات الذكية التى يعبر بها أهل حلفا عن أنفسهم وهم يحتفظون حتى

الآن باللغة النوبية القديمة، وأذكر ما يحكى عنهم عندما طلبوا منهم الذكاة على أموالهم بواسطة أوامر الحكومة قالوا: لقد دخلنا الإسلام لكى لا ندفع جزية والان تريدون منا أن نعكس الطريق.. وأذكر أيضا إنهم ذات مرة كانوا يناقشون قضية الإنقاذ وسيطرتها على الحكم فقال أحد الحكماء: إن البلد مثل عربة كانت تحتاج إلى من يساندها ويدفرها محركاً لها، وجاء أهل الإنقاذ وقاموا بهذا..

وكان رد الحلفاوى: لا مانع من دفع العربة ولكن هناك مانع من ركوبها، وفى كتاب حسن دفع الله سرد لمذكرات تبدأ بيوم ١٧ أغسطس عندما طلب منه أن يذهب إلى وادى حلفا وأن يقطع إجازته ليقوم بمهمة تهجير أهل حلفا ، ويحكى : إنه برغم مرارة أهل حلفا فإنهم تعاونوا معه وقد كان هو مقنعاً لهم حتى إن مسألة إخراج أجساد العظماء من مرقدها مرت بسهولة ويسر، وعلى الأخص جسد عثمان دقنة، وإبراهيم الميرغنى، وعندما كان لابد من الكشف عن جسد الشيخ البائع القرنى تمكن حسن دفع الله من إقناع الناس بهذا وكانوا يعتقدون إنه من الصحابة ولكن دفع الله كانت حجته إنه بدلا من أن تغمر المياه جسد هذا الشيخ العظيم الأفضل أن ينقل من مكانه، وكانت المفاجأة إن الشيخ القرنى لم يكن سوى كاهناً مسيحياً يحمل الصليب فى يده ويلبس ملابس خدمة الكهنوت التى تزينها الصلبان..

وقد تم إكتشاف أجساد محنطة تحنيطاً طبيعياً أى لم يدركها فساد البكتريا وهى ظاهرة روحية متواجدة وحاضرة فى الكنيسة القبطية حيث أجساد القديسين تظل كما هى كدليل على عربون الحياة فى الأبدية، ومن الطريف إن عدداً من أهل حلفا القديمة رفضوا أن يتركوا المكان وقرروا البقاء على ضفة البحيرة بمقربة من بلادهم التى أغرقها النيل، وقد باءت محاولات الحكومات لتهجيرهم بالفشل وهم صنعوا كما أقربائهم الكنوز الذين دمرت ديارهم ورفضوا مبادرة الملك فؤاد لتوطينهم فى كوم أمبو ، وأقاموا قراهم على السفوح الصخرية لشواطىء النيل..

وهذا نفس ما حدث عند بناء خزان جبل أولياء على النيل الأبيض عندما رفض أهل القطينة التهجير إلى أبو قوتة وهى منطقة قريبة إليهم وفضلوا بناء منازلهم على التلال الرملية الواقعة خلف قريتهم التى إبتلعها اليم.. وعندما إستقر بعض أهالى حلفا مكانهم قامت الدولة بإعادة تشييد حلفا القديمة وتم بناء دور أهل حلفا على النسق النوبى..

هل تعود حلفا؟: ويبدو إن حلفا سوف تعود إليها أمجادها القديمة، ويبدو أن أهالى حلفا الذين لم يغادرون ديارهم سوف يشهدون تنمية كبيرة فى هذا الموقع القديم ويستعيدون حضارتهم ، وربما بعد هذا يأخذون الآثار التى تم إكتشافها إلى موقعهم ويقيمون هناك متحفاً تاريخياً يمتلىء بهذه الكنوز الثمينة التى ظهرت أثناء الكشف الآثرى المرتبط بالسد العالى، وقد قرأت عمود» كتابات» للصحفى المخضرم أحمد الشريف فى جريدة الوطن ٢٠٠٦/١٢/١٩م يوم الإحتفال بإعلان الإستقلال من داخل البرلمان، وكأن هذا إعلان بعودة حلفا إلى أمجادها..

ويقول الكاتب: إنه ألغى كل إرتباطاته ليرافق أهله إلى وادى حلفا لأن الزيارة لها بعدها الإجتماعى والإنسانى والإقتصادى ، ولأن حلفا لها فى أعماقه موقعاً خاصاً وحنين أبدى دائم يتجدد بدون إنقطاع وعنده حب جارف لآولئك الذين قاوموا الطبيعة بكل جبروتها، الصحراء، الرمال، طغيان البحيرة التى إبتلعت أمجاد سبعة ألف عام، وتحدث الكاتب عن أن هناك ثلاثمائة ألف فدان فى إنتظار الزراعة.. وأكثر من إثنين مليون فدان تنتظر أهل النوبة ، وإستثمارات لثروة سمكية فيها مخزون هو خمسمائة ألف طن..

ولا أنسى إننى زرت حلفا القديمة فى عام ١٩٧٣م أثناء حرب أكتوبر ذاهباً إلى مصر للقاء زوجتى وإبنى مينا الذى أجريت له جراحة قلب فى مصر، وكان معى أكبر الشخصيات العالمية لأن الطيران كان متوقفاً بسبب الحرب.. وفى حلفا كانت أكلة السمك هى الأكلة المهمة ، وكان طلب السمك كاملا لا يتعدى خمسة قروش وهى جزء على عشرين من الجنيه السودانى الذى سوف يعود إلينا قائماً من بين الموتى، وفى إنتظار العمار لحلفا القديمة ، أرجو لبلادى العظيمة المزيد من التقدم والإزدهار، ولحلفا الخير والبركة وأمجاد النوبة..

٣٧- كرمة مملكة النوبة

أحمد الحاكم: أتذكر أستاذ الآثار ومديرها بروفسور أحمد محمد على الحاكم وكان لقاؤنا فى عام ١٩٩٣م عند زيارة بابا روما يوحنا بولس الثانى إلى السودان، وقد طلب منى رئيس الجمهورية أن أكون قريباً إليه أثناء هذه الزيارة عشماً منه أن لا يقصر فى حق الزائر العظيم، وأذكر إن قداسة البابا أحيط بإجراءات أمنية شديدة

ولماذا لا ونحن فى السودان متهمون بالإرهاب، ولكن الغريب إنه عندما ودعناه كان هادئاً يسير فى المطار بسلام وأمان، وقد غير صفوف الوداع وبدأها من أخرها، وعندما كنت أتحدث فى المطار مع أحد الضيوف لإقترب منى ولم أكن أتوقع هذا ولكنه رجل ذكى لأنه حفظ إسمى ورردده مع من يقدمنى إليه..

وفى هذا اليوم بالذات قابلت أحمد الحاكم والذى كان بدوره فى قاعة الصداقة وقد جهز لوحة جميلة ترجع إلى العصر المسيحى فى تاريخ السودان ، وقد شاركت فى تقديم هدية الرئيس إلى الضيف الكبير ، وقد وقف الحاكم لكى يشرح معنى هذه اللوحة ، وفى كلمات قليلة وبليغة على الهواء مباشرة أقنع البابا بحضارة السودان القديمة.. وبالحضارة المسيحية والتى شهدت مداً روحياً فى وطننا العظيم..

وبعدها لم ألتقى الحاكم ولكن حبى له تواءم مع حبى لتاريخ السودان وعلمت بأنه رحل إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٩٧م وفى نفس شهر فبراير حيث كانت اللقيا، وقد زاره الأستاذ العالم حسن حسين إدريس فى برمنجهام ثم زاره فى بيته وكانت إبنته إيمان وزوجته تحاولان إيقاظه من غيبوبة الموت وفى يد إبنتها الحانية النص العربى لكتاب « كرمة مملكة النوبة» الذى كان يحلم بإصداره فى حياته، لقد تأخر الكتاب لكى يكون شهادة لهذا العالم العظيم وكأنه بيننا وبين تلاميذه ، وقد حضر اللقاء صلاح الدين محمد أحمد الذى أشرف على إخراج الكتاب وحضر بروفسور شارل بونيه ناشر الكتاب والذى طبعته شركة دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٧م..

وكان هذا الكتاب قد جاء تحت عنوان « كرمة مملكة النوبة» تراث أفريقى من عهد الفراعنة، وصدر باللغة الفرنسية فى جنيف عام ١٩٩٠م وكان صدوره مصاحباً للمؤتمر العالمى لجمعية الدراسات النوبية، ومصاحباً للمعرض الذى أقيم بمتحف جنيف للفنون والتاريخ، وفى الكتاب إستعراض لنتائج أبحاث جامعة جنيفا للآثار بكرمة تحت قيادة البروفسور شارل بونيه، ويتزين غلاف هذا الكتاب القيم بصورة جميلة للوجه الأمامى للدفوفة الغربية بكرمة..

والكتاب يقدم لنا بحثاً كاملا عن الآثار السودانية التى بقيت شاهداً على حضارتنا المجيدة فى عصر ما قبل التاريخ المجموعات فى الحضارة النوبية وحضارة كرمة، وكرمة الدولة وموقع المدينة، والحيوان بكرمة وأصول السكن والعمارة.. والعمارة

الدينية والعمارة الجنائزية.. الصناعات والحرف، صناعة الأحجار المصقولة، وما بقى لدينا من آثار كانت مطمورة تحت رمال السد العالى ، والذى كان سبباً فى حفظ آثار هذه المرحلة التاريخية المجيدة..

ويرى الحاكم إن كتابه هو موسوعة يحمل قدراً من التفاصيل بدون الإفراط فيها، مع التركيز على العوامل المؤثرة على حضارة الإنسان فى بلاد النوبة والسودان عبر ماضيه البعيد ، بالإضافة إلى تفسير تطوره الحالى والذى يقود إلى إستقراء مستقبله إن لم يكن التخطيط لهذا المستقبل الواعد، وذلك خلال ما تستثيره هذه الدراسات من تساؤلات وتولده من بحوث، والسودان ولود بأبنائه ..

وأعتقد إن الحاكم لم يضيع عمره هباءاً منثوراً، إنما كان فى كل يوم يقدم لعلم الآثار أبناؤه من الطلبة والذين هم الآن أساتذة سوف يلدون أساتذة ،وتستمر مسيرة البحث فى الآثار السودانية والتى كانت ذات يوم مجرد جزء من الآثار الفرعونية ، ولكن على يد الباحثين إستقلت وإنطلقت إنطلاقة كبرى لتقدم حضارة كرمة وحضارة مروى وحضارة النوبة من بلاد كوش العظيم الأخ الأكبر لمصرايم أبو المصريين، والإبن الأول لحام بن نوح، والذى به وأخويه بدأت الحضارة بعد الطوفان..

جنيفا وحضارتنا: وكتاب» كرمة مملكة النوبة» لم يكن ليخرج إلى عالم المطبوعات إلا بسبب مساندة ومجهود بعثة جنيفا للآثار والتى بدأت علاقة حميمة بحضارة وادى النيل منذ أواخر القرن التاسع عشر، عندما تكونت أول بعثة للآثار بإسم البارون دى مونوتلى عام ١٨٢٠م، وأقيم أول كرسى للدراسات المصرية بجامعة جنيفا عام ١٨٩١-١٩١٩م لإدارة صندوق إكتشاف مصر لعدة سنوات، وقد رسمت ريشة الفنان دوقال عدة مناظر عن وادى النيل ما بين أعوام ١٨٧٠-١٨٨٥، وأودعت فى الوحات غراميات الرسام وحبه العظيم لبلاد وادى النيل..

وبعد هذا إستمرت المسيرة، وأقيمت المعارض والتى آخرها كان معرض للتعرف على حياة رهبان الصحراء الاوائل، وبعدها جاءت المشاركة فى حملة اليونسكو لإنقاذ آثار النوبة وقدمت جنيفا معرض عام ١٩٧٦م بعنوان « عكشة» ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة من تاريخ وحضارة النوبة المسيحية.. وهناك معرض دائم لآثارنا فى جنيفا، وكتاب الحاكم هو كتاب حاكم ومحكم لمرحلة تاريخية هامة ويحوى الكثير من صور الآثار القديمة التى تم إكتشافها ، ولم يزل البحث مستمراً ، فلم يحضر

الحاكم سد مروى وما وجد تحت تراب مروى ورمال دنقلا من آثار غالية توسع المدارك لفترة تاريخية مجيدة فى حياة السودان مدخل أفريقيا ورواقها..

٣٨- الحضارات السودانية القديمة

سامية دفع الله: قامت بروفسور سامية بشير دفع الله بكتابة كتاب» تاريخ الحضارات السودانية القديمة» منذ أقدم العصور وحتى قيام مملكة نبتة.. والمؤلفة أستاذة التاريخ القديم كلية الآداب جامعة الخرطوم ، وهى من أهل الجزيرة خريجة جامعة الخرطوم ، ورئيسة قسم التاريخ بها ، ولها أوراق علمية وطروحات متعددة عن تاريخ السودان القديم، وقد عرف السودان الحضارة منذ أقدم الأيام فهو يقع فى أول طريق النيل ، لذا كان أول مناطق وادى النيل ، والإنسان منذ القدم أحب أن يستقر ساكناً بجوار الماء إشتياقاً إليه ، ولقد كانت الزراعة بعد الرعي..

وصار السودان نقطة الإنطلاق للحضارة القديمة حتى يرى البعض إن سكان وادى النيل كلهم فى الأصل من بلاد النوبة، وعلى هذا يبنون كلامهم: إن موسى كليم الله من مواليد دنقلا.. وإن هاجر زوجة إبراهيم نوبية.. وإن فرعون كان قصره فى النوبة ، وهذا ليس غريباً ، فلقد كانت له عدة قصور أكثر من قصور رؤساء هذه الأيام.. والسودان بهذا هو مهد الحضارة الأولى وفيه إنطلقت شرارة التحضر نوراً عبره إلى منطقة وادى النيل التى وسع النيل مجراها عندما وصل إلى الفسطاط وأخذ فرعان دمياط ورشيد وكوّن شكل حرف الدلتا من الحروف القبطية..

تاريخ الحضارات: وتقول بروفسور سامية إن فكرة تأليف كتاب فى تاريخ السودان فكرة كامنة فى ذهنها منذ أمد بعيد، بدأت بمقال التعريف بتاريخ السودان القديم فى مجلة الدراسات السودانية عام ١٩٩٠م ، وبعد هذا شرعت فى الكتاب، ويبدو إن هذا الكتاب شهدت مولده جامعة كنتكى بالولايات المتحدة الأمريكية.. وبعد خمسة سنوات وفى عام ١٩٩٥م كان الكتاب قد وصل إلى نقطة الإنطلاق ولكنها تشكو من الظروف المعاكسة والتى تمثلت فى سرقة جهاز الحاسوب من منزلها بالعمارات وتعرضت هذه المادة العلمية للضياع، ولكن المسودات التى كانت بين أيديها ساعدتها وهذا يجعلنا نقول: إن جهاز الحاسوب لا ينبغى أن نأمن منه وعلينا أن نحتاط وأن نسجل ما نكتب فى الحاسوب ونحتفظ به فى رقائق، ولا نترك الآوراق

التى كتبنا فيها، وأنا حتى الآن لا أعرف أن أستعمل الحاسوب ولا أعرف أن اكتب إلا بالورق، وهذا تخلف حضارى منى وسوف أحاول أن أتعلم لأننى عندما أجد الوقت أفضل أن أكتب لا أن أتعلم الحاسوب والحمدلله إن الأستاذة لم تحبط بل تحقق حلمها وأودعت المكتبة كتاباً عن هذه الحقبة المهملة بيد سودانية..

ومن أحلامى أن يتهيأ لها الوقت لكى تكتب عن تاريخ السودان المسيحى وتمتد من نبتة إلى ممالك النوبة المسيحية وتلقى الضوء على عمر وصل إلى ألف سنة، كان السودان فيها مسيحياً على أكمل وجه، عاش الملوك مع الشعب فى عمق الفضائل المسيحية تواضعاً وسماحة ، وعرف أهل السودان ما يصنعه أهل الحبشة الآن والذين نعجب كثيراً بإحترامهم الآخر.. وإنحناءاتهم.. وسلاماتهم التى تصل إلى الإنحناء عند قدم من يحترمونه.. وهذا كله يرجع إلى الثقافة الرهبانية فى ممالك النوبة، والتى كانت تمتد إلى أعماق أفريقيا.. وإلى ثقافى أكسوم الحبشة، وإلى ظهور عواصم روحية وإقتصادية هى دنقلا وكرمة وسوبا وأكسوم..

وثقافة الرهبان تقتضى عندما تلقى أحداً أن تنحنى إنحناءة تصل إلى سجود الإكرام والإحترام وتطلب عفوه ورضاه فيما يسمى « المطانية» أو السجود طلباً لإصلاح النية والطوية، وحتى الآن فى الكنيسة القبطية تختتم الصلوات بقول الشعب للكاهن : ها مطانية إغفر لنا، والكاهن يوجههم إلى الله صاحب الغفران..

هل تحقق دكتورة ساميه هذا الحلم ؟.. إننى أنتظر هذا وقد طلبته من بروفسور يوسف فضل ولم أزل فى الإنتظار منها ومنه.. ونحن موعودون من المؤلفة بمجلدات أخرى، وهى فى أول صفحات الكتاب : إن كلمة السودانية إشارة إلى السودان الحديث ولا يقصد بها المفهوم الواسع لإصلاح السودان.. وسودان اليوم هو سودان الألف ميل ولكن سودان الأمس السودان الكبير كان أضعاف هذه المساحة، فلقد كان بلاد القوس وأهله ورماة الحدق، وبلاد النحسو وكوش والواوات، ولم يكن للسودان القديم حدود معروفة إلا حد واحد هو المناخم لمصر..

وكان السودان يقع على البحر الأحمر حداً ولم يكن يفصل البحر الأحمر السودان عن السعودية كانت القبائل الرعوية تعيش معاً فى سلام ضاع الان من قبائل دارفور فتحولت إلى إقليم للعذاب والصراع.. وحاولت المؤرخة أن تقسم السودان القديم إلى خمسة أقاليم أو مناطق جغرافية هى: وادى النيل شرق السودان، غرب السودان ،

وسط السودان ، جنوب السودان ، وإنها تهتم بالذات بوادى النيل، ولكن هذا التقسيم هو من عنديات المؤلفة إنما كل هذا السودان القديم شهد حضارة قديمة لها كل قوام الحضارات من أرض ومناخ وبيئة.. ورسالة الباحثة هى إنارة هذه الحقبة الحضارية حتى يعرف الجميع إننا سرنا فى دروب الحضارة منذ أقدم الأزمان ولم يزل العالم كله ينتظر منافع حضاراتنا وخيرات بلادنا..

٣٩. إستثناءات العدالة

قبط السودان: تحت عنوان» إستوصوا خيراً بقبط السودان» عالج الدكتور صادق الفقيه قضية إستثناءات العدالة وهو يرى إن طلب القمص فيلوثاوس فرج مشاركة قبطية فى إدارة شئون الدولة وتعجبه من غياب الأقباط من وزارات الدولة ومجلس مستشارى الرئيس ومعاونون هو لفت إنتباه لمسألة ملحة وقضية حيوية وشائكة فى آن واحد.. تثيرها التطورات السياسية اليوم، وتجترح بإجراءاتها معادلات جديدة للعدالة إذ أصبح تسعير التوترات وأثمان العنف بكل أصنافه وأشكاله، يحسب بقسمة تفاوض تتنزل مقادير مرعية فى ركنى السلطة والثروة كما حدث فى سلام الجنوب وإتفاق الشرق ومحاولات رأب الصدع فى دارفور..

فقد كان إدعاء التهميش سبباً فى زيادة الإحتقان، وتم تفجير الصراع طريقاً لمعالجته.. ولم يدع القمص فيلوثاوس فرج تهميشاً للأقباط فى جانب الثروة فقد حباهم الله منها بما تقر به عينهم ويستوجب حمدهم، وإنما قرر حقيقة مؤداها إنهم غير موجودين فى مواقع الإستحقاق الوظيفى العام، وإن قال صراحة بطلب منصب مستشار لرئيس الجمهورية فلا مندوحة لنا أن نقلب معه وجاهة الفكرة وقابلية المقترح للتنفيذ..

أو ليس الأقباط مواطنين يشرفهم ما يشرفنا وقد نالوا منا الرضى بإيجابية الإسهام ؟.. لقد جاء التهميش هنا نتيجة غفلة يستسمحها الإستدراك وتشذبها المعالجة وليس فيما أعلم مرداً لعقلية إستبدادية للأغلبية التى تشكو من أخطاء توغلها زعماً مناطق عديدة من السودان، وهكذا فالعنف والتمرد والإحتراب هو الذى أيقظ الخصوصيات بدفع مطلبى، كما أن أخطاء الدولة وشبهة توغلها وسعيها لمعالجات جزئية آتية هو الذى أدى إلى تزاحم الطالبين وكثافة المطالب، وعلى هدى

هذا فإن الكيانات والأقليات التى تأسست على قاعدة الوحدة الوطنية معنية بالوفاء لتنوعاتها وتعهداتها..

والعمل الجاد على تحصيل إستحقاقاتها الخاصة، وإن لم تفعل الدولة برد الحقوق بقسطاس العدل فإن مآلها الآخير هو التشظى والتعنت.. وفى التاريخ نماذج صريحة لذلك لا نأمل تكرارها فى السودان وقد عرفت للقمص فيلوثاوس مواقف شارحة لمطالبته عجلت بتأييدى غير المتحفظ لها.. إذ مضى بيننا زمن إمتد فيه الحوار وتواثقت رؤى وأفكار حول كثير من القضايا التى كان فيها الوطن واسطة العقد وغاية العهد..

وشكرته يوماً عندما زار مكتبى ببعثة السودان بالعاصمة البريطانية لندن على تذكيره لأهل الإنقاذ وهم فى نشوة إنتصاراتهم إن بينهم أقباطاً مسالمون، أخافت بعضهم شعارات عالية النبرة، غالبة الخصوصية، فهاجروا فى صمت ولكنهم لم ينسوا سودانيتهم فعادوا نبرات الصمت والهدوء عندما إستقرت القناعات بطول السلامة فى وطن السلام..

ويرى الصادق إن الدولة يجب أن تبحث عن نظام للتفاعل والتعامل الحضارى مع الأقليات، نظام يلبى مطالبها الدينية والإجتماعية كما يلبى متطلبات الوحدة والإستقرار ويرى إنه كلما قلت وتضاءلت مستويات الإندماج ، كلما برزت فى المجتمع مسألة العدالة وتداعياتها السياسية والإجتماعية والثقافية وحينها يفشل المجتمع فى تكريس قيم التسامح وإحترام الآخر لأن الآداء السياسى الذى يبتعد عن مقتضيات العدالة والمرونة هو الذى سيولد التعصب بكل أشكاله..

ولأقباط السودان علينا حق معلوم أوجبته المساكنة والمواطنة ، وخص عليه الدين بأمتن العبارات ، فوصية الخير الملزمة زادت التأكيد فيها جملة من أحرف الزيادة الدالة على أهمية الأمر..

تجاوب الكثيرين: هذه ليست هى المرة الأولى التى فيها أطالب بأن يتزين ركب مستشارى الرئيس بمستشار قبطى، وأن ينضم إلى موكب وزراء الدولة وزراء من الأقباط، ولكن فى الحقيقة هذه هى المرة الوحيدة التى يتحدث فيها مثل هذا التجاوب مع القضية المطروحة، وهذا ليس تكريساً للقبلية إنما هو محاولة فى صالح الدولة نفسها حتى لا تتهم بالإستبداد والإستعباد والتشويش والتهميش..

إنها محاولة لإلقاء حجر فى ماء ساكن لكى يتحرك الماء حيوية تشبه الوطن العظيم وأبناء الوطن النجباء، ولقد قال أحد الظرفاء: إن أهل السودان يصلون إلى حقوقهم عن طريق البندقية، ولكن الأقباط يطالبون بحقوقهم بالملعقة والسكين أى فى مآدب الإفطار التى يعدونها لأخوانهم المسلمين ويتشرفون بهم فى محافلهم، وهكذا لابد أن يكون أسلوبهم لأن السيد المسيح رفض أن يدافع عن حقه كمواطن حر عن طريق السيف وقال لحامل السيف: ضع سيفك فى غمدك لأن الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون..

وأشكر من تجاوب مع طلبى وأرجو أن تتجاوب الحكومة، إننى فى إنتظار تجاوبها حتى يتأكد للجميع إنها فعلا حكومة الوحدة الوطنية التى تجعل كل موازينها مرتبطة بالكفاءة والجدية والحرص الوطنى والإلتزام بالعدالة سلوكاً، والنزاهة طريقاً لأن قيم العدالة ينبغى أن تسود على كل مناحى الحياة فى وطننا العظيم، وأرجو أن لا تتأخر حكومة الوحدة الوطنية فى الإستفادة بكفاءة الأقباط، وأرجو أن لا يطول الإنتظار وأن يأتى القرار..

٤٠. حكم وأمثال النوبة

التكلم بأمثال: إن المثل هو حديث موجز للموعظة أو للعبرة، وهو القول السائر بين الناس المتمثل بمضربه أى بالحالة الأصلية التى ورد بها الكلام كما إنه قد يكون قصة قصيرة بسيطة تهدف إلى توضيح أمر أو توصيل مفهوم معين، وهو فى الأصل قصة تشبيهية أو إستعارة تمثيلية مستمدة من الطبيعة أو من الحياة اليومية لإلقاء مزيد من الضوء على الحقائق الروحية والإجتماعية ولإيجاز عبارته يسهل على الذاكرة إختزانه ..

وتختلف الأمثال بإختلاف الشعوب والحضارات والعصور، والمثل امر شائع فى آداب كل الشعوب.. وعندما كنت طالباً بكلية اللاهوت إستهوتنى دراسة الأمثال المصرية والعربية وحفظت منها ما يقرب إلى خمسة آلاف مثل وكتبتها فى دفتر بخط يدى إعجاباً بها، وفى السودان قام الأستاذ بابكر بدرى بجمع عدد لا يستهان به من الأمثال السودانية ، كما قام محمد متولى بدر بجمع حكم وأمثال النوبة التى لم يزل أبناء النوبة يحفظونها باللغة النوبية، وكانت هذه الدراسة هى من سلسلة دراسات فى التراث السودانى..

معهد الدراسات الأسيوية والأفريقية ١٩٧٨م وجمع فيها الأمثال النوبية مع مقارنة بالأمثال العربية وبيوت الشعر التى هى فى مصاف الأمثال، وليست الأمثال أمراً مستحدثاً فهى موجودة منذ القدم فى ثقافات الشعوب ويحتوى العهد القديم على عدة أمثال مثل أسطورة الأشجار التى أرادت أن تمسح عليها ملكاً ورفضت كل الأشجار وقبلت شجرة العوسج فقط (قضاة ٩).. ومثل الأرز والعوسج والكرم الذى أنتج عنباً رديئاً، والكرمة التى غرست على المياه الكثيرة ولكن الريح يبستها، وقد تكلم السيد المسيح بأمثال بل إستخدم الأمثال بكثرة فى الأناجيل حيث قدم السيد المسيح ما يقرب من ستين مثلا جاء أغلبها فى إنجيل لوقا..

وأعتقد إن أغلب الأمثال المتداولة بيننا الان ترجع إلى أمثال سليمان الحكيم حيث نشرت ترجمة شعبية لسفر الأمثال وصارت فى متداول الناس فحفظوها، وصارت مثلا وتأتى كلمة مثل فى اللغة العبرية بنفس ما فى العربية ومعناها مقارنة أو تشبيه أو تعميم أول قول موجز بليغ زاخر بالمعانى محدد الهدف يعبر عن حكمة مأثورة.. وتمتلىء صفحات الكتاب المقدس بالأمثال وعلى الأخص فى أسفار الحكمة وفى سفر يشوع بن شيراخ ، ويحدد سليمان الحكيم هدف الأمثال فى الإصحاح الأول من سفره أمثال سليمان لمعرفة حكمة وأدب لإدراك اقوال الفهم لقبول تاديب المعرفة والعدل والحق والإستقامة ، لتعطى الجهال ذكاء والشباب معرفة وتدبيراً يسمعها الحكيم فيزداد علماً والفهيم يكتسب تدبيراً لفهم المثل واللغز أقوال الحكماء وغوامضهم..

أمثال النوبة: يشتمل كتاب « أمثال النوبة» على ٢٤٧ مثلا وهذه مسّجلة فى الكتاب باللغة النوبية ومترجمة إلى العربية ترجمة أرجو أن تعاد مرة ثانية لإختيار كلمات تزيد المثل إيضاحاً.. وهذه الأمثال هى تراث عريق يؤكد عراقة الحضارة النوبية ويعد كتاب حكم وأمثال النوبة إضافة مقدرة للدراسات النوبية وللتراث الشعبى السودانى عموماً.. ويرى المؤلف إن الأمثال التى جمعت ليست هى كل الأمثال لأن اللغة النوبية غير مكتوبة ولأن اللغة العربية عصفت بالبقية الباقية من الأدب النوبى، ولم يبق سوى البسيط الذى جمع من أفواه الناس عن طريق التقليد الشفاهى، وكان أول الأمثال فى الكتاب يقول: شجرة الدوم لا تظلل ما تحتها..

ويشرح المؤلف معنى المثل فى أن المعروف إن شجرة الدوم ترتفع وتتشعب إلى

فروع ، لكل فرع مجتمع من السعف والتمر ويسقط ظل هذه الفروع تحتها متفرقة ، فإذا جاء وقت الأصيل تجمعت ظلال الفروع كلها فى مكان واحد بعيداً عن الشجرة وهناك تعطى ظلا كثيفاً، والمثل يقال للرجل الذى لا ينتفع به أهله وذوو قرباه وينتفع منه غيرهم، ويقابل هذا فى العامية باب النجار مخلع..

وفى رأيى إن مثل باب النجار مخلع لا ينطبق على مثل شجرة الدوم إلا من ناحية إن النجار يصلح أبواب الناس ولكن لا يصلح بابه ويقولون : إن باب النجار مخلع يعنى إن النجار مشغول جداً بالعمل وليس لديه وقت لتصليح بيته، وهناك مثل آخر يقول : مثل الشجرة العوجة ترمى خارجاً أى يلقى ثمرها فى غير موضعه.. ويذكر الكتاب العديد من الأمثال النوبية الجميلة مثل:

الذى يقع وحده لا يبكى ، ويقال للرجل الذى يتسبب فى إيذاء نفسه ثم يضيق ذرعاً بالذى..

فى حى العمى.. الأعور فأل..

المرأة البلهاء تضربها عتبة الباب سبع مرات..

من لدغه الثعبان يخاف من الحبل..

إذا بكى صاحب الميّت بكت العيون..

الرماد يعلق بمن تعفّر به..

الغريق لا يخاف الموج أو كما يقول الشاعر: أنا الغريق فى خوفى من البلل..

أبسطته وهو ساخن.. ويعنى عدم تأجيل الأمر وطرق الحديد وهو ساخن، وكقول الشاعر" ولا أؤخر شغل اليوم عن كسل.. وإلى غدٍ إن يوم العاجزين غد..

جذر حنظل يفسد بطيخة كاملة، بمعنى لا تحتقر شيئاً صغيراً يحتقر فربما أسالت الدم الإبر..

لا تتزوج البنت، وتزوج أمها، وهذا يعنى خذ بنت الأصيل ونام على الحصير..

٤١. إستوصوا خيراً بقبط السودان

الدكتور الصادق الفقيه: تحت عنوان « هذا المقال» كتب الصادق الفقيه مقالا، وكان كما عهدته صادقاً فى مشاعره جريئاً فى غعلان صدقه ، وكان فقيهاً للأمر يفهم معناه ويدرك أبعاد الفقه فيه، وهو كما أعرفه الصادق بخيت، وبخيت هنا هو صاحب

الحظ السعيد ،وهو إسم قديم من أيام النوبة المسيحية وهو فى النوبية ميكى أو مكاريوس أو مكى أو مقار، وكلها مشتقات لإسم واحد يعنى « سعيد الحظ «..

وهذا ما ينطبق علىّ فإننى سعيد الحظ بما يكتب وبما يقال وسعيد الحظ بصداقات حميمة مع العدد الكبير من كتابنا ومثقفينا الذين يطالبون بحقوقنا بقلم طاهر عفيف يحمل الشفافية مكباً والمصداقية قولا.. ولقد تحدث الصادق بخيت عن قضية طرحها الأب القمص فيلوثاوس فرج أمام رئيس الجمهورية فى إفطار رمضان لعامنا هذا ٢٠٠٦م..

والقضية ترتبط بمشاركة الأقباط فى تمثيل عادل فى إدارة الشأن العام حيث لا يمكن أن تتجاهل الحكومة كفاءات الأقباط وتصبح وزارة الوحدة الوطنية خالية منهم خاوية من كفاءاتهم، تاركة إياهم على هامش المشاركة الوطنية وإدارة شئون البلاد وهم أهل أدب وثقافة وحوار، وهم يحاورون بالمنطق ولا يقهرون الدولة بالسلاح، ويحبون أن يصلوا إلى مشاركتهم باللطف وليس بالعنف..

لأن موقفاً مماثلا لهذا حدث مع السيد المسيح الذى بدأ يوجه الحواريون إلى أن يحملوا السيف وقال لهم: من ليس له سيف فليبع ثوبه ويشترى سيفاً، وكانت إجابة بطرس : يوجد هنا سيفان.. فقال السيد المسيح: هذا يكفى ولم يكن إغلاق ثنايا الحوار من السيد المسيح إلا لأن تلاميذه لم يفهموا ما يقصد.. إنه لم يقصد إطلاقاً هذا السيف البتار اللامع الذى يقصف الرقاب ويسيل الدماء، إنما يقصد سيف الكلمة دفاعاً عن الحق، ولم يرتفع التلاميذ الحواريون إلى هذا المستوى، ولم يعاود المعلم يسوع الحوار حول هذا الموضوع لأن هناك مسافات كبيرة بين المتكلم والسامع، بين الرئيس والمرؤوس..

وإستمر هذا حتى يوم الصليب عندما تم القبض على السيد المسيح حيث خرجوا عليه كما يخرجون على لص، خرجوا إليه بمشاعل ومصابيح وسلاح، وهنا أخرج بطرس سيفه الذى كان قد أدخره بناء على أمر السيد المسيح وضرب به عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى، ولاشك إنه فرح بنفسه لأنه إستخدم السيف فى وقته، ولكن خاب أمل بطرس عندما قال له يسوع: إجعل سيفك فى غمدك لأن الذين يأخذون بالسيف بالسيف يؤخذون، أتظن إنى لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فيقدم لى أكثر من إثنى عشر جيشاً من الملائكة ؟ وأمسك يسوع الأذن المقطوعة ووضعها فى

موضعها وإلتأمت مع الجسد ومعها توقف نزيف الدم (لوقا ٢٢، ومتى ٢٦)..

ومع هذا الموقف إستدرك التلاميذ إن السيد المسيح يقصد سيفاً آخر هو سيف الحق، سيف الكلمة، فالكلمات سيوف مسلولة، وعند البعض سيوف فى شفاههم، والمصارعة مع الدم واللحم يتطلب أن يكون عند الجندى الروحى درع البر وخوذة الخلاص وترس الإيمان الذى هو كلمة الله وهى فعّالة وأمضى من كل سيف ذى حدين، وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ ، ومميزة أفكار القلب ونياته..

إستوصوا خيراً: ويقول الصادق فى طرحه الصادق : إنه ثمة قضية تستدعى النظر فيما طرح صديقنا القمص فيلوثاوس فرج راعى كنيسة الشهيدين فى الخرطوم فى بحر أسبوع مضى ومقاله منشور فى الرأى العام ٢٠٠٦/١١/٢٢ م، وإشارته إلى ضرورة أو بالأحرى مطالبته بتمثيل عادل لأقلية قبطية وطنية فاعلة ومتفاعلة فى إدارة الشأن العام، وما كان له فى تقديرى أن يسأل أو يجرؤ على المطالبة لولا يقين لديه إن الأقباط بأعداد وإعداد يؤهلهم للمشاركة السياسية السليمة والسلمية، ولن يجرؤ لنيل إستحقاقاتهم سلاحاً، ولن يتبعوا طريق عنف باهظ التكاليف، شاق التصاريف..

ولكنها خاطرة وظن تقديراً على ما آلت إليه ظواهر الأمور التى إحتكرت تفسيراتها القسمة لمن يطلبها عنفاً وعنوة حيث بدأ وكان الناس يتوزعون المقاعد والسلطان بالمدافعة والصراع، لا التنافس الذى يقدم كسب الفرد فى تحصيل المنصب والموقع والنفوذ، ولا منافحة الجماعة والجهة والقبيلة والإقليم فى إنتزاع الحق وتعريف الحقوق..

وجاء الطلب بحذره وخشية المؤدبة ليلفت الإنتباه، وأقول : إن الطلب مستمر، والأدب مستمر، وآلينا على أنفسنا أن نقدم مطالبنا بطريقة حضارية على مأدبة حضارية وسط حضور حضارى مكثف فى وجود رئيس متحضر سوف يعالج قضايا المجتمع بأسلوب حضارى..

٤٢. شاعر أغداً ألقاك.. يلقى ربه

الهادى آدم: فى الشهر الآخير من العام ٢٠٠٦م رحل عن العالم الهادى آدم ، الشاعر الفحل صاحب القصائد الجميلة، شاعر قصيدة أغداً ألقاك، والتى جاءت فى المجموعة الكاملة له والتى هى من ذخائر أروقة الصادرة فى سنة ٢٠٠٢م ، جاءت القصيدة تحت عنوان « الغد» فى ديوان « كوخ الأشواق» وهى نفسها القصيدة التى إختارتها سيدة الشرق الأولى أم كلثوم لتتغنى بها بصوتها الرخيم..

ويقولون: إن الهادى آدم كان يرغب أن تغنى أم كلثوم أحد قصائده وعندما شدّ الرحال إلى مصر لكى يلقاها قالت له : ألقاك غداً .. ومن وقته وحتى الغد صاغ هذه القصيدة حباً فى أم كلثوم وهياماً بها، وكان يردد :

أغداً ألقاك يالهف فؤادى من غـــد..

وأجيك ولكــن بفؤادى أم يـــــدى ؟..

أم بطــرف خاشع اللمح كليل مجهــد..

لست ادرى كيف ألقــاك ولكنى صدى..

ظامىء أرهقــه البين وطول الأمــــد..

وتحدث كثيرون عن إعجاب أم كلثوم بقصيدة الهادى آدم.. وبعد هذا تفشى الخبر وعمّ القرى والحضر كما يقول الكابلى، وإنتشرت الأغنية إنتشاراً كبيراً وإعتقد كثيرون إن الهادى آدم من فرط حبه للحبيب متمثلا فى رمزية أم كلثوم جعلها قبلة روحه.. ولهف فؤاده.. وجنة حبه.. ومعبد صمته وصلاته وسكونه..

أنت يا جنة حبى وإصطحابى وجنونـــــى..

أنت يا قبلة روحى وإنطلاقـــى وشجونـــى..

أنت يا معبد صمتى وصلاتـــى وسكونـــــى..

أغداً ألقـــاك ، يا لهف فــؤادى من غـــــد..

وأجيـــك ، ولكــن بفــــؤادى أم يـــدى ؟..

هذا ما عرفناه عن هيام الشاعر السودانى بسيدة الغناء العربى، ولكن عندما ذهبت بباقات التعازى إلى أسرة الراحل الشاعر رفض أهله هذه القصة وقال أحد أولاده فى جلسة مع كل أفراد الأسرة : إن القصة هى أن أم كلثوم رغبت فى أن تغنى لأحد شعراء السودان وعرض عليها عدة قصائد، ولكنها إختارت " أغداً ألقاك " وعاشت فى إنتظار الغد مع الهادى آدم الذى كان يرجو الغد إقتراباً وعندما كان يستدنيه طالباً قربه إذ به يهابه لما أهاباً دانياً إليه..

أنا أخشى من غد هذا ، وأرجـوه إقترابــا..

كنت أستدنيـه لكـن هبتـه لمـا أهابــا..

وتولت دهشـة القـرب فـؤادى فأنابــا..

وهكـذا إستبطـن العمر نعيمـاً وعذابــا..

مهجـة سُكـرى وقلـب مُستهـام يتغابـا..

إلتقى بالغد: وفى إعتقادى إن الهادى آدم كان شاعراً رقيقاً حساساً، تعامل مع الغد بإعتباره الأبدية القادمة إليه، لأن الله وضع الأبدية فى كيان الإنسان لحناً خالداً فى أعماقه كما يقول سليمان الحكيم : بأن الله صنع الكل حسناً فى وقته، وأيضا جعل الأبدية فى قلبهم التى بلاها لا يدرك الإنسان العمل الذى يعمله الله من البداية إلى النهاية (جامعة ٣).. فالشعور بالأبدية هو الذى يعطنا الشعور بأعمال الله الأبدية ، والأبدية هى الموعد الأكبر والعبور من وادى البكاء فوق جسر الموت الذى لا فرار منه لأن المؤمن عن طريق الموت يحطم الخط الترابى الذى هو الجسد ويعبر بالروح إلى ضفته العليا التى هى شاطىء الأبدية.. والزمن الحاضر كله آزاء الأبدية هو بمثابة حبة حقيرة بجوار رمال الصحراء، وقطرة بجانب ماء المحيط..

والعبور إلى الأبدية عبور سعيد يسجّل المؤمن فى سجل الفخار الخلود، عندما ينفصم جبل الفضة وينسحق كور الذهب، وتنكسر الجرة على العين، وتنقصف البكرة عند البئر، فيرجع التراب إلى الأرض كما كان، وترجع الروح إلى الله الذى أعطاها.. إن الهادى آدم عندما قال « أغداً ألقاك «، إنما كان يتحدث عن لقاء الروح مع الله بعد إنحلال الجسد ، لذلك آثار طريق اللقيا بأنه سوف يحييه ليس باليد إنما بالفؤاد ليس إلا..

وهنا يكون الله هو الحبيب فى الدنيا والمهيب فى الآخرة.. وتصبح الدنيا سماء هو فيها القمر.. وعيون هو فيها البصر.. وليال هو فيها العمر.. والكروم هو فيها السكر.. وهنا يسكر العاشق بخمر حب الله مثل الصوفى فى منسكه.. وهنا تكون النداءات دعاء، والإقتراب إلى الله هو الرجاء ، ومن يقترب لا يحفل بمن راح وجاء.. لا اشك إن الهادى آدم كان يحب الغد لقاء مع الله، ويهاب الغد حشراً وحساباً.. إن الشاعر له قلب صوفى متعبد ، تنعزل فى السماء ويداعب قطرات الماء شوقاً للقاء الغد..هذا هو شاعر « أغداً ألقاك» قد لقى ربه..

٤٣. في بيت لحم أعطينا غلاماً ذكياً

فى بيت لحم: منذ أكثر من ألفى عام وفى عام يتميز على كل الأعوام، وفى يوم هادىء يتفوق على كل الأيام، ولد السيد المسيح طفلا فى بيت لحم.. أعطانا الرب غلاماً ذكياً إسمه عمانوئيل وتفسيره « الله معنا». إنه يسوع والذى يعنى إسمه « المخلص» وأعطانا السيد نفسه آية الدهور ومعجزة الأجيال، وكانت المعجزة أن عذراء بتول لم يمسسها بشر ولم تك بغياً تلد طفلا ذكياً.. وتعالى رب الجنود بالعدل وتقدس الإله القدوس بالبر، وإنغلقت أفواه الهاوية التى كانت قد فغرت فاها، وأكل الحريق كل سلاح المتسلح فى الوغى، وإحترق كل رداء مدحرج فى الدماء..

وتمت نبوة أشعياء لأنه يولد لنا ولد ونُعطى إبناً وتكون الرياسة على كتفه ويدعى إسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام، لنمو رياسته ولا سلام لا نهاية على كرسى داوّد وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن وإلى الأبد غيرة رب الجنود تصنع هذا (أشعياء ٩).. وغيرة رب الجنود جعلت ميخا النبى يحدد موقع ميلاد السيد المسيح، وأنت يابيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبى الذى مخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل (ميخا ٥)..

وتم ميلاد السيد المسيح فى بيت لحم بسبب إحصاء اليهود فى زمان الإمبراطور أغسطس قيصر والذى سمى شهر أغسطس بإسمه، وعندما ذهب يوسف هناك ليكتتب فى مدينته تمت أيام مريم لتلد فولدت إبنها البكر وقمطته وأضجعته فى المزود إذ لم يكن لهما موضع فى المنزل، وفى أرض بيت لحم كان أول إعلان بمجيء السيد المسيح بواسطة ملاك وجوقة ملائكة..

الملاك بمفرده ظهر للرعاة فى البادية حيث وقف بهم ومجد الرب أضاء حولهم فخافوا خوفاً عظيماً ولكن الملاك حمل إليهم رسالة إطمئنان : لا تخافوا فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب إنه قد ولد لكم اليوم مخلص هو المسيح الرب، وهذه لكم العلامة تجدون طفلا مقمطاً مضطجعاً فى مزود وهى علامة نادرة لقصة نادرة ، حيث إنه لم يحدث فى الدنيا أن ولد طفل فى مزود بقر..

وصارت بيت لحم قبلة العالم عندما أتى إليها حكماء من الشرق يحملون هداياهم وهم المجوس أهل إيران الآن حضارة بابل قديماً.. وقدموا هداياهم ذهباً ولباناً ومراً.. وصارت بيت لحم مهد المسيح مكاناً يحج إليه الناس من كل صوب وحدب ويذهب إلى بيت لحم من دعى إسم المسيح عليهم ، ويذهب إليها أهلنا من المسلمين يكملون أيام حجهم المبارك ولكن بيت لحم الآن تخيم عليها ظلمة الدهور ويغيب منها مسيحيو الشرق والغرب ومسلمى العالم لأنها أضحت مدينة حروب ودمار إحترابات ، ولهذا لزم أن نصلى من أجلها ..

وفى كل كنيسة شرقية مبنى صغير يسمى « بيت لحم « يصنع فيه القربان المقدس والذى هو رمز للسيد المسيح الذى أعطى ذاته خلاصاً وفداءاً ، وصار للمسيحيين شركة روحية وغذاء روحياً يومياً لا يستغنى عنه مسيحى..

موكب بيت لحم:وتحدث واحد من أدباء المسيحية وكتابها النجباء هو القس إبراهيم سعيد عن موكب بيت لحم بأسلوب أدبى رصين قال فيه فى ذلك اليوم المغمور بوداعته بين الأيام والمرفوع بمعالمه فوق هامات القرون ، مالت الشمس إلى المغيب وراء أفق مدينة جاثمة على أحد جبال فلسطين تدعى « بيت لحم « فرسمت بأشعتها الذهبية على وجه الغيوم أشعة تبرية رائعة تنسى عابدى المال جمال الذهب، وأسالت على وجوه جماعة من المسافرين إلى» بيت لحم « صفرة مائعة إلتقت بصفرة وجوههم المتعبة فترجمت عن التعب الذى كابدوه من عناء السفر وكان بينهم رجل تبدو على محياه سيماء المهابة والوقار، ومعه « عذراء طهور» إمتزجت على محياها علائم الخفر بدلال الإعجاب والفخر، لأنها تحمل بين حناياها « سر الدهور».. والأجيال من غير أن يمسسها بشر..

وبعد قليل شرع الليل يرخى سدوله فبّدل النقاب الرمادى الذى نسجه الغروب فوق جبين بيت لحم بحجاب كثيف من الظلام غطى به وجه المدينة، فجهلت حقيقة

الضيفين الكريمين فلم يجدا أمامهما سوى « نزل» حقير يقال له « الخان»، وفى ذلك الخان حلا محلا وضيعاً لأنه لم يكن لهما موضع فى النزل، وكما هجع الليل ورقد البشر دقت ساعة الزل فوضعت مريم إبنها البكر وهى وحيدة بعيدة عن كل عين تعطف، بعيدة عن كل قلب يواسى ويشجع، فقمطته وأضجعته فى مزود..

وهذا الطفل العظيم، الغلام الذكى ، وجيه الدنيا والآخرة ، هو الذى نحتفل معاً بذكرى ميلاده ، وقلوبنا نحو بيت لحم، وهى كل يوم تودع لحماً من البشر يقتلهم الإرهاب ويقتلهم عدم الإنضباط، ويدمرهم عدم حب الآخر، وعدم الإعتراف بالآخر، والذى هو الطريق الوحيد إلى سلام بيت لحم.. وإلى سلام السودان.. وإلى سلام كل البلدان..

٤٤. المواقع الآثرية بالسودان

صلاح الصادق: صدر كتاب « المواقع الآثرية بالسودان» لعالم الآثار والباحث عنها بالتدقيق صلاح عمر الصادق، والكتاب صادر عن مكتبة الشريف الأكاديمية الخرطوم ٢٠٠٦م.. وفى الكتاب أربع وسبعون مقالا عن مواقع أثرية وعملات نادرة ولإقتراحات مهمة مثل تحويل مصنع الشفاء الذى دمرّ خطاءً بإعتبار أن به مواد كيماوية سامة أو أسلحة دمار شامل إلى متحف أو مشروع تسميه معالم العاصمة القومية وتسميه شوارع الخرطوم القديمة محصورة ما بين كوبرى النيل الأزرق والأبيض ومحطة السكة حديد، الخرطوم شرق ووسط وغرب المقرن.. ومشروع متحف التراث الحربى ومقترح متحف قباب الأتراك..

وصلاح الصادق باحث آثار يعتز برسالته ، وهو مهتم جداً بإستخراج ما يبطن إلى القارىء السودانى ، وفى أعماق المؤلف العديد من الآثار حباً وشوقاً إلى إرساء ثقافة آثارية تراثية تعتز بالتراث، وتدرس الميراث وتكتب عن حضارة السودان وتؤكد : إن الحضارة بدأت هنا عندنا وإمتدت مع مسار النيل إلى كل بلاد وادى النيل، ورأت عواصمنا الحضارية أمجاد تاريخية وآثاراً هى كنوز غالية أو لقيا أو لقية كما كنا نقول ونحن أطفال» وجدنا لقية» فى منزلنا أو وجدنا كنزاً غالياً ثميناً..

وهو يحاول كثيراً أن ينقذ بعض المناطق الآثرية من تغول المبانى، وقد إتصل بى ذات مرة يستنجد بى حتى يتم إنقاذ آثار سوبا العريقة، ولكن يبدو أن الدولة أصرت أن تحولها إلى خطط إسكانية لكى تملأ خزينتها دون حتى أن تحاول دراسة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من بعض الآثار الباقية فى سوبا بلد الأربعمائة كنيسة التى ذكرها صالح الأرمنى المؤرخ الشهير، وبلد الحضارة القديمة والمبانى الشاهقة الجميلة، والتى أخذ منها الطوب الأحمر لبناء مدينة الخرطوم، والتى ولدت على يد الأتراك وبواسطة محمد على فى سنة ١٨٢٣م بعد أن صارت سوبا خراباً وهى بلد الجد والحبوبة..

وقد سافر صلاح الصادق بصفته باحث وعالم آثار عدة سفريات وكتب العديد من المذكرات وأخرج هذه المذكرات فى هذا الكتاب القيم جداً، والذى يضاف إلى كتبه القيمة والتى هى ثروة لتاريخ السودان وكنز لصالح الحضارة السودانية القديمة.. وتسجيل للمناطق الآثرية ، وهو ينفعل جداً عندما لا يتعامل الناس مع الآثار معاملة الإحترام والتوقير، ولهذا يرفض صناعة الرغيف داخل جزيرة سواكن الآثرية ، ويندهش جداً من دخول العربات إليها رغبة فى الحفاظ على هذا الآثر الكبير كبيراً وجميلا..

وقد حدث مثل هذا التحقير للآثار فى الأديرة القبطية حيث كان عرب البادية أو العربان وقبائل الغجر والبربر يهجمون على الأديرة ويقتلون ساكنيها من الرهبان دون أن تشفع فيهم تقواهم وقداستهم، ثم بعد هذا يجهزون الطعام ويشعلون النيران وتلتهم المخطوطات وقوداً وتضيع منا هذه المخطوطات الثمينة، وليس من رادع لهذه القبائل..

وفى بعض كنائس الأديرة غطى هباب النيران أو صمادها الكثير من اللوحات والأيقونات القديمة والرسومات القيمة والتى حاول بعض علماء الآثار الأجانب منذ مدة بسيطة إستخراج هذه اللوحات وإزالة صدأ الصماد عنها وإعادتها فى نفس مستوى جمالها بعد الهجمة غير المتحضرة عليها..

المواقع الآثرية: ويتحدث عمر الصادق عن المواقع الآثرية فى شندى والنقعة والبجراوية وود بانقا والمصورات وتمثال الأسدين فى النقعة.. وقباب الأتراك،

والطابية، وبوابة عبد القيوم، والخوجلاب والسقاى والكلجر والسروراب والكسمير وديم القراى والقبلاب وسنار وأم دوم، والمواقع الآثرية بين الخرطوم وسنار، وطابية توتى، وموقع الأزيرقاب..

وتحدث عن سجن أم درمان والذى كان منزلا لعثمان شيخ الدين، وينبغى أن يتحول إلى متحف للحضارة الإسلامية، وتحدث عن الآثار التى يجدها عمال الحفر ويأتون بها إلى المتحف القومى لتنضم إلى ثروته، وتسكن فيه فى مكان آمن.. وأعتقد إنه ينبغى أن يقدم المتحف حوافز لعمال الحفر تجعلهم عندما يجدون شيئاً أثرياً يسارعون به إلى المتحف، وقد جال الصادق ربوع السودان بحثاً عن الآثار وإهتماماً بها، والذى لحظته إن أعظم المناطق الآثرية فى السودان تحت مسئولية الخفر..خفير أو إثنان بالأكثر فى كل موقع.. وأرى مقترحاً إن كل موقع آثارى ينبغى أن يكون فيه مكتب راقى ومتحضر للآثار فيه خريجى آثار يشرحون للناس أهمية آثارنا ويبحثون عن وسائل لتنشيط السياحة لأننا أغنى بلد سياحياً وآثارياً.. وربما يساعد هذا على المزيد من البحث والتنقيب، ونحن لم نبحث عن آثارنا بقدر ما بحث عنها آخرون من بلاد العالم..

عندما بدأت مخاوف العلماء من أن تطمر هذه الآثار تحت ماء السد العالى وخزان أسوان، وخزان جبل الأولياء، وسد مروى، والحمد لله وجد الباحثون والمنقبون كنوزاً غالية تحت رمال بلادنا كانت ساكنة ساكتة لا يعرف أحد عنها شيء.. إن كتاب عمر الصادق « المواقع الاثرية بالسودان» ينبغى أن يوقظ مشاعرنا ويستنهض هممنا لكى نُخرج آثارنا من تحت الرمال كما نخرج كنوزنا من تحت البلاطة، وبهذا يكون سوداننا دوماً فوق، يسير فى طريق الأغنياء الودعاء الذين يعطون الحاضر مخزناً لغلال وخيرات، ويعطون العالم آثاراً عالمية هى ثروة الماضى المجيد..

٤٥. مؤتمر حوار الأديان

كلمة الأب القمص فيلوثاوس فرج رئيس اللجنة التحضيرية لمؤتمر الأديان :-

سعادة الرئيس بشير المحبة.. نذير السلام..

الإخوة أعضاء مجلس الثورة، والوزراء ، والولاة والمحافظين ،وزملائى فى المجلس الوطنى ، أخوانى وأخواتى ، من أبناء وطنى العظيم السودان الكريم..

أقدم إليكم الآن فكرة المؤتمر..

كيف بدأنا ؟.. وكيف خطونا ؟.. وكيف وصلنا إلى هذا اليوم التاريخى المجيد لنكتب معاً وثيقة مؤتمر الأديان ، ونُشهد علينا التاريخ.. وسوف يشهد لنا التاريخ بمشيئة الله الذى يقف وراء التاريخ ولبركة الإنسان صانع التاريخ.. فالإنسان هو القضية، والإنسان هو الحل..

نحن مجموعة من المواطنين السودانيين.. مسيحيون ومسلمون.. رجال ونساء، رجال دين ، ورجال أعمال ، ورجال علم وثقافة.. نحن قد إتفقنا معاً ، وتلاقينا معاً ، جمعنا توجه واحد، وأجمعنا على أن نعمل معاً ، كرجل واحد ، بقلب واحد ، وتوجهنا نحو الله الواحد ، وصلينا إليه وقررنا معاً أن نُقيم مؤتمراً للأديان فى السودان.. وكان أول إجتماع لنا فى يوم الإثنين ١٩٩٣/١١/١٦ م ، وكان معنا السيد فضل السيد أبو قصيصة ، بإعتباره أول المهتمين بهذا العمل الشعبى ، وأول الداعين إليه ، ووضع هو مؤسسة السلام والتنمية لخدمة أهدافنا وهى مؤسسة شبه حكومية، ساندت العمل دون أن تتدخل فيه، وأخذت بركة مطراننا المكرم الأنبا دانيال السودانى المخلص الذى تبرع جده خليل بك بإقراض الحكومة مرتبات الجند، ونيافته يحفظ القرآن عن ظهر قلب من سورة البقرة للناس.. وحددنا أهدافنا وهذه هى أهدافنا..

تأكيد روح التعايش والتوادد والتكامل، والمعايشة الموجودة فى السودان كأمر واقع وتقديمها كنموذج يحتذى لعالم يحترق بنار التعصب والتحزب والتطرف، عالم يسقط واقعه المرير علينا، بينما نحن واقعنا يؤكد تعايشنا وتوادنا، وتحاببنا، وتجاوبنا فى سودان متعدد الأعراق.. متعدد الثقافات، متعدد الأديان، ولكن الأديان فى السودان توحدنا نحو الإله الواحد، إله الكل، سيد الكل، ضابط الكل، ويؤكد واقع السودان ما قاله الكتاب المقدس: أليس أبو واحد لجميعنا ؟ أليس إله واحد خلقنا ؟..

ومع تأكيدنا للتعايش القائم نؤكد إن السودان بلد متميز ، والسودانى شخص متميز، السودان كأنه كوكب آخر هبط من علياء السماء ينشر المحبة، ويزرع السلام، فعلى صعيد الأسرة الواحدة يوجد المسلم والمسيحى ، ويوجد أيضا كريم المعتقدات، وفى جنوب السودان تتعايش الأديان، وفى أم درمان تقف المسالمة كنموذج للعيش فى سلام بين المسيحية والإسلام.. ألم أقل لكم إننا شعب متميز ؟.. حبانا الله بقلوب واسعة مثلُ سوداننا المترامى الأطراف، قلوب تتسع بالحب لكل الناس، وكل الأجناس، وكل الأديان..

وضع إطار لحوار دينى هادف، حوار يكوّن الإحترام المتبادل أساساً له، ويكون الحب هو نهر عطائه، حوار لا يهدف إلى أن يحول المسيحى إلى مسلم، أو المسلم إلى مسيحى ، إنما حوار يقوم على حُسن المعاملة، لا تجادل إلا بالتى هى أحسن.. ونبتعد عن المباحثات الغبية السخيفة التى تحاول أن تضيق على الله نفسه عندما نعتقد أن الله لفئة معينة دون غيرها.. أو أن السماء ميراث لشعب دون آخر.. لأن المنازل فى بيت الآب السماوى كثيرة، ولأن حنان الآب السماوى يمكن أن يشبعنا جميعاً.. وهو الراعى الصالح الذى يقودنا إلى موكب ملكوته..

ونحن نؤمن أن الدين هو سرُ نهضة الشعوب، الدين هو خيرُ الشعوب، هو بركة الشعوب، هو برُ الشعوب، لأن البرُ يرفع شأن الأمة ، وعار الشعوب الخطية، ولهذا قصدنا أن نجمّع الطاقات الدينية لبناء المجتمع، نفجر القيم الروحية لبناء السودان الأصيل، وحيث يوجد الدين لا نفتقد القيم، وحيث يوجد المتدين توجد الأمانة، والوفاء، والنزاهة، والإخلاص، والبذل، والعطاء، والإيثار، والسهر على مصلحة الآخرين، وهنا تتحقق تنمية المجتمع..

وبعد أن حددنا أهدافنا فيما قلنا، حددنا أوراقنا لكى نتسق مع أهدافنا وسوف تسمعون الأوراق.. تسمعون، وتفكرون، وتناقشون، وتقترحون، وتستفهمون، خلال جلسات مؤتمرنا، والأوراق ليست آراء لمؤسسات إنما كل ورقة تعبر عن رأى كاتبها.. وتُعرض أمامكم للتعايش..

وبعد هذا.. بدأنا ندرس معاً كيف نحافظ على سوداننا ؟ كيف نؤصل التعايش الذى ننعم به ؟ كيف نؤطر الحوار الحسن الذى نجريه ؟ كيف نروى شجرة وحدتنا الوطنية ؟ كيف نحميها ؟ بتقوى تكون نمواً فى النعمة، وبماء هو عرقنا المسكوب للعمل المحبوب والمرغوب..

وأول لقاء لمجموعتنا الشعبية التطوعية التى هى اللجنة التحضيرية لمؤتمر الأديان، كان لقاءنا مع رئيسنا.. مع الفريق عمر حسن أحمد البشير ، رئيس مجلس قيادة الثورة والوزراء، تحدثنا معه، عن الأهداف، الأوراق، المدعوين، خطتنا الإعلامية، تهيئة المناخ الداخلى، تأمين مرامينا، تكثيف دعوتنا المقدسة، والوصول إلى جبهتنا الداخلية، إسماع صوتنا لكل العالم من حولنا..

وتجاوب معنا الرئيس.. هكذا توقعنا، لقد سعد بنا، وتحرك قلبه لأهدافنا، وشاركنا أفكارنا، وقدم لنا المساعدة، والمعاضدة والمباركة، لجهدنا الشعبى المتواضع.. أليس هو نفسه واحد من أبناء هذا الشعب الطيب القلب المتآلف الودود ؟.. أليست رسالته أن يدعم الوحدة الوطنية ويؤكد دور التعايش الدينى فى بناء المجتمع ؟.. ووجه رئيسُنا كل الأجهزة لكى تساهم فى إنجاح مؤتمرنا، مؤتمرنا الشعبى النابع من قاعدتنا الشعبية، وأراد أن يكون مؤتمرنا على أحسن مستوى..

وترك اللجنة تؤدى أعمالها، وهو يساندها، عملت اللجنة التمهيدية، فى حرية، فى تحرك داخلى وخارجى، وإحساساً منه بأهمية هذا العمل العظيم فرّغ لنا عضواً من أعضاء مجلس قيادة الثورة وعدداً من الوزراء ليس لكى يصير مؤتمرنا مؤتمراً حكومياً.. إنما لكى تكون الحكومة كلها وعلى أعلى مستوياتها فى خدمة مؤتمرنا الطموح.. وأكرر إن مؤتمرنا مؤتمر شعبى ، وطنى، ولمسات الحكومة معنا هى تأييد وبركات وكبير إهتمامات، يا إذاعة لندن..

وبعدها إلتقينا مع السيد محمد الأمين خليفة رئيس المجلس الوطنى، وعرضنا عليه أهدافنا، وتبين لنا إن أهدافنا هى نفس أهدافه.. وطريق كفاحنا هو نفس طريقه، والميناء الذى تبحر إليه باخرة طموحنا ميناء واحد، هو ميناء السلام.. وبارك محمد الأمين خليفة خطتنا وساند فكرتنا..

وبعد هذا إستمرت اللقاءات مع أعضاء مجلس الثورة، مع الوزراء، مع المسئولين، مع الكبار، مع الصغار، مع رجال الدين الإسلامى والمسيحى، مع رجال

السلك الدبلوماسى، مع كل أفراد شعبنا عبر وسائل إعلامنا، وعبر لقاءات عديدة، فى يوم الخدمة ، وفى غير يوم الخدمة.. وزرنا بعضالولايات ، وخرجنا إلى خارج البلاد فى وفود إلى بريطانيا وألمانيا والنرويج وسويسرا وإيطاليا.. ونجحنا كثيراً جداً بصلواتكم..

وشعرنا بأن مؤتمرنا هو مؤتمر الكل، وعقد اهل بحر الغزال مؤتمر الأديان، وعقدت جامعة إفريقيا العالمية الفكرى مع مؤسسة السلام والتنمية الملتقى حول الأديان والذى حضره عدد كبير من العلماء وطلبة الجامعة، وكلهم من إفريقيا ليكونوا سفراء تعايشنا الدينى بين ذويهم.. وبالأمس كان فى الإستوائية مسيرة شعبية لتأييد مؤتمر الأديان ومؤتمر السلام..

ولكن لا تظنوا أن الطريق كان سهلا ، ومن قال إن زرع الخير سهل ؟ ومن قال إن كلمة الحق سهلة ؟ وهل يملك طالب العلا إلا أن يسهر الليالى ؟ لقد تقابلنا مع الكثير من المعترضين ، لقد سمعنا همسات الهامسين ، لقد لمسنا سوط الحاقدين فى نعومة الحية وفى شراسة الأسد، والحية والأسد هما شبهان لشيطان الحقد.. وكتبت ضدنا المنشورات تحت الأرض وفوق الأرض ، وحاول كثيرون أن يصرعونا فى الطريق، ويكسروا سفينتنا قبل الميناء.. ونقرنا طريقنا فى الصخر.. وليتكم كنتم معنا لكى تروا تعايشنا..

لقد إحتفلنا بعيد الميلاد المجيد، وحول ذكرى ميلاد السيد المسيح أجمعنا وإجتمعنا، وإزدانت قلوبنا ببهجة الذكرى، وأشعلت مشاعل الفرح، وإحتفلنا بذكرى الميلاد فى كنائس الجنوب ، وطافت مواكب الميلاد فى عواصمنا، والشباب الأسمر يحمل لافتات ويلبسون أقمصتهم المزدانة بالصلبان.. وهتافات النصر من الكتاب المقدس تملأ أجواء عواصمنا، نمجد الله فى الأعالى ونطلب السلام على أرض السلام..

وعلى نفس المستوى تحرك المسيحيون فى عيد الفطر يشاركون أخوانهم المسلمين موائد الإفطار وفرحة عيد الفطر وأبرق رئيس كرسى الأديان الكاثوليكية يهنىء المسلمين ، وأرسل رئيس المؤتمر من لندن برقية تهنئة من المسيحيين إلى أخوانهم المسلمين..

لقد كان باب الإعلام مفتوحاً أمامنا ، ولم يزل، المقالات.. اللقاءات.. الحوارات.. وكل هذا شحذ الهمم، ووحّد القلوب نحو تأكيد أنموذجية التعايش والأحاد والتواصل الإجتماعى فى سوداننا المتميز..

وإستقبلنا الحبر الأعظم، البابا يوحنا بولس الثانى ، بابا الفاتيكان ، وقضى

معنا وقتاً طيباً فى العاشر من فبراير.. لم يركب عربة مُصفّحة ، كان بيننا فى السودان فى آمن وأمان، صلىّ فى كنيسته، صلى فى الساحة الخضراء مشروع ثورة الإنقاذ الذى هوِ ملك للكل، للمسيحى كما للمسلم.. سجد على تراب أرضنا يقبله ، وإلتف بعلم سوداننا يتبارك به ويقبله، فباركه، وباركنا..

وأمس تواكبت مسيرة السلام مع موكبينا، مسيرة شارك فيها المسلم والمسيحى.. وإستقبلها الرئيس مسيرة تأييد للسلام، وتأييد لمؤتمر الأديان ، وإحنا حالفين على التآخى .. وها نحن اليوم نؤكد تجاوب الكل معنا، تجاوبكم كوفود أتت إلينا من حوالى ثلاثين بلداً ، وفى عدد يفوق المائة ضيفاً وافداً.. وتجاوب شعبنا فى حضوره إلينا ينشد أناشيد الحب، ويرنم ترانيم السلام، ويشدو ويرتل ويجود كلام الله..

وإسمحوا لى أن أقدم بعض ملاحظات على طريق التعايش الدينى فى السودان..–

نحن لم نقسّم الأسماء، لا توجد عندنا أسماء مسيحية ، وأسماء إسلامية، إن خريجى معهد الكتاب المقدس بينهم احمد وصلاح وعلى وخميس، وقساوستنا بينهم إسماعيل وعبد الرحمن، وأساقفتنا فيهم إدريس وحسن وعلينانا، ومسلمونا فيهم جبريل ويوسف وموسى ويعقوب وإبراهيم..

فى تاريخنا، لم تتحول أى كنيسة إلى جامع.. ظلت الكنيسة كنيسة كما هى..

فى كل تاريخنا القديم والحديث لم يحدث أن إعتدى أحدُ على كنيسة، ولا جامع، أو أى مؤسسة دينية..

لم يتطرف أحد منا إطلاقاً.. وحوادث الإغتيالات دخيلة علينا..

أنوار كنائسنا وجوامعنا تدفعها لنا حكومتنا، وهى الآن فاتورة ثقيلة إذا تحملها المصلون..

عندنا كنيسة فى السجون، أول حكومة تقدم أرض لبناء كنيسة ..

أحوالنا الشخصية لم يلمسها أحد ، لها قدسيتها الخاصة..نحن تحكمنا فى أحوالنا الشخصية قوانين كنائسنا، ولم تقحم الحكومة نفسها فى هذا

الميدان، إحتراماً منها لقدسية الأديان..

تبنى الكنائس والجوامع على أرض تعطى هبة من الحكومة، إن أراضى كنائسنا هى هبة من حكوماتنا، لأنها تشجع تأصيل القيم وزرع الفضائل، وتبنى الكنائس هنا بجوار الجوامع..وهذا أمر يؤكد التعايش بوضوح..

فى المحطة الوسطى بالخرطوم تفتح مكتبة الكتاب المقدس أبوابها للكل.. وتعمل جمعية الكتاب المقدس فى حرية واضحة، وعلى نهر النيل، وبجوار الفندق الكبير يقام كل عام مهرجان" الكتاب المقدس العائم ".. ويرعاه وزير الثقافة والإعلام..

١٠.للمسيحيين مكان فى الإعلام، مساحتنا الجديدة قدمتها إلينا ثورتنا، فى الإذاعة، فى التلفزيون، ومقالات دينية فى الجرائد، فى السودان الحديث..

١١. عيد ميلاد السيد المسيح إجازة رسمية، وعيد شم النسيم الذى يلى عيد القيامة هو عطلة رسمية لكل البلاد..

١٢. مناهجنا التعليمية الدينية المسيحية أعدتها لجنة من كنائس السودان وهى الآن تجهز لكى تطبعها وزارة التربية والتعليم، وتقوم الحكومة بتوفير المعلم المسيحى وتدريب المعلم المسيحى.. بل إننى أدرس الدين المسيحى للمسيحيين فى بعض الجامعات بدءاً بكلية البنات الجامعية..

١٣. نحن لنا كلمتنا ، عندما نشعر بأن شيئاً يمس فكرنا المسيحى نتحاور، وبالحوار نصل إلى القرار، مثلما حدث فى الزى الإسلامى..

١٤. نحن قد إرتضينا أن تكون المواطنة هى أساس المشاركة فى المجتمع.. فلا يعاقب شخص ويميز بسبب دينه، فالمواطنة مظلة يستظل بها كل المواطنين والعمل العام ، والعمل السياسى مكفول أمام الجميع، ومن حق المسيحى أن يرشح نفسه لكل المناصب العليا فى الدولة..

وبعد أيها الأحباء ، إن ما قلناه لا يعنى إننا ملائكة ، أو إننا مجتمع بلا مشاكل، إن الإمعاء فى الأحشاء تتصارع، نحن بشر، ولا يوجد المجتمع الكامل إلا فى خيال

إفلاطون ، والفارابى، ومدينة الله لأوغسطينوس.. ولكن نحن أيضا لسنا شياطين ، ولسنا إرهابين، ولسنا متطرفين..

ويا رجال الدين أرجوكم أن تبحثوا، تقرأوا، وتفتشوا، فتشوا الكتب، أخرجوا منها الجدد والعتقاء، أبحثوا عن محطات التلاقى بين الأديان، أصّلوا التعايش، عمقوّا التآخى والمحبة، أنتم مسئولون، السلام ثمرة كفاحكم، الإنقسام يأتى عندما تتغافلون، وتنسون رسالتكم وما أظنكم تنسون ؟..

حبابكم عشرة.. وبكم سوف نكون عشرة على عشرة، بلا كشرة..

نحن نمد أيدينا إليكم ، فمدوا إلينا أيديكم..

نحن نفتح لكم قلوبنا ، فإفتحوا لنا قلوبكم.. نحن بدأنا معكم المسيرة، فباركوا لنا مسيرتنا على دروب المحبة نلتقى، وفى زوايا الإيمان نتعانق ، ومن نهر العطاء نعطى ، وعلى ينبوع الصفاء نقف..

نحن جزء لا يتجزأ من المجتمع العالمى، ويا وفودنا مرحباً بكم.. إشربوا ماء نيلنا ، وسوف نحبكم وتحبوننا.. ويكون السودان شوقكم ، وإستراحتكم.. وموضوع صلواتكم ، وبشروا..

وبشـــروا بمـــا تـــرون..

أكرزوا بتعايش سودانـنـــا..

وأنشـــروا رؤياكــــــــم..

فى إعلام صادق نزيـــــه..

فالإعلام الـــيوم هـــــو..

أفيــــــون الشعــــوب..

بارك الله فيكـــــم ، وجمعنا معاً على أرض السودان ونحن نحتفل فى البيت الكبير بعودة أخواننا إلى صفوفنا ، ومعكم وبكم يبدأ شمس مستقبلنا فى الإشراق.. ويبدأ مشوار تنميتنا فى الإنطلاق.. ونهار أملنا فى الإنبثاق، ونخطو.. ونخطو.. فوق هامات الزمن وليحقق الله أمانينا..

ولكم تحيات أعضاء اللجنة التمهيدية لمؤتمر حوار الأديان..

٤٦. في مأدبة إفطار رمضان

سعادة رئيس الجمهورية.. أبدأ حديثى بالتهنئة لكم ولكل شعب السودان ، بشهر رمضان ، شهر التوبة والغفران، شهر الصوم والإيمان ، الشهر الذى تعتزون به، وتعتزون بنهاره ولياليه..وتؤمنون بأن ليلة واحدة هى ليلة القدر أعظم من ألف شهر.. وما هى ليلة القدر ؟.. أليست ليلة تنفتح فيها السماء أمام مطالب بنى البشر ؟ ، إن ليلتنا هذه هى ليلة القدر، هى ليلة عظيمة القدر.. لأن السماء لا يفتحها سوى المحبة، ونحن اليوم فى ليلة المحبة نطرق أبواب السماء، نطرقها بالمحبة، ندق أبواب السماء بقلوب قد تواددت، وتعايشت ، وتحابت، رغم إختلاف الدين تجمعنا المحبة، ويجمعنا الإيمان بالمحبة طريقاً ليس سواه لحياة هادئة مطمئنة فى كل تقوى ووقار، كل واحد يقبل الاخر على ما هو عليه فيما يسمى عندنا « لاهوت القبول «.

نحن اليوم نحتفل بالتعايش فى سودان التعايش، نحتفل بالمحبة فى سودان المحبة، نحتفل معاً ، مسلمين ونصارى، أتباع محمد الكريم، وأتباع يسوع المّكرم، ينبوع المحبة الذى كانت المحبة فى أجندته السماوية لأرضنا البشرية.. ولقد علمنا يسوع المحبة، وأحب هو حتى المنتهى، وهكذا أحب الله العالم ، وأحب يسوع العالم ومات على خشبة الصليب لكى يدفع كحبيب ثمن المحبة العجيب الدم الذكى الثمين، ويأتى إحتفالنا لهذا العام.. فى هذا الصرح العملاق.. النادى القبطى..

الذى هو صورة حضارية لشعب متحضر.. الذى هو نموذج ثقافى لشعب مثقف.. الذى هو نموذج روحى لطائفة قبطية تعشق الروح وتعلى من شأن الروح.. وهؤلاء ياسيدى الرئيس هم الأقباط.. هؤلاء هم الأقباط.. الشعب المتمدن.. الشعب المتدين.. الشعب العريق.. وأبناء الكنيسة القبطية يحملون عبق التاريخ.. وعتق الأيام العنيفة.. ورائحة الآزمنة القديمة.. هم تاريخ للحضارة.. وحضارة فى التاريخ.. وهم هنا رواد فى الزراعة والصناعة والتجارة والإدارة والمعمار والمهارة..

هؤلاء هم الأقباط الذين أوصاكم بهم رسولكم الكريم خيراً.. أوصيتكم بالقبط خيراً لأن فيهم نسباً وصهراً.. فلقد بكى الرسول بدموعه على إبنه من مريم القبطية ، إبنه إبراهيم وقال : لو عاش إبراهيم لكان صديقاً نبياً ولأعتق أخواله من القبط..

وإبراهيم كان إبن مريم القبطية زوجة الرسول التى كانت لها مكانة كبيرة فى قلبه مثلما غزال المسالمة الذى تغنى له المغنى : لى فى المسالمة غزال شارد يا غنى عليه..

وعندما تحدث القرآن الكريم عن المسيحيين كان يقصد الأقباط فهم أقربهم إليكم مودة.. ومنهم قسسين ورهبان.. والرهبان هم رهابين الأقباط.. هؤلاء هم الأقباط الذين منذ عام ١٨٩٨م أى ما يقرب إلى قرن كامل قبلكم بمائة عام عقدوا أول زواج جماعى قاده القمص فلتاؤوس قلادة فى منزل يسى تاوضروس فى المسالمة، ونفذوا طموحكم.. هؤلاء هم الأقباط الذين إعترف لهم الأستاذ بدرى ، ومن بدرى فى حفل لتأبين « جيمس كرى» أول مدير للمعارف السودانية، وقف أحد الخطباء يحيى دور هذا الأستاذ الإنجليزى فإنبرى له بابكر بدرى شيخ التعليم وقال للتاريخ: أنا اذكر إن أول من أدخل التعليم فى السودان هم الأقباط بإنشاء الكتاتيب..

أما إسماعيل الأزهرى فلم يكن إفتتاحه لكنيسة الشهيدين هو كل مساهماته، إنما عندما كان سكرتيراً للجمعية الأدبية تحدث فى ندوة عن دور الأقباط فى التعليم، وقد كان مدرساً عام ١٩٣٢م وذكر أسماء الأساتذة الأقباط.. هؤلاء هم الأقباط الذين تغنى بهم شعراء السودان.. تغنوا بجمالهم ، وتغنوا بإيمانهم ، وتغنوا بطهارتهم، وعذوبتهم..

هؤلاء هم الأقباط الذين حملوا هموم الوطن ، وعاشوا فى محبة الوطن ، وأحبوا ترابه ، وعشقوا هبوبه ، وذاقوا حلوه ومره ، وعاشوا الحلو المر ليس فى شهر رمضان ، إنما فى كل شهور العام.. هؤلاء هم الأقباط الذين إستشهدوا فى المهدية ، وإستشهدوا فى أكتوبر ، وشاركوا فى كل تحركات وطنية ، وعبّروا عن نبض الشارع السودانى..

شاركوا فى ثورة ١٩٢٤م ، وكان من روادها وهبة حنا الجد الأكبر لعائلة حنا إبراهيم ، وهو شقيق حنا إبراهيم.. والذى يسجل إسمه الان فى سجل رجال ثورة ١٩٢٤م التى إندلعت فى السودان ضد ما عند مستعمر من الطغيان ، وسرعان ما إنطفأت وقدم رجلها للمحاكمة فأتى أقباط من مصر محامين نبهاء يدافعون عن إخوانهم المسلمين والأقباط الذين قادوا ثورة ضد الإستعمار..

هؤلاء هم الأقباط الذين يفهمون كيف تكون المشاركة ، هم لا يحبون أن يكونوا

وقوداً لحروب غير عادلة، ولكن يحبون أن يكونوا فداءً للوطن فى قضاياه النبيلة.. فلقد شاركوا فى مصر فى ثورة ١٩١٩م ، وفى السودان فى ثورة ١٩٢٤ م ، بل إن أكبر زعيم قبطى فى ثورة ١٩١٩ فى مصر هو رجل خدم فى السودان ، وبدأ نهضة روحية فيه ، وهو القمص سرجيوس ..

ودعونى أحدثكم عن القمص سرجيوس ، خدم فى السودان من ١٩١٠-١٩١٤م ، وطرد من السودان ، طرده الحاكم الإنجليزى لأنه شعر بجرأته ، وبإقدامه ، وبجسارته ، وبثوريته ، فأرسله إلى مصر لكى يدق المستعمر بنفسه مسماراً فى نعشه ، فلقد كان القمص سرجيوس أبرز زعماء ثورة ١٩١٩م ضد الإستعمار.. وقف يخطب خطاباته الوطنية فى الأزهر الشريف ، ورفع شعار الصليب مع الهلال (المريخ لا يزعل) ، وفى ميدان باب الحديد كان يتكلم ضد الإستعمار ، وسأل سؤالا : لماذا وجه الإنجليزى تعلوه الحُمرة الشديدة ؟ وإنتظر الإجابات : البعض قالوا : لبرودة الجو.. لأكل التفاح .. للراحة التى يعيشون فيها .. ولكنه قال : كلا لأنهم يمتصون دماء المصريين..

لقد عاش سرجيوس حتى ثورة يوليو التى بعد أن إعتقلته تحفظياً ، سمّت شارعاً بإسمه ، هؤلاء هم الأقباط ، لا يزعجون ولا ينزعجون ، لا يزعجون الحكومة ، ولا ينزعجون من الحكومة.. وليست لديهم صراعات ، ولا يرغبون فى المناصب ، بقدر ما يخدمون ، ولا يرغبون الحقوق بقدر ما يؤدون الواجبات ، ولو كانت الكنيسة القبطية لها فروع فى الجنوب لتغير الأمر لأن القبطى يحترم الحكومة، ويحترم الحاكم ، وهو ذكى ، لبق يعرف كيف يتعامل مع الحكام ، ولو كنت من الحكومة لقدمت مليار جنيه للكنيسة القبطية لتأسيس كنائس فى الجنوب..

وسوف تجنى الحكومة ثمار هذا العمل الروحى من كنيسة لا تقحم نفسها فى السياسة ، كنيسة تتكلم العربية ورجالها أكثر إتقاناً للغة العربية وكأنهم خريجو الأزهر.. ولو كنت من الحكومة لمنحت الكنيسة القبطية أرضاً لبناء كنيسة فى الثورة ، وأخرى فى أم بدة ، وثالثة فى مدينة النيل ، ورابعة فى الرياض ، وخامسة فى أبو آدم، وكنيسة فى جبل الأولياء ، وفى مدن النازحين ، وأنا لستُ الحكومة ولكن الحكومة هنا تسمعنى ، وتسمع كلماتى وأمنياتى..

هؤلاء هم الأقباط ، الذين وصفهم محمد حسنين هيكل فى « خريف الغضب «

بالأمانة ، إنهم أمناء ، رأسمالهم أمانتهم.. كان العمدة مسلماً ، والصراف قبطياً ، لماذا ؟ لأنهم أمناء وهم أمناء على السودان وعلى مصالح السودان ، فالمراقب المالى للثورة المهدية هو إبراهيم بك خليل ، وصرافو البنوك ، ومدراء المال هم من الأقباط.. وهم أمناء ، وخبراء ، خبراء أمناء ، ورواد أوفياء ، فأول طالبة جامعية هى أنجيل إسحق، وأول طبيب أسنان هو الدكتور الفونس ، وأول مهندسة سودانية هى هدى حبيب ، وأول تاجر متحضر ، وأول مزارع هو سعد صاحب مدينة القضارف قضروف سعد ، وأول نسّاج ، وأول مصنع نسيج بل صاحب أكبر مصانع نسيج هو زميل صباكم فى مدرسة شندى بسخيرون إبراهيم ، وأول معلم هو الأنبا صرابامون ، وأول ناظر هو القمص يوحنا سلامة، وأقدم خلوة هى خلوة بولس ، وأقدم محطة أتوبيس هى محطة مقار بشارع الحرية..

هؤلاء هم الأقباط ، إيجابيون ، ومشاركون ، محبون ، وديمقراطيون.. هم فى إيجابيتهم يعملون ، ولذواتهم ينكرون ، لا يصيحون ، ولا يجعجعون ، ولكن يعملون فى هدوء مثل ندى المطر ، وشعاع الشمس.. هم يعيشون الديمقراطية فى كنيسة كانت الديمقراطية فيها على أشدها ، بينما الحكام كانوا فى أقسى صور الإستبداد ، هكذا تحدث هيكل عن الكنيسة القبطية كمعقل كبير للديمقراطية ذات الممارسة المسئولة.. الكنيسة لا تفرض على أولادها فكراً معيناً ، أو حزباً سياسياً ، كلا..

فى الأقباط من كان إتحادياً ، وفيهم من كان شيوعياً ، وفيهم الأنصار الذين لبسوا جلابية ذات بابين ، وجهها مثل ظهرها.. والأقباط يتعايشون ولأجل التعايش يتهامس الناس عن قسيس الجبهة القومية الإسلامية ، وهو رجل يعشق المحبة.. وينادى بالحوار، ويهتم بالقواسم المشتركة بين المسيحيين والمسلمين لكى يتعايشوا ، ويتوادوا فى سلام أهل المسالمة..

ونحن مازلنا ياسعادة الرئيس، أن تعود الأيام ، وتعود الديمقراطية ، وتعود الأحزاب ، ويعود الرأى الآخر ، وتعود المعارضة بمقاعد فى البرلمان حتى لا يحنطنا الرأى الواحد فى قوالب مملة.. والأقباط يتمنوا أن يتوقف الغلاء ويتحقق الرخاء ، والوفاق والإتفاق على أيديكم المباركة ، وننتظر عودة الأقباط الذين هاجروا بالآلاف مثلما عاد الجنوبيين بالآلاف ، والأقباط يحبون المسلمون ويتعايشون معهم ، وأذكر ذات مرة وفى بيتنا المتواضع ، وفى عيد من أعيادنا كانت فى زيارتنا أسرة من

أخواننا المسلمين ومعهم أطفال هم محمد ، وأحمد ، ووقع محمد وهو يهرول فى البيت وخافت عليه الأم المسيحية فقالت : بسم الصليب عليك يامحمد ، وهى تعتز بالصليب ، وسمّت عليه طالبة أن يستره الصليب ، وينقذه الصليب..

وأذكر يوم رسامتى كاهناً وعند دخولى للكنيسة لاقانى الخفير: اللهم صلى على النبى ، والأقباط يعتزون بمصر ، وبالعلاقة بمصر ، ويحلمون بأن يتحقق على أيديكم عودة المصريين الذين خدمونا ، عودتهم مدرسين فى مدارس البعثة ، وأساتذة فى جامعة القاهرة، وموظفين فى الرى المصرى ، وعلى أيديكم تتم عودة العلاقة بين مصر والسودان.. وتعود الأيام ، وتعود الأملاك المصرية لمصر ، ويعود المصريون يملأون شوارع عواصمنا المتحضرة ، ويساهمون فى بناء نهضتنا ، ويملأون كنائسنا وجوامعنا..

٤٧. بطريرك إثيوبيا في بلادنا

الضيف والمضيف: بدعوة كريمة من السيد رئيس الجمهورية عمر البشير جاء إلينا الضيف الكبير أبونا باولوسن بطريرك إثيوبيا والذى يرعى رعاية روحية لشعب قديم أصيل، ولعدد من المواطنين يصل إلى الخمسين ملويناً يحترمونه ويجلونه ويستقبلون منه نفحات الروح القدس، وكانت الزيارة لمدة أربعة أيام من ١١– ١٥ يناير ٢٠٠٧م ، لقد أسعد الرئيس مليونى إثيوبى فى السودان ، كما أسعد ملايين السودانيين الذين رأوا فى هذا الرجل العظيم صورة حية للملك المسيحى النجاشى الذى لا يظلم أحد عنده، والذى إستضاف المسلمون الآوائل أثناء هجرتهم إلى الحبشة فى الأيام الأولى للإسلام..

وقد كان البطريرك متعاطفاً جداً مع قضايانا الوطنية، فقد قال : إنه إبن أفريقيا ، وإن أبناء أفريقيا وحدهم القادرون على حل مشاكل أفريقيا ، كما قال : إنه يؤمن بدور دول الإيقاد ومقدرتهم على تجاوز الإختلافات ورسم خطى السلام ودعم المحبة فى أفريقيا.. وبطريرك إثيوبيا هو الان رئيس مجلس الكنائس العالمى وعضو فاعل فى مجلس كنائس كل أفريقيا ، ولقد كان يؤكد دوماً إنه فى وطنه وبين أخوانه، وإن أفريقيا كلها كان يطلق عليها إثيوبيا أى ذوى الوجوه المحروقة، ولهذا الحديث مراجع تاريخية عديدة من بينها ما كتبه نعوم شقير، وما كتبه بروفسور العقيد ، وغيرها من أساتذة التاريخ..

ولقد زار البطريرك المتحف القومى ، وكان فى إستقباله حسن حسين إدريس مدير المتحف وجال البطريرك ليرى تاريخنا الخالد فى آثارنا المجيدة ، ورأى فى آثارنا عصا الرعاية التى تشبه عصاه ، ولوحة البلاد الممتلئة أسراراً والتى ترسم المسيح طفلا فى قمة اللوحة تأكيداً لمكانته اللاهوتية العظيمة ، ولوحة الثالوث المقدس التى أبدع فيها الفنان النوبى الإثيوبى القديم والتى يتميز بها الفن الإثيوبى، ولم يرسم مثلها أى فن مسيحى آخر..

وقام الضيف الكبير بزيارة مجموعة جياد وقال: إنه قد تملكته الغيرة أن يكون فى بلاده مثل هذا الصرح الصناعى العظيم ، وأجابه مدير المجموعة الأستاذ أحمد عبد الرحمن : بأن هذا هو الهدف والرؤيا أن تتكرر التجربة فى كل بلدان أفريقيا بل فى مختلف ولايات السودان ، وإستقبل رئيس الجمهورية ضيفه الكبير بالحبور والسرور والسعادة والرضا، وكان الحديث فياضاً مشوقاً عابراً إلى التاريخ القديم مؤكداً العلاقات الطيبة الحميمة بين شعبى السودان وإثيوبيا..

وقد إلتقى البطريرك بوزير الخارجية الدكتور لام أكول الذى أوفد سفيره حسن فقيرى ومساعده عبد الدائم للإشراف على رحلة الضيف الكبير.. وإلتقى أيضا بمستشار الرئيس الدكتور بروفسور أحمد على الإمام والذى كان الحوار معه لطيفاً طاهراً نقياً نظيفاً مرحاً.. وإستقبلته وزارة الإرشاد وكان معه ملازماً له الأسقف إيدى أمبروز مدير مكتب الكنائس بالوزارة ، ورسالة البطريرك كما حددها هو رسالة السلام ونشر ثقافة السلام ، وإيجاد أرضية قوية للسلام ، والذى هو عطية إلهية جاءت إلينا من الله رئيس السلام وملك السلام ، والذى وهبنا سلامه الذى يفوق كل عقل ..

ودعى قداسته إلى تضافر الجهود من أجل السلام لأننا إذا حققنا السلام فقد ملكنا كل شىء ، وقال : إنه يثق وبشدة فى حكومة السودان وسعيها نحو السلام وتعاطفها مع قضايا السلام..

كرسى اليونسكو للتعايش: وقدمت بروفسور فاطمة عبد المحمود رئيس كرسى التعايش الدينى لليونسكو ضيفنا الكبير فى محاضرة عنوانها « المسيحى والآخر « وسط لفيف كبير من المسئولين والمواطنين ، وأبناء إثيوبيا بالسودان والذين عطروا قاعة الصداقة بأجمل الترانيم بصوت أفريقى عذب ، وقال قداسة البطريرك

: إنه سعيد أن يلتقى باهله لأننا كلنا إخوة ، وإن الله قد خلقنا جميعنا لكى نعبده ونمجده ، وكلنا من دم واحد وطبيعة إنسانية واحدة ، وإن الناس يختلفون ولكن كلهم واحد ، وقال: إن إيمانه ودينه وعقيدته يطلبون منه إحترام الآخر ، وحب الآخر.. وعدم إدانة الآخر ، وإننا نحتاج إلى أن نكون متحضرين ونعترف بالآخر ، وبأننا لسنا أحسن ولا أقوى ولا أعظم من الآخر ..

وينبغى أن تهدف التربية الأسرية إلى حب الآخر لكى نبرهن إننا جميعاً أولاد الله ، وقام البطريرك بالتجاوب مع دعوة نيافة الأنبا إيليا أسقف الخرطوم إلى المطرانية ، وهناك أستقبل البطريرك إستقبالا حافلا وصمم أسقف الشباب الأنبا موسى والذى حضر لتقديم جوائز مهرجان قداسة البابا شنودة لأبناء المطرانية ، أن يقوم البطريرك الإثيوبى بتقديم بعض هذه الجوائز بنفسه ، وتحدث الأنبا باولوسن عن العلاقة الطيبة الدافئة الحنون التى تجمع كل أبناء مارمرقس كاروز أفريقيا من أقباط وإثيوبين.. وعاد البطريرك بالسلامة تمتلىء حقيبته بالإستعداد لزيارة أخرى

٤٨. أم درمان الأصالة والتراث

وحى الإستفزاز: زميلى وصديقى خريج جامعة القاهرة فرع الخرطوم إستفزه شعار الخرطوم عاصمة ثقافية وهو من سكان أم درمان التى سكنت مشاعره وقلمه وعرقه وأدبه.. وكان الإستفزاز بالنسبة لعالم فى قامة بروفسور أحمد إبراهيم دياب وحياً وإلهاماً للكتابة عن أم درمان ، فأخرج كتابه الصغير « أم درمان بقعة الأصالة والتراث والثقافة « وليس هناك أى مانع أن يتحمس الإنسان للمكان ، فأنا حتى الان أزور بيتى القديم الذى ولدت فيه وأستعيد أجمل الذكريات.. وأقف فى وقار وإحترام أمام بيت أنسبائى فى الخرطوم بحرى وأقول : مررت بدار ليلى.. وطبعاً زوجتى ليس إسمها ليلى إنما بحسب تأوهات الشاعر العربى..

وهنا أذكر كلمات عبد المنعم على الأمين فى رسالته الحميمة لصديقه حسن أبشر الطيب ، والتى يذكر فيها إنه دلف بلده بربر من مدخلها العتيد المخيرف منتصف نهار رمضانى وكانت المدينة ساكنة كعهدها ، حبلى بسرها الآزلى ، لا تبوح بعبقها إلا لمن يعرف سره ، وأخذت أفكر كثيراً فى سر ذلك الإرتباط الذى لا أدرك كنهه بين الإنسان والمكان.. ويستمر مؤكداً إنه كان كثيراً ما يخفى عن أصدقائه تحركاته

مثل أن يكون من بين أهدافه زيارة أم درمان الذهاب إلى مدرسة التجارة الثانوية القديمة والداخلية التى كان يسكن فيها أو التسلل إلى المدرج ١٠٢ بكلية الآداب جامعة الخرطوم..

كان يخفى هذا بحسب ما قال: لئلا يظن أحد أن به مس من جنون أو يوصف بأن هذه حالة مرضية ، ولكنه يعلن دوماً إنه متيم بحب بربر.. وهنا أتذكر حديث بروفسور عون الشريف عن السودان وعبقرية المكان.. وفى قلب كل واحد فينا أماكن لها رائحة ذكية نطلق العنان لخيالنا لكى نذكر كيف عشناها ؟ وكيف كانت ولم تزل لها مكانة فى قلوبنا ، وهنا نعطى عذراً للشاعر الذى قال ك إنه يقبل ذا الجدار وذا الجدار..

وهناك أماكن يحج إليها الإنسان لكى يتذكر ما فيها من أحداث غيرت مجرى التاريخ مثل : القدس الشريف ، والكعبة المّكرمة.. وأملى أن يمتد بى العمر لأرى القدس الشريف وأسير فى خط سير المسيح، وفى دربه المقدس.. وهذا لن يحدث إلا إذا وجدنا الحل لمشكلة فلسطين ، وتمكن العالم أن يقنع الناس بالعيش المشترك فى إحترام متبادل فى أقدس مكان عرفه الإنسان..

وله الحق بروفسور إبراهيم دياب فى محبته لأم درمان وحماسه لها وكلما دخلت أم درمان شعرت بهيبة المكان ، ووقار الذكرى ، وعظمة الأحداث.. فهى ملاذ الغريب ، سياج الضعيف ، عليها من الحق نور مبين ، يا عطرها الشفيف ينشق النهار من شذاه أواه لو مرة أشمه.. أضمه.. ألمسه.. أراه..

الأصالة والتراث: والأصالة هى رائحة ذكية إنبعثت منذ أجيال ، وهى مستمرة لم تنتهى رغم قدم الزمان ، إنما شذاها يعطر الأجواء حتى الآن.. وهكذا تعتز أم درمان بالأصالة والتراث كما يعتز السودانى بلون بشرته ويؤمن إنه حبة سوداء فيها الشفاء من كل داء.. وتميز السودانى بنفسه بلونه الأسمر: أنا سودانى وسودانى أنا.. سودانى سود.. ليس السواد عيب للأسود.. أو كما يقول الشاعر الرائع محمد المكى إبراهيم :

هذا عصير الشمس فوق جبهتى..

هذا كساء أمتـــــى..

هذا أنا قبل عامين كنته..

وبعد ألف عام أكونه..

حتى إذا أبيته أصونه..

وفى مقدمة كتاب دياب عن أم درمان يكتب قصيدة الشاعر فاروق جويدة ويعتبرها تنطبق على أم درمان وفيها :

عشقناك صدراً رعانا بدفء وإن طال فينا زمان الحنين

فلا تحزنى من زمان جحود أذقناك فيه هموم السنين

تركنا دماءك فوق الطريق وبين الجوانح همس حزين

ثقافتنا فينا هى بين الحنايا لتحمى العرين فلا تستكين

سيبقى تراثك رغم الجراح يضىء الطريق على الحائرين

ستبقى أصالتك بيت الغريب وسيف الضعيف وحلم الحزين

سيبقى فكرك رغم الليالى ضياء يشع على العالمين

وتمتلىء صفحات الكتاب عشقاً وولهاً.. وحماساً ملتهباً.. وغيرة غير عمياء على أم درمان.. ويبدأ بالتوجيه لنا أن نكتب أم درمان ولا نلصق أم بدرمان أى نقول : أم درمان وليس أمدرمان.. ويرجع هذا الإسم إلى أن أهل مملكة علوة كانوا يسمون « درمان» DERMAN... وإن سيدة نوبية أو نوباوية كانت تسكن فى المشرع التجارى أو الموردة التى تقع غرب ملتقى النهرين فى الشط الغربى للنهر ، حيث يأتى أهل وسكان غرب النيل بتجارتهم لبيعها أو تبادلها مع سكان شواطىء النيل وخاصة سكان توتى الذين يأتون بإنتاجهم الزراعى من الجزيرة للشط الغربى، بينما يدفنون موتاهم فى الشرق ويصلون فى الشط الجنوبى..

وقد وجد هؤلاء الذين يفدون للتجارة هذه المرأة" أم درمان" والتى هى أم لإبنها " درمان" وما زالت بعض قبائل النوبة حتى الآن تسمى درمان.. وتمر الأيام وتأتى مملكة الفونج فى آوائل القرن السادس عشر وتصبح أم درمان سوقاً تجارياً تمر به القوافل القادمة من سنار فى طريقها شمالا لدنقلا لتلتقى بدرب الأربعين.. ويحكى عن السلطان تيراب فى القرن الثامن عشر إنه نزل إلى أم درمان لكى يعد العدة والعتاد للزحف على سنار ، ولكنه لم يتمكن ، مات فى يارا فى طريق عودته

لدارفور ، وبعدها حل الركاب السعيد للملك إسماعيل إبن محمد على الذى نزل بأم درمان عام ١٨٢١م ..

أما ثورة المهدى فقد قامت بدك الخرطوم دكاً ، وهدمها هدماً.. لتكون أم درمان هى العاصمة الوحيدة ، وقد فقدنا الكثير بسبب هذا، فقدنا تراثاً وتاريخاً وكنائس وجوامع.. وأذكر إن الكنيسة القبطية كانت فى مقر وزارة الكهرباء الآن.. ونحن مع بروفسور دياب فى حبه وعشقه وولهه بأم درمان..

٤٩. مأمون بحيرى الحكيم الساهر

العالم الآخر: رحل إلى العالم الآخر السيد مأمون بحيرى ، وهو رجل والرجال قليل.. لقد كتب عن نفسه إنه رجل خدمة عامة من جيل الرواد السودانيين ، والرواد هم حكماء هذا الجيل.. وثروتهم يربحها الأجيال القادمة ، ولأنهم يحملون هموم جيلهم والأجيال التى تأتى بعدهم فهم حكماء وهم ساهرون ، وهكذا كان مأمون بحيرى ، كان حكيماً وكان ساهراً.. والحكمة هى أم الفهم ، وأم العلم، وهى أيضا مخافة الرب لأن رأس الحكمة مخافة الرب..

ولأن الحكيم يهتم بالوطن بناءً وتنمية ورفعة وعزة ، فالحكيم يحيا حياة البر أمام الله، ويرى الله فى كل خطوة يخطوها ويعمل لله حساباً فى كل تصرف وسلوك لأن البر يرفع شأن الأمة وعار الشعوب الخطية.. والحكيم يتوجه نحو السماء طالباً الحكمة، وكقول يعقوب الرسول: إن كان أحدكم تعوزه حكمة فليطلب من الله الذى يعطى الجميع بسخاء ولا يُعيّر ، ولكن ليطلب بإيمان غير مرتاب البتة لأن المرتاب يشبه موجاً من البحر تخبطه الريح وتدفعه (يعقوب ١:٥)..

والحكيم دوماً مسرعاً فى الإستماع مبطئاً فى التكلم، مبطئاً فى الغضب.. عندما ينفعل بهموم بلده ينفعل بحكمة وبدون توتر.. وفى ثقة وغير إرتياب أو شك لأنه يقصد مصلحة بلاده، والحكيم إنسان ساهر على حياته يقظ على المستقبل.. كان مأمون بحيرى هكذا كان يستيقظ مبكراً عند مطلع الفجر، ثم يصلى ، وبعد هذا يقرأ ويقرأ ، كان قارئاً فاهماً ، كان يخزن ما يقرأ فى أعماقه، وبعد هذا وجد خزيناً يجعله يكتب فيكتب كتاباً قيماً هو « لمحات من تجارب رجل خدمة عامة من جيل الرواد السودانيين «..

وكتابه يُعد سجلا تاريخياً حافلا لأكثر من نصف قرن ، وعندما تقرأ كتابه تشعر إن هذا الرجل أمامك يحكى ويحكى، ويصور لك الأحداث التاريخية تصويراً بسيطاً جداً.. وكتابه يُعد مرجعاً تاريخياً لشاهد عيان يكتب إليك تجاربه فى تواضع العلماء، وحياء الحكماء..

أول تعارف: وكانت أول مرة ألتقى فيها بالسيد مأمون البحيرى قد جاءت بناء على طلبه، فلقد إتصل بى مكتبه عدة مرات يطلب منى مقابلة هذا الرجل العظيم ، وعندما كنت أتصل بمكتبه لا أحظى بلقياه على الهاتف.. فيعود يسأل عنى ولا يلقانى، ورأيت أن أتغلب على كل هذه العقبات فذهبت بنفسى إلى مكتبه ووجدته.. وقدمت له التحية والإحترام فقال لى : أبونا.. أنا الذى أريد أن آتى إليك فكيف تأتى إلىّ ؟.. وقلت: واجب على أن آتى إحتراماً لمأمون بحيرى ولمكانته فى قلوب المواطنين السودانيين وأنا معكم.. ورهن إشارتكم.. وتحت أمركم..

قال لى: أنا معجب جداً بما تكتب فى الجرائد اليومية وأنا أتابع ما تكتب.. وأحيى لك هذا الدور المهم فى نشر المحبة فى قلوب كل الناس، وتعجبنى جداً طموحاتك نحو وطن متقدم ، ونحو سلام كامل.. ولقد أعجبنى مقالك الآخير عن الفداء وحقوق الإنسان لأنك قدمت واقعة جميلة تؤكد إحترام الإنسان لأخيه الإنسان.. وأرجو أن لا تتوقف مقالاتك..

وكان حديث الأحد وقتها إتخذ من جريدة السودان الحديث عموداً إسبوعياً، وكان رد الكلام منى: إننى معجب أكثر بسعادتكم ياسيد مأمون بحيرى ، ومعجب بالتوقيع الذى فيه إسمكم على الجنيه السودانى، فلقد كان الجنيه جنيهاً قوياً معافى..

بيت الحكيم: وبعد هذا صرت عضواً فى أسرة الحكيم الساهر، وكنت أذهب إلى بيت مأمون بحيرى لكى أتمتع بأحاديثه وبسرده التاريخى لذكرياته السعيدة مع الوطن.. وعندما رحل عنا تألمت جداً ، وحضرت كلمات اليوم الثالث لرحيله وقد كانت كلمات مؤثرة، لم يقدر مندوب السلطان على دينار أن يكمل الكلام لأنه أجهش بالبكاء، ولم يقدر والى الخرطومs أن يستمر فى الكلام لأن الدموع كانت تحبس الكلام، فلقد كان هذا الرجل وسط أسرته رجلا صادقاً أميناً كما كان هكذا مع وطنه..

ووالى الخرطوم الدكتور عبد الحليم المتعافى هو النسيب الحبيب لمأمون بحيرى،

فهو زوج إبنته « هند» وهى إمرأة مثقفة واعية أخذت عن أبيها حكمته، فهى مثله حكيمة ساهرة على راحة زوجها وأسرتها.. ولقد أهدتنى كلمات رثاء لأبيها قالت فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمات رثاء لأبى مأمون

سيدُ الحُلـــم والأخلاقِ مفخـــرةً   بكتـك هند فما أقسـى الزمـــان

فى كل الرجـال لا أرى لك مشابها   ولا أظـن يجـود الزمـان بثـان

مــن كــل الــورى لا أرى   مثـل أبـى يُشـار إليـه بالبنـان

ركيـزة للعلـم والأخـلاق مجتمعة   وبكـل حُسـن خصال هـو مزدان

فأنـت يامن بكتـه عينى حزنـاًفللـه دَرُك مـن حُسـن معـان

وهبـت جُـل وقتك بل كل عُمركلراحـة غيرك حتـى ذهبت للرحمن

فنُـم قريـر العيـن هانيهــافمـا جـزاء الإحسان إلا الإحسان

إلى جنـاتُ ربـى بإذن باريهــاوعزائـى فيك يا عفيف اليد واللسان

هو (لمحاتُ) كتابـك الذى سطرته قبـل الرحيـل من هذا الزمان الفانى

وأنّ فقـدك ليس صعب علىّ وحدى   بل على كل من عرفك من بنى الإنسان

والـــى لقـــاء

إبنتـــك المُحبـــة

هنــــد

٥٠. يوسف ميخائيل

كتاب للسودان: فى عام ٢٠٠٤ م أطل علينا مركز عبد الكريم ميرغنى الثقافى بكتاب قيم من السودان وللسودان عنوانه « مذكرات يوسف ميخائيل «.. التركية والمهدية.. والحكم الثنائى فى السودان شاهد عيان.. وقام بتقديم هذا الكتاب وبالتحقيق فيه الدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك، ولأجل هذا الكتاب سار المحقق على الشوك فى متابعة وتدقيق وتحقيق لكى تخرج المذكرات بصورة ممتازة.. وأبو شوك السائر على الشوك لكى يخرج جواهر ولآلىء نفيسة هو حقوقى وأديب ومؤرخ وهو الآن أستاذ التاريخ والحضارة فى الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.. وله كتب أخرى منها: « خزانة المسلمين العامة الميزانية الشهرية لدولة المهدية فى السودان».. محمد إبراهيم أبو سليم محققاً ومؤرخاً.. ومصدر هذا الكتاب ليوسف ميخائيل هو مخطوط خطه المؤلف بيده.. وقد أعد هذا المخطوط عام ١٩٣٤ م من ١٣٨ صفحة مرقمة بأطراد من واحد إلى ١٣٨..

ويرى البعض إنه لم يستعمل رقم ١٣ ولكنه كرر رقم ١٢ ، وربما هذا بسبب تشاؤمه من رقم ١٣ ويرى أبو شوك إن هذا الكلام مردود ، وإن هذا الرقم موجود فى الأصل.. وفى المخطوط صفحة غير مرقمة وتحمل عبارات تقول: وما توفيقى إلا بالله، بمديرية كردفان، غردون السودان يوسف ميخائيل تحريراً فى ١٩٣٤/١٢/١٥م.. وإعتبرها صالح محمد نور من أوراق المخطوط وأخذت رقم ١٣٩.. وقد إستعمل يوسف ميخائيل القلم الرصاص وأحياناً قلم الكوبيا، وهو قلم يشبه قلم الرصاص ولكن كتابته لا يقدر أحد أن يمسحها بسهولة مثل قلم الرصاص..

والخط خط رقعة واضح ومقروء، وقد كان القدماء يجيدون الكتابة بخط مقروؤ ، وأخشى على هذا الجيل ضياع هذه المقدرة ،فلا توجد فى مدارسنا حصة خط وطبعاً خط هذا الجيل أن يولد في تقدم الحاسوب الذى سوف يخلف جيلا يقرأ ولا يكتب.. والمخطوط خال من علامات التنوين وإصطلاحات الضبط المختلفة، ويظهر على متن المخطوط وهوامشه بعض الكلمات الإنجليزية التى تبين أن هناك شخصاً قد إطلع عليه وحاول أن يترجم بعض مفرداته إلى اللغة الرئيسية..

وليس لهذا المخطوط عنوان رئيسى غير أن هناك إشارة ضمنية إلى عنوان المخطوط يقول فيها: إن محرر هذا التاريخ هو يوسف إبن المعلم ميخائيل مليكة القبطى السودانى، وإنه بعون الله وحسن توفيقه قد تم تاريخ حياته على جميع الوقائع التى حصلت على يديه والتى كانت فى زمن حياته.. وعلى صفحة الورقة عبارة «غوردون السودان «.. ولهذا حمل الكتاب عدة عناوين فيطلق عليه « أقلن» «السيرة الذاتية « ليوسف ميخائيل.. ويسميه « هولت» « غوردون السودان».. أما صالح محمد نور فينعته» مذكرات يوسف ميخائيل»..

وقد تبنت طبعه دار النصيرى غير المحققة هذا المقترح وأضافت عليه عنواناً توضيحياً آخر « مذكرات يوسف ميخائيل عن آواخر العهد التركى والمهدية بالسودان».. أما أبو شوك فإنه يحبذ هذا العنوان ويضيف إليه» مذكرات يوسف ميخائيل شهادة شاهد عيان على التركية والمهدية والحكم الثنائى فى السودان».. وقد شملت فعلا هذه المذكرات كل هذه الحقب الثلاث..

لغة المخطوط: ومخطوط يوسف ميخائيل كتب بلهجة عربية عامية تغلب عليها سمات اللسان الكردفانى، والذى يُعد موطناً خصباً لتنوع مفردات اللهجة العامية التى إتخذت من العربية الفصحى قاعدة لها، ثم جمعت بين دفتيها ألوان طيف شتى من اللهجات المحلية والمفردات المتنوعة بتنوع طبيعية الأنشطة البشرية وثقافة العنصر الوافد إلى كردفان من داخل السودان وخارجه، لأن كردفان كانت تعرف بأنها كردفان الغّرة.. أم خيراً جوه وبره.. وطبعاً لو كان يوسف ميخائيل بيننا الآن لكان له دور كبير فى إسكات إحتراب دارفور، فلقد كانت له فى زمانه كلمة مسموعة..

وفى هذا المخطوط إبدال حروف بعض مفردات العربية الفصحى بحروف أخرى مثل الهاء محل الحاء، والتاء محل الثاء ، والصاد محل السين.. وهناك إدغام فى حالات إلتقاء بعض حروف الجر ، وحزف للهمزات بكل أنواعها وتحويل للحركة القصيرة إلى حركة طويلة وبين ثنايا المخطوط بعض المفردات التركية مثل: باشا ،باشكاتب، إنما جبخانه، دفترخانه، طبرخانه.. ويعض المفردات السودانية مثل: عنقريب، وقربة، وبرمة، وفلقة، ومركب، وراكوبة.. وبعض المفردات اللاتينية المعربة مثل: كونتراتو، مكنة، ورشة، إستباليا.. والمخطوط فحواه قيم للغاية ، وشكراً لأبو شوك، وشكراً لمركز عبد الكريم الميرغنى لإضاءة حول هذا المخطوط المهم والنافع والمفيد لكل مواطن سودانى..

٥١. أطفال يعقوب في بقعة المهدى

يهود السودان:عاش اليهود فى السودان منذ أقدم الأزمان.. يحبون السودان وطناً وثقافة ومعاشرة إجتماعية، وكانوا قد تكاثروا فيه، وكانوا يمارسون طقوسهم الخاصة ويحتفلون بأعيادهم اليهودية فى عواصم الخرطوم، وكان إحتفال عيد الفصح يقام فى منزل الحاخام اليهودى وكان يحضره كل اليهود تقريباً ، ويأتى إليه زوار المدينة من اليهود وكل الذين لا يجدون مكاناً للإحتفال، وكان الطعام يقدم لهم أطباقاً يهودية مع التقاليد والأناشيد اليهودية.. وعندما هاجر اليهود إلى الخارج كان السودان لم يزل يعمر قلوبهم بمحبة أهله وكانوا يلقون كل سودانى بالترحاب والبشاشة.. وعندما خرجوا من السودان صودرت جوازاتهم ولكن لا أحد يقدر على مصادرة محبة لوطن عزيز عاشوا فيه وعاش فيهم.. وما زلت أذكر موريس جولدنبرج اليهودى أخصائى النظارات فى السوق الأفرنجى..

وأذكر جاراً لأهل زوجتى هو شاوول وإبنه طبيب خريج جامعة الخرطوم، وأذكر إن شاول كان يأتى لزيارة مطران الخرطوم الأنبا دانيال، وكان المطران يداعبه قائلا: ألا يمكن أن تتغير من شاوول إلى بولس، وهذا إشارة إلى بولس الرسول الذى كان يهودياً مدققاً فريسياً، وكان ضد المسيح له المجد وضد المسيحية ، ولكن عندما كان ذاهباً فى طريقه إلى دمشق ليحصل على أمر من السلطات بالقبض على المسيحيين وزجهم فى السجون ليس لسبب إلا لمسيحيتهم وكان لم يزل ينفث تهدداً وقتلا على تلاميذ الرب، لاقاه السيد المسيح وظهر له عياناً بياناً وخاطبه: شاول شاول لماذا تضطهدنى؟ صعب عليك أن ترفس مناخس أى من الصعوبة أن تتحرك ضد إرادة الله.. وبغتة أبرق حوله نور عظيم وقال: من أنت يا سيد ؟.. فقال الرب: أنا يسوع الذى أنت تضطهده.. فقال وهو مرتعد ومتحير: يارب ماذا تريد أن أفعل؟، فقال له الرب: قم وأدخل إلى المدينة فيقال لك ماذا ينبغى أن تفعل..

ووقف الذين معه صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً ، أما هو فكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحداً.. وكان ثلاثة أيام لا يبصر فلم يأكل ولم يشرب ، بعد هذا فتح عينه على الطريق الجديد وصار مقدام المسيحيين وأستاذ اللاهوت عندهم.. لقد كان مطران الخرطوم يتمنى أن يتحول شاول اليهودى إلى المسيحية مثل بولس

الرسول.. ولكن هذا لم يحدث وإلى أن إختفى أمام ناظرى شاوول اليهودى كان يهودياً ، ولكنه يحب أن يجالس مطراننا ويشارك فى صالونه الأدبى الذى كنا نحن فيه تلاميذاً نسمع الكبار يتكلمون ويتحركون ويختارون الكلمات الجميلة والسير العطرة والتاريخ المجيد لبلادنا المجيدة التى عاشت على أرضها الأديان فى ود وإحترام ومحبة وإنسجام..

أطفال يعقوب:عندما وصل اليهودى الدين، السودانى الجنسية إلياهو سولومون ملكا إبن الحاخام اليهودى فى السودان سولومون ملكا الثامنة والثمانين من العمر بدأ يؤرخ لليهود فى السودان ويحمل المؤلف إسم « أطفال يعقوب فى بقعة المهدى» اليهود فى السودان ورغم إعتراضى على كلمة أطفال ورغبتى فى إستبدالها بكلمة أبناء فإننى أعتز بجهود الباحث المحترم مكى أبو قرجة وإهتمامه بإضاءات حول هذا الموضوع وهو يقول: إن المؤلف كان فى السودان فى ثلاثينيات القرن العشرين، وكان يغادر الخرطوم فى عطلاته فيزور فلسطين وهناك يلتقى بأناس معينين وينضم لتنظيمات شبابية تؤدى مهامها فى إطار الأهداف الصهيونية..

ويذكر مكى : إن إلياهو كان شديد الإهتمام بمشاركة السودانيين الأفراح والأتراح، وإنه شارك بكلمات فى حفل تأبين المرحوم محمد حاج الشيخ عمر المحامى وإنه ظل يحتفظ بذكرى الوطن الذى ولد ونشأ فيه وعاش حتى كهولته حاملا جنسيته السودانية وشديد الإعتزاز والإفتخار أن يقول: أنا سودانى.. ويقول إلياهو فى كتابه: إنه عاش حياة مترفة فى الخرطوم حيث كان موظفاً كبيراً فى شركة جلاتلى وإستمتع بأيام وليالى الخرطوم وهى فى عنفوان عزها الإجتماعى، وأتاحت له وظيفته السفر فى العطلات إلى أجمل بلاد الدنيا وتعليم طفليه فى أرقى الجامعات العالمية.. وتعد تجربته الشخصية هامة جداً فى تاريخ السودان حيث يقدم لنا معلومات عن اليهود وحياتهم فى الخرطوم ، كما يفتخر بخدماتهم ويزهو بوطنيتهم وبأنهم قدموا أجل الخدمات للسودان.. وتحدث عن اليهود عند هجرتهم وكيف كانوا يحبون السودان حتى النفس الآخير ويعتزون بالأيام الجميلة التى عاشوها فى روع السودان، وطبعاً لولا الظروف السياسية لكانوا قد عادوا إلى بلادهم مثلما عاد كثير من أجناس غيرهم ليحيوا أمان السودان وآماله خاصة بعد دخول السودان مرحلة إنتاج البترول والذهب واليورانيوم ، والتى لولا الحروب الداخلية لكان السودان فى مصاف الدول

العظمى، وأعرف أن السودان لا يرفض أحداً من أبنائه.. ومن يقبل إليه لا يخرجه خارجاً..

لقد كتب إلياهو عن أجمل أيام العمر فى الخرطوم بادئاً بعودة اليهود إلى اليهودية بعد إنتهاء المهدية على يد الإنجليز، ثم تكلم عن وصول الحاخام ملكا والده إلى أم درمان وتشييد الكنيس اليهودى بالخرطوم، وإن اليهود الهاربين من النازية لجأوا إلى الخرطوم مدينة الملجأ الآمنة.. وذكر رؤساء الجالية اليهودية خلال سبعة عقود، والنادى اليهودى بالخرطوم ، وإن زعماء الصهيونية العالمية كانوا يزورون السودان.. وتحدث عن اليهود الأثيوبيين ويهود عدن وأرتريا ومصر ، وكان له وقفات عند إحساس اليهود بتغير الأحوال والشروع فى المغادرة وتتبع يهود السودان فى المهاجر فى إسرائيل، فى الشتات، فى جيش الدفاع الإسرائيلى، وعن تجربته فى جلاتلى هانكى وزواجه وحياته فى أمريكا وفرنسا والإحتفال بميلاده السبعين وعن المحاولات التى قام بها لإقامة نشاط تجارى مع السودان ، وهذا هو السودان ، وهذا بلاغ لكل الناس عن السودان الوطن الذى تعايش فيه كل الناس ، مهما كانت الأحوال ...

٥٢.المكتبة القبطية بالخرطوم وإفطار رمضان

أيها الأحباء.. نجتمع اليوم معاً فى دار المكتبة القبطية بالخرطوم لكى نحتفل بمناسبة رمضان فى دار عريقة لشعب عريق.. فى دار الأقباط ذلك الشعب المتدين، والذى تدينه لا غبار عليه ، تدينه تدين طاهر موجه نحو الله الذى بيده أمر حياتنا.. شعب ينتمى لكنيسة هى الكنيسة القبطية العريقة فى التاريخ ، العميقة فى الإيمان ، القوية فى التقوى ، الكنيسة القبطية التى صدرت للسماء أكبر الشهداء وأعظم الشهداء ، الكنيسة التى زرعت الفضيلة ، وعمقت المحبة ، وجعلت للتوادد جذوراً وجسوراً..

فالأقباط هم سلالة الفراعنة العظماء ، وهم سلالة حافظت على نفسها ولم يلوثها الإختلاط بالمستعمر وما أكثر من إستعمر الأقباط ، فقد كان الأقباط يدفعون

الضرائب للإستعمار أمواله وجباية.. ولكنهم لا يتعاملون مع الإستعمار ولم يكن لهم فى المستعمر نسيب ولا حسيب.. كنيسة متدينة ، متمدنة ، متحضرة، كنيسة هى أول من صلى لأجل الحكام ، وأول من ركع أمام الله من أجل الحكومة، رسالتها هى الصلاة.. الصلاة لكى يحفظ الرب حكومتنا.. ويرخص أسعارنا.. الصلاة لكى يرفع الله عن العالم الغلاء والوباء والجلاء وسيف الأعداء وقيام الهراطقة..

وأقباط السودان هم حضارة فى السودان ، وهم تاريخ فى السودان ، هم تاريخ التقدم ، فلقد حملوا أول ما حملوا لواء العلم ، الذى هو فى نظرهم أعظم ميراث حيث يقول المثل : القبطى علموهم ولا تورثوهم : وبنى الأقباط المدارس ، وكانت المدارس فى أروقة الكنائس ، وكان التعليم كعبادة لله.. ولكن التعليم لم يقتصر عليهم ، إنما كان تعليم لكل مواطن سودانى ، مسيحياً كان أم غير مسيحى.. ودليلنا على هذا إن أول وزارة وطنية بعد الإستعمار كان منها خمس وزراء خريجى مدارس الأقباط..

ودخل الأقباط إلى ميدان التجارة ، كافحوا بأمانة المؤمن ، وصدّروا ، وإستوردوا، وكانوا هم رواد إقتصاد السودان قبل أن يدخل المرض إلى إقتصادنا ، وهم الآن ينتظرون تأشيرة الرئيس لكى يعودوا إلى ميدان الإقتصاد ويقيموا جنيهنا المريض ويضمدوا جراحه .. ويوقفوه أمام الدولار العاتى الذى تسبب فى الغلاء ، الذى دمر طموحاتنا ، وفتك بسلامنا ، وحوّل أحلامنا إلى كوابيس مؤلمة حزينة..

ودخل الأقباط إلى ميدان الزراعة.. فالقضارف هى منطقة زراعية إفتتحها قبطى معروف يسمى سعد.. وسعد هذا هو جد مزارعى القضارف من الأقباط، وتسمى القضارف قضروف سعد ، أى المكان الذى هاجر إليه سعد نظراً لبعد المكان.. وقد ساهم المرحوم دانيال رافائيل المزارع القبطى ببناء بنك الدم، وكان عندما ينزل إلى سوق الغلال فى العاصمة ترتفع أسعار المحاصيل أو تنخفض تبعاً لإنتاجه..

ولقد إفتتح العم جريس غبريال مشاريع سمسم خارج التخطيط وأبو سيكة وصار حامياً لحدودنا مع الحبشة ، فالزراعة حضارة يفهما الأقباط جيداً من خلال شهورهم القبطية وفهمهم الكبير لمواسم المياه.. وذات مرة إنهمرت الأمطار فى مشاريع سمسم وإنقطع الطريق أمام العم جريس غبريال فأرسل إليه قائد اللواء الرابع» العميد ذهب» طائرة الإنقاذ.. وعندما بدأت ثورة الإنقاذ وأقامت أول عيد الحصاد إختارت مزرعة سعد رياض أرضاً للإحتفال..

وقد نال المرحوم الشاب إميل ميخائيل « كأس المزارع» الذى ما زال فى حوزة أسرته حتى الآن.. وأذكر إن المرحوم إميل كان أول من أدخل وسائل الراحة إلى العمال ، وكان العمال فى مزرعته يسمعون الإذاعة ويرون التلفزيون ويشربون ماءً نظيفاً.. ويهتم بروفسور «جنيف» إهتماماً خاصاً بالعم جريس غبريال والد المزارع الكبير مكرم جريس.. وقد قام بروفسور « قنيف» بتشجير حزام الهشاب بإسم جريس غبريال راغباً فى أن يكون هذا تاج تكريم على رأس المزارع..

وإن نسينا لا ننسى رائد الزراعة المرحوم الدكتور وديع حبشى القبطى الأصيل الذى ترك إغترابه وعاد إلى وطنه وزيراً للزراعة.. وهكذا أيضا المرحوم منير إسحق أول وزير للزراعة لولاية الخرطوم.. ودخل الأقباط إلى ميدان الصناعة ، وإن نسينا لا ننسى المرحوم لبيب دميان ذلك الشاب الذى أعجب الإنجليز بذكائه ، فدرس الميكانيكا وبرع فيها ، وأيضا المرحوم بسطا شاكر الذى كان أول رائد من رواد الصناعة فى عطبرة مدينة الحديد والنار..

وأقباطنا هم صُناع حضارة.. وصناع مستقبل.. فلقد إمتلأت بهم الوابورات والسكة حديد بكل محطاتها المنتشرة فى ربوع السودان.. وبنى الأقباط حضارة السودان ، وبنوا الوزارات بما فيها من إرشادات ، وإرتفع البناء على النيل لأن الأقباط يعرفون كمهندسين كيف يثور نهر النيل أحياناً.. ولم يغمر بيت فيه قبطى من السيول لأنهم مهندسون متحضرون..

وقد شيّد الأقباط الكنائس والجوامع، فجامع فاروق بنى بيد الأقباط، وجامع جوبا بنى بواسطة مهندسين أقباط ، وكنيسة الأقباط كاتدرائية العذراء مريم بنيت تحت إشراف مهندس مسلم هو « حمزة أحمد حمزة».. هذا عدا الأطباء والصيادلة ودور العلاج ، وهم الآن يخططون لبناء أكثر من مستشفى قبطى فى أم درمان والخرطوم وعطبرة، وعدا أساتذة العلماء أجلاء فى المدارس والجامعات..

يا سعـــادة الرئيـــس :هؤلاء هم الأقباط ، حملة السلام ، دروع المحبة ، وسند الإقتصاد ، وهم رجال إدارة ، وبنوك لما عرفوا به أمانة واضحة.. ولقد أوصاك الرسول الكريم بهم خيراً لأن له فيهم نسباً وصهراً.. وأنت أهل لأن تصنع هذا الخير ، إرضاء لرسولك الكريم ، وتجاوباً مع وطنيتك الصادقة وإحقاقاً للحق إن الله يحب المقسطين

سعادة الرئيس :حول مائدة إفطار رمضان اليوم نلتقى.. وطعام الذين هم من أهل الكتاب حل لكم.. ونكتب معاهدة أهم بنودها ، المشاركة ، والتعاطف ، والتوادد ، والتراحم ، والتكامل ، أهم بنودها المحبة التى هى أساس البنيان ، والتى بها نبنى السودان ، محبة لكل الناس ، محبة لا تجعل لنا بين الدول أعداء ، فأكثر ما يجرح ضمير المسيحى العداوة مع الآخرين ، لأن المؤمن ليس له عدو سوى الشيطان ، لهذا نحن نرفض أن يكون لنا أعداء فى أى مكان ..

نحن شعب سودانى يتغنى بالمحبة.. ويسرع إلى الميل الثانى ، ويصلى من أجل الأعداء لكى يبطل الله حسدهم ونميمتهم ووشايتهم ، ويبدد مشورتهم مثلما بدد مشورة أخيتوفل..

سعادة الرئيس: إن وثائق التعايش بين أهل السودان هى وثائق عديدة ، فالتعايش عندنا ليس بدلة أنيقة يرتديها الحاكم ليغطى على عدم أناقة عدم التعايش.. إنما التعايش طبيعة الشعب السودانى.. فأجدادنا زمان وصونا على الوطن.. وشعراؤنا وأدباؤنا يتغنون بالتعايش قبل أن يتغنى الشاعر بأن له « فى المسالمة غزال نافر بيغنى عليه»..

لقد إنتفت أزمنة النفور فى كل العصور.. إنها ليست فى أى من الدهور لأننا متعايشون.. والوثائق التى عندى عن جذور التعايش وجسور التوادد كثيرة.. هى فى تاريخ المسيحية ، وفى تاريخ الإسلام ، وأقدم لكم بعض نماذج منها :-

الوثيقة الأولى: المسيحية تستضيف الإسلام ، عندما بدأ الإسلام أعزلاً ، ولقى الرسول الكريم عنتاً من أهله ، ومضايقة ومقاومة ، فغادر الرسول مكة ، وكانت مكة فيها فتنة على دين جديد ، ما جاء لكى يكون خلفاً للموحدين إنما جاء لينذر بالعقاب أمة جعلت الصنم رباً وإلهاً لها.. وذهب المسلمون إلى بلد فيها حاكم لا يظلم عنده أحد ، وكانت الهجرة إلى الحبشة ، وهناك لدى النجاشى سيد أقصوم وجد المسلمين موئلا يقيهم فى ساعة البؤس ظلم بنى قومهم ، وحل المسلمون عند المسيحيين.. حلوا مكرمّين على سعة فى ظل المليك ، ولما خمدت الفتنة فى مكطة رجع المهاجرون الأولون ومنهم من طاب له المقام هناك فظل مقيماً.. وحين قضى النجاشى حتفه صلى الرسول الكريم على نفسه فى البقيع معلناً أول حداد إسلامى على نصرانى مات ليلقى ربه ، وأحبّ الرسول وأتباعه نصارى مكة حباً

لا غش فيه ، وحفظ القرآن الكريم آيات كانت صدى تلك المودة الأولى..»
ولتجدن أقرب الناس مودة الذين قالوا إنا نصارى ذلك إن منهم قسيسين
ورهبانا وهم لا يستكبرون «.. وهوذا اليوم مائدة الإفطار يزينها القسيسون
والرهبان ، وهم لا يستكبرون ولا طاقة لهم أن يكونوا من المستكبرين بل
هم إخوة لكم صمموا على ضيافتكم فى شهركم المبارك فى دارهم العامرة
دوماً بمشيئة الله..

الوثيقة الثانية: وكفانا أن نقف عندها حتى لا تجرنا الوثائق إلى بطون
التاريخ فى وقت يمل فيها الإنسان سريعاً من دروس التاريخ ، ووثيقتنا
الثانية تقول : إن المسيحيين صلوا صلاة الفصح فى أول جامع إسلامى فى
المدينة المنّورة ٦٣١ م ، عندما أتى وفد نجران للتفاهم مع الرسول وأتت
أيام عيد الفصح المسيحى فأعطاهم الرسول فرصة أن يصلوا عيدهم فى
الجامع فى المدينة المنوّرة..

إنتبهوا أيها السادة: المسيحية إستضافت الإسلام .. والإسلام إستضاف المسيحية..
المسيحيون صلوا صلواتهم ورنموا ترانيمهم وأقاموا قداسهم فى الجامع عندما لم
يكن لهم كنيسة يصلون فيها.. والمسلمون ذهبوا إلى الحبشة عند الملك المسيحى
لكى يهربوا من غضب أهلهم من عباد الوثن..

وختاماً يا سعادة الرئيس..

كل عام وأنت بخير..

كل عام وكل السودان بخير..

كل عام والوطن صائم نحو الله..

متوجه نحو مواطنيه..

كل عام وسوداننا واحة للحرية والديمقراطية..

كل عام وسوداننا واحة أمن وسلام..

كل عام وسوداننا ينبذ الخصام..

ويبنى جسور المحبة والسلام ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب..

وأختتم بعبارات قالها دكتور عمر فى إحدى الليالى الثقافية فى نادى المريخ وهو
طبعاً مريخابى.. وعندما حضرت للإحتفال رحب بى دكتور عمر بكلمات هى ترحيب

بكم وهى مسك ختام كلامى .. لقد قال :-

نحن أولاد الوطن الواحد..

متحابين من يوم ما قمنا..

عشنـــــا حبابيـــــب..

ولســـــه حبايـــــب..

لا إتخاصمنــــــــــا ..

ولا إتصادمنــــــــــا ..

فينا مساجد بى تهليــــلا..

وفينا كنائس بى إنجيــلا..

وفينا معابد يسرح ليـــــلا..

ربنا واحد.. وشعبنا واحد..

وحبنا واحد.. لا يتجزأ ولا يتفرع ..

إن كل هذا يعنى إن السودان هو أطيب أرض.. وأنسب مناخ.. لحوار الأديان.. تحية من جمعية حوار الأديان ، إلى سعادة الرئيس.. إلى كل المسلمين.. إلى طائفة الأقباط.. إلى أسرة نادى المكتبة القبطية ، طالبين الشفاء لرئيسها السيد فاروق نظيم الذى وقع بالأمس هنا بسبب إرتفاع فى الضغط..

٥٣. المكتبة القبطية بالخرطوم بحرى و إفطار رمضان

سيدى الرئيس: ها نحن اليوم نقيم إفطار رمضان فى الخرطوم بحرى ونأكل معاً أكلا حلال مائة فى المائة بحسب المواصفات القرآنية ، أولا طعام أهل الكتاب حل لكم ، وبحسب المواصفات العالمية حيث يؤكد العالم إن السودان هو محطة التآخى

والتآلف ، وما فى السودان اليوم من تعايش أديان نموذج حى مشرق لعالم يحيا فى ضلال الإفتراق ويلتهب بنيران الإحتراب..

الكل حريص على أن يكون معنا فلقد ألغى سفير الإمارات موعداً فى بيته لكى يكون معنا ونكون نحن معه.. هذه هى بحرى.. الخرطوم بحرى.. الحلفايا التى إمتلأت يوماً بحلفاء النيل ، والتى تتمتع ببركات النيل ، ها هى بحرى ، مقار سيدهم، وإسطفانوس سيدهم ، وزكرى بطرس ، وطانيوس موزه ، وعزمى بطرس، وفيلبس وفخرى سدره ، ووديع حبشى ، وونجت عبد السيد ، ويعقوب عبد السيد ، وعبد الشهيد واسخيرون الناسك العابد المتصوف الشفاف..

ها هى الخرطوم بحرى التى شهدت أيام رهبنة... فهمى تادرس الراهب الوقور إيليا الأنطونى الذى صار معلماً من معالم بحرى، والذى ساهمت ثورة الإنقاذ فى شهرته وإقتراب الناس إليه، فعندما إندلعت الثورة وصدر البيان الأول وأعلن حظر التجول بدأ الناس يتفننون فى الحصول على تصاديق لكى يزوروه ويسمعوه ويسمعهم حتى مطلع كل فجر، ويصلى لمرضاهم ، ويحل مشاكلهم الأسرية، ويكتبوا إسمه على الركشات والحافلات، وبعدها أشارت كل أصابع الناس إليه لكى يكون أسقفاً وعلى أسمى طراز للديمقراطية وافق البابا شنودة على رسامته أسقفاً بالرغم من إنه لا يعرف عنه شيئاً وفضّله تجاوباً مع الديمقراطية على الذين يعرفهم من الرهبان ، وهذا نزولا على رغبة شعب السودان..

ها هى الخرطوم بحرى التى إستقبلت ومنذ أربعون عام ، فى عام ١٩٦٤م شاب طموح نحو الروح.. ساهر نحو الأبدية الساهرة.. بدأ نشاطاً روحياً فيها وإستمر حتى الآن ، وهو الشاب الإكليريكى خريج اللاهوت الشماس سمير فرج واصف ، والذى خدم الخرطوم بحرى ، وقد عاش سودان الأحلام ، وهو لا ينافسكم اليوم فى الكلام ، إنما يشاغلكم ويثرى الحوار.. الخرطوم بحرى كانت تهرب من الدعوة لشعب ضيق المكان ، وأملنا سعادة الرئيس أن توسع تخوم المكتبة شرقاً وغرباً وشمالا ويميناً أو تنقلها لمكان آخر..

سيدى الرئيس: لماذا إخترتم الخرطوم بحرى ؟ هل لأنها فى جمال هواء بحرى؟ هل لأنها تروق لكم ؟ هل لأنها رمز للسخاء فى العطاء ؟ هل عدالة فى توزيع الفرص؟.. كنت أسأل : لماذا يحب الرئيس بحرى هكذا ؟ وجاءتنى إجابات وإجابات ، وظننت

أن للرئيس فيها مآرب أخرى كأن يسير الخطوة الثالثة فعلا بعد مثنى حيث تأتى ثلاث.. ولكن...

سيدى الرئيس: أنتم نموذج للسودان.. ويقولون: إن أصلح شخص يقود سفينة السودان فى المرحلة القادمة هو سعادتكم.. وهذا رأى أوربا والأمريكان والعرب وأغلب ما فى العالم من بلدان، ونحن نعتز بكم.. وبوجودكم معنا.. وسوف تستمر أحلامنا بمستقبل طموح ومجيد.. وسوف نستمر فى مطالبتكم بحسم قضية دارفور مثلما حسمتم قضية الجنوب.. وأنتم مستعدون لدفع ضريبة السلام حتى لو كانت ترك كراسى الحكم.. وقد بدأ النائب الأول متنازلا عن مكانه لأخيه جون قرنق.. وسوف يستمر العطاء ليتحقق السلام فى السودان..

سيدى الرئيس: كانت أحلامنا فى العام الماضى أن يكون معنا جون قرنق، وأحلامنا فى العام القادم أن يكون معنا جون قرنق ورفاقه ، وأن يكون معنا أهل دارفور الذين لديهم قضية ويحاولون لفت الأنظار إليها، ولا تدع سيدى الرئيس البقرات الضعاف تأكل السمان، ولا السنابل الجوفاء تأكل السنابل الهيفاء، ونحن من حقنا أن نحلم .. كان يوسف يحلم الأحلام الكبيرة رغم الظروف المؤلمة التى كان يحياها.. أخوانه باعوه.. ثانى رجل فى حكم مصر أودعه فى السجن ، ولكن الحمد لله خرج من السجن إلى العرش، وسوف يخرج السودان من سجن المآزق والإحتراب إلى عرش الرخاء والطمأنينة بكم..

سيدى الرئيس: نحن هنا السودان.. نحن كلنا أفريقيا.. أرض الخير أفريقيا.. وكأنى أقيف فى الدنيا وأقول : أنا سودانى.. ونحن نطالب سعادتكم بتشكيل لجنة علمية لدراسة التاريخ المسيحى للسودان ، والذى أخذ من الزمان ألف عام.. ولدينا من العلماء من هم أكفاء لهذا مثل : دكتور يوسف فضل.. ودكتور ضغيرون.. ودكتور على عثمان محمد صالح .. وعون الشريف.. دفع الله الحاج يوسف.. والأب فانتينى.. ونحن مستعدون للتعاون مع لجنتكم العلمية، وأقترح أن يرأس اللجنة دكتور حسن الطيب أبشر وهو سوف يكون الرئيس والعضو والكاتب والمؤلف.. لقد آمنت .. لقد آمنت بالمحبة والسلام.. بالتآخى تعايشاً، طريقاً ، هدفاً بالأحلام السعيدة..

سيدى الرئيس: لقد آمنت.. نعم آمنت.. آمنت بالحسن برداً.. وبالصبابة ناراً.. وبالكنيسة عقداً منضداً من عذارى.. وبالمسيح ومن طاف حوله وإستجارا.. إيمان من يعبد الحسن فى عيون النصارى.. عيون النصارى التى تتطلع اليوم إليكم لتسمع كلمتكم وأنتم تتكلمون بالحسن وبالأحسن.. ويتعاينون الحسن فى عيون النصارى وهم حولكم فى مائدة إفطار رمضان مع إخوانهم المسلمين قلباً وقالباً.. تفضل سعادتكم..

٥٤. الشاعر توفيق جبريل

هنرى رياض: فى كل يوم يمر يزداد إعجابى بمولانا هنرى رياض ذلك الرجل العظيم الذى قدم للسودان كنوزاً من الفكر والرؤى.. وكتب فى القانون وهو قانونى ضليع، وكتب فى الأدب وهو أديباً متفوقاً ومتميزاً.. وله الفضل فى الكتابة عن بعض الشعراء مثل: التيجانى يوسف بشير، وتوفيق صالح جبريل، ولقد رحل عن عالمنا هنرى رياض عام١٩٩٥م وأذكر إننى فى تأبينه قلت: إننا فى الشرق نضع الزهور على قبور العظماء بعد رحيلهم ، ولكننا نضيّق عليهم الخناق فى حياتهم، وكانت هذه الكلمات جاذبة لمندوب صحيفة خليجية هو نور الدين مدنى وأتى بها فى الصفحة الأولى..

وأذكر يوم رحيله وكان مسجى فى كنيسة السيدة العذراء بالخرطوم وحضر عدد كبير من محبيه ومن رجال القانون ، وكنت أقوم بإدارة الكلمات ، وتحدث الأستاذ الأديب عبد الباسط سبدرات وكان وزيراً للإعلام وهو رجل قانون، وكان كلامه مهماً ومفيداً فى ذكرى القانونى هنرى رياض.. وقد أعجبت بكلمة سبدرات وقلت عنه: إنه خطيب الثورة ، وبعد هذا وضعت ذكراه فى بحر النسيان ولم يعد أحد يذكره بعد ، وأذكر هنا ما ذكره سليمان الحكيم عن مدينة صغيرة فيها أناس قليلون جاء عليهم ملك عظيم وحاصرها وبنى عليها أبراجاً عظيمة ووجد فيها رجل مسكين حكيم فنجّى هو المدينة بحكمته وما أحد ذكر ذلك الرجل المسكين..

وتعليق سليمان الحكيم هو: الحكمة خير من القوة، أما حكمة المسكين فمحتقرة، وكلامه لا يسمع (جامعة ٩).. وأعتقد أن هنرى رياض كانت حكمته فى أن يكتب ويترجم ومعه شريكة حياته أحياناً، وهو بهذه الكتابة وقف أمام الحصار ، بل رفع

الحصار عن العقول والأفكار وحمل النجاة لمدينة الخرطوم وجاهد ضد إستبداد الملك العظيم وتمكن من هدم أبراجه العالية.. وكنت أتوقع وما زلت أتوقع أن نذكر معاً هنرى رياض، فى شارع بإسمه، فى كتاب يجمع فيه مؤلفات وإسهامات هذا الرجل العظيم الذى عندما رأيته إعتقدت إنه أحد النسّاك رهبان العلم، وقد كان هكذا دوماً يهتم بأن يقدم فكراً ويلقى الضوء على مسائل أدبية تشبع رغبة القارىء السودانى المثقف..

لقد كنت ومازلت متحمساً للكتابة عن الشاعر السودانى توفيق صالح جبريل ولكنى تحمست لمن كتب عن هذا الشاعر وأطالب الأستاذ إدوار رياض شقيق هنرى أن يجهز ملفاً قانونياً وثقافياً عن هنرى ويقدمه للسيد رئيس القضاء، وأنتظر من رئيس القضاء أن نستفيد من هذا الملف..

توفيق جبريل: لقد كتب القاضى هنرى رياض كتاباً عنوانه: توفيق صالح جبريل شاعراً وثائراً صدر عن دار الجيل ببيروت ١٩٨٦م.. والكتاب كلمات ناصعة البياض على صفحات ليست ناصعة البياض.. وتوفيق جبريل من مواليد ١٨٩٧م فى دنقلا فى دار الهجانة، هناك حيث كان يعمل أبيه وكان له دور وطنى مرموق فى واقعة أمبقول عام ١٨٩٣م، وقد نجّى بلده بحكمته، وقد رحل عن العالم الفانى فى ١٩٦٦/٤/٢٦م.. بعد أن إشتد عليه المرض ولكن المرض لم يقعده عن النظم، بل إنه كتب أجمل قصائد شعره وهو على سرير المرض ولم يفقد روح السخرية حتى عندما تنبه إلى إنه تناول الدواء فى ذات الكوب التى كان يستعملها للشراب إذ قال:

لى ثلاث ما تذوقت سوى الماء القــــراح

وتجرعت الدواء المـــر فـــى أكـــواب راح

لا يقينـــى إن أتى البـــرد يقينـــى أو نواحى

وله صديق طبيب هو إسماعيل تايرى الذى كان يشرف على علاجه ، وله مكان فى شعر توفيق فهو يقول له:

فلماذا لا تواسينـــــى وداء الروماتــــــزم

صيّر الجسم الــــذى قد كان عملاقاً كقزم

وقوامــاً سمهريـــــاً عاد من نصــب لجزم

كاد يقضى اليأس لولاأملى فيــك وحزمـــى

وكان توفيق جبريل وطنياً ثائراً وعندما زار اللورد اللنبى السودان فى أبريل عام ١٩٢٢ م لكى يؤكد لأهل السودان مساندة إنجلترا لهم ووقوفها فى صف السودان، وهنا أبدىّ شعراء بالترحيب الوقور به ضيفاً عظيماً وطالبوه بالتنمية والتعمير، ولكن توفيق جبريل كان له صوت شعراء عصره، ولكن كان الإستعمار يحكم قابضاً زمام الأمور، فكتب جبريل إلى جريدة الأهرام قصيدة دون أن يذكر إسمه ونشرت فى ٢٦/٥/١٩٢٢م يطالب فيها قومه أن لا يجرو الذيولا ويندهش من زيارة اللنبى وهو متشكك فى أهدافه لأن اللورد يريد أن يفصم جيلا موصولا بين مصر والسودان.. وأن اللورد سياسى ماكر كل يوم يبدو بثوب جديد.. وكان رأيع ضد رأى البنا وطمبل الذين رحبوا باللورد وفى قصيدته يقول:

أيها القوم لا تجروا الذيـــــولا

يأنف الحُــر أن يعيــش ذليـــلا

سمتمونا العــذاب ضيقتــم الآرض

عليــنا حتــى هويــنـــا الرحيــلا

ما إكتسبـنا إلا الشقـــاء كسانـــا

سملا باليـــا وحسبمـا بخيــــلا

ويــح قلبــى مــــاذا يريد اللنبـــى

يوم وافــــى يجـر سيفــاً ثقيـــلا

جمع الجمــــع أرهــب القــوم حتـــى

أصبــح السيـــد النبيــل ذليـــلا

أتـــراه يريـــد يفصـــم حبـــــلا

بيـــن مصـــر وبيننـــا موصــولا

٥٥. السفير الأديب جمال محمد أحمد

السفير الأديب: فى سفراء السودان الذين جابوا كل البلدان يحملون السودان فى قلوبهم العدد الكبير من الأدباء والشعراء ويتألق بينهم السفير جمال محمد أحمد الذى عندما قرأت له أسعدنى ما قرأت وشعرت بقوة الكلمة نثراً وشعراً ورواية وترجمة.. العالم كله محكوم بالكلمة... ومخلوق بالكلمة.. وفى البدء كان الكلمة.. والكلمة كان عند الله.. وكان الكلمة الله.. وكلمة الإنسان تحمل قوة المتكلم وبقدر ما يكون الشخص عظيماً تكون كلماته عظيمة..

وأذكر ذات مرة أن السيد رئيس الجمهورية كان يداعبنى فى حفل إفطار رمضان ويقول : إننى ينبغى أن أعطيه فرصة ليتكلم.. وذات مرة لم يحضر الأنبا دانيال مطران الخرطوم لإنتقال شقيقته فطلب الرئيس أن يذهب إلى المطران لتعزيته وكان معه وزير الخارجية الدكتور مصطفى عثمان ، وهنا بدأ الرئيس قائلا لمطران الخرطوم : إن على المطران أن يهيء فرصاً للأب فيلوثاوس فى محاضرات وندوات حتى يكون هذا له متنفساً لأنه لا يعطى للرئيس وقتاً للحديث.. وهنا قلت له: ياسيادة الرئيس إن كلام الرؤساء رؤساء الكلام.. إننى أتكلم كثيراً لكى أكون مقنعاً والمساحة متاحة لى للإقناع ولابد أن تكون كبيرة ، أما سعادتكم ففى كلمات موجزة يمكن أن تكون معبراً لأن كلام الرؤساء رؤساء الكلام..

والكلمة دوماً تعبير عن قوة المتكلم، يقول المزمور: بكلمة الرب صنعت السموات وبنسمة فيه كل جنودها.. وقد كان السفير الأديب متكلماً وكاتباً حتى رسائله إلى بيته وإلى أولاده كانت تعد قمة فى أدب الرسائل الذى كدنا أن نفقده اليوم مع تطور وسائل الإتصال.. وأذكر إننى منذ أمد بعيد لم أكتب رسائل وأكتفى بالحديث التليفونى، وقد صار التليفون تلفزيوناً ينقل الصوت والصورة.. إن جمال محمد أحمد من جيل الأدب والأدباء، جيل الكلمة، فلقد ولد فى عام ١٩١٥م فى سُرة شرق ووافاه الآجل المحتوم فى عام ١٩٨٦م.. أما سُرة شرق فقد إبتلعها النيل لأنها إحدى قرى وادى حلفا.. وقد بكى عليها جمال ورثاها بمشاعر صادقة، وعندما بنى بيتاً ليسكن فيه أعطاه إسم « سُرة شرق».. كان جمال متوقد الذهن.. يقرأ ويكتب بشغف ونهم.. وكان يعطر أجواء لقاءاته بغزير ثقافته وأحاديثه الشجية وآرؤه الحكيمة ، وروحه

العذبة المستنيرة، وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجساد..

اللغة الباهرة: قال مكى أبو قرجة: إن جمال محمد أحمد كان الألق الأفريقى واللغة الباهرة ، فقد كتب بلغة ذات ألق وبهرة، كانت مفرداته تأتى جديدة كأن لم يكن يتداولها الناس ولم تزخر بها المعاجم، كان يشحن كلماته بدلالات جديدة تحتضن فى يسر أفكاره ورؤاه فيتلاشى الشكل فى المحتوى ليبرز نص إبداعى محيّر، كان جمال عجيباً متمهلا فى كل شىء.. كان يتقرى الكلمة بيديه ، يتحسسها كأنما يعجن صلصالا ويشكل.. حين ترجم أفريقيا تحت أضواء جديدة لباذل ديفيدسون ترجمها ترجمة تجزم بأنها أغنى أسلوباً من الأصل أضاف بها إلى إسهاماته الكبرى فى الحياة الثقافية والكتاب ينطلق من تاريخ مروى والذى هو إنطلاق لحضارة أفريقيا، وعندما تقرأ ترجمة نتمنى أن لا نفرغ من مطالعة ما تراه عيناك.. يجسد المعانى فتتفجر الكلمات لتلف الأحاسيس جميعها كأنك ترى وتتلمس وتسمع وتشتم الشذى والعبير لذلك الماضى التليد..

وإذا كان جمال قد رحل عن العالم الفانى عام ١٩٨٦م فإن أحداً لا يقدر أن ينساه وقد سعدت جداً عندما بدأت أقرأ كتاب وليم آدمز « النوبة رواق أفريقيا» والذى ترجمه بأسلوب جميل وقوى محجوب التيجانى محمود، ويعد أكبر تراجمه المنشورة، وهو إصدار مطبعة الفاطيما إخوان عام ٢٠٠٥م.. والترجمة العربية مهداه إلى روح المعلم جمال محمد أحمد إبن سرة شرق.. سفير السودان ، الكاتب العربى ، والمفكر الأفريقى الإنسان.. لقد كان جمال محمد من آوائل مثقفى نادى الخريجين وساهم فى إعداد التصورات الخاصة بأهداف المؤتمر، وأبدى نشاطاً لفت الأنظار وإستطاع أن يفوز بثقة الجميع، وكان صاحب وعى أفريقى مبكر..

كتب عن أفريقيا بقلبه وقلمه وكأنه شريك فى الأحداث، ولماذا لا يكون شريكاً وهو الأفريقى المتطلع لأمجاد أفريقيا، وهو السفير الذى عاش فى أفريقيا، ووزير خارجية السودان ، والذى هو « بوابة أفريقيا».. قال الطيب صالح عن جمال: إن حديثه كان ودوداً وطريقته عجيبة فى الحديث ينسج غلالة رفيعة من المحبة، ويخلق مناخاً من الآلفة، يستحضر أصدقاءه الغائبين، ويداعب الحاضرين ، ورغم غزارة علمه وتوقد ذهنه ورحابة آفاقه الفكرية فإنه لم يكن يتحدث عن الثقافة والأدب إلا

نادراً، وإذا فعل يلقى إليك بالأفكار العميقة جزافاً فى ثنايا كلامه العادى.. كان فى سلوكه على سجيته تماماً لا يفعل شيئاً لا تألفه نفسه..

إن جمال محمد ثروة للحياة الأدبية والثقافية وله العديد من المؤلفات كتباً ومقالات، وأذكر من كتبه» وجدان أفريقيا».. « عرب وأفارقة».. « سالى فوحمر». « فى الدبلوماسية السودانية».. وأذكر له مقال « السودان فى الفاتيكان..» وكيف رسم صورة جميلة للفاتيكان عندما ذهب بعد قرارات نوفمبر فى عهد عبود بإقصاء رهبان الكاثوليك وإبعادهم عن السودان.. لقد ذهب جمال محمد أحمد لرأب هذا الصدع فى العلاقات مع الفاتيكان الذى قدم للسودان شهداء فى نشر المسيحية ومن بينهم دانيال كمبونى المدفون عندنا..

٥٦. أسير المتمهدي

جرجى زيدان: هذا عنوان رواية كتبها جورجى زيدان والذى عاش من ١٨٦١- ١٩١٤م والذى كتب مجموعة روائية حول الأدب وتاريخ الإسلام، وكان نصيب السودان من رواياته الإثنين وعشرون رواية ، روايتان وهما: «المملوك الشارد» ،» وأسير المتمهدى».. ورغم أن تعبير المتمهدى تعرض للنقد الشديد ، ولقد إستعمله أيضا نعوم شقير ولم يسلم به جورجى زيدان من سهام الناقدين الذين رآوا فى تلك المجموعة إفتراءات على الإسلام، ولكن مكى أبو قرجة لا يرى فى روايات زيدان ما يشكل إساءة لمعتقدات والدليل عنده هو صدور عدة طبعات لمؤلفات زيدان التى تحتل مكانها فى جميع المعارض بمختلف العواصم..

ويرى إنها قد ألهبت خياله فى مرحلة الطفولة وعبأت شعور ووجدان أجيال من الأطفال العرب خلال العقود المتتالية للقرن العشرين، وقربت إلى الأذهان أحداث التاريخ، ويقولون: إن جورجى زيدان عمل فى مخابرات الجيش البريطانى مثل نعوم شقير ، وهكذا تسنى له معرفة الكثير من تفاصيل الحياة السودانية وعلى الأخص أحداث الثورة المهدية التى قدم لها وصفاً تمثيلياً لا تكاد تجده فى معظم المصادر التاريخية..

ويرى أبو قرجة إن رواية « المملوك الشارد» والتى دارت أحداثها ما بين مصر والشام وبلاد السودان كانت وقتها الرواية العربية فى مهد طفولتها وقتذاك

مجرد بناء سردى وحبكة تعتمد على العقدة التى تنفك عن نهاية سعيدة.. وإعتمد فيها الكاتب على روايات شفهية وتقارير مبتورة، ولكن رواية « أسير المتمهدى» جاءت نصاً متماسكاً توزعت الأحداث فيه ما بين مصر والسودان حول الثورتين العرابية والمهدية، ويبدو إنه قد توفرت لدى الكاتب المصادر والروايات الشفاهية والصحف التى رصدت الأحداث، وبهذا جاءت الرواية كلاسيكية تتقيد بوقائع التاريخ، والطريف إن أحد أبطالها كان هو حسن حبشى الذى عمل كاتباً للأمير عبد الحليم مساعد، ويبدو إنه كان موظفاً مصرياً فى ديوان المديرية بمدينة الأبيض قبل الثورة المهدية..

ولقد وجد جورجى زيدان فى شخصية حسن حبشى الذى فرّ إلى مصر بعد موقعة توشكى منجماً غنياً لرواية الأحداث.. ولا ننسى إنه كان هناك تعاطف بين المهدى وعرابى، وكان المهدى يرغب أن يقبض على غوردون حياً ويتفاهم مع الإنجليز لإستلامه وإطلاق سراح عرابى ولكن جنود المهدى قتلوا غوردون فى غمرة ثورتهم وأفسدوا خطة المهدى.. ولقد أبدع جورجى زيدان مؤسس مجلة الهلال التى لم تزل تصدر حتى الآن فى روايته « أسير المتمهدى» ، وما حدث من حركة فى الأحداث التى إنتهت أخيراً بعودة كل واحد إلى مكانه..

أسير المتمهدى: ويلخص نظير عبود فى كتابه» جورجى زيدان» الصادر عن دار الجيل ١٩٨٣م روايات زيدان، وهى إثنتان وعشرون رواية، وتأتى رواية « أسير المتمهدى» تحت رقم ١٨ حيث يتحدث عن مصر ١٨٧٨ ويرينا الخديوى إسماعيل وقد جعل من القاهرة زهرة مشرقة فى أفريقيا وكان يشجع العلم تشجيعاً عظيماً وفى كل سنة يحضر إسماعيل الإمتحانات المدرسية ويختار أنجب التلاميذ ويرسلهم إلى مدارس أوربا للدراسات الجامعية ولا سيما الطب والمحاماة..

ويرينا زيدان رفيقاً يحاول الغدر برفيقه حسداً، وهذا المشهد هو عقدة الرواية، وينقلنا منه إلى مشهد هام هو مطامع الإنجليز فى مصر تعاونها فرنسا، وقد أصبح مركز الخديوى فى خطر، ويبقى الخديوى صامداً وتضطرب السياسة المصرية وبات الناس فى هرج ومرج من أمورهم وراح بعضهم يتوقع تنازل الخديوى، وإنقلبت حكومة الخديوى إلى حكومة شورية يسيرها مجلس النظار بعد أن كان مطلق التصرف..

ومما نعرفه عن إسماعيل باشا إنه كان غارقاً فى الديون وإنه كان أول من غيّر التقويم القبطى إلى التقويم الميلادى سنة ١٨٧٥م حتى يتم جدولة الديون وفق التاريخ الميلادى ، والمعروف عند أصحاب الديون ، ويتنازل إسماعيل عن العرش إلى إبنه توفيق والذى رفع من قدر الضباط المصريين، وكان وطنياً مخلصاً.. ثم يرينا مشهداً آخر وهو إتفاق ثلاثة من الضباط المصريين على إستلام البلد بدلا عن الأجانب وهم: عرابى، وعلى فهمى، وعبد العال.. وكان الخديوى توفيق يساعدهم.. وهنا تبرز مطالب عرابى بدعم الجيش عددياً ومالياً ويتفاوض قنصل بريطانيا معه، وقد توصلا لحل، ثم تنحل الوزارة وتأتى وزارة البارودى ويأخذ عرابى منصب وزير الجهادية..

وبعد هذا تقوم فتنة فى إسكندرية ويعود كل شىء إلى الأول ، ويحتل الإنجليز مصر ويحكم على عرابى ورفاقه بالإعدام ويعفو عنهم الخديوى.. وتنقلنا الرواية إلى مشهد دينى سياسى وهو ظهور محمد أحمد فى السودان والذى قال: إنه المهدى المنتظر وهذا فى أواسط ١٨٨١ وجمع حوله جماعة آمنوا به وخرجوا على الدولة وترسل بريطانيا حملة بقيادة هكس باشا، وتنقطع أخبار الحملة، ويفتك مرض الكوليرا بأهل مصر، ويدعو المهدى إلى الحرب والجهاد ضد الأجانب ويهدد بجلد المخالفين ، ويحاول أحدهم أن يقتل رفيقه المدعو شفيق ولكنه ينجو ثم يقع أسيراً لدى جماعة المتمهدى، وهنا يكون بناء رواية زيدان ويدعى الأسير الدخول إلى جماعة المتمهدى.. ثم تأتى حملة ثانية للخرطوم بقيادة تشارلس ولسن.. وتنتهى الرواية بعودة الإنجليز إلى موقعهم وتنكسر جماعة المهدى..

٥٧. من السودان إلي لبنان

من مصر إلى لبنان:عندما بدأت الحركة الوطنية فى السودان إعتمدت التعليم طريقاً للحرية والإستقلال، ولكن الإستعمار لم يرق له هذا ، وكان ينظر بعين الريبة إلى مصر ومن يذهبون إليها على الأخص إن مصر كانت تكره الإستعمار وتعلن هذا علانية رغم سطوته وقوته.. وعندما تقدم ثلاثة من شباب السودان بطلب إلى عمر طوسون ليتعلموا فى مصر وصل خبرهم إلى المخابرات ومنعوا من السفر وكانت حجة وكيل المعارف الإنجليزى إن بريطانيا تهتم بالتعليم فى السودان، وكان رد

أحدهم: إن بريطانيا تصرف على تعليم شعب السودان من أموال شعبه..

وبعد هذا بدأ الإتجاه نحو إيفاد بعثات تعليمية إلى لبنان وطبعاً أخطأ المستعمر فى حساباته فلم تكن لبنان أقل وطنية من مصر ، وإذا كنا نتحدث عن عظمة مصر فإن شموخ لبنان شموخاً مقتدراً مثل أرز لبنان، وقد وصفت فلسطين بأن غطى الجبال غصنها وأغصانها أرز الله، ووصف الصديق بأنه كالنخلة يزهو كالأرز فى لبنان ينمو (مزمور ٩٢:١٢)..

وفى مزمور باركى يانفسى الرب يقول: تشبع أشجار الرب أرز لبنان الذى نصبه.. إستراحت إطمأنت كل الأرض هتفوا ترنماً حتى السرو يفرح عليك وأرز لبنان قائلا: منذ إضطجعت لم يصعد علينا قاطع.. وكلمة أرز نفسها تعنى ثابت أو راسخ، وكان تهديد سنحاريب إنه سوف يقطع أرز لبنان الطويل، وأرز لبنان شجرة قوية كما يبدو من القول: صوت الرب بالقوة، صوت الرب مكسّر الأرز ويكسر الرب أرز لبنان ، وشجرة الأرز قوية شامخة، جميلة الأغصان رائعة الجمال ويقال عن طويل القامة : قامته مثل الأرز.. وشجرة الأرز هى شجرة خشب عظيمة القدر.. وهى رمز للشموخ وهكذا عندما حرك الإستعمار أبناء السودان للدراسة فى لبنان كان قد حفر حفرة لنفسه أو كما يقول العرب: من مأمنه يأتى الحذر..

العودة من بيروت: ويذكر حسن نجيلة عودة ثلاث طلاب من بيروت وكيف أعدّ نادى الخريجين الإحتفال بمقدمهم ويحدد تاريخ سفرهم بأنه سبتمبر ١٩٢٤م وتاريخ عودتهم سبتمبر عام ١٩٢٨م، وكيف إهتزت القلوب فرحاً بعودتهم.. والثلاثة هم: عبد الفتاح المغربى، ومحجوب الضوى، وعبيد عبد النور، وكان العدد الذى يذهب لتلقى العلم فى بيروت قليل جداً.. وخلال عشرة أعوام لم يزد عدد الذين أوفدهم الإنجليز عن أربعة عشر معلماً فقط، وبالكاد سمح لإثنين أن يذهبا على نفقتهما الخاصة..

وفى عام ١٩٢٧م ذهب ثلاثة هم: إسماعيل الأزهرى، ومحمد عثمان الميرغنى، وحمزة أحمد الذى توفى فى ريعان شبابه ولم يكمل بعثته..ولاشك إننا نعلم من هو الأزهرى؟ إنه الذى رفع العلم، علم الإستقلال وأنزل علم الإستعمار.. ويذكر حسن نجيلة الإحتفال بالوفد الأول العائد من بيروت عام ١٩٢٨م حيث فى يوم الجمعة ١٤ سبتمبر من نفس العام أقيم فى نادى الخريجين إحتفالا مهيباً سعيداً وكان عدد من

كبار رجال الإنجليز فى الإحتفال من بينهم المستر يودال وكيل المعارف السودانية.. وهنا تبادل الشعراء القصائد الشعرية تحية وإكراماً وتكريماً وإجلالا، كان أولهم المهندس مهندس المبانى ومهندس الكلمات عبد الرحمن شوقى الذى قال:

أنا مضنى بهـــوى هند وصـــــب

وهوى هنــد على القلــب وصــب

لا تلمنـــى فـــى هواهـــا إنــــــه

ليس يدرى الحب إلا من أحـــــب

إنمـــا هنـــد بـــــلادى لا أرى

غيرهـــا خـــلاّ ولا حبـــاً يحـــب

جبتـــم الآفـــاق فى نيـــل العـــلا

وجلبتـــم شطـــر دهــــرى فإحتلـــب

بكـــم طـــارت دمشـــق فرحـــــاً

وســـروراً بكـــم إهتـــزت حلـــب

وبلبنـــان تغنــــــى بلبـــــل

وفـــروع الأرز مالـــت مـــن طـــرب

وســـرت فـــى النيـــل مـــن منبعـــه

فرحـــة الظافـــر تجـــرى للمصـــب

وبعد هذا تحدث الشاعر عبدالله عبد الرحمن وهو يقول للمحتفى بهم: إنه سيدخر ثناءه وتقديره حتى يرى ما يؤدون من أفعال نافعة لبلادهم، وينتظر بنطق الحكم حتى يرى لهم فى الخير مجاناً..

أما المهندس على نور شاعر المؤتمر فإنه يقول :

هـــز اليـــراع وألـــفّ

وإذا عرفـــت فعّـــرف

والعلـــــم ليـــس كمثلـــه

مـــا يقتنـــى فنتقـــف

إن العلـــوم حياتنـــا

وبهـــا نشيـــد ونحتفـــى

وطالب الشاعر أن يرسل جيشاً ضخماً من الطلبة ليتعلمون فى لبنان ، وقد طالب الشاعر أن يتكون هذا الجيش من خمسة وأربعون ونيف وكانت هذه مداعبة من الشاعر تجاوب معها وكيل المعارف الإنجليزى وقتها فقط.. وتوقفت منح لبنان عام ١٩٣٤م..

٥٨. الطيب صالح يقدم لرسائل جمال

رسائل وأوراق خاصة: قام الأستاذ عثمان محمد الحسن بجمع رسائل وأوراق السفير والوزير والأمير جمال محمد أحمد فى كتاب واحد تحت عنوان « جمال محمد أحمد رسائل وأوراق خاصة» مكتبة دار الجيل ١٩٩٢م.. وكانت مهمته صعبة جداً ، وأكيد إنه لم يتمكن من جمع كل الرسائل، فقد كانت وسائل جمع الكتابات ضعيفة جداً، ولو كان جمال حريصاً على جمعها فلم يكن أمامه سوى أن يستعمل الكربون للإحتفاظ بنسخة من رسائله، ولكن هذا أمر قد يفقد الكاتب إحساسه بالتلقائية وربما عندما يكتب لا يجد قلماً قوياً وكربوناً..

ولا غرو فى ذلك فإنه حتى رسائل الكنيسة الأولى لم تجد حفظاً وتعرضت كثيراً للتلف والفقدان ، فالرسول بولس يشير مراراً إلى رسائل كتبها ولكن لا وجود لها اليوم، كما كتب الرسول بولس إلى الكنيسة التى فى كولوسى رسالة طلب فيها منهم: أن يتبادلونها مع رسالة أرسلها إلى الكنيسة فى لاودوكية والتى من لاودكية يقرأونها هم أيضا (كولوسى ٤:٢).. ورغم إن رسائل بولس كانت ممتعة وشيقة وأيضا كانت مركز إهتمام الكنائس لأنها رسائل روحية لهم فلم تنج من الفقدان..

الطيب صالح: ويقدم الروائى الرائع الطيب صالح لكتاب رسائل وأوراق جمال محمد أحمد، ويبدأ بأن يقول وبدون تردد بادىء ذى بدء، إن هذا الكتاب مهم ليس للقارىء السودانى وحده بل للقارىء العربى لأن الكاتب شخصاً معروفاً فى دنيا الأدب، ودنيا

العرب فزيادة على إنه عمل سفيراً فى عدة أقطار عربية ثم صار وزيراً لخارجية السودان، فقد كان مفكراً كبيراً وأديباً صاحب رؤية طريفة وأسلوب لا يشبه أسلوب أحد من الكتاب، ورغم إنه كان كاتباً مقلا فإن المقالات التى تنشر له فى المجلات والصحف والكتب التى صدرت له، كانت تلفت النظر دائماً وتحرك الإهتمام، وكان حين يكتب فى الشئون الأفريقية أو الأدب الإنجليزى أو فى علاقات العرب بأفريقيا يكاد لا يرقى إلى مستواه إلاّ القليلون، هذا بالإضافة إلى إنه كان شخصاً جذاباً له حضور واضح، فكان له شأن فى الإجتماعات الثقافية والمنتديات الفكرية..

والكتاب مهم أيضا لأنه جديد فى بابه ، فأنا لا أعرف إلا القليل من كتب الرسائل فى الأدب العربى المعاصر، أذكر منها الكتاب الذى أصدره توفيق صائغ عن رسائل جبران المتبادلة وخاصة مع مارى هاسكل ، وكتاب الأستاذ رجاء النقّاش عن الناقد أنور المعداوى.. هذا لون ممتع من ألوان الأدب يكثر فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية وهو نادر فى الأدب العربى..

وأذكر شخصياً رسائل على أمين التى كان يرسلها من السجن إلى أخبار اليوم والتى جمع بعضها فى سنة أولى سجن ، وسنة ثانية سجن، وهى رسائل حية بليغة مؤثرة، وهى مؤشر لأيامه ولذكرياته ، وهى ترمومتر لقضايا الوطن..

ويكتب الطيب صالح : إن جمال كان نشطاً للرسائل تربطه مثل خيوط متينة مع أفراد أسرته ومع أصدقائه شرقاً وغرباً ، فى الرسائل يكون جمال على سجيته تماماً يذهب من موضوع إلى موضوع ، وينتقل من الخاص إلى العام ، من المهم إلى العادى بأسلوبه العجيب الذى تميز به وهو أسلوب إذا تعوده القارىء فإنه يستعذبه ويقبل عليه بمتعة كبيرة..

كان جمال إنساناً بشوشاً على الدوام منطلق أسارير الوجه رغم الإحاسيس التى كانت تمور فى أعماقه ذاته، ولابد كان إنساناً أثلج كما وصفه صديقه بشير محمد سعيد ولكنه فى السنوات الأخيرة كاد يستسلم لليأس لكثرة ما رأى من محن تحيق بالسودان أغلبها من صنع أبنائه.. كان جمال رجلا محظوظاً إلى حد كبير فقد أنعم عليه الله بهبات جمة..

كان حسن السمت ، عذب الحديث ، متوقد العقل ، ذكى الفؤاد ، لذلك سار شأوا بعيداً ونجح فى كل عمل إضطلع به، وقد يقول أناس وأنا واحد منهم : إنه كان

يستحق أكثر ولكن فى بلد كالسودان لا يحفل كما ينبغى بأبنائه لم يكن ما حققه جمال أمراً هيناً ، ما أبعد الشقه بين « سرة شرق» وجامعة أكسفورد ، وما أطول الطريق بين صبى يردف أخاه على حمار إلى المدرسة وبين وزير الخارجية.. وما أشق الصعود من بخت الرضا إلى جامعة « هارفارد»..

وكان محظوظاً فى أبنائه وبناته.. ووهبه الله زوجة صالحة من أهله ظلت ترعاه وتسهر على راحته، وكان يحلق فى آفاق بعيدة، ويعود إليها كما يعود الغريب إلى وطنه، والمهاجر إلى جذوره ، وهو يذكرها بسعادة وطيب خاطر فى رسائله إلى أبنائه وبناته، وكان يقول عنها : الأم الطيبة الصالحة التى تمطر الدعوات الصالحات بالخير العميم والنصر المؤزر، تقفز بها قفزاً جميلا فى حلقات النقاش الأسرى أو فى مؤتمر مائدة الغذاء فى البيت..

٥٩. جمعية الإتحاد السودانى

عام ١٩٢١م: فى عام ١٩٢١م وفى ظل التحرك نحو الإستقلال التام قامت مجموعة من أبناء السودان بتأسيس جمعية الإتحاد السودانى والتى كانت تتكون من خلايا متعددة ورائد الفكرة هو محيى الدين جمال أبو سيف ، وشعار الجمعية « السودان للسودانيين والمصريون أولى بالمعروف».. وبدأت الجمعية السرية تحت الأرض تصدر المنشورات وتحث على طرد الإستعمار من مصر والسودان وتهتم بنشر التعليم..

وخفية عن أعين الرقباء والمخابرات تحركت منشورات الجمعية ترسل إلى الشخصيات الكبيرة وتعلق على الأعمدة والجدران فى أنحاء السودان وكانت الجمعية ترسل مقالات ومنشورات إلى الصحف المصرية والتى لم تتخل عن نشرها، وفى يوم ١٩٢٢/١١/١٠م أرسل الإتحاد رسالة إلى الأمير عمر طوسون ورد فيها: إن فى السودان حركة وطنية أساسها القومية الصادقة، وغايتها تأييد الشعب المصرى، وأن لا ينفصل السودان عن مصر بأى حال من الأحوال..

وكانت الإجتماعات السرية تعقد فى منزل الشاعر الأمين على مدنى، وكان من بين عضوية الجمعية الشاعر توفيق صالح جبريل، والذى إعترض سراً أيضا على زيارة اللورد اللنبى إلى السودان عام ١٩٢٢م ، وجاء إعتراضه قصيدة شعر نشرت

بدون إسم فى جريدة الأهرام المصرية.. وفى تاريخ الحركة الوطنية فى السودان يذكر محمد عمر بشير أن من بين أعضاء الجمعية عبدالله خليل، ومحمد صالح الشنقيطى، وخلف الله خالد، وخليل فرح، وبابكر قبانى، ومحمد عبدالله العمرابى، وعلى عبد اللطيف، ومحمد صالح جبريل، وصالح عبد القادر.. وقد إستمرت الجمعية فى دعايتها وإثارتها حتى عام ١٩٢٣م عندما تكونت جمعية اللواء الأبيض..

تطوير التعليم: كانت جمعية الإتحاد السودانى تهتم بالتعليم لأن التعليم فعلا طريق التحرر، وكان من أمل رجال الله أن تمتلىء الأرض من معرفة الرب، وفى حديث سفر يونان النبى يعتب الله على يونان ويقول له: هل إغتظت من أجل اليقطينة التى بنت ليلة كانت وبنت ليلة هلكت ؟.. أنت شفقت عليها ، أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثر من إثنتى عشر ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم ؟.. وكما يقول الحكيم: إن مخافة الرب رأس المعرفة، كل ذكى يعمل بالمعرفة، الأغبياء يرثون الحماقة، والأذكياء يتوجون بالمعرفة..

وكان التعليم فى السودان لقلة من الناس، وبهدف تخريج موظفين فى الإدارة، وكان الإتجاه نحو التعليم يعنى الذهاب إلى مصر للحصول على فرص هناك، وعندما إتفق ثلاثة من الشباب السودانى وكتبوا خطاباً إلى الأمير طوسون كشف أمرهم ووقع الخطاب تحت يد المخابرات وسلم إلى المستر يودال وكيل وزارة المعارف الذى إستدعاهم ولومّهم على فكرة الهجرة إلى مصر ، فى حين إن الإنجليز قائمون بالصرف على التعليم فى البلاد، ولكن أحد ثالوث الشباب وهو توفيق أحمد البكرى قال لوكيل الوزارة : إن ما يصرف من مال الشعب وليس من مال الإنجليز، وهنا إستشاط غضباً وحظرّ كتابة أى خطاب إلى مصر..

وبعدها سافر إثنان منهم إلى مصر رغم نصيحة الوكيل وعاشا فى مصر عيشة الكفاح، وكانت جمعية الإتحاد السودانى ترسل لهم مساهمة يسيرة، وبعد هذا إنضمّ إليهم ثالثهم وتعرضوا للعديد من المشاكل وقبض عليهم بعد إغتيال السير ستاك ثم أفرج عنهم.. ويعتبر كفاح جمعية الإتحاد السودانى لنشر التعليم هو البذرة الأولى للدعوة العامة والتى لاقت تشجيعاً من المثقف السودانى الذى يرى إن التعليم سلاح حديث للثقافة ، وطريق حاسم إلى تحرير البلاد..

وقد كتب عن هذا محجوب وعبد الحليم فى كتابهما» موت دنيا» قائلين: ألم يوجه

الرأى العام لمطالبة رجال التعليم بالكف عن تخريج الموظفين والعمل على تثقيف العقول وتوجيه التعليم ليكفل للفرد عيشة الحلال، وفى الوقت نفسه يربى الروح ويخلق من الطلاب مواطنين صالحين يعملون للخير العام وينمى فيهم حب الخير والأركية والنبل وحب كل ما هو جميل ؟.. ويستمر محجوب ورفيقه فى القول : وها أنت ترى نتائج كفاحنا وترى التعليم يتجه فى الطريق التى دعونا لها مخلصين..

وبعد هذا ومن خلال بداية جمعية الإتحاد السودانى إتخذ التعليم طريقه وحقق الكثير من أهدافه وتعددت المدارس، وطالب أحمد خير تخصيص يوم للتعليم قصد منه كسب تأييد أفراد الشعب حتى يعرفوا حاجتهم إلى تعليم فلذات أكبادهم.. ويصف حسن نجيلة سفر الشباب السودانى إلى مصر وتشجيع جمعية الإتحاد السودانى لهم تحت عنوان « الهاربون إلى مصر» فيقول: فى خريف عام ١٩٢٣م شهدت محطة الخرطوم للسكة الحديد خمسة شبان يتجاذبون الحديث همساً ويرقبون ما حولهم فى حذر بالغ، وقد إنتبذوا مكاناً قصياً عن المسافرين والمودعين، وأذن للقطار أن يتحرك فإمتدت أيادى ثلاثة منهم تشد على أيدى الفتيين الآخرين فى حرارة وتأثر، ثم وثب الأخيران وثبة اللص الحذر إلى عربة من عربات الدرجة الرابعة وإندسا فى غمار المسافرين ، وتحرك بهما القطار متئدراً يبتعد شيئاً فشيئاً عن محطة الخرطوم ثم أسرع منطلقاً وهو لا يعلم إنه يحمل طلائع ثورة وإستهلال عهد جديد.. والمسافران هما توفيق أحمد البكرى، وبشير عبد الرحمن، والمودعون عبيد حاج أمين دينامو الحركة الوطنية، وتوفيق جبريل الشاعر، وسليمان كشة ، جمع كل هؤلاء عضوية جمعية الإتحاد السودانى حيث كان التعليم هدفاً نحو الحرية والإستقلال..

٦٠. السودان كما رآه سرجيوس

القمص سرجيوس: يُعد القمص سرجيوس من أعظم زعماء الأقباط فى مصر والسودان، فلقد كان فى السودان من عام ١٩١٠-١٩١٤م.. وفى الخرطوم أصدر أول مجلة قبطية فى السودان وصدر العدد الأول منها فى ١١ سبتمبر ١٩١٢م.. وكان يوم أربعاء، وبدأ النهضة فى السودان وكان قلمه قلماً عفاً نظيفاً، ولكنه كان حاراً مثل شدة الحر فى السودان، ولم تحتمل الخرطوم قوة هذا الرجل، وإنتهى به الأمر إلى حكم بمغادرة السودان فى ساعات محددة، وكان السبب إنه وقف ضد

الحاكم العام الإنجليزى فى قضية داخل أسرة قبطية ، ورفض الأب تدخل الحاكم العام لأن هذا هو إختصاص الكاهن..

ولكن كيف يعترض أحد على الحاكم العام ؟ ولو كانت لدى الحاكم معرفة بالمستقبل لقبّل يد القمص سرجيوس وقدم له التسهيلات والحوافز لكى يظل بالخرطوم، لأنه ما أن ذهب إلى مصر إلا وبدأ حربه ضد الإنجليز فى كل موقع، وإحتل هو نفسه موقعاً عظيماً فى قلوب الناس مسلمين ومسيحيين، وكان أول من خطب ضد الإنجليز فى الأزهر الشريف، وكان أيضا أول من شجع رجال الأزهر على مخاطبة الأقباط فى الكنيسة، وعلى يد هذا القمص نهضت بلاد وادى النيل ضد الإستعمار..

وقاد القمص سرجيوس ثورة ١٩١٩م والتى إنتصرت وحولت الأنظار إلى حب الوطن وإلى رفض الإستعمار بكل صنوفه، وقد كان له طول باع فى الخطابة خطيباً، وفى الكتابة أديباً ، وفى الصحافة ألمعياً..

السودان كما رآيناه: وفى العدد الثالث من السنة الأولى من مجلة المنارة المرقسية الصادر فى ٢٥ سبتمبر ١٩١٢م كتب القمص سرجيوس فى القسم الأدبى مقالا عنوانه» السودان كما رآيناه « ، ويبدأ حديثه بأن الكتابة فى هذا الموضوع شبيهة بالبلاد التى يكتب عنها والتى هى لا أول لها ولا آخر مترامية الأطراف، واسعة الأكناف، يحار الكاتب الخبير من أين يبدأ، وعن أى شىء يكتب ؟ أعن تاريخه قديماً وحديثاً ؟ أم عن شعبه وسكانه وما يتبعهم من قبائل مختلفة وأمم متباينة وعادات غريبة أم عن حكومته ؟..

عموماً فإن المدة التى قضيناها على قصر مداها كشفت لنا حقائق لذيذة ومفيدة نسردها هنا، وقال القمص سرجيوس: إنه قد زار السودان لأول مرة فى فبراير ١٩١٠م وكان الرسم الذى رسم عنه فى مخيلته منذ الصغر غير حسن ، والحقيقة إن هذا الرأى كان عند أغلب أهل مصر فقد كانوا يظنون إن السودان غابة كبيرة يقفز فيها القرود على أشجار ضخمة، وتتعدد فيها الحيوانات المتوحشة وغير المتوحشة ، وهذا هو عين السبب الذى جعل الراهب المرشح للسودان ليكون أسقفاً عليه سنة ١٨٩٨م يهرب خائفاً مذعوراً ، ولم يعتذر عن الرسامة، ولكنه فرّ هارباً خائفاً، وما كان من البابا كيرلس الخامس إلا أن أمر تلميذه أن يحضر له أى راهب صائم يقابله، وقابل التلميذ الأب يوحنا السريانى رئيس دير السريان والذى حضر

سريعاً ليمثل أمام الرئاسة، ووافق أن يرسم أسقفاً للسودان ، وصار هو أول أسقف بعد الفتح المصرى الإنجليزى وسمىّ الأنبا صرابامون..

وقد حاول القمص سرجيوس أن يقول: إن السودان أجمل مما فى مخيلته ، ومما فى مخيلة كثيرين، فلقد بدأت فكرته تتغير عندما وصل إلى حلفا ويأخذ تصوره للسودان لوناً بديعاً عندما وصل إلى الخرطوم والتى فيها كما قال دلائل المدينة ومبادىء التقدم المبنى على أساسات متينة قد لعبت دوراً مهماً فى بلاد فتحت حديثاً، لم تلعبه فى أقطار مرت على مدنيتها ألوف من السنين..

ولما كانت مأموريته دينية صرفة لم يتمكن من البحث والتحرى، ولكنه بعد أن صار خادماً لله وسط أقباط الخرطوم بدأ يشيد برجال الخدمة المدنية والذين يتم إختيارهم أحسن إختيار.. وتحدث عن رقى الخرطوم وإن هذا الرقى ليس قاصراً على الرجال فقط ولكن على المرأة السودانية وهى من الطراز الحديث، ولها شأن يذكر فى عمران هذه المدينة الجديدة، وقال: إنك إذا زرت بيتاً أو عقدت إجتماعاً فى كنيسة أو جمعية إلتف حولك نخبة من الجنسين اللطيف والنشيط بما يسر فؤادك ويقر عينيك..

وإذا أفضت فى حديث خصوصى أو ألقيت خطاباً عمومياً وجدت قوماً يسمعون ويفهمون وينصتون ويتأثرون ويحبذون أو ينتقدون تحبيذاً صحيحاً ونقداً مقبولا معقولا.. ناهيك عن أسباب الآلفة والإتحاد ودلائل المحبة التى أوجبها التهذيب الصحيح ودعت إليها عوامل الإغتراب، والتى جعلت كل غريب للغريب نسيب.. ويقول الأب والذى ترجع كتابته إلى عام ١٩١٢م إن الخرطوم جمعت عينات معظم البشر الموجودين على ظهر الكرة الأرضية، بل إن الخرطوم إمتازت عن القاهرة بأن النماذج الموجودة فيها من الصنف الجيد لا يتدرج فى سلكها ذوو العاهات والمتشردون والسارقون لأن الحكومة تدقق كثيراً فى الذين يفدون إلى هذه البلاد..

وبعد هذا تحدث الأب عن قوانين ولوائح السودان مشيداً بمجهود مستر بونهام كارتر، والذى كان مسئولا عن القضاء وقال: إن قوانين السودان تتناسب جداً مع أهل السودان، وقال الأب: لو كانت لديه فرصة لعقد مقارنة عن إزدياد الجنايات فى أرض فرعون وندرتها فى أرض حام.. ووعد بأنه رأى فى السودان أموراً يحلو ذكرها ويُسر نشرها، وسوف يأتى على سردها عند سنوح الفرصة لذلك..

٦١. الصحافة في السودان زمان

حتى ١٩١٢: هذا المقال كتبه رئيس تحرير المنارة المرقسية وهى جريدة سودانية بدأ ظهورها فى سبتمبر ١٩١٢م وقد أراد رئيس التحرير أن يسجل تاريخ الصحافة فى السودان بعد الفتح.. وعندما كتب كثيرون عن الصحافة فى السودان تجاهلوا أمر هذه الجريدة الغرّاء التى كانت توزع على كل المواطنين، وكان لها دورها الكبير فى إرساء قواعد الوحدة الوطنية ورغم إن رئيس التحرير رجل دين فى الكنيسة القبطية ولكنه كتب تحت عنوان « العيدان العظيمان» يقول: إن الخرطوم إحتفلت بعيد النيروز أول السنة القبطية يوم الأربعاء ١١ سبتمبر ١٩١٢، وفى يوم الخميس ١٢ سبتمبر إحتفلت بعيد سعيد آخر هو عيد الفطر الميمون والذى إحتفلت به الدولة تحت رئاسة نائب الحاكم العام..

وشارك المسلمون فى إحتفال النيروز القبطى ، وشارك الأقباط فى إحتفال عيد الفطر المبارك، وهذا يعنى بحسب رأى رئيس التحرير تبادل المودة الطبيعية بين الأخين، والتى لا تستطيع الزوابع الوقتية أن تفصمهما، وكان المختلفون يقابلون زائريهم أينما كانوا وعلائم البِشر والسرور تطفح على وجوههم..

الصحف السودانية: وتحدث الأب عن الصحافة قائلا: إن الصحافة فى السودان حديثة العهد مثل غيرها من وسائل العمران التى أدخلت إلى هذه البلاد بعد الفتح الآخير، وهى مثل كل وسيلة عمرانية أصبحت من ضروريات الحياة ومستلزمات التقدم..

إن أول جريدة طبعت فى السودان هى « الغازيتة السودانية « أصدرتها الحكومة سنة ١٨٩٨م وهى بصفتها الرسمية تحتوى على ما تحدثه الحكومة من قوانين ولوائح ومنشورات وأوامر وتعليمات وغيرها..

" السودان" هى الجريدة السياسية الأولى وقد صدرت ١٩٠٣م لحضرات أصحاب جريدة المقطم بمصر ، وهى تصدر مرتين فى الأسبوع باللغتين العربية والإنجليزية..

" جريدة الخرطوم" صدرت فى سنة ١٩٠٩م وهى جريدة سياسية أسبوعية رأس تحريرها المواطن القبطى أسعد أفندى يسىّ ولم تطل مدتها..

فى عام ١٩١١م أصدر صاحبا مطبعة ومكتبة فيكتوريا بالخرطوم وهما يونانيان جريدة أسبوعية سياسية إسمها" السودان هيرالد" تكتب باللغتين

الإنكليزية واليونانية معاً ، ومازالت تنشر حتى الآن، والآن هنا ١٩١٢..

صدرت بعد هذا جريدة " رائد السودان" وقد أيدها الأب سرجيوس وقال: إن البلاد فى إحتياج إليها ، ويتحدث الأب سرجيوس فى نفس المقال عن : إن وسائل العمران أدخلت إلى السودان وإن حكومة السودان لم تترك من مخترعات المتمدنين إلا وأحدثته حتى إنك إذا سافرت فى أنحاء السودان يُخيل إليك إنك مسافر فى أهم البلاد المتمدنة، ليس من حيث السكان، ولكن فيما يختص بطرق الراحة والتسهيل، حتى إن السائح أصبح يخف إلى السودان فى زمن الشتاء وهو مطمئن البال على راحته وصحته.. والذى يخطر فى عاصمة السودان نهاراً يرى الأوتومبيل ينساب فى شوارعها كالأفعوان، وأرتال الترام تخترق أكثر أنحاءها وتربطها بالمدينتين المجاورتين لها، ويقصد هنا بحرى وأم درمان، هذا عدا عدد وافر من العاجلات والدراجات الحديثة الطراز، أما بالليل فيرى السائر فى شوارع الخرطوم إنها قد طرزت بطراز معلم هو نور الكهرباء الجميل يتلآلأ من فوق أعمدة عالية فيحول الظلام الدامس ضياء يكاد يزرى بضياء البدر ليلة ثمة أى عند إكتماله..

وهذا هو بعض ما وصل إليه السودان من الرقى المادى وحرى بالرقى الأدبى أن يسير معه جنباً إلى جنب، وهذا من الاسباب التى حدت بنا إلى القيام بعمل كبير كثر الصعوبات كهذا ويقصد هنا إصدار مجلة الكرازة، ويستمر القمص قائلا: إن السودان على حداثة عهده بالمدنية يضم بين لابتيه جماعة من أولى الفضل والأدب من الذين وفدوا عليه من القطرين المصرى والسورى بداعى الحاجة إلى الشغل، هذه الفئة الراقية على قلة عددها.. والكرام قليل عددهم.. تميل إلى الوقوف على ما يدور فى البلاد من عوامل المدنية والوسائل المتخذة لإستحداث نهضة أدبية متينة الأركان محبوكة الأطراف وهم مع مطالعتهم لمعظم المجلات العلمية التى تصدر فى العالم المتمدن لاشك إنه يلذ مطالعة مجلة تنشر بين ظهرانيهم تكون سهلة التناول ولو لم تبلغ شأن هاتيك المجلات وهذا سبب يضم إلى سابقه..

وبعد هذا يقول رئيس تحرير المنارة المرقسية : إنه يرحب بأقلام الكتاب والأدباء ويسألهم أن يأخذوا بناصره، ويشدوا من أزره حتى يصل إلى ضالته المنشودة وهى إحداث ثورة علمية بين ناشئة البلاد حتى إذا ما شبّوا عن طوقهم وإستنارت إذهانهم

بنور المبادىء العلمية التى يتلقونها فى المدارس وجدوا أمامهم مجلة تسجل لهم ما وسع هذا القلم العاجز – يقصد قلمه هو – من علم وأدب والله ولينا وهو نعم النصير..

وقد نجحت فعلا مجلة المنارة فى هذا ويشهد كثيرون هذه الشهادة، لقد حدثت ثورة فكرية، وثورة سياسية ، ويعد القمص مفجراً لثورة ١٩١٩م ، ويعد دافعاً قوياً ومؤازرة لثورة ١٩٢٤م بالسودان ، فهو الذى بدأ قوياً وإستمر ثائراً..

٦٢. الصحافة السودانية والوحدة الوطنية

فى بيت الزومة: بمناسبة المولد النبوى الشريف تشرفت بالذهاب لزيارة بعض المراكز الصوفية بالسودان ، وأنا أحب الصوفية لأن الصوفيون يحبون المحبة ويعشقون السلام، وهذا أجمل ما أتمناه.. وذهبت إلى مجمع الزومة فى حى جبرة وإستقبلنى بروفسور إبراهيم عثمان الزومة إستقبالا حاراً وشعرت إنه فى مناسبة سعيدة ، وأسعده حضورى المفاجىء، فلقد رزق بإبن ذكر وكان سعيد به جداً وطلب منى صالح الدعوات له..

ولكن ما أسعدنى أنا أكثر جداً ترحيب زوجته المحترمة السيدة ناهد حمزة محمد صالح والتى قالت: إنها تحب مقالاتى وتساند محبتى للصحافة السودانية، ورغم آلام الولادة فإن محبتها جعلتها فى قمة النشاط، وكان الحديث الجميل عن المحبة الأصيلة التى تجمع أهل السودان معاً.. وأهدتنى الأستاذة مؤلفات لها وهى تعد أول إمرأة سودانية تحصل على الماجستير فى الإعلام، وعلى الدكتوراة أيضا.. وقد حظيت بجائزة مصطفى أمين لأوائل طلاب كليات الإعلام بالوطن العربي..

والدكتورة ناهد إمرأة سودانية بكل ما تعنى الكلمة من محبة وطيبة وجرأة وإتساع أفق وتطلع.. وسوف نسعد كثيراً عندما يرى كتابها يوميات صحفية فى السودان نور طباعته والذى سوف يكون ثرياً وثراً ومفيداً وجديداً، وأهدتنى مؤلفاتها والتى يتألق بينها كتاب « دور الصحافة السودانية فى تكوين الإطار الفكرى للوحدة الوطنية»..

وهو كتاب عميق يحمل فكراً عميقاً يؤيد الوحدة الوطنية الموجودة فعلاً فى بلادنا والتى هى شجرة خير نرويها نحن بإهتمامنا ومحبتنا ، وينبغى أن نحافظ عليها لأن

الله هو الذى وحدنا فيه، والله هو الذى جمعنا بتعدد أدياننا تحت ظل السودان الوطن العظيم ، وما جمعه الله لا يفرقه إنسان..

وترى ناهد: إن الوحدة الوطنية هى الرقم الصعب فى أى معادلة سياسية وهى المحك للنجاح أو الإخفاق الذى يمر بالبلاد والصحافة لها مجهودها المهم فى إنجاح الوحدة الوطنية، ولقد قال الأزهرى: أنا أشعر بأن رجال الصحافة زملاء لنا فى الجهاد والوطنية، ولكنها ترى أن تأخر النمو الإقتصادى والإجتماعى والحضارى كان سبباً فى تأخر الإنصهار القومى والشعور بالغبن ظلماً لدى المواطن وعلى الأخص فى المناطق الأقل تطوراً والتى ندفع اليوم الثمن لأننا تركنا مناطق مهمشة.. وشعب يحيا على هامش المجتمع وركزنا فقط فى العاصمة وجعلناها جاذبة حتى صار ثلث عدد السكان يقيم فى ولاية الخرطوم بحثاً عن التقدم المنشود والذى لا يسعد به كثيراً بسبب تردى الخدمات وغياب الكهرباء رغم ما يدفع فيها من ثمن كثير من خلال أجهزة حساسة تحسب على المواطن ، حتى سمّاها الجمرة الخبيثة..

وأيضا غياب الماء والعاصمة المثلثة تقع على أعذب أنهار العالم ماء، وهو النيل الأزرق وأكثر أنهار العالم ماء وهو النيل الأبيض، وتحاول الصحافة أن تؤدى واجبها للتشجيع على وجود أكبر قدر من الوحدة الوطنية لأنه فى غياب جد أدنى من الوحدة تصبح كل القيم الإنسانية الآخرى فى المجتمع أمراً مستحيلا وتصبح الحرية والعدل عندئذ لا معنى لها، وتصبح الحياة غير آمنة ورسالة الصحافة هى رسالة الوسيط فى الوصول إلى السلام ونبذ الخصام وتحقيق الوحدة الوطنية..

والحق يقال: إن صحفنا السودانية كلها عن بكرة أبيها تهتم بالوحدة الوطنية إهتماماً كبيراً، وقد لاحظت مثلا إن أحد كتاب الأعمدة طالب الحكومة بأن يكون سبعة يناير إجازة رسمية لأنه عيد الميلاد عند الأقباط.. وعندما تحدثت عن أن الأقباط خلال عصر الإنقاذ لم يأخذوا أماكنهم المناسبة فى الخدمة المدنية مستشارون للرئيس، ووزراء، ومعتمدون وقف معى كثيرين وناقشوا القضية وقالوا: إنها قضية منسية ولكنها عادلة ، وطالبوا الدولة أن تعطى إهتماماً لهذا..

وأعلن الدكتور الصادق فقيه المستشار الإعلامى السابق للرئيس تحت عنوان» إستثناءات العدالة إستوصوا بالقبط خيراً«.. وقال الصحفى اللطيف لطيف: إن الأقباط يحاولون الحصول على حقوقهم بالمعلقة والسكين وهذا طبعاً لأننا لا نحمل السلاح

ولن نحمل السلاح.. وإذا كانت الدولة حتى الآن لم تقدم حلا، ولكن الصحافة إهتمت بأمر الأقباط تأكيداً للوحدة الوطنية ولأن الأقباط قبيلة سودانية إهتمت بالواجبات قبل الحقوق..

٦٣. العُمارة في العصر المسيحي

العصر المسيحى: كتب صلاح الصادق عالم الآثار المتألق والذى يخرج إلينا من كنوز آثاره جدداً وعتقاء عن الحضارات السودانية القديمة.. وفى كلام مختصر تحدث عن العصر المسيحى من ٥٤٠-١٥٠٤ م، ورغم أن المسيحية لم تبدأ تماماً عام ٥٤٠م إنما قبل هذا بكثير منذ عام ٣٤م عندما آمن وزير الملكة كنداكة ونال المعمودية.. ورغم أن المسيحية أيضا لم تنته عند عام ١٥٠٤م بل إستمرت، لقد إختصرت وأختذلت أمام قوة الفونج، ولكنها كانت قائمة حتى أن الأنسة لويز بوتشر كتبت فى كتابها قصة الكنيسة المصرية : إن محمد على عندما فتح السودان فى القرن التاسع عشر كان فى السودان أسقف قبطى وثمانية كنائس، كما يقول القس منسى يوحنا فى كتابه « تاريخ الكنيسة القبطية» صفحة ٤٩٨ إنه كان بالنوبة سبعة عشر أبروشية أيام كان أهلها يدينون بالمسيحية ، فلما خضعت لمصر بعد الفتح العربى سقطت حكومتها المسيحية وأبدلت بحكومة إسلامية ..

ولما تم محمد على باشا فتحها سنة ١٨٢٠م كان لا يزال بها ألوف من الأقباط وعاد الذين تظاهروا بإنكار الديانة المسيحية إلى الإعتراف بها وطلبوا أن يرسم لهم أساقفة فرسم البابا بطرس أسقفين على التعاقب وأرسلهما مع فئة من الرعاة برضاء الهيئة الحاكمة..وهذا يعنى إن المسيحية فى السودان عاشت فى عدم إنقطاع تاريخى لمدة تبدأ من القرن الأول حتى الآن، وقد إنتعشت كنائس النوبة فى زمن ما وهى على غرار الكنائس القبطية.. وبعدها إنتعشت الكنائس القبطية وعندما بدأ تكوين الخرطوم عاصمة للسودان على يد محمد على وساعده فى الإختيار السفير الإنجليزى والسفير الفرنسى قرر محمد على أن يقيم كنيسة قبطية للأقباط ولكنهم إعتذروا وبنوا بعد هذا كنيستهم على نفقتهم الخاصة..

فن العُمارة: ويذكر الصادق إنه من المخلفات الملموسة للحضارة النوبية المسيحية ما عثر عليه من كنائس عديدة منها آثار ستون كنيسة مبعثرة ما بين الحدود

المصرية فى فرس إلى جبل « سقدى» بالقرب من سنار عاصمة الفونج جنوباً، وجبل « موية» موطن الفونج الأول حيث إكتشفت آثار بناية من المحتمل إنها كانت كنيسة، والكنائس التى وجدت كانت من الحجم الصغير على الطراز البازليكى ، ويرى صلاح إن هذه الكلمة لاتينية وتعنى القاعة المستطيلة ذات الأعمدة فى البناء الرومانى.. ويرى القمص تادرس ملطى إن كلمة بازليكى تعنى ملوكى، وإن هذا كان مبنى ساحات القضاء والكنيسة ساحة العدل.. وملوكى بمعنى إنه مبنى الملوك والكنيسة بيت ملك الملوك، وقد كانت بعض الكنائس القبطية تبنى على الطقس البازيليكى بإعتبارها سفينة تمخر عباب بحر العالم نحو الأبدية..

ويرى صلاح عمر: إن كنيسة فرس بنيت على غرار الطقس البازليكى، وقد بنيت كنيسة الشهيدين بالعمارات سنة ١٩٦٨م على غرار كنيسة فرس النوبية، وقد قام نيافة الأنبا دانيال بتغيير شكل منارة واحدة ، وإقترحت على كنيستى أن تبقى المنارة الثانية وهى صورة طبق الأصل من كنيسة فرس، وفى كنيسة فرس وهى مستطيلة الشكل مثل السفينة بها ممرات من الجهة الشمالية والجنوبية تفصلها عن صحن الكنيسة سلسلة من الأعمدة، وعند طرف الكنيسة الشرقى نجد من الداخل المذبح وهو خلف حامل الأيقونات، وقد بنيت كنيسة فرس نحو الشرق مثلما تبنى كل الكنائس القبطية نحو الشرق فى إنتظار المجىء الثانى للسيد المسيح من المشارق..

وفى كنيسة فرس منبر ويسمى بالقبطية « الإمبل» ويقع بالقرب من آخر عمود فى الناحية الشرقية من الممر الشمالى، وهكذا منبر كاتدرائية السيدة العذراء ، ومنبر كنيسة الشهيدين.. ويقول الصادق: إن هذه الكنائس بنيت بالطوب اللبن بينما نعلم أن كنائس سوبا كانت مبنية بالطوب الأحمر، وعند تأسيس مدينة الخرطوم إستخدم الناس طوب سوبا لبناء بيوتهم وساعدتهم الحكومة على ذلك، ومبانى الطوب اللبن تصلح فى المناطق غير الممطرة، ولكن هناك فى النوبة كانت عدة كنائس مبنية بالحجر أو بالطوب الأحمر..

وتدلنا الكنيسة الصغيرة القائمة فى عبد القادر على تصميم أكثر دقة إلى حد تلك الزيادات التى أضيفت للبناء الأساسى سلالم المبنى من الجهة الشمالية والجنوبية ، وتلاحظ الصادق إن معظم الكنائس فى قرى بسيطة متواضعة لم تكن تدل على مهارة

معمارية عكس الكنائس التى وجدت فى المدن مثل فرس ودنقلا العجوز وسوبا.. وأرجو أن أقدم المعنى اللاهوتى للمنبر فى الكنيسة، فهو يقف على ثلاثة عشر عمود، والثالث عشر أسود اللون رمزاً ليهوذا صاحب الخيانة السوداء، والإثنى عشر رمز لتلاميذ السيد المسيح.. كما أن السلالم لكرسى الأسقف أو لدخول الكنيسة رمز إلى الجهاد والإرتفاع درجة درجة حتى يصل الأسقف إلى مكانه أو يدخل المصلى إلى كنيسته ، والإرتفاع هنا يرمز لتسامى الروح ونموها فى الفضيلة..

أما عن الزخرفة فإن كتاب « الحضارات السودانية القديمة» يرى أن زخرفة هذه الكنائس مقصورة على الرسوم والنقوش، وأن الجدران الداخلية تغطيها مشاهد دينية مرسومة، ولكن لم تبق هذه الرسوم، كانت الرسوم تزين حجاب الهيكل فى مواجهة الناس وتشتمل على صور الإثنى عشر من فوق والسيد المسيح على اليمين والعذراء على الشمال والجنوب.. وقد وجد فى كنيسة فرس وعبد القادر لوحات جميلة أكتشفت حديثاً. وملابس الأسقف نفسها هى نفس ملابس الأسقف فى الكنيسة القبطية، من عصا الرعاية، والحية النحاسية، غير أن ما يعلق على ملابس الكهنوت من أجراس ليس له أصل فى الكنيسة القبطية، ولكنه معتمد فى الكنيسة النوبية، والآن فى الكنيسة الأثيوبية حتى الآن بإعتبار تنبيه الناس للعبادة ومخافة الرب، وهذا جرس إنذار للغافلين وغير الساهرين روحياً..

٦٤ـ المرأة في الصحافة السودانية

مساهمة خجول: المرأة السودانية إمرأة خجول.. وهى دوماً حيية وهذا الحياء عندها يعد نوعاً من أنواع الجمال، والمرأة السودانية تعتز بنفسها، وتمشى فى هدوء جميل، وترى دكتورة ناهد حمزة إن مساهمة المرأة العربية مساهمة خجول وهى تمشى الهوينى فى دروب السياسة والإقتصاد حيث إن مشاركة المرأة العربية فى الإقتصاديات الوطنية لا تتعدى ٢٩٪ مع وجود عدد كثير من النساء عاطلات عن العمل، وسجل أعلى تمثيل برلمانى للمرأة فى سوريا إذ بلغ ١٢٪..

وهناك دراسات كشفت الإنجازات التى أحرزتها المرأة على أرض الواقع، صحيح أن الوضع قد تحسن ولكن هناك فجوات كثيرة تقف عائقاً أمام الإرتقاء ودرجاته، ولوحظ التحسن فى مجالات التعليم والصحة حيث شهد معدل الوفيات عند المرأة

إنخفاضاً شديداً خلال الفترة من ١٩٩٩-٢٠٠٠م، فى عدد من الدول العربية على رأسها لبنان، لكنه إرتفع فى عدد من الدول الأخرى مثل العراق واليمن ، وعلى الصعيد التربوى تبدو المرأة مالكة لزمام الأمور مع إرتفاع الإلمام بالقراءة والكتابة من ٣٥٪ إلى ٥و٤٧٪» لدى النساء البالغات إلا أن عدد النساء الأميات مازال يبلغ ٤٤ مليوناً..

وترى دكتورة ناهد إنه من الظواهر اللافتة للنظر ظاهرة عدم التوازن بين عدد قوى العمل النسائى وبين نسبة تمثيلها فى المواقع القيادية ومراكز صناعة القرار، رغم الإنجازات التى حققتها المرأة العربية فى بلاد السودان ومصر ولبنان والمغرب والجزائر وتونس وسوريا وفلسطين والأردن والبحرين.. وقد حصلت المرأة الكويتية على حقوقها السياسية منذ [illegible] ـريب فى عام ٢٠٠٥م وهذا يفتح الباب لتغيرات إجتماعية وسياسية مهمة فى منطقة الخليج ذات التقاليد المحافظة..

وتورد بروفسور ناهد الأمثلة وتقول: إن نقابة الصحفيين المصريين التى تشكل أقدم وأكبر نقابة عربية للصحفيين بأعضائها الخمسة آلاف والتى تتشرف بعضوية قداسة البابا شنودة الثالث، والذى يفتخر بأنه عضو نقابة الصحفيين والذى قدم العديد من المحاضرات من بينها» المسيحية فى القرآن».. «والمسيحية وإسرائيل».. وقدم آراء قوية ذات وزن كبير..

فى نقابة الصحفيين ٣٢٪ من الصحفيات، ولكن هذه النسبة المميزة لم تستطع إيصال صحفية واحدة لمجلس النقابة الحالى أو السابق أو الأسبق فى حين شهدت الخمسينات من القرن الماضى إقتحام المرأة لهذه النقابة، وتتساءل ناهد : هل نحن نتقدم أم نتأخر ؟.. ماذا جرى ؟ لماذا تراجعت مكانة المرأة فى قيادة العمل النقابى وصناعة القرار وهذا ليس فى نقابة الصحفيين فقط ، إنما أيضا المحامين والمعلمين والأطباء والمهندسين، حيث لا عضوات فى مجالس إدارتها بينما هن بمئات الآلاف فى سجلات العضوية الكاملة ؟..

ماذا جرى فأدى إلى هبوط عضوية المرأة بصفة عامة فى تسعة عشر نقابة مهنية مصرية وكيف يقارن هذا بمكانة المرأة فى الإعلام المصرى حيث ترأس المرأة الإذاعة والتلفزيون ، وترأس المرأة عدة شبكات إذاعية وقنوات تلفزيونية؟..

المرأة والصحافة: ولقد كتبت الدكتورة ناهد حمزة محمد صالح نائب مدير مجمّع الزومة، والمدير هو زوجها بروفسور الزومة كتاباً عنوانه « المرأة والصحافة والإتصال « وهو بحث قيم فى هذا المجال يطالب بحرية التعبير ويعتمد قوة التغيير ويطالب المرأة الخجول أن تكون إمرأة جسور مدافعة عن حقوقها، فلقد وصلت المرأة عندنا فى السودان إلى عرش الملك سواء كانت مستشارة هادئة حنون بجوار الملك القوى الصلب أو سواء كانت هى نفسها ملكة كنداكة مثل كنداكة سفر أعمال الرسل الإصحاح الثامن والتى كان وزيرها هو أول سودانى يؤمن بالمسيحية سنة ٣٤م..

وتطالب أن يكون هناك إلتزاماً بالقيم الإعلامية والتى يأتى على قمتها القيم التى تربط بالجانب الروحى نقاء للضمير وشفافية للسريرة وصلاحاً للسيرة ونية طيبة وطول آناة وصبر طويل.. ودكتورة ناهد تتبنى نظام تحرير الأخبار، وهذا لا يعنى عدم المراجعة حتى لا تكون الحرية فوضى وهجوم على الآخر.. وهى ترى أن القيم الإعلامية عبارة عن مزيج من القيم الأخلاقية والتى هى قيم دينية وجمالية وسياسية وإجتماعية وإقتصادية وقيم نظرية ترتبط بالإيديولوجيات..

وعن القارىء والمستمع الأفريقى تقول ناهد: إن النتائج الدراسية أثبتت أن ٨٣٪ من الأفارقة يستمعون لإذاعات عالمية ، ٣١٪ يضعون الإذاعة فى المرتبة الأولى بين وسائل الإعلام ، ٣٣٪ منهم تكونت معلوماتهم الثقافية عن الدول الأفريقية بفضل الإذاعات العالمية.. وأعتقد أن هناك أمور أخرى تستحق الدراسة، فلقد صرنا نهتم بالقنوات الأجنبية مع إتساع الإتصالات ، وتغّربنا عن وسائل الإعلام فى بلادنا، وعلاج هذا لا يكون بإغلاق القنوات الأخرى، لأن الهواء ليس ملكاً لرقابة الحكومة، إنما هو ملك مشاع لكل البشر..

إنما يأتى الحل بتجويد إعلامنا، ما نكتب ، وما نشاهد، وما نسمع، وتجنب العثرات والإنغلاق عندما نغلق أنفسنا على دين دون غيره رغم إننا وطن متعدد الأديان والثقافات.. التحية لإبنتى الأستاذة ناهد والتى سوف تقدم للإعلام أبحاثاً بعد أن يكبر الطفل فى يديها، وتكبر القيم والأواصر المتينة حباً وتعاطفاً..

٦٥. القمص سرجيوس والإستعمار

الحركة الوطنية: عندما نؤرخ للحركة الوطنية فى السودان لا يمكن أن ننسى هذا الرقم الكبير وهو الأب القمص سرجيوس مرقس والذى عاش فى الخرطوم فى أول أيام حياته وكان يخدم فى كاتدرائية العذراء المطلة على نهر النيل، ومن الخرطوم بدأ مجلته « المنارة» منطلقاً فى خطى الإصلاح منادياً بالتضامن والتآخى، ولم يعجب الإستعمار بلهجته وعلى الأخص إنه كان يطالب بالإستقلال وغضب عليه الحاكم العام وأمر بعودته إلى مصر فى أربع وعشرين ساعة، وكانت آخر كلماته للمدير الإنجليزى هى: إننى سواء كنت فى السودان أو فى مصر- فى بلادى، ولن أكف على النضال وإثارة الشعب إلى أن تتحرر بلادى من وجودكم..

لقد عاش القمص فى الخرطوم من سنة ١٩١٠-١٩١٥ ، وعندما عاد إلى الخرطوم برز نجمه فى سماء السياسة المصرية حتى سمى « خطيب ثورة ١٩١٩م».. على أن من يؤرخ للصحافة المصرية أيضا ينبغى أن يذكر مجلة المنارة وهى الآن موجودة فى « دار الوثائق السودانية» ومنها على الأخص السنة الأولى والثانية اللتان صدرا فى الخرطوم، وقد أهديت مجلدها لدار الوثائق وكانت مجلته تصدر أسبوعياً ووجد فيها أدباء ذلك الزمان مكاناً ليكتبون وساحة ليجاهدون، كتب الأدباء مسلمون ومسيحيون حول التآخى، وكتب سعد ميخائيل صاحب كتاب « شعراء السودان» عدة قصائد فى مجلة المنارة لأنه فى كتابه نسى نفسه ولم يكتب سوى خمس أبيات..

وكان ذهاب سرجيوس إلى مصر شقاء كبيراً للمستعمر فقد كان وطنياً مخلصاً، حراً جسوراً.. كان يخطب فى الشوارع والميادين ويخطب أيضا من نوافذ القطارات أثناء سفره وعلى الأخص عندما سافر إلى المنفى ليظل فيه مع الشيخ القاياتى ثمانون يوماً فى رفح بسيناء، ولم ينسه المصريون فلقد كتبوا عنه بإيفاضة عندما إحتفلوا بمناسبة ذكرى مرور خمسون عاماً على ثورة ١٩١٩م، فى مجلة المصور عدد ١٩٦٩/٣/٧م، وكان هو قد وصل إلى مقره الآخير عام ١٩٦٤م الخامس من سبتمبر، وإعترفت حكومة الثورة التى إعتقلته إعتقالا تحفظياً فى أول أيامها به زعيماً وطنياً، وأطلق إسمه على أحد شوارع مصر الجديدة..

وعندما ترك العالم أبت الجماهير الشعبية إلا أن تحمله على الأعناق نعشاً مسجّى فى تشييع جنازته، وكان عمره واحد وثمانون عاماً، وظل حتى آخر أنفاسه يخطب الخطب الوطنية، وفى الوقت نفسه يجول فى كنائس الصعيد سعياً نحو الإصلاح، وكان عندما يعتلى المنبر لا يقوى أحد على الإلتفات إلى غيره، وأذكر عندما كنت طفلا إنه زارنا فى سمالوط وأخذ ثلاثة ليالى وهو يعظ عن زكا العشار ذلك القصير القامة الذى قرر أن يلقى يسوع ويغير حياته، ولما كان الجمع مزدحماً حول يسوع، وكان هو قصير القامة صعد على شجرة جميز لكى يرى يسوع..

وبعد هذا صار القزم عملاقاً فى موكب التوبة وسجل التائبين، ووعظ سرجيوس عن زكا.. وأصعده فوق الجميزة، وقال له : يا زكا لن تنزل عن الجميزة فى سمالوط سوف تنزل فى مطاى وذهبنا جميعاً إلى مطاى وهناك قرر أن لا ينزله إلا فى بنى مزار وذهبنا إلى بنى مزار وهناك أنزل هذا الخطيب المفوه زكا من فوق الجميزة وتحدث عن حياته الجديدة، لقد كانت ثروته الروحية كبيرة حتى إنه يتكلم عشرة ليالى عن موضوع واحد ..

على منبر الأزهر: وكان سرجيوس على جانب كبير من فصاحة اللسان وله أسلوبه الخاص فى هذه الفصاحة إلى حد جعل سعد زغلول يسميه خطيب الثورة، وهو أول كاهن يعتلى منبر الأزهر وغيره من منابر المساجد الإسلامية، وهو الذى نادى بوحدة الهلال مع الصليب، وعندما دخل ذات مرة إلى الأزهر مع الشيخ محمود أبو العيون وإعتلى المنبر معلناً إنه مصرى أولا ومصرى ثانياً ومصرى ثالثاً وأن الوطن لا يعرف مسلماً ولا قبطياً بل مجاهدين فقط دون تمييز بين عمامة بيضاء وعمامة سوداء وقدم الدليل للمستمعين إليه بوقفته أمامهم بعمامته السوداء، وذات مرة وقف فى ميدان الأوبرا عند واجهة فندق الكونتيننتال يخطب فى الجماهير المتزاحمة وفى أثناء خطابه تقدم نحوه جندى إنجليزى شاهراً فى وجهه فهتف الجميع: حاسب ياأبونا حايموتك، وفى هدوء أجاب أبونا: ومتى كنا نخاف من الموت؟ دعوه يريق دمائى لتروى أرض وطنى التى إرتوت بدماء آلاف الشهداء، دعوه يقتلنى ليشهد العالم كيف يعتدى الإنجليز على رجال الدين.. وأمام ثباته وإستمراره فى الخطابة تراجع الجندى عن قتله..

ولقد أصدر عدداً من الكتب دفاعاً عن عقيدة كنيسته كما وجه الأنظار نحو القرآن الكريم الذى كان يحفظه غيباً وكيف إن القرآن أكرم السيد المسيح وإحترم المسيحية ولم يتهم الإنجيل بالتحريف لأنه سُنة الله وليس لسُنة الله تبديلا، لقد حوّل هذا الرجل منبر الكنيسة ومنبر الجامع إلى وسيلة وطنية مقدسة لطلب إستقلال البلاد، وأعتقد إنه لو لم يترك السودان لكان من أبطال ثورة ١٩٢٤م وأحد رجالها الأفذاذ، ولكن وربما ندم المستعمر على طرده من السودان ولكن لا يقدر أحد أن يطرده من قلوبنا أو أن يزحزح مكانته فى تاريخ كفاحنا فى سوداننا العظيم..

٦٦. الفرعون أمنحوتب وخزان سنار

أمنحوتب والماء: إشتهر الفرعون أمنحوتب والذى حكم مصر منذ أكثر من ألفى عام قبل الميلاد بأنه أول من حاول بصفة جدية ضبط الماء من أجل رى الأراضى رياً حسناً.. وتقول بعض القصص الفرعونية القديمة إنه أول من أنشأ بحيرة موريس أى إن له تاريخ مجيد فى تخزين الماء للرى، ويرجع هذا إلى القرن العشرين قبل الميلاد وحكم أمنحوتب هذا لمدة تزيد عن الخمسين عاماً وظل محفوراً فى ذاكرة مصر لمدة ألف عام بعد وفاته وهو من ملوك الأسرة الحادية عشر كما إنه أدخل نظاماً خارجاً على النظام الموروث عندما بنى معبداً للموتى بالدير البحرى ذا شرفة ومتصلا ومندمجاً فى هرمه أمامه فناء زرعت فيه أشجار الأثل والجميز..

ولقد قدس الفراعنة نهر النيل وإهتموا بالماء وحافظوا عليه وقاسوا الفيضان ، وكما تقول دكتورة نعمات أحمد فؤاد: إن النيل علم الفراعنة الدين فالمصرى يتضرع يوم الحساب فتكون وسيلته الشافعة إنه لم يقطع قناة فى ممرها، ولم يخالف نظام الرى، ولم يتلف الأراضى الزراعية ويعد نفسه سعيداً لأنه قاس الفيضان الذى يجعل مصر مخصبة بمحض الهبة الإلهية..

وتمر الأيام ويأتى إحتفال إفتتاح خزان سنار، ويحضر أمنحوتب الإحتفال فى شكل تمثال وضع على منضدة متصلة كهربائياً بفتحات الخزان، وكان هذا التمثال هو اليد التى أدارها اللورد لويد إيذاناً بإفتتاح الخزان وبعدها تدفق الماء فى ترعة الجزيرة، وفى اللحظات التى أدار فيها المندوب السامى تلك اليد وأخذ الماء يتدفق هادراً من أبواب الخزان إلى الترعة الجديدة وقف مطران السودان الأسقف جوين وإلى جانب

مفتى السودان الشيخ إسماعيل الأزهرى فوق العين التى يتدفق منها الماء وتليا عبارات التبريك، لهذا الماء الخصب المندفع إلى أراضى لم تكن تعرف الخصب، ولا الزراعة من قبل ويقول هيكل الذى حضر الإحتفال: وقف الحضور جميعاً أثناء تلاوة صلاة التدشين التى فاه بها الأسقف جوين والخطبة المباركة التى ألقاها المفتى ومنهم من يبتهل إلى الله مخلصاً أن يبارك هذا العمل الفنى المجيد، ومنهم من ينظر بعين الحذر إلى ما سيكون من نتائجه وبين ضوضاء الماء المنحدر إرتفع صوت الأب جوين والشيخ إسماعيل الأزهرى وهما واقفان على الخزان حيث الماء الهادر والريح تعبث بملابسهما الفضفاضة يتلوان الصلوات والأدعية، وأقول : إن لسان حال السودان يقول ما قاله شاعر النيل:

وقف الخلــــق ينظـــرون جميعـــاً

كيــف أبنــــى قواعد المجد وحـــدى

وبنـــاة الأهـرام فى سالــف الدهـر

كفونــى الكـــلام عنـــد التحـــدى

إن مجـدى فــى الأوليــات عريـــق

من لـــه مثل أولوياتـــى ومجـــدى

وعندما يشهد السودان إفتتاح خزان مروى سوف ترتفع الأدعية المقدسة من المسيحى والمسلم نحو الله.. وترفع كوش يديها نحو العلى القدير الذى أنعم عليها بهذا وسوف يتغنى السودان أغنية شاعر النيل :

أى شعـــب أحـق منــى بعيـــش

وارف الظــل أخضـر اللون رغد ؟

كلمات الإفتتاح: تحدث فى إفتتاح خزان سنار الحاكم العام ودعى اللورد لويد بإفتتاح المشروع قائلا: ولى الشرف أن أدعو فخامتكم إلى تكريس هذا العمل الهندسى العظيم لخير السودان وشعوبه، وعندها نهض اللورد لويد وألقى خطاباً قال فيه: إن خزان سنار كما تعلمون ليس سوى جزء من مشروع عام لأجل ترقية وتحسين

موارد النيل، وقد أثبتت المباحثات الدقيقة التى أجراها الخبراء فى الماضى : إن مياه النيل إذا أحسن صيانتها وتوزيعها بالعدل والإنصاف يجب أن تكفى وتزيد عن إحتياجات مصر والسودان الحالية والمنتظرة فى المستقبل ، ومن دواعى سرورنا الخاص أن يكون معنا سعادة الوزير إسماعيل باشا سرى أحد أبناء مصر المعروف بالنبوغ والشهرة، ولقد إشترك شخصياً فى إعداد هذا المشروع كما نتفاءل بوجود عبد الحميد باشا سليمان، وإنى واثق فى مقدرته وسعة نظره، وإنه سوف يزيل ما بقى عالقاً من سوء الإدارك للمسائل العلمية الخاصة بالمشروع..

وللسودان فى أحوال كهذه أن ينظر للمستقبل بعين الثقة والطمأنينة، وإختتم راجياً أن لا يكون هذا التحسين المتعاظم سبباً فى ضياع أو إنحطاط الأفكار والتقاليد التى هى أساس أخلاق الشعوب.. ثم وقف إسماعيل سرى باشا يحيى الحاضرين ويقول عن الخزان: إنه سوف يحيى موات جزء عظيم من أراضى السودان بالرى المستديم، والذى ما دخل أرضاً إلا وزادها إنتاجاً، وقال: إن مصر ساهمت فى خزان سنار بمهندسيها ودراساتهم فى تحضير المشروع، وقال: إن مصر يسرها أن ترى السودان فى بحبوحة من الرغد والسعة، وأن يزداد أهله رفاهية وتقدماً فى العرفان، وإن ماء النيل يكفى مصر والسودان.. وبعدها تقدم اللورد لويد لإفتتاح الخزان بيد الملك القديم الأصل أمنحوتب وسط صلوات المسيحيين وإبتهالات المسلمين وفرحة كل الحاضرين..

٦٧. صلوات على محراب النيل

خزان سنار: فى يوم الخميس ٢١ يناير ١٩٢٦م كان الإحتفال الكبير بإفتتاح خزان سنار وسط حشد كبير من أبناء شعب السودان وهم يحملون الأعلام وتم تبادل الكلمات من الحاكم العام جوفرى أرشر، واللورد لويد وإسماعيل سرى الوزير المصرى، وعلى المنصة وضعت يد على شكل تمثال أمنحوتب فرعون الذى ضبط الماء وأنشأ بحيرة موريس وأمسك اللورد لويد باليد وأدار الماء وفى نفس الوقت بدأت صلوات مفتى السودان والمطران الإنجليزى على محراب النيل وسط الماء الهادر والرياح الهادئة..

مفتى السودان: وقف فضيلة الشيخ إسماعيل الأزهرى مفتى السودان عند الماء المتدفق من عين الخزان وإبتدأ يتلو دعاء قال فيه: أنا أقف هذا الموقف لنرفع أكف الضراعة بالحمد والشكر لله الذى جلت قدرته وتعالت عظمته وإرتفع شأنه وعز سلطانه على ما أولانا من النعم الجليلة التى منها إتمام هذا البناء الشامخ ومشروع رى الجزيرة العظيم، فإن الشكر على النعم واجب وبه تزداد.. قال الله تعالى فى كتابه العزيز لئن شكرتم لأزيدنكم.. الحمد لله نحمده ونستعين به ونشكره فهو منشىء الكائنات بارىء النسمات مقدر الأقوات ، ونصلى ونسلم على رسوله الذى أتى بالهدى والبينات لإصلاح حال الناس فى الحياة الدنيا والآخرة، فقد ورد : إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، وإعمل لآخرتك كأنك تموت غداً..

أما بعد فإن الله خلق الإنسان محتاجاً إلى الطعام والشراب واللباس وهيأ له من الأمور الكونية ما يكفل له بقاءه فى هذه الحياة على أصلح الوجوه متى إستعمل فيها فكره ومواهبه التى فطره عليها، خلق السحاب والأمطار ممدة للعيون والأنهار التى بها حفظ حياته فقال فى كتابه العزيز وجعلنا من الماء كل شىء حى وخلق له الأرض مستعدة لإنبات جميع النباتات التى يحتاج إليها لنفسه وأنعامه..

ألم تر إن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الورق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء، وترى الأرض هامدة فإذا إنزل عليها الماء إهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، الذى جعل لكم الأرض مهاداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وأرعوا أنعامكم إن فى ذلك لأيات لآلىء النهى، الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم..

علم الإنسان ما لم يعلم، وأتاه الحكمة والعلم النافع، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً، فهواه إلى أنجح الطرق للإستفادة من هذه الأنهار، وستصير هذه البلاد بواسطة هذا العمل العظيم من أكبر البلاد إنتاجاً وثروة وسيصير الشعب السودانى فى رغد من العيش ونعمة ورفاهية، اللهم إجعل هذا القطر آمناً مطمئناً فى سخاء ورخاء وعدك وإشمله بعنايتك ورعايتك وأمطر عليه شابيب خيرك بفضلك وكرمك إنك سميع قريب مجيب الدعاء، ولله ذى الطول والإكرام الذى بيده الخير وهو على كل شىء قدير الثناء والشكر الخالص على هذه النعم التى لا تحصى، ونسأله جل

شأنه أن يبارك فى هذا العمل ويديم النفع به لخير البلاد والعباد- آمين..

صلوات المطران: وتلى الأب الأسقف جوين المطران الإنجليزى صلاة روحية وإبتهالا إيمانياً قال فيه:-

اللهم القادر على كل شئ الآزلى الأبدى مبدع العالم وخالقنا جميعاً، من جعلت نظاماً يسير عليه العالم أجمع وبلاد السودان أيضا، نشكرك اللهم من أجل عبيدك غوردون وإستاك، ومن أجل كل الذين عملوا فى خدمة هذه البلاد وضحوا بحياتهم فى سبيل تنفيذ خططك..

إنا نشكرك للحكمة والنباهة الذين وهبتهما إلى أولئك الذين إبتكروا فكرة تسخير مياه النهر لخدمة الإنسان، وأنا أذكر أمامك بنوع خاص عبيدك وليم جارستين وكتشنر، اللهم إننا نشكرك أيضا من أجل جميع الذين إستعلنوا لإنقاذ هذه الأعمال، ومن أجل الذى وضع رسومه ومن أجل مهندسه ومن أجل المقاولين والصناع وأصحاب الحرف من جميع الملل والنحل، ومن أجل العمال الذين حفروا الأرض ومن أجل البنائين الذين بنوا الأحجار وبالإجمال من أجل جميع الذين وهبوا قواهم البدنية وخدمتهم وعقولهم فى سبيل هذا العمل وساعدوا بإنجازه إن كان ذلك بمعرفة أو بغير معرفة..

إنا نشكرك اللهم ونحمد العناية العمدانية التى وهبتها بنوع خاص فى أشد أوقات الخطر أثناء أدوار البناء، ونحمدك فوق كل شئ من أجل الأمطار التى ترسلها على الجبال فتسبب الفيضان وتهبنا المياه التى نروى بها الأرض.. كل ما فى السماء وما فى الأرض هو لك، الملك لك ياإلهنا، بيدك القوة والجبروت، وبيدك تعظيم وتشديد الجميع، نتضرع إليك بكل خشوع أن تقبل شكرنا هذا بإسم وبواسطة ربنا يسوع المسيح الذى علمنا أن نصلى قائلين: أبانا الذى فى السموات..

وهكذا كانت صلوات المفتى وصلوات المطران، شكراً وتسبيحاً لله الذى وهبنا ذلك وسخّر لنا كل هذا، له المجد إلى الأبد..

٦٨.المعاش ورجال الدين والعلماء

أساتذة الجامعات: يعتز السودان الآن بأن لديه عديد من الجامعات التى ملأت كل الولايات، وهذا أمر لم يكن ممكناً أن يتم إلا بناء على وجود أسرة كبيرة من العلماء أساتذة الجامعات وهؤلاء العلماء يسندهم الله والذى هو بكل شئ عليم، وهم

ينشرون العلم ويقفون حياتهم على آداء هذه الرسالة المقدسة.. وهم يعيشون فى خوف الله، إنما يخشى الله من عبادة العلماء، ولكن هؤلاء العلماء يتعرضون الآن لما يسمى» المذبحة الأكاديمية» لأن قراراً صدر بأن يعفى الأستاذ الجامعى محالا إلى المعاش عندما يصل إلى عمر الستين، وهذا هو سن المعاش وطبعاً هذا قرار لم يدرس دراسة جيدة لأن لدينا كثيرون من أساتذة الجامعات فى هذا السن وهذا القرار سوف يدعوهم إلى الفرار من السودان إلى بلدان الله الواسعة التى ترحب بهم أساتذة فى جامعاتهم يثرون العلم ويوسعون دائرة المعرفة ويستفيدون بخبرتهم..

وكان من الممكن أن يبحث القرار عن بدائل حتى يكون لدينا من يحل مكانهم من جيل الشباب فى الجامعات، كأن يعملوا بالمشاهرة أو يستمروا مستشارين فى كراسى العلم، ولا أدرى كيف يحدث هذا ونحن نعلم أن حكومتنا والحمدلله تجامل كل الناس حتى إنها من الممكن أن تخلق وظائف غير موجودة حتى تتم الموازنات والترضيات، ولقد توسعت بهذا دائرة كبار الموظفين حتى صارت عبئاً على الدولة وحتى قيل لنا: إن أسعار البترول قد زادت لتغطى زيادة المنصرف على المقاعد والوظائف الجديدة والتى إستحدثت بعد إتفاقية السلام، وكأن السلام الذى كنا فى إنتظاره ليحقق الرخاء الإجتماعى صار سبباً فى الغلاء الطاحن الذى منذ أمد طويل نصلى من اجله، ولكن..

ونصلى أن يرفع الله عنا الغلاء والبلاء والجلاء وسيف الأعداء، والجلاء هنا هو الهجرة إلى خارج البلاد، والتى سوف تكون ديدن أساتذة الجامعات بعد هذا القرار غير المدروس.. ولقد إضطرت بعض الجامعات أن تستبقى عدداً من هؤلاء الأساتذة إعتماداً على موارد الجامعة الذاتية إنهاء هذه المأساة ،لأن الجامعة لا تحتمل أن يتقلص أساتذتها هكذا، وهذا ما حدث فى جامعة الجزيرة والتى كان قرارها صائباً ومحموداً ومسئولا ويستحق منا كل إشادة وتشجيع، وربما يكون هذا سبباً فى أن تتخذ الجامعات الأخرى مثل هذا القرار حفاظاً على المستوى الأكاديمى وإستفادة بخبرات هؤلاء الأساتذة الأجلاء الذين صقلتهم التجربة وتعمقوا فى المعرفة، وهذا يعنى عدم الإنحناء لهذه العاصفة وعدم الموافقة على هذه المذبحة الأكاديمية بإيجاد المخرج لها..

٦٩. النهر والرجال

الوزير المؤمن: لا أقدر أن أخفى إعجابى بالوزير قلواك دينق قرنق فهو رجل مؤمن حقاً، وكلما إلتقيت به كلما تعرفت على سمو الروح فيه، ونحن أرواحنا تئن فى أحشائنا تطلب الفرصة للنمو ، وهو من الذين أعطوا فرصة للروح.. أعجبت جداً بصلواته عندما نجتمع معاً ، وأذكر فى مؤتمر من مؤتمرات الأسرة الذى تقيمه الكنيسة الأسقفية إنه كان حاضراً معنا وطلبت منه أن يقدم كلمة بصفته وزير فى الدولة ولكنه أجاب: إنه حضر بصفة شخصية من أجل الحصول على روحانية أكثر ، قدرت فيه هذا وطلبت منه أن يتكلم بإعتباره أحد أبناء الكنيسة، وكان كلامه روحانياً لأن الروح هو الذى يشهد فى دواخلنا ولأن الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا..

وخلال هذا الأسبوع من مارس ٢٠٠٧م قدم لى الوزير المؤمن كتابه القيّم « النهر والرجال» والصادر سنة ٢٠٠٦م.. وقد قرأت الكتاب وهو عبارة عن مذكرات عن حياته وجهاده وصبره وإصراره على المسيحية وإصراره على التعليم، وربما يقصد بالعنوان إنه ورجال أسرته وكل أفرادها كانوا يعيشون على ضفاف نهر السوباط الجميل ، ذلك النهر الذى يُعد مورداً من الموارد الرئيسية لمياه نهر النيل العظيم، لقد كوّن قلواك نفسه روحياً وجسدياً وعلمياً وسط جو أقل ما يقال عنه إنه جو صعب بين الشمال والجنوب، بين العساكر والشعب، بين المدرسين والتلاميذ..

وعرفت أولا إصراره على أن يظل مسيحياً رغم إن أستاذه كان لا يرغب فى ذلك، وظل مدة شهر كامل يضربه كل يوم صباحاً فى أول الحصص ثلاث جلدات، وكانت الحصة للدين الإسلامى وكان أول من يحفظ آيات القرآن الكريم ويقوم بتلاوتها أمام الأستاذ بعدها مباشرة يجلد بثلاث جلدات قاسيات كمقدمة لجلدات أخرى أثناء النهار، كان الأستاذ ومع إحترامى له لا يفهم روح الدين الإسلامى الذى يحترم المسيحية أكبر إحترام والذى يعتبر المسيحيون أقربهم مودة والذى أبداً ما طال الإنجيل بأى إتهام تحريف بل إعتبره حكماً للمسيحى كيف يحكمونك وعندهم التوراة والإنجيل فيها حكم، وأيضا مرجعاً للمسلم إن كنت فى شك مما أنزل إليك فأسأل الذين أوتوا الكتاب من قبلك..

لقد كان أستاذ الدين الإسلامى بكل أسف لا يدرك ما هو الإسلام والذى أوصى وصية صريحة إنه « لا إكراه فى الدين»، وكان من الذين يرغبون فى الإستيلاء على الآخر وكان يرى أن قلواك خُسارة فى النصارى، ولو كان أستاذه فاهماً للإسلام لما حدث كل هذا النزاع، ولما كانت كل تلك المعاناة، ولكن قلواك دينق يخرج من هذه المعركة منتصراً ملتزماً بمسيحيته متعمقاً فيها أكثر وأكثر..

أبو الدنيا: ويبدأ قلواك كتابه برأى جميل ومميز يقول فيه: إن السودان « أبو الدنيا « وهذا لقب يستحقه السودان، وقد أعجبنى لدرجة إنى ربما آخذه عنواناً لأحد الكتب التى أكتبها ، فلقد كتبت النيل أبونا، والجنس سودانى، وأيضا أنا سودانى، وهذا التعبير الجميل مدعوم بالدليل من تاريخ الحضارة، ومن الكتاب المقدس والأدلة التى ذكرها الوزير هى : إن أقدم إنسان وجد فى السودان وإن هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى رجل لا يظلم الناس عنده، وإن هذا الرجل كان الملك السودانى الجالس على عرش سوبا، وإن السودان هو موطن كوش وأبناء كوش وهو موطن أقدم إنسان فى الآثار التاريخية وهو وطن يمتلىء بالثروات والموارد الطبيعية وهو يستحق لقب « أبو الدنيا» لأن الكثير من الممالك قامت على ثروات كوش ولا يزال السودان أمل العالم بإعتباره سلة غذاء العالم، والسودان أحب الشعوب إلى الله الكريم الذى يعطى بسخاء ولا يُعيّر، والذى أعطانا الكثير من الثروات الطبيعية..

ويقدم قلواك بعض نصوص الكتاب المقدس وعلى الأخص ما ذكر فى الإصحاح الثامن عشر من سفر أشعياء النبى والذى يرجع إلى عام ٧٤٠ قبل الميلاد، والذى يقول: ياأرض حفيف الأجنحة التى فى عبر أنهار كوش المرسلة رسلا فى البحر وفى قوارب من البردى على وجه المياه، ويقول: إن هؤلاء الرسل يحملون رسالة إلى أمة كوش والتى هى أمة طويلة وجرداء إلى شعب مخوف، أمة قوس وشدة ودوس قد خرقت الأنهار أرضها، والسودان أهله هم رماة الحدق وهذه تسمية العرب لهم بعد أن ذاقوا قوة قوس أهل كوش..

ويعتبر قلواك إن هذا دليلا يخرس من يقول: إن أهل السودان أتوا من موضع آخر، وهو يرى إنه ينبغى أن ننشر هذه الحقيقة التى تؤيد مكانتنا عند الله، ويبدأ قلواك الكتاب بلوحة فنية جميلة فيها جمع غفير من الناس عنوانها « أرفع إسم يسوع فى كوش كله» وهى ترنيمة رددها أبناء كوش عند إستقبال مبشر مسيحى

هو « بونكى» يوم ٢٠٠٠/٤/٢٤م.. والكتاب يمتلىء بالذكريات الجميلة والطريفة، وفى الختام أرجو أن أهنىء رئيس الجمهورية على عنايته بهذا الرجل العصامى المؤمن المسيحى الملتزم ووضعه على قمة وزارات عديدة، لاشك إن هذا هو ذكاء رجل محترم يرأس بلادنا ويقود الركب نحو الأمان والإطمئنان..

٧٠- أرض الطيبين

طيبوا القلب: نحن فعلا فى أرض الطيبين كما يقول عنوان المقال، وهو عنوان لكتاب كتبه الأستاذ الدكتور فتح العليم عبد الله طباعة هيئة التربية للطباعة والنشر ٢٠٠٧م، وهو مجموعة مقالات صحفية أحسن المؤلف أن جمعها، ومقالاته مقالات طيبة ذات رائحة طيبة مثل الطيب الغالى الثمن الذى سكبته المرأة الخاطئة عند قدمى السيد المسيح، وكانت تبل قدميه بدموعها وتمسحهما بشعر رأسها فإستحقت إلتفاتة المسيح إليها ودفاعه القوى عنها أمام صاحب البيت الذى إستضيف فيه يسوع، ودخلت هى متطفلة إليه..

وتحدث السيد المسيح إنه كان لمداين مديونان على الآخر خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون، وإذا لم يكن لهما ما يوفيان سامحهما جميعاً ، أيهما يكون أكثر حباً له، فقال: أظن الذى سامحه بالأكثر، وكأنه يقول للفريسى المضيف هذه المرأة حسابها ثقيل ، ديونها ضخمة، ولكنها جاءت تائبة وقدمت حباً أكثر، وإنت حسابك خفيف ولكنك لم تحسن الأمر لأن مقابلتها هى وإنسكابها جعلها أغنى منك عطاءً، والكاتب يسكب الطيب وينسكب هو نفسه يقرأ ويقرأ ويفهم ويعلّق ويتابع ويخرج العتيق بأسلوب جديد ويكتب عن الجديد بأسلوب جذاب، وكل هذا من أجل القارىء..

وأعتقد إنه ليس هناك كاتب لا ينسكب من أجل القارىء، ونحن نبحث عن الطيب ونقدم الطيب فى أرض الطيبين، والطيب كلام تعزية، طيبّوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمُل، إن إثمها قد عفى عنه، إنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطايا.. عزوا عزوا شعبى يقول إلهكم (أشعياء ٤٠).. ويحاول سليمان الحكيم أن يجعل الناس طيبين حتى يستحقوا العيش على أرض الطيبين فيقول: كل أيام الحزين شقية أما طيب القلب فوليمة دائمة (أمثال ١٥:١٥)..

فالطيب غذاء مستمر وإشباع دائم لنفسه ولمن حوله لأن نور العينين يفرح القلب والخبر الطيب يسمّن العظام، والغم فى قلب الرجل يحنيه والكلمة الطيبة تفرحه، مياه باردة لنفس عطشانة الخبر الطيب من أرض بعيدة (أمثال ٢٥:٢٥).. ومن كتب عديدة ومن إختبارات الناس حتى يحيا الطيب حياة طيبة، وترتوى النفوس وتشبع بالكلمة الطيبة، ولقد دعى موسى النبى كليم الله، كان يتكلم معه كثيراً، وأغلب كتب موسى الخمس تتكرر فيها عبارة « وكلم الرب موسى قائلا» وكان على موسى أن ينقل هذا الكلام كما أنزل لى شعبه الذى كان يستنير بكلمة الله..

أرض الطيبين: وكتاب « أرض الطيبين» يقدم عدة مقالات عن أرضنا الطيبة وعن شعبنا الطيب، وهذه المقالات تتسم بالطرافة وعذوبة الكلمات وتمتلىء المقالات المنثورة بالشعر الجميل تعبيراً مهذباً قصيراً ومعبّراً.. وهو ينتقد أوضاعاً فى المجتمع هدفاً منه إلى إصلاح المجتمع، وأسلوبه كما قال عنه بروفسور محمد عبد الله الريح هو أسلوب لا يجاريه ولا يشبهه فيه كاتب آخر.. هو مزيج من مخزون هائل من القراءة فى كتب التراث والقراءة المعاصرة، ويجد عنده القارىء مثقف لأفكاره لأنه يعبر نيابة عنه، وهو عندما يتكلم عن هموم التعليم يقول: إرجعوا بالمناهج إلى الوراء لأنه يرى مناهج اليوم خواء فى خواء، ويرى إن ضعف الطلاب اليوم ليس بسببهم إنما هو محصلة حتمية للمناهج غير المتجانسة ذات الجرعات غير المحسوبة، ويقول: إن الغريب فى الأمر إن الأجيال السابقة ذات الآداء الأكاديمى المتميز كانت سليلة أسر أمية ومع ذلك نجح هذا الجيل وتشرب قيماً نفيسة ونبيلة..

وهو مندهش الآن لأنه كلما إرتفع مستوى الأبوين أكاديمياً ووظيفياً كلما هبط مستوى الأبناء.. وصاحب « أرض الطيبين» يهتم بالشعر وعندما يكتب أذل الحرص أعناق الرجال بمعنى الذل الذى تنوء تحته الأعناق يورد شعر الشاعر:-

إذا قـــل مـــاء الوجـــه قـــل حيـــاؤه

فـــلا خيـــر فـــى وجـــه إذا قـــل مـــاؤه

حيـــاؤك فإحفظـــه عليـــك فإنمـــا

يـــدل علـــى وجـــه الكريـــم حيـــاؤه

وتتنوع المواضيع فى الكتاب من إتحاد أصحاب الصلع وذوى الفلجات الصغيرة إلى أن ٧٥٪ من الناس مرضى نفسياً الشىء بالشىء يذكر، السكرتيرة أخطر شخصية فى الدولة، ألحان المآتم، الجمال أشد النعم إبتلاء ، التخلف إلى الأمام ، الأبناء يؤدبون الآباء، إن النواة فراخها الأشجار، العود فى أرضه نوع من الحطب، وهكذا فى خمس وسبعون مقال نهايتها « منوع لأقل من ١٦ سنة» وفى ذيل كل مقال يكتب حكمة أو حكاية.. ومن بين حكم آخر العمود : العجب لمن يشترى المماليك بماله ولا يشترى الأحرار بمعروفه، عيّر شريف رجلا بأنه ليس ذا نسب عريق فقال الرجل: إن أسرتى إبتدأت بى ، وأسرتك إنتهت بك.. إن» أرض الطيبين « كتاب يستحق القراءة، وليس المعلم أقل إنتفاعاً بالعلم من المتعلم، ولا الناصح أولى بالمديح من المنصوح له، وليس من يأمر بالخير أسعد به من المطيع له..

٧١. لوطني وللتاريخ

الشريف الهندى: صدر عن مركز عبد الكريم ميرغنى الثقافى كتاب « لوطنى وللتاريخ « مذكرات الشهيد الشريف حسين الهندى ١٩٢٤-١٩٨٢م.. أعدها للطباعة والنشر محمد الأمين الشريف عمر الهندى أبو الحيران الأمين العام الخادم والحافظ الموثق لتراث آل الشريف الهندى وناشره، وقام بالتحرير والمراجعة اللغوية بروفسور إبراهيم القرشى، والطبعة الأولى سنة ٢٠٠٦م وقد وقفت أولاً عند كلمة « الشهيد» وهى صفة لا مانع من أن يوصف بها الشريف الهندى وعندما نعود إلى المعجم الوجيز الصادر عن مجمع اللغة العربية، إن كلمة شهيد تطلق على من قتل فى سبيل الله وجمعها شهداء..

أما دائرة المعارف الكتابية فتقول: إن الشهيد هو من يقتل فى سبيل ما يؤمن إنه حق لأنه يموت شاهداً للحق الذى يؤمن به ، وتطلق هذه الكلمة فى الكتاب المقدس على من بذلوا حياتهم فى سبيل إيمانهم بالرب يسوع المسيح، وكان إسطفانوس هو أول شهداء المسيحية وعندما تكلم بولس عن إسطفانوس قال: وحين سفك دم إسطفانوس شهيدك كنت أنا واقفاً وراضياً بقتله وحافظاً ثياب الذين قتلوه (أعمال الرسل ٢٢)..

وقد قال سفر الرؤيا عن أنتيباس شهيدى الأمين الذى قتل عندكم حيث الشيطان يسكن (رؤيا ٢:١٣).. ويذكر يوحنا الرائى: إنه رأى بابل العظيمة أم الزوانى ورجاسات الأرض، سكرى من دم القديسين ومن دم شهداء يسوع (رؤيا ١٧:٥،٦)، أما قول أيوب أيضا: الآن هوذا فى السموات شهيدى وشاهدى فى الأعالى (أيوب ١٦:١٩).. ففى الأصل العبرى هى شاهدى أو الشاهد علىّ، ولا أستنكر على الشريف الهندى أن يكون شهيداً ولأنه كما قال عنه عبد الرحمن مختار فى « خريف الفرح» : إنه الخطيب الأول والمناضل الأول وعدو النميرى الأول والأسطورة الخارقة التى لم تعرفها الروايات ولم تقدمها المسارح والشاشات.. خرج من السودان يوم إنقلاب نميرى وبعد خمسة عشر عاماً من الكفاح عاد فى صندوق الموت أى عام ١٩٨٤م..

وأذكر أيضا إننى حضرت برنامج محاكمات ثورة مايو لرجال الوطن، وأذكر أن المحامى محمد زين العابدين عندما تحدث عن إسماعيل الأزهرى قال: الشهيد إسماعيل الأزهرى مما أثار حفيظة المحكمة وطرق القاضى والذى لم يكن يعرف شيئاً عن القضاء ولا القانون وقال للمحامى: إننى أمنعك أن تقول شهيد.. وأنا ومن خلال محبتى للشريف الهندى ولكل رفقاء الوطن فى جيله لا أمانع أن يعطى لقب شهيد لأنه يستحق أعظم الألقاب، وقد سعدت جداً بمذكراته وأيضا سعد زملائى فى الجامعة، والذين كانوا لا يجيدون فرصة عمل بإبتكار الشريف الهندى لنبذ العطالة الذى تعينوا عليه وإن كانوا لم يجدوا كراسى للجلوس فى المكاتب، ولكنه رفع عن كاهلهم العطالة وجعلهم موظفين فى الدولة دون وظائف، وتوجهوا نحو العلم وقرأوا وذاكروا ودرسوا وصاروا بعد هذا فى خدمة الوطن العظيم..

بطولة الشريف: لقد قال « خريف الفرح» وكاتبه زميل للشريف يوسف الهندى: إنه ولد وفى فمه ملاعق عديدة لا ملعقة وحيدة من ذهب، وكان بالطبع لا يعبأ فى إجازاته أو فى حياته اليومية أن يخرج ليشترى جلباباً أو حذاء أو يكافح مثل عبد الرحمن مختار وغيره.. وإنما صبّ كل إهتماماته فى القراءة والإطلاع وعندما كان عبد الرحمن يزوره فى غرفته الخاصة يجده سابحاً فى بحور وأمواج من الكتب والمجلات والقصاصات، ولكنها لم تكن كلها فى الأدب والشعر والثقافة، ولكن معظمها وبالقفة (فى مقطف المعرفة قصصاً لأرسين لوبين وشارلوك هولمز العريقين فى حوادث الأساطير الخرافية)..

وقد تأثر الشاب الصغير بهذا فأصبح فيما بعد مغامراً ومقاتلا وشرساً، ولكنه فى نفس الوقت كان خفيف الظل..حلو المعشر.. وكان أديباً وبليغاً وخطيباً وساخراً لأبعد الحدود وما إعتلى منصة إلا وكان سيدها وفارسها وبطلها، فقد كان يعرف كيف يتصيد آذان وعيون الناس ويلعب بمشاعرهم وأحاسيسهم ويؤثر على عواطفهم تأثيراً يأخذ الألباب، وقد كانت للشريف عدة خطابات ومجموعة خطب وكان رجلا وطنياً حماسياً غيوراً على تراب أرضه، وكان يكتب كثيراً ضد مايو ويحاول أن يجعل من عيد الإستقلال فرصة للمراجعة كما كان يعتز برجال الوطن العظماء مثل: إسماعيل الأزهرى، وقد أعطاه أيضا لقب الشهيد ذلك اللقب الذى أعطى أيضا له ، رغم أنهما ماتا ميتة الله كما يقولون، وأذكر هنا بعضاً من كلماته :-

تحت عنوان « أين الإستقلال ؟» يقول: وهكذا.. مضى ربع قرن من الزمان وأطل علينا عام جديد ولابد أن نحتفل باليوبيل الفضى لذكرى إستقلال السودان، ولكن، أين الإستقلال ؟ أين الإستقلال الذى يحتفل به ويذكراه الخالدة ؟ وما هى معانى الإستقلال الحقيقية لأى شعب من الشعوب ؟ أين هذه المعانى معانى العزة والكرامة والحرية والديمقراطية والسيادة الوطنية للشعب السودانى؟ أين هى ؟ أين ذلك الإستقلال النظيف الذى جاء على أعقاب معركة نضالية وطنية شريفة قادها جيل وطنى إتسّم بقدر ما إتسّم بالولاء والوفاء للسودان وحده، وإتسّم بقدر ما إتسّم بالحصافة والسياسة والكياسة والسمو الوطنى الأصيل، ذلك الجيل الذى إنتزع من المستعمرين وببراعة سياسية نادرة لم يشهد لها التاريخ مثيلا حق تقرير المصير..

من حسين الهندى إلى إسماعيل الأزهرى فى ذكرى إستشهاده العاشرة قال: يحتفل السودانيون بإجماعهم بذكرى إستشهادك فى يومها وآخرون فى شهرها وبعضهم فى سنتها، أما نحن فلا أنت ولا ذكراك تفارقنا أو نفارقها لحظة واحدة، فهى تعايشنا.. نحن نعيش بها ومعها ولها ومنها يومنا وساعتنا وشهرنا وعامنا وعمرنا، ومهما تعاقب الزمن وإستطال فلا يمكن أن أنسى يوم أن قلت لى: يوما ما.. ولا أظنه بعيداً.. سأسقط بينكم فهل سيكرمنى الله ولو لحظة بأن أسمع منكم وعنكم بعد عشر سنوات .. وأردف ياعسى ولعلّ.. وبعد أن شكا الشريف حاله قال: أبى الشهيد.. ياأبا الشهداء لقد شَكوتَ لك حالنا وليس فى شكوى الإبن غضاضة لأبيه..

٧٢. تحية لمن رحب باللورد ومن لم يرحب

اللورد فى الخرطوم: فى يوم ٢٦ أبريل ١٩٢٢م وفى سراى الحاكم العام إحتفل السودان بالزائر الكبير اللورد اللبنى نائب جلالة ملك بريطانيا العظمى فى مصر، وقد كان الإحتفال مهيباً والحضور وقوراً زعماء الروح ثالوثاً متكاملا حاضراً وهم: على الميرغنى، عبد الرحمن المهدى، والشريف يوسف الهندى، وفى الخرطوم داخل القصر وخارج القصر إزداد التهامس تعالياً لماذا هذه الزيارة ؟ ولماذا هذا الوقت بالذات لقد كانت مصر تنادى بالإستقلال وكان سعد زغلول مرموقاً محبوباً فى مصر والسودان..

وكان معه خطيب لبق يعرف كيف يتعامل مع الكلمات ويجذب الإلتفات، وهو الزعيم القبطى مكرم عبيد خطيب ثورة ١٩١٩م.. وكان زعماء الوفد يحبون السودان، فلقد كتب مكرم عبيد تهنئة رقيقة فى عيد الأضحى لأبناء السودان، وكان سعد زغلول يعلن دوماً بأن السودان جزء لا يتجزأ من مصر، وكانت قلوب أبناء السودان تتجه صوب مصر تعتز بثورتها وتؤمل فيها الكثير..

وكان الناس فى السودان يعرفون الكثير عن سعد زغلول، ويحكى بروفسور أحمد دياب قصة زيارة مفتش إلى المدرسة الأولية بكوستى، وإتجه المفتش يسأل التلاميذ : من أعظم رجل فى الدنيا ؟ وتوقع أن تكون الإجابة: ملك بريطانيا أو الحاكم العام، ولكنه فوجىء بتلميذ يلوّح بأصبعه فى حماس يستأذن فى الكلام.. وسمح له وكانت إجابته: إن أعظم إنسان فى الدنيا هو سعد زغلول..

وهنا خجل الناظر وأعلن المدرس إنه لم يتكلم قط عن سعد زغلول، فى هذا الوقت يتساءلون: لماذا جاء اللنبى ؟ ويستمر الإحتفال ويخاطب اللنبى شعب السودان ويقول: إن الحكومة البريطانية سوف لا تتوقف عن مساندة السودان، وسوف تبذل مع مصر مجهودات كبيرة لإنقاذ هذه البلاد الواسعة الأرجاء من الخراب والدمار..

ونؤكد لمصر إنها سوف تحصل على مقدار ما تأخذه من ماء النيل وحكومة بريطانيا مستعدة لتقديم الضمانات.. وكان هذا يعنى إن بريطانيا سوف تطلق سراح مصر من سلطتها، ولكن سوف لا تطلق السودان ولن تنطلق منه، وهنا وقف الرجل

الحكيم على الميرغنى والحكمة نعمة تأتى من الله الذى يعطى بسخاء ولا يُعيّر، وإلتزم الميرغنى بالحكمة لأن رابح النفوس حكيم، وكما يقول الحكيم بن شيراخ: إحسب فضتك وذهبك وإجعل لكلامك ميزاناً ومعياراً، ولفمك باباً حصيناً ومزلاجاً، وإحذر أن تزل به فتسقط أمام الكامن لك (إبن سيراخ ٢٩:٢٩).. وقالت حكمة الميرغنى: إن السودان بلد قائم بنفسه، وشعبه قائم بنفسه على الأسلوب الذى يلائمه..

الترحيب وعدم الترحيب: ورحب البعض شعراً بزيارة اللورد وطالبوه بزيارة الإصلاح ، بينما رفض شاعر آخر هذه الزيارة ، لم يعلن عن نفسه وقتها، ولكن الأهرام نشرت قصيدته والشاعر هو توفيق صالح جبريل والذى كتب عنه الأستاذ هنرى رياض شاعراً ثائراً.. والذى رحب مشكور والذى لم يرحب مشكور أيضا، كلهم يتنافسون فى حب السودان، كل واحد على طريقته..

لقد رحب الشاعر عبد الله عمر البنا باللورد وطالبه بالتعاطف مع السودان وتساءل: كيف يمكن أن ينهض قطر ليس فيه تعليم ؟ ويطالب اللورد أن تكون معاملته مع أبناء السودان معاملة ود ولين، ولطف وحسن تفاهم حتى يتحول موات الديار إلى حياة جميلة ورخية، ويتغطى العرى ويحارب الفقر والجهل وهو يقول:

تـــراءت مشكـــلات الدهـــر فينـــــا

وإرجفــــت المعابـــد والجهـــــات

وجـــاء اللـــورد يرفـل فـــى ثيــــاب

تضـــم بهـــا المنــــافع والشكــــات

ألا يا حامـــلاً السيفيــــن إنـــــــا

نفـــوس للمعالـــــى جائعـــــــات ؟

مــــررت على الديـــار وجـزت فيهـا

بـــواد أرض ساكنـــــة مـــوات

فبعـــض من تكاتفهـــم غُـــراة

وبعـــض مـــن ملابسهـــم عُـــراة

أما الشاعر الذى أخفى إسمه فقد جاءت قصيدته فى الأهرام المصرية تحت عنوان « المسألة السودانية» والتى كان يكتب عنها الأديب محجوب ثابت وتقول القصيدة :-

أيهـــا القـــوم لا تجـــروا الذيـــولا

يأنــف الحُـــر أن يعيــش ذليـــــلا

إن أردتـــم إصلاحنــا، قد فعلتـــــم

فأعذرونـــا إذا ملكنـــا الدخيـــلا

ويــح قلبــى مــاذا يريـــد اللنبـــى ؟

يـــوم وافـــى يجد سيفــاً صقيـــلا

ويرى الدكتور المليك: إن ترحيب البنّا كان ترحيباً وقوراً، وأرى إن البنّا لم يكن سلبياً.. وإن توفيق جبريل كان ثائراً ولكن سرياً.. والتحية لمن رحب باللورد، ولمن لم يرحب به، وكلاهما سار فى درب المجد طالباً تقدم السودان..

٧٣. دار الثقافة بالخرطوم

أول محاضرة: نرجع مع القارىء العزيز عقارب الزمن إلى زمن الثقافة فى السودان ونبدأ بيوم ٣٠ مايو ١٩٤٠م عندما تم إفتتاح دار الثقافة بالخرطوم وبدأت الدار بمبادرة من كبار رجال الإدارة البريطانية وعلى رأسهم السكرتير الإدارى المثقف « سير دوجلاس نيوبولد « والسكرتير الإدارى الذى سبقه « سير أنجس جيلان « والسيد « بيلى وليامز» مساعد مدير المعارف والعميد السابق لكلية غوردون التذكارية بالتعاون مع عدة شخصيات سودانية، وتمكنت هذه المجموعة من إقناع الحاكم بأهمية « دار الثقافة» بإعتبارها تلبية للإحساس بالأمان لدى المواطن السودانى عندما يجتمع حول الثقافة والتى هى أكثر الحاجات الإنسانية رفعة وسموّاً..

ويدأت أول محاضرة فى دار الثقافة عنوانها « الوجه الإنسانى للثقافة» ولقد أهدانى بروفسور حسن أبشر الطيب ترجمته لهذه المحاضرة والتى فيها وقف

بروفسور حسن على أخلاق البريطانى السير دوجلاس نيوبولد الذى كان مديراً إدارياً للسودان من ١٩٣٩-١٩٤٥م.. ويرى الطيب إن نيوبولد قد وظف مقدرته الفكرية والإدارية البارزة للتأكد من تأسيس دار الثقافة على دعائم سليمة ، فهو سياسى موهوب وباحث شديد الإلتزام بالمبادىء الإنسانية، وهو مثقف واسع الإطلاع ذو علاقات محلية ودولية متينة، وقد أهدى مكتبته الخاصة والتى تضم أكثر من ثلاثة آلاف كتاب هى الآن نواة المكتبة الحالية لجامعة الخرطوم.. والحمدلله إن بدأ ركب الثقافة فى دار الثقافة منذ سنة ١٩٤٠م ولكن طبعاً الثقافة موجودة بكثرة وثقافة فى ربوع السودان منذ الأيام القديمة..

وأجدادنا ربما كانوا لا يقرأون ولا يكتبون ولكنهم كانوا على قسط كبير من الثقافة والمعرفة، ونحن هنا لا ننسى مثلا ثقافة الأصدقاء العرب الأربعة الذين أتوا إلى أرض عوص يشاركون أيوب الصديق ذلك الرجل العربى الذى كان يحيا فيما يسمى الآن سلطنة عمان والذى دفن هناك، وقد كانت ثقافة الأصدقاء العرب ثقافة رفيعة المستوى وكل واحد منهم قال قطعة أدبية عن الألم مشاركة فى آلام أيوب ومواساة له فى مأساته..

وأذكر هنا فقط حديث أليفاز التيمانى عن رأس الكواكب ودائرة السماوات وحياة التجرد التى هى طريق التلاقى مع الله عندما يتنازل الإنسان عن ذهب الأرض ويكون الله هو تبره وفضة أتعاب له فهو يقول: هل ينفع الإنسان الله؟ بل ينفع نفسه الفطن، هوذا الله فى علو السماوات وأنظر رأس الكواكب ما أعلاه.. السحاب ستر له فلا يرى، وعلى دائرة السموات يتمشى، تعرف به وأسلم بذلك يأتيك خير ، إقبل الشريعة من فِيه وضع كلامه فى قلبك وإن رجعت إلى الله القدير تبنى إن أبعدت ظلماً من خيمتك وألقيت التبر على التراب وذهب أوفير بين حصا الأودية يكون القدير تبرك وفضة أتعاب لك حينئذ تتلذذ بالقدير وترفع إلى الله وجهك تصلى له فيسمع لك (أيوب ٢٢).. وأرجو أن تعلموا إن هذا الزخم الثقافى بهذا المستوى الرفيع يرجع إلى العام الألفين قبل الميلاد..

الوجه الإنسانى للثقافة: كان عنوان أول محاضرة فى دار الثقافة عنوانها « الوجه الإنسانى للثقافة» فلقد بدأت الدار بقوة ثقافية وقاد نيوبولد منبر الثقافة فى السودان حتى قضى على دار الثقافة لا لسبب إلا لوهم مؤداه إنها صنيعة الإستعمار، ولكن

أول محاضرة قدمت تشخيصاً باهراً وبليغاً قوى الأثر لمكنونات الشخص المثقف الذى عرفه نيوبولد بأنه رجل رفيع التعليم يعرف ويتذوق الكتب والأسفار واللغات القديمة والحديثة والعلوم والآداب..ويتمتع بصفة فى غاية الأهمية هى الإنسانية تتمثل فى الخيال والتسامح والفكاهة والبساطة..

ولقد كانت دار الثقافة معرضاً لكل ثقافة، فلقد شارك فى المحاضرات مصريون وسوريون ولبنانيون ونخبة من أبناء السودان، ونخبة من الموظفين الإنجليز الذين كانوا فى ذكاء وثقافة يخدمون السودان، وكانوا يسجّلون خواطرهم وتأملاتهم ويبثون حبهم للسودان العظيم فى تقاريرهم ومقالاتهم وكتاباتهم، وقد إضطلع المثقفون من أهل السودان ومن رواد دار الثقافة بدور كبير فى إستقلال السودان..

وقال محاضر أول محاضرة فى دار الثقافة : بودى أن أعتبر دار الثقافة مكاناً بعيداً عن المدرسة، بعيداً عن الكلية، بعيداً عن المكتب، مكاناً لا يفعل المتعلمون فيه شيئاً سوى شحذ أذهانهم وتحسينها وجعلها إنسانية التوجه، أما المعدات المتاحة لهم فهى مكتبة وكتب ودوريات ومحاضرات ومناقشات وجدل وحديقة، وأخيراً وليس آخراً بعضهم البعض، أذهانهم وحوارهم، وفى إعتقادى إنه حتى لو كانت القراءة للابتهاج والتفاخر وتنمية القدرات كما يقول « بيكون» فإن هذه أهداف سامية..

٧٤. خلود الديمقراطية

دار الثقافة: ما أكتبه اليوم عن الديمقراطية هو ما تناوله إدوارد سليم عطية فى محاضرة ألقيت فى يوم ٢٦ يونيو ١٩٤٠م، وإدوارد هذا هو إبن طبيب لبنانى مسيحى كان يعمل لدى الحكومة السودانية، وكان يعمل فى المخابرات البريطانية، وكان مهتماً بإطلاع الحكومة على أفكار المثقفين السودانيين، وكان فى السودان يتمتع بدائرة واسعة من الأصدقاء والمعارف من جميع المشارب هو وزوجته الإنجليزية « جين ليفنز» والتى أنجب منها إبنان أحدهما السير مايكل عطية عالم الرياضيات فى كمبردج، والثانى باتريك عطية أستاذ القانون الإنجليزى فى أكسفورد..

وقبل أن أبدأ بحديث عطية عن الديمقراطية أورد كلمة جديدة إخترعها الأديب أنيس منصور تسمى « الديمقراطية» وتحت عنوان « من الدينوقراطية إلى الديمقراطية إلى الدينوقراطية « فى جريدة الشرق الأوسط عدد ٢٠٠٥/٤/٦ م، قال أنيس :

إن كلمة ثيوقراطية معناها حكم الله، وهى من كلمتين يونانيتين : ثيوس يعنى الله وكراتين حكم، وطبعاً دخلت الكلمات اليونانية إلينا أسماء وصفات، فكلمة فيلسوف تعنى « محب الحكمة» وإسم فيلوثاوس الذى أتشرف به يعنى « محب الله.. وكلمة ديموقراطية تعنى « حكم الشعب» وأول من إستعمل كلمة ثيوقراطية هو المؤرخ اليهودى فلافيوس جوزيفوس (٣٧-١٠٠م)..

وأراد بهذا التعبير أن يقول: إن اليهود يحكمهم الله نفسه ويدير حياتهم وينصرهم ويعذبهم، ولكنى أعلم أن اليهود هم الذين طلبوا ملكا لهم أيام صموئيل، وكان النبى صموئيل متضايقاً من هذا حتى إن الرب أوحى إليه قائلا: إفعل لهم ما يشاؤون لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياى قد رفضوا.. وبعد هذا بدأ نظام الملكية عند اليهود وكان أول ملك هو شاول إبن قيس، وكان الملك يمسح من الكاهن ويكون مسيحاً لله، وكانت الحضارات القديمة ترى إن حكمها ثيوقراطى فالملك هو الإله والحكم إلهى ربانى والملوك عند الفراعنة آلهة.. ويعتبر أنيس منصور إن كلمة ثيوقراطى يمكن أن تكون دينوقراطى أى الحكم بإسم الدين..

أما إدوارد عطية محاضر سنة ١٩٤٠م فإنه يقول: إن محاضرة عن الديمقراطية تعد أمراً مهماً وحيوياً والملابسات تمنح الموضوع أهمية تجعله غريب الصعوبة فى اللحظة الراهنة لأن الديمقراطية تحاسب وتمتحن الآن ويظن البعض إن هذا هو إختبارها النهائى الحاسم، إنها تقاتل من أجل البقاء فى مواجهة أشكال حاسمة إجتماعية منافسة ومهددة فيما يتعلق بالنفوذ والسلطة وتخيم على الأفق سحب كثيفة وتهجم شياطين الشك على عقول كثير من المؤمنين بالديمقراطية..

هل فعلت الديمقراطية ما يبرر وجودها ؟ هل هى صالحة للبقاء ؟ هل ستبقى وتنجو ؟ إن هذه الآسئلة تجعل من يحاضر عن الديمقراطية كأنه يدافع عن شخص أمام المحكمة.. ويسرع عطية ليعلن فى محاضرة خلود الديمقراطية فيقول: إنى أحذركم بأنى أتيت لأمدح الديمقراطية لا لأرثيها، إنى قادم لكم وبإقتناع صادق وشديد أن موكلتى أبعد ما تكون عن الإحتضار والموت لأنها فى الأساس خالدة، وإن بدت أحياناً واهنة وعليلة بالمقارنة مع النظم الجديدة الصاخبة، ذات رصيد من القوة وذات مبادىء أدبية لتجديد الشباب تضمن شفاءها وبقاءها فى الدنيا حتى بعد أن ينتهى منافسوها بغرورهم ويطويهم النسيان..

إن جسد الديمقراطية وأعنى بذلك المؤسسات التى تعيش فيها قد تموت إذا أساء الناس معالجتها أو شوهوها ، أما روحها فهى شأنها شأن روح وطموحات البشر لا تموت لأنها ليست إلا تعبيراً عن أداة لتحقيق تلك الطموحات..

التعريف والبدايات: ويقول عطية: ثمة تعريفات كثيرة للديمقراطية لكن التعريف الذى إنطبع فى خيال وقلوب البشر هو ذلك التعريف الذى ذكره الديمقراطى العظيم إبراهيم لنكولن عندما قال: فلنعلن فى هذا المكان تصميمنا الجازم أن لا يكون أبطال الحرب الأهلية الأمريكية قد ماتوا سُدى، وإن هذه الأمة ستشهد وعين الله ترعاها مولداً جديداً للحرية، وإن حكومة الشعب بواسطة الشعب ولصالح الشعب سوف لن تزول من الدنيا..

ويذكر عطية النموذج اليونانى للديموقراطية عندما كانوا لا ينتخبون نواباً للشعب بل كانوا يلتقون جميعاً فى ساحة واسعة ويتفقون على القوانين التى تحكمهم، وكان للمواطنين جميعاً حق حضور تلك الإجتماعات كانت تلك حكومة مباشرة وديمقراطية خالصة فيما يتعلق بمواطنى أثينا، ولكن ديمقراطية أثينا لم تستمر كما لم تعطى فرصة للأجانب أن يتمتعوا بحقوق المواطنة كما كان الرقيق لا حقوق لهم، وإنهارت ديموقراطية أثينا ولم تؤثر على التطورات السياسية ولكنها بداية مهمة..

لقد نشأت الديمقراطية بحسب المحاضر كفكرة دولية شاملة وكنظام حكم موسع فى الآزمنة الحديثة فى أوربا بداية بتاريخ البرلمان البريطانى الذى يعتبر أعظم مساهمات إنجلترا فى الحضارة، وعبر حدود بريطانيا إلى أمريكا ثم إلى كل قارات العالم، وصار نهر الديمقراطية نهراً يعبر قارات العالم ويواجه أرضاً صخرية أو يضل طريقه وسط تلال الرمال مما يستلزم جهداً أكبر للحصول على بركات هذا النهر العظيم..

لقد هبت رياح الديمقراطية بداية ضد حكم الملك جون فى بريطانيا عام ١٢١٥م وكانت تلك أول مناسبة ينظم فيها إحتجاج وطنى ضد حكومة سيئة وأتت الثمار فى شكل « الماحنا كارتا» والتى هى أول محاولة ناجحة ككبح جماح النزوات الملكية، وأول إنتصار لحكم القانون فرض بإرادة الشعب، إن محاضرة إدوارد عطية عن»

الديمقراطية» طويلة وعميقة، ولكننى لأتخيل إنها كانت سبباً ودافعاً أن يحلم أهل السودان بها، وقد جاهدوا حتى حققوها وإنطلقوا من دار الثقافة ثم نادى الخريجين ينادون بالديمقراطية التى وإن كان قد خبا نورها ولكنها باقية خالدة، وسوف يكون لها الإنتصار بمشيئة الله..

٧٥. السودان تحت الحكم البريطانى

مصطفى عابدين: قام السيد مصطفى عابدين بترجمة كتاب « السودان تحت الحكم البريطانى» المباشر إلى فجر الإستقلال وقد ساهم فى إخراج ترجمة الكتاب إسكندر فهمى والذى كتب هو نفسه كتاباً عن السودان، وخرج الكتاب فى عام ١٩٩٦م من مطبعة دار الجيل التى كانت متعاونة جداً مع صاحب مكتبة مروى إسكندر فهمى والأمل معقود على إبنه فهمى إسكندر لكى تستمر المسيرة لأن الكاتب دوماً لا يملك إمكانيات، وقد طبع إسكندر فهمى الكثير من الكتب المهمة عن السودان ولا أعتقد إنه جمع حتى ما دفعه من تكاليف ولكنه كان دوماً سعيداً بما يعمل لأنه يصب فى خدمة الوطن العظيم..

والسير جيمس براون مؤلف الكتاب كان آخر سكرتير إدارى للسودان ويرى المترجم إن السودان لم يكن مستعمرة بالمعنى التقليدى للكلمة، فقد كان وضعه فريداً بين المستعمرات إذ إنه كان يقع تحت سيطرة الحكم الثنائى مصر وبريطانيا، وكانت للآخيرة السلطة الحقيقية والكلمة النافذة بالرغم من أن العلمين البريطانى والمصرى كان يرفرفان جنباً إلى جنب فى كل أنحاء السودان، وكان يسمى السودان « الإنجليزى المصرى»..

ويرى المترجم أيضا إن عدد الموظفين البريطانيين يقل كثيراً عن الأربعمائة ، وكانت إدارة تتميز بالإنضباط والحزم والصرامة، وكان مفتشو المراكز يسافرون لعدة أيام يمتطون الجمال والخيل للوقوف على أدق التفاصيل فى نطاق المناطق التى كانت تحت إشرافهم وبعضها أكبر مساحة من بريطانيا، وكان روبرتسون معروفاً فى السودان ومشهوراً ويعرف كيف يتعامل مع القيادات ومع الشعب، وكان له دور فى القضايا الساخنة الخاصة بالإستقلال ولعب دوراً كبيراً وبارزاً فيها..

وقال المؤلف يبرىء ذمته: حقاً إن الأسس التى عملنا بمقتضاها كانت تعتمد على نظرة أبوية حيال الناس الذين تحكمهم، وإن التغييرات التى كنا نبحث لهم عنها كانت هى المناسبة فى نظرنا نحن وليس فى نظرهم هم.. إن إنجازات عملنا حتى لحظة التسليم الآخير كانت واضحة للعيان وفى إعتقادى إننا لا نحتاج أن نخجل منها، ولقد جاء روبرتسون إلى السودان مروراً بالقاهرة التى لم يشعر فيها بالراحة..

وعندما أتى إلى السودان عاش برنامجاً مكثفاً من اللقاءات والمحاضرات وركب الجياد للتمرين لأنها سوف تكون وسيلة مواصلاته وإلتقى بالحاكم العام السير لى ستاك وقال عنه: إنه رجل ودود وهادىء وحكيم، وتحدث معه عن العمل فى السودان وكيف يكون التعامل وشجعه على أن يكون قدر المسئولية ويحترم الناس ويعرف واجباته والتى أهمها تقدير الضرائب وجبايتها وحفظ أموال الحكومة فى أمان بخزائن المدنية ومراجعتها فى فترات متقاربة..

ويقول المؤلف: إنه من الصعب أن يتذكر الشعور الذى يكنه للبلاد التى قضى فيها أكثر أيام عمره، ولكنه يقول: إنه كان يعمل من أجل مصلحة الناس بناء على التقاليد التى تعلمها وبدأ العمل بها، وكان الولاء لبلاده مع الإهتمام برفاهية المواطن السوداني ، ولم يكن يهدف إلى خدمة الأهداف البريطانية إلا إذا كان ذلك يتعلق برفاهية السودانيين ، كما قال: إنه بكل حال مع غيره خدما للسودانيين وتدريجياً وعلى كل حال جئنا نشهد التقدم الإجتماعى ورفع مستويات المعيشة، وكانت هى النواحى الهامة لعملنا لرفاهية السودانيين ، كما إنه فى الجانب السياسى والإدارى قد أصبح إعطاء السلطة للوطنيين من هموم الخدمة السياسية منذ حوالى عام ١٩٢٧م، ولقد إستمر المؤلف فى السودان منذ عام ١٩٢٢م حتى عام ١٩٥٣..

مارجرى برهام: ذكر المؤلف عدد من الشخصيات ذات التأثير عليه عندما كان بين ظهرانينا فى السودان، ومن بين من ذكر: ديم مارجرى برهام والتى كانت له صديقة دائمة ومستشارة وإلهاماً عظيماً لعمله، وقال» إنه مدين لها مرتين، مرة بسبب مساندتها له فى العمل وأخرى لأنها كتبت مقدمة الكتاب، وقد قالت : إن التصفية السريعة لإمبراطورية بريطانيا الإستعمارية المترامية الأطراف كانت ترجع بصورة كبيرة إلى تأثيرات الحرب العالمية والثانية،وذلك بدفع طموحات المحكومين وإضعاف قوى الحاكمين وثقتهم بأنفسهم، ولم تأت التصفية نتيجة لقرار شامل

لبريطانيا نفسها، كما لم تكن نتيجة لتحرك مرتب بين المحكومين وإن كنت لا أوافق على هذا لأن فيه تجاهل لما قام به رجال السودان من مطالبة الإستقلال من خلال نادى الخريجين والمنتديات الثقافية حتى دار الثقافة التى أسسها الإنجليز فى كل هذه الدور كان هناك مطالبة بالإستقلال ووصل الأمر إلى ثورة ١٩٢٤م ورجالها الذين وضعوا اللبنات الأولى للإستقلال..

وتستمر مارجرى فى الحديث عن تصفية الإمبراطورية البريطانية فتقول : فى أفريقيا فإن كل الدول التى نالت إستقلالها ما بين عام ١٩٥٦ و ١٩٦٨ م إتبعت طريقها وحدها نحو الحرية فى أوقات مختلفة ويبدو إن إنجاز الإستقلال كان قد إتبع بميل من الحكام والمحكومين.. وإن الجانب الأفريقى كان لديه شعور بالكراهية نحو الإستعمار وهو شعور غير معترف به، ولكنه شيء طبيعى يرتكز على حقيقة إنهم مستعمرين، إن الذين قاموا بترتيبات إنهاء السلطة يحتاجون إلى إختيار الوقت المناسب ليروا عملهم الماضى على حقيقته..

إن هذا الكتاب هو دليل كاف على إن السير جيمس روبرتسون قد إختار وقته تماماً.. ومقدمة الكتاب وهى إمرأة لم تغفل أن تصنع شيئاً فى فّقة إمرأة أخرى هى زوجة المؤلف والتى كانت له مؤنساً ومعيناً ونظيراً ومشجعاً جعله يعتبر أيامه فى السودان سعادة وهناء معها على أرض السعادة، فلقد عاشا على الأراضى الفاتنة على حد تعبير آدمز الأمريكى الذى أحب السودان وكتب عن تاريخه وأمجاده..

٧٦. السودان عند روبرتسون

السكرتير الإدارى: كان السكرتير الإدارى فى السودان وهو بريطانى أكبر سلطة فى البلاد بعد الحاكم العام، وقد كانت بريطانيا تختار من ترسله إلى السودان وترسله إلينا شاباً غضاً يبدأ موظفاً صغيراً ثم يرتقى حتى يصل أكبر المناصب، وكان من يأتى إلى السودان يدرس السودان قبل أن يصل إليه ويدرس اللغة العربية لكى لا ينقطع تواصله مع أهل السودان ويتألق بين السكرتارية والإدارية شخصان هما: السير هارولد ماكمايكل والسير جيمس روبرتسون والذى هو آخر سكرتير إدارى فى السودان ، وكلاهما كان يسجل ذكرياته، وكتب ماكمايكل كتاب عنوانه « السودان..

وكتب روبرتسون كتابه الذى عرّبه مصطفى عابدين وأعطاه عنوان « السودان من الحكم البريطانى المباشر إلى فجر الإستقلال » وهنا نرى إن ماكمايكل وروبرتسون كتبا معاً عن فترة واحدة فى تاريخ السودان، ولاشك إن لكل منهما وجهة نظر خاصة، فالسودان لؤلؤة الزمان متعددة الألوان وكل من يكتب عنها يرى لوناً من هذه الألوان الفريدة والجميلة ونحتاج إلى دراسة مقارنة بين السودان عند ماكمايكل والسودان عند روبرتسون..

وأعتقد إن الخدمة المدنية كانت موضوع درس ومحاسبة وتدقيق وكان كل موظف يعتبر إن عمله فى السودان هو خدمة للتنمية والرقى والحضارة، وإنه وكيل ومطالب أن يعطى حساب وكالته.. وإنه أؤتمن على وزنات ينبغى أن يستثمرها لما فيه الخير، ومثل الوزنات موجود فى الكتاب المقدس وله مكان فى أعماق كل مؤمن.. ويقول المثل والكلام هنا للسيد المسيح: وكأنما إنسان مسافر دعا عبيده وسلمهم أمواله، فأعطى واحداً خمس وزنات وآخر وزنتين، وآخر وزنة ، كل واحد على قدر طاقته وسافر للوقت، فمضى الذى أخذ الخمس وزنات وتاجر بها فربح خمس وزنات أُخر، وهكذا الذى أخذ الوزنتين ربح أيضا وزنتين أخرتين، وأما الذى أخذ الوزنة الواحدة فمضى وحفر فى الأرض وأخفى فضة سيده..

وبعد زمان طويل أتى سيد أولئك العبيد وحاسبهم فجاء الذى أخذ الخمس وزنات وقدم خمس وزنات اخر قائلا: ياسيد خمس وزنات سلمتنى ، هوذا خمس وزنات أخرى ربحتها فوقها، فقال له سيده: نِعِماً أيها العبد الصالح والأمين كنت أميناً على القليل فأقيمك على الكثير أدخل إلى فرح سيدك، ثم جاء الذى أخذ وزنتين وقال: ياسيد وزنتين سلمتنى هوذا وزنتان أخريتان ربحتهما فوقهما، فقال له سيده: نعماً أيها العبد الصالح والأمين كنت أميناً فى القليل فأقيمك على الكثير أدخل إلى فرح سيدك..

ثم جاء الذى أخذ الوزنة الواحدة وقال: ياسيد عرفت إنك إنسان قاس تحصد من حيث لم تزرع وتجمع حيث لم تبذر، فخفت ومضيت وأخفيت وزنتك فى الأرض هوذا الذى لك، فأجاب سيده وقال: أيها العبد الشرير والكسلان عرفت إنى أحصد حيث لم أزرع، وأجمع من حيث لم أبذر، فكان ينبغى أن تضع فضتى عند الصيارفة فعند مجيئى كنت آخذ الذى لى مع ربا.. فخذوا منه الوزنة وأعطوها للذى له عشرة وزنات، لأن كل من له يعطى فيزداد، ومن ليس له فالذى عنده يؤخذ منه، والعبد

البطال إطرحوه إلى الظلمة الخارجية هناك يكون البكاء وصرير الأسنان.. والوزنة هى جزء من المال وهى رمز لكل ما يملك الإنسان من مواهب وقدرات وتقنيات..
جيمس روبرتسون: ومؤلف الكتاب كان يخطط منذ سنوات شبابه الباكر، قبل أن يبارح مدينته فى أسكتلندا للعمل فى الهند مترسماً خطى والده وجده اللذين عملا هناك لعشرات السنين، ولكن تواتر الأنباء عن حدوث إضطرابات بالهند جعله يعيد النظر فى خططه، لذا بدأ يعد العدة للعمل بالسودان بعد تخرجه من أكسفورد، وإلتحق بالخدمة السياسية فى السودان عام ١٩٢٢م وبدأ عمله مساعداً لمفتش مركز رفاعة والحصاحيصا ثم عمل فى الكاملين والقطينة ومنطقة جبل الأولياء للإعداد لتشييد الخزان والدويم والروصيرص، كما عمل مفتشاً لمركز النهود كردفان وعمل لفترة قصيرة حاكماً بالإنابة لمديرية الجزيرة فى مدنى..

وفى سبتمبر ١٩٤١م نقل إلى الخرطوم ليصبح مساعداً للسكرتير الإدارى ثم نائباً له ثم سكرتيراً إدارياً فى مارس ١٩٤٥م حتى سنة ١٩٥٥م، وعاصر خلال هذه الفترة قمة التطورات السياسية فى السودان والتى توجت بتكوين أول حكومة وطنية برئاسة الزعيم إسماعيل الأزهرى، وذهب روبرتسون إلى نيجيريا حاكماً عاماً قبل إستقلالها..

وودع «روبرتسون» العالم راحلا إلى العالم الآخر فى عام ١٩٨٩م وأودع ما فى رأسه خبرة وإدارة ومواقف فى مذكرات عن السودان وقدم فى كتابه هذا ملامح السودان وأكبر ما قدمته صفحات الكتاب إثارة هو الصراع المجنون الذى جرى بين الخرطوم والقاهرة ولندن ونيويورك للتأكد إن السودان سوف لا يخرج من السيطرة الإنجليزية ليقع تحت السيطرة المصرية، والغريب إن إسماعيل الأزهرى مع الأشقاء كان يرى إن مصر سوف تبقى فى السودان فى وحدة معه، ولكنه فى لحظة ما حقق رغبة الشعب فى الإستقلال وأعلنه من داخل البرلمان ، وفى أدب جم أنزل العلم البريطانى والعلم المصرى، ورفع مع محجوب علم السودان المستقل..

ويتحدثون عن روبرتسون إن زوجته كانت وراء عظمته، لأنها بذكائها وأنسها وإنسانيتها قد إستطاعت أن تكون شريكة مثالية له، ويرى البعض إنه أشرف على تسليم السودان راية الإستقلال تجاوباً مع الشعب، وإنه ذهب إلى نيجيريا لكى يقدم لها أيضا علم الإستقلال..

٧٧. السودان عند ماكمايكل

السودان: منذ أكثر من خمسين عاماً كتب «هارولد ماكمايكل «كتابه العظيم تحت عنوان « السودان» وفعلا السودان هو كل الكتاب كل صفحة فيه، كل فقرة، كل عنوان.. لقد كتب الكتاب فى ديسمبر ١٩٥٣م وخرجت الطبعة الأولى باللغة الإنجليزية ١٩٥٤م ومنذ ذلك الحين صار هذا الكتاب مرجعاً ، ولم أقرأ كتاباً إلا واحد إشارة من ماكمايكل..

أما المؤلف نفسه فقد عاش ما يقرب من سبعة وتسعون عاماً فهو من مواليد أكتوبر المحبوب عند أهل السودان، ولد فى عام ١٨٨٢ وترك هذا العالم عائداً إلى الأمجاد السماوية فى عام ١٩٦٩م ، وهو عالم عميق وزميل شرف فى جامعة كمبردج، وقد تم إختياره للعمل فى خدمة عام ١٩٠٥م، بدأ شاباً فى كردفان ثم النيل الأزرق ثم الخرطوم والبحر الأحمر ودارفور..

وهذا يعنى إنه طاف كل ربوع السودان الحدادى مدادى الوطن الكبير ، وتقلد ماكمايكل السكرتير الإدارى فى الخرطوم من عام ١٩٢٦ حتى ١٩٣٤م لينتقل إلى وظائف أخرى خارج السودان، ولقد حمل السودان فى قلبه وفى فكره وسجّل الكثير عنه فى مذكراته ثم جمع هذا كله فى كتابه « السودان «.. ولقد حاز الكاتب على الكثير من الأوسمة ، وسام الخدمة الممتازة، وسام نجمة أثيوبيا، ولقب فارس لجماعة القديس جون المقدسى، ولقب فارس الصليب الأعظم للقديس مايكل والقديس جورج، وكل هذا يعنى إن هذا الرجل كان مسيحياً مؤمناً مخلصاً يحيا فى ضمير صالح أمام الله والناس..

وقد عاش القيم المسيحية وكان ساهراً على روحانيته أميناً فى رسالته مثلما بولس الرسول الذى قال: صلوا لأجلنا لأننا نثق أن لنا ضميراً صالحاً راغبين أن نتصرف حسناً فى كل شيء.. ولقد كان ماكمايكل هو زمن الإهتمام بالكتاب المقدس قراءة وفهماً ، ولاشك إن الكتاب له أثر كبير فى حياة هذا المؤلف، وقد ألفّ هارولد العديد من الكتب عن السودان غير هذا الكتاب منها: قبائل كردفان، تاريخ العرب فى السودان، السودان الإنجليزى المصرى، وكتب عدة مقالات فى موضوعات شتى، وكان عارفاً لأحوال السودان فاهماً طريقة أهله بارعاً فى التحاور والتفاوض، صارماً

فى الإلتزام القوانين والأعراف، وله حضور متسم بالتحفظ والترفع والبرود..

وكان يُعرف بأنه الزعيم الأبيض العظيم.. وأرجو أن نفهم إن البرود كان مدحاً وليس قدحاً لأنه يعنى ضبط النفس وعدم التسرع والتأنى فى إتخاذ القرار، وإن كان بعض المؤرخين قد وصفوه ظلماً بالعبقرى الشرير فإن هذا لا يقلل من شأنه، لقد كان واقعياً وربما هذا جعله يبطىء فى إتخاذ القرارات ولكنه كان يتسم بالتوازن حتى عندما يهاجم زملاؤه الذين كان بعضهم يراه مستبداً بينما يراه الآخرون متردداً، ولكنه كان يعطى وزناً أكبر للآراء السائدة حوله..

٧٨- ترجمة كتاب السودان

عن السودان: كتب ماكمايكل كتاباً عنوانه « السودان» باللغة الإنجليزية والتى هى اللغة الأم له، والتى يجيدها إجادة الأدباء والفهماء، كتب الكتاب عام ١٩٥٣م وترجم خارجاً إلى اللغة العربية فى عام ٢٠٠٦م.. وتبدأ قصة الترجمة كما يقول المترجم بأنه ترجم بعض فقرات من الكتاب وعرضها على بعض أساتذته من الأدباء والعلماء والذين شجعوه وقالوا عنه: إنه قدر هذه المهمة وطالبوه بترجمة الكتاب كله، وقال هو : إنه من مأثور الفولكلور السودانى إن أحدهم إبتاع حذاء من السوق ورجع مختالا به إلى منزله، وهنا لاحظت زوجته إن الحذاء أوسع من قدميه وإستفسرته عن ذلك فرد قائلا: عندما أدخلت قدمى فى الحذاء لقياسه إذا بجميع من كان فى المتجر يصيح بى « قدرك قدرك «.. أى مقاسى بالتمام فصدقت وإشتريته..

وإن المترجم صدق إنه قدر مهمة الترجمة وأرى مع الآخرين إنه فعلا قدر الترجمة لأن ترجمته نابعة من معرفته لدروب التاريخ ودهاليزه فهو مؤرخ على أرقى مستوى ، ولقد كتب إليه أحمد إبراهيم أبو شوك يقول له: إن إختيار المترجم للكتاب كان إختياراً موفقاً ويضم صوته إلى صوت الذين باركوا له الحذاء الجديد، وإن صوت إمرأته نشاذ فيما أجمعوا عليه، فالترجمة جيدة وحاذقة وإستوفت كل الغرض والشىء بالشىء يذكر..

وأذكر إننى عندما زرت جمهورية إيران عام ٢٠٠٦م خلال تواجدى توفى والد رئيس الجمهورية الإيرانية الرجل الذى حاز على إعجاب الجميع لأنه رجل عصامى وكانت كل آماله أن يجد إبنه معقداً فى المدرسة الإبتدائية، ولكن تشاء إرادة الله أن

يأخذ هذا الإبن مقعد رئاسة الجمهورية عن جدارة.. وذهبت للتعزية وكنت فى صحبة سفير السودان فى إيران.. وكان العزاء فى الجامع ودخلت بعد أن خلعت حذائى فى الخارج وعندما خرجت لم أتعرف على حذائى فأخذت حذاء آخر قدر مقاسى ولكن عندما عدت قالت لى زوجتى: هذا ليس بحذائك.. قلت لها: ربما يكون حذاء وزير من وزراء إيران أو سفير من السفراء.. فقالت لى : إن ماركة هذا الحذاء لا تتناسب إطلاقاً مع الحذاء الذى فقدته، وقد قال أبو الشوك: إن كتاب ماكمايكل كتاب مهم فعلا فى تاريخ السودان لو إطلع عليه حملة لواء الإستقلال بمنعرج اللوى لأدرك أهل السودان الصبح قبل أن ينجلى ضحى الغد..

لكن هيهات لوطن أضحى عرضة للتشظى والتفطر، وضعف فيه الطالب والمطلوب، وإختلط نابل المصالح الخاصة بحابل المصالح العامة.. وما يقوله أبو شوك هو نفسه مايقوله المترجم فى مقدمة كتاب « آراء وأفكار من الخرطوم « ، حيث يتحدث عن فترات الحكم العسكرى بعد الإستقلال وكيف كانت سبباً فى هجرة الكثيرين وفى موت الكثيرين.. والذين هاجروا نفدوا بجلودهم إلى اللجوء إلى بلدان أخرى حيث إنه الآن يوجد أكثر من مليون مثقف سودانى فى الشتات يرعون الإبل فى السعودية أو يقودون سيارات الأجرة ومحطات الوقود أو يوزعون البيتزا ويغسلون الأطباق فى بلاد المهجر، ويتحدث عن: إن الثقافة فى السودان تعانى ما تعانى، وكأن حكامنا يتفقون مع هيرمان غورنغ: تمتد يدى تلقائياً إلى مسدسى عندما أسمع شخصاً يتحدث عن الثقافة، أو يتفقون مع « موسولينى» الذى يرى إن ما يسمى بالثقافة هو فى نهاية الأمر كماليات لا فائدة منها..

ويرى المترجم : إن الحكام منعوا المناقشات والحوار، وأحرقوا الكتب ومنعوا إستيرادها، وحظروا تعليم اللغة الإنجليزية، وكمموا أفواه الصحافة، ووضعوا قيوداً على حرية السفر، كما إستبدلوا الأدب بشعارات خاوية وغامضة، وكانت دار الثقافة فى الخرطوم والتى تأسست عام ١٩٤٠م هى أول الضحايا ، ورغم هذا يرى بروفسور صالح: إن هذا لا يدعو إلى الإكتئاب إنما إلى الصحوة والإستيقاظ من النوم العميق والمحاولة للحاق بركب الحضارة، وهو يرى : إن مثل السودانيين كمثل نهرهم العظيم الذى دار على عقبيه بلا سبب ظاهر وتهادى بكسل وضل الطريق قبل عشرات الآلاف من السنين.. هكذا أبناء السودان ضلوا الطريق بعد الإستقلال ومر

منهم العمر دون أن يصنعوا شيئاً يفرحون به جيل الإستقلال..
أقسام الكتاب: وكتاب» السودان» لماكمايكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:
القسم الأول: سرد تاريخى وجغرافى مختصر للسودان وأهله بأسلوب روائى أدبى رفيع..
القسم الثانى: يتعلق بكل الإنجازات التى حققها البريطانيون فى السودان منذ الأيام الأولى التى تلت واقعة أم درمان فى ١٨٩٨/٩/٢ وإلى نهاية ١٩٥٣م وهو تاريخ نهاية الكتاب كتابة، وهنا ذكر المؤلف ما تم فى مجال البناء والتعمير والرى والزراعة والتعليم والصحة والإدارة والإقتصاد وتطور المؤسسات الدستورية، ويؤكد ماكمايكل: إنه ما من عمل أنجز إلا سبقته الدراسة المتأنية والتمحيص وإستشارة كل الأطراف داخل السودان وخارجه والإستعانة بخبراء من بريطانيا وبلاد العالم الآخرى، وكان التخطيط يعنى تنمية الموارد الزراعية والثروة الحيوانية والتعليم والصحة حتى إن مدير أبحاث القطن فى باكستان عندما زار مشروع الجزيرة قال: إنه أعظم تجربة رائعة لحل المشاكل الإقتصادية والإجتماعية فى هذا القرن، وإنه مشروع مدروس لهذا فهو مشروع ناجح..
القسم الثالث: خصصه المؤلف للمسائل السياسية ومرحلة إلى ثلاث فترات حسب تواتر الأحداث وضمنه بفصل كامل عن « دور مصر» من ناحية سياسية ، وهذا القسم هو الأمتع لأنه يروى كيف تسببت الأحداث الداخلية والمؤثرات الخارجية والصراع المصرى البريطانى فى تمكين السودان من الوصول إلى مرحلة الحكم الذاتى ، ومن ثم تقرير مصيره، والذى تم بعد عامين كاملين من إنهاء ماكمايكل لكتابه هذا..

٧٩- أمير الصاوى ودار الثقافة

إلى أمير الصاوى: أصدر مركز عبد الكريم الثقافى كتاب « آراء وأفكار» من الخرطوم ٢٠٠٥م وجاء فى مقدمته : إن الكتاب مهدى من المركز إلى أمير الصاوى لأن الكتاب يحتوى على عدة محاضرات ألقيت فى دار الثقافة بالخرطوم، وكان أمير محتفظاً بها وإليه يرجع الفضل فى نشرها، وأمير الصاوى كان مساعداً لوكيل الخارجية ونائباً لحاكم الشمالية ووكيلا لوزارة الخدمة العامة ثم سفيراً للسودان فى بريطانيا وهو من مواليد ١٩٢١م فى سنار وله ست بنات وثلاث أولاد..

ويقول بروفسور حسن أبشر الطيب: إن أمير كان دؤوباً على متابعة كتابات حسن وشغوف بها، وأعتقد إننا جميعاً هكذا فإنتاج بروفسور حسن ممتاز جداً ومفيد جداً ، وقلبه محب للوطن ولأبناء الوطن، وهو من أهل إطلالة على عشق الوطن وكان رأيه أن يعود المواطن السوداني إلى السودان ويعمل شيئاً، ورفض في الخارج تدمير أي مرفق سوداني لأنه تدمير للسودان، وهو يقدم حقيقة ذهبية هي إن المدفع لا يبني بيتاً ولا يشفي مريضاً، ولا يزرع حقلا، ولا يحصد إلا دماراً، وإن الأوطان تبنى بالمحبة والتعاطف والإحترام المتبادل للرأى والرأى الآخر، والسعى الموصول لتعظيم عناصر الإتفاق ونبذ مؤسسات الفرقة..

وأذكر ومن خلال نفس دوافع بروفسور حسن إننى كتبت مقالا منذ أعوام عنوانه» بالمحبة نبنى وبالمحبة نعيد البناء» فالسودان ينبغى أن يكون دوماً وطن المحبة، وأن يكون محفلا يجمعنا جميعاً ويوجد بيننا فى محبة صادقة وعشق الوطن يجمعنا وحب الله يجعلنا نتآخى معاً.. لقد وعد أمير الصاوى أستاذنا الطيب بهدية خاصة تعبيراً عن إعجابه بإنتاجه، وكانت المفاجأة هدية رائعة ملفان يحتويان على نصوص المحاضرات التى قدمت بدار الثقافة، والذى بدأ فى سنة ١٩٤٠م..

وهذا كنز ثمين يعرف قيمته حسن أبشر والذى كان يوزع علينا أول محاضرة عن « الوجه الإنسانى للثقافة» وهو يعتز بها، وعندما قرأتها رأيت إنها تصلح لكل وقت وشاركنى كتابة فى هذا الرأى بروفسور محمود صالح عثمان صالح عندما قال: نُطالع الآن نص تلك المحاضرة بعد مرور ستين عاماً فتترك فينا أثراً بالغاً و أرى إنها ستترك الأثر نفسه فى أجيال لاحقة خلال الألفية الثالثة، وهذا طبعاً لأن الثقافة قديمة ومتجددة ولأن الكلمة القوية تبقى قوية حيث تحمل الكلمة قوة روحية دافقة لأن الله نفسه هو الكلمة وفى البدء كان الكلمة وكان الكلمة الله ، ولأن الله هو هو كما كان وهكذا يكون من جيل إلى جيل وإلى دهر الداهرين..

دار الثقافة: والكتاب الذى يقدمه لنا مركز عبد الكريم ميرغنى الثقافى والذى ساهم فيه أمير الصاوى وحسن أبشر ومحمود صالح هو تراث زاخر لكل الأجيال، وكما قال فرانسيس بيكون: ثمة كتب تصلح لمذاق وأخرى للإبتلاع وثالثة قليلة تصلح للمضغ والهضم، أى إن بعض الكتب تستحق أن يقرأ المرء أجزاء منها فقط، وأخرى تستحق أن تقرأ لمجرد حب الإطلاع، وكتب قليلة جديرة بأن تقرأ كاملة وبإمعان وتركيز..

ويقع هذا الكتاب تحت المجموعة الثالثة، الكلام الذى يؤكل أكلاً، وأكله لن يأتى بضرر حتى عندما يكون كثيراً لأنه سهل الهضم، وكما يقول الحكيم: قلب الحكيم يرشد فمه ويزيد شفتيه علماً، الكلام الحسن شهد وعسل حلو للنفس وشفاء للعظام (أمثال ١٦:٢٣،٢٤).. ناموس الرب كامل يرد النفس أشهى من الذهب والإبريز الكثير وأحلى من العسل وقطر الشهاد.. أما أرميا فيقول: وجد كلامك فأكلته فكان كلامك لى للفرح ولبهجة قلبى (أرميا ١٥:١٦).. وهذا يعنى إن الناس من زمان يأكلون الكلام الجميل ويضعونه فى بطونهم ويجرى أنهار ماء حى..

والكتاب المحاضرات أوكل تحريره إلى السير « رونالد هولى « لكى يقوم بتحقيقه وكان سعيداً بهذه المهمة على الأخص إنه معاصر للدار ومعاصر للمحاضرين، وهو يرى إن هذه المحاضرات لا تحتوى على مادة هامة للتاريخ فحسب، ولكن تضم أفكاراً فلسفية وتعليقات على صعيد السياسة الدولية الأوسع فى تلك الحقبة لأن دار الثقافة كانت منتدى يؤمه السودانيون والبريطانيون وغيرهم سواء كانوا من موظفى الحكومة أو العاملين فى قطاعات أخرى مثل القانون والطب والأعمال التجارية، يلتقون فى الدار لمناقشة قضايا فكرية وإجتماعية تثير إهتمامهم، وقد وفر هذا جسراً مهماً بين الحكام والمحكومين فى فترة تصاعدت فيها النزعة الوطنية..

لقد كان مؤسس دار الثقافة على علاقة طيبة مع الرواد السودانيين وهى علاقات شكلت بُعداً سياسياً مهماً فى تلك الأيام.. ومن الطريف إن دار الثقافة صارت معقلا وطنياً أوقد فتيل حب الوطن ومنه كان النداء ضد الإستعمار، ولكن الخطأ الكبير قرار إلغاء هذا النادى الثقافى المميز، وهكذا يتسرع صاحب القرار بحجج واهية تجعله يهدم داراً بمثل هذا العطاء ويحرم أهل السودان منها، لقد نشأت فيما بعد أكثر من دار للثقافة مثل : نادى الخريجين والنوادى الثقافية الأخرى مثل: نادى المكتبة القبطية بالخرطوم، ودار المكتبة القبطية بالخرطوم بحرى، ودار المكتبة القبطية بأم درمان، ونادى ناصر الثقافى..

ومما نذكره بالفخر والإعتزاز إن أحد خريجى الأزهر من مسلمى مصر كان سكرتيراً للمكتبة القبطية بالخرطوم.. ولقد تناقص عطاء هذه الدور الثقافى ونحتاج إلى صحوة ونهضة لكى تتعدد دور الثقافة فى كل ولايات السودان حيث تقدم نوراً لا يخبو، وأملا لا ينقطع، ومستقبلا مجيداً..

٨٠. إفتتاح خزان سنار

رحلة الإفتتاح: تحرك قطار الأمل فى أمسية الأربعاء ٢٠ يناير ١٩٢٦م من محطة الخرطوم متجهاً إلى موقع الإحتفال وإمتلأ فناء المحطة بجموع زاخرة من الرجال والنساء وإرتفعت أصواتهم بالتهليل والهتاف والزغاريد ، والوصف هنا بقلم حسن نجيلة والذى يقول: إن سبب هذا الزخم من الفرح ليس إبتهاجاً بإفتتاح الخزان والذى ما زال مجهول الأثر فى أذهانهم وتفكيرهم بل لأن القطار قد إزدحم بالزعماء الروحيين وكبار رجال الدين والأعيان.

وهنا إحتشد مؤيدو هؤلاء وأتباعهم يترنمون ويهللون ويهتفون ويصوتون ويصرخون تكريماً لعظماء القوم.. وفى صبيحة الخميس ٢١ يناير يصل القطار إى مكوار، ومكوار هو الإسم الذى يطلق على القرية التى أقيم فيها وهو إسم منشئها، وبعد الخزان تغير إسمها إلى سنار المدينة، وتهادى القطار يمشى متمهلا يسير الهوينى كما الوجى الوحل.. وتمتلىء القرية الصغيرة «مكوار» بجماهير عديدة تدفقت من كل حدب وصوب لا لتشهد هذا البعث الجديد فحسب بل لتشاهد أيضا هؤلاء السادة زعماء الروح والذين سعوا إلى هذه المدينة إحتفاء بإفتتاح الخزان.. وسعت هذه الجماهير الغفيرة لتسعد برؤيتهم..

ولقد إندهش الكاتب المصرى حسنين هيكل وهتف تعبيراً عن الحشد الكبير لليوم العظيم يقول: ماذا أرى ؟ ما هذه الألوف المؤلفة من خلق الله أهل السودان وما هذه الطبول والزمور وما هذه الزغاريد تشق عنان الجو؟ وما هذا العيد الذى لبس فيه أولئك السود الأبيض الجديد ؟ ما هذه الأعلام المصرية والإنجليزية يلعب بها نسيم الصبح العليل ؟ ما أظن أكبر مدن أية دولة من دول الحلفاء كانت مائجة بالناس يوم وضعت الحرب الكبرى أوزارها موج هذه البقعة المحيطة بترعة الجزيرة وخزانها ؟ أفحق إن أولئك كلهم جاءوا بباعث من نشوة الجذل والطرب يسعون لرؤية الماء ينزل فى ترعة الجزيرة ؟ أم إنهم حشروا إليه كما حشر المزغردات والهاتفون فى الخرطوم ؟ وكما يحشر الناس فى مصر زمراً للقيا كبير أو تحية أمير..

وهناك موكب وديع مهيب حدث فى السنوات الأولى من القرن الأول عندما تقدم السيد المسيح صاعداً إلى أورشليم، وإذ قرب من بيت فاجى وبيت عنيا عند الجبل

الذى يدعى جبل الزيتون أرسل إثنين من تلاميذه قائلا: إذهبا إلى القرية التى أمامكما وحين تدخلانها تجدان جحشاً مربوطاً لم يجلس عليه أحد من الناس قط، فحلاه وإتيا به ، وإن سألكما أحد لماذا تحلانه؟ فقولا له هكذا: إن الرب محتاج إليه، فمضى المرسلان ووجدا كما قال لهما ، وفيما هما يحلان الجحش قال لهما أصحابه: لماذا تحلان الجحش؟ فقالا : الرب محتاج إليه ، وأتيا به إلى يسوع وطرحا ثيابهما على الجحش وأركبا يسوع وفيما هو سائر فرشوا ثيابهم فى الطريق، ولما قرب عند منحدر جبل الزيتون إبتدأ كل جمهور التلاميذ يفرحون ويسبحون الله بصوت عظيم لأجل جميع القوات التى نظروا قائلين: مبارك الملك الآتى بإسم الرب، سلام فى السماء ومجد فى الأعالى.. وإرتجت المدينة كلها قائلة : من هذا والجموع قطعوا أغصاناً من الشجر وفرشوها فى الطريق، والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين : أوصنا لإبن داؤد مبارك الآتى بإسم الرب أوصنا فى الأعالى.. وإنتقد الموقف من الفريسيين وقالوا للسيد المسيح: يامعلم إنتهر تلاميذك.. فأجاب وقال لهم: أقول لكم إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ (لوقا ١٩ ، متى ٢١) ..

مراسم الإفتتاح: وفى الزمن المحدد، وتحت مظلة ضخمة أعدت للزوار، والحشد الحاشد يحيط بهم من كل جانب ، جلس المدعون وفى منصة خاصة جلس المندوب السامى والحاكم العام وكل بجواره قرينته، فللمرأة مكان مميز بجوار رجلها العظيم، وجلس معهم الوزير المصرى إسماعيل سرى باشا ومن ورائهم الشيخ محمد الطيب هاشم قاضى مدينة النيل الأزرق الذى كلف بقراءة ترجمة الخطب من الإنجليزية إلى العربية، وكان حاضراً للإحتفال الأسقف جوين أسقف الكنيسة الإنجليزية وكان عالماً فى الدين وفى تاريخ الكنيسة، وكان خطيباً مفوهاً، وأذكر له خطاباً روحياً عن أمجاد الكنيسة القبطية قدمه فى كاتدرائية العذراء بالخرطوم، وأملك نص هذه المحاضرة الجميلة، وكان الشيخ إسماعيل الأزهرى حاضراً للإحتفال ومشاركاً مع الأسقف جوين فى الصلوات..

وبدأ الإحتفال بخطاب من السير « جوفرى أرشر» الحاكم العام جاء فيه بعد الترحيب باللورد لويد وبقية المدعوين والزوار: إن العمل العظيم الذى نشاهده كاملا أمامنا فى هذه اللحظة ما بلغ هذه النهاية إلا بفضل جهاد أناس كثيرون.. فقد ظل مشروع رى سهول الجزيرة موضوع بحث المستشارين البريطانيين الذين تعاقبوا

فى وزارة الأشغال المصرية من عهد السير وليم جارستين.. فالأبحاث الأولية التى بدأها المستر ديبوى أكملها السير مردوح ماكدونالد بمساعدة كتشنر وونجت وستاك، وقد وصلت برقية من ونجت وماكدونالد تقول: عسى أن يكون إفتتاح الخزان ومشروع الجزيرة فاتحة عصر جديد للسودان وشعبه..

وقد تكرمت وزارة الأشغال المصرية فوضعت بغاية السخاء تحت تصرف حكومة السودان كل ما كان لديها من المواهب للقيام بتخطيط وإنفاذ هذا المشروع العظيم.. وشكر الحاكم العام الوزراء والمهندسين المصريين الذين كان لهم مجهود كبير لإتمام مشروع خزان سنار..

٨١. السودان أبو الكل

والنيل أبو الحضارة

أبُ الكل: نعتز بأن السودان أبو الكل ونعتز بأن كل مواطن سودانى ينتمى إلى قبيلة بعينها، ولكن هذا لم يجعله يرفض القبائل الأخرى ، وعندما يأتى نداء الوطن يلبى الجميع النداء، وقد تعاونت كل القبائل لأجل درء عار الإستعمار عن أبو الكل، وإشترك الكل متعاونين وفى ثورة ١٩٢٤م قاد الثورة على عبد اللطيف وهو من الرقيق الذى كان يعانى شظف إستعباد الآخر.. إنه من أصل زنجى عاش فى الشمال لكنه كسر الحاجز النفسى وقاد ثورة شعب..

وهذا الحاجز النفسى كان يحتاج حسمه إلى مواجهة حاسمة وجرأة تخرج القضية كلها إلى دائرة الضوء بدلا من التستر عليها والتحرر من الإستعلاء أو الإستحياء ومواجهة الواقع ، لقد أراد على عبد اللطيف أن يتلاشى الحاجز الذى يطل من فوقه أهل الشمال على العناصر الزنجية بإعتبارهم « عبيداً» بينما العبودية وضع إقتصادى إجتماعى وليست صفة عرقية ملازمة للعناصر الزنجية..

لقد بيع يوسف كعبد رقيق وهو إبن ليعقوب أبو الأسرة الممتدة وهو ليس زنجياً بل لقد جذب جمال بشرته البيضاء زوجة عزيز مصر فوطيفار ومعه إندهشت سيدات نساء المجتمع المصرى، وعندما مر أمالهم جاروا بالسكين على أياديهن الرقيقة

لأنهن إنبهرن بجمال هذا العبد العبرانى، ولقد باع توما أحد تلاميذ المسيح نفسه كعبد لكى يذهب ويبشر فى الهند..

ويحكى مسيحو الهند أعضاء الكنيسة التوماوية : إن السيد المسيح هو الذى ظهر ووقّع على عقد الرق، ولم يكن توما زنجياً إنما كان أبيض البشرة وهو من أبناء يعقوب وتلاميذ المسيح.. وشاركت كل القبائل تحت زعامة هذا الزنجى المناضل لأنه قبل كل شىء إبن للسودان والسودان هو أبو الكل.. ولقد شاركت كل قبائل السودان فى هذا العمل الوطنى، فالأقباط مثلا شاركوا بعدد من الرجال فى ثورة ١٩٢٤م يتألق منهم وهبة إبراهيم خليل وهو من أقباط أم درمان وهو أيضا خال الشاعر عزيز أندراوس، وقد شاهده عزيز راكباً « كومر» الحكومة ذاهباً مع رفاقه إلى السجن عام ١٩٢٦م وحضر الإحتفال بمقدمه والذى أحيته الشاعرة السودانية شريفة بنت بلال غناءً حياً ونشيداً راقصاً..

ومن قبيلة يهود السودان ، كان اليهودى إبراهيم إسرائيل داؤد مهندس المساحة من مؤسسى جمعية اللواء الأبيض ومزاملا لكل من عبد الله خليل بك، ومحمد صالح الشنقيطى، وأحمد خير المحامى، وعندما تحرر السودان وجاء أول إنقلاب عسكرى بقيادة عبود كان ألياهو بن اليسار اليهودى السودانى أثناء دراسته فى جامعة الخرطوم عضواً فى الحزب الشيوعى السودانى، وكان كادراً نشيطاً يجيد تحريك ماكينات الطباعة السرية الخاصة بالحزب وتوزيع المنشورات..

وقد عرفه كثير من الناس مناضلا جسوراً ضد ديكتاتورية عبود ، وهو رغم إنه ترك السودان وترأس الكنيست اليهودى مجلس الشعب عندهم فهو حتى الآن عندما يرى سودانياً فى مطارات وعواصم أوربية يندفع نحوهم معانقاً فى إنفعال ومحبة.. وعندما تحرك المثقفون ضد إنقلاب نميرى كان سمير جرجس زعيم قبيلة الأقباط مناضلا جسوراً فى الحزب الشيوعى يكتب ويفكر ويوزع المنشورات حتى تقوّمت أركان النظام.. وعندما إستشهد القرشى معه إستشهد لورانس وهو يمت لأسقف الخرطوم الأنبا إيليا بقرابة شديدة..

النيل أبو الحضارة: يمتاز السودان ليس بنهر النيل فقط، إنما بعدة أنهار ولقد وصف أشعياء شاعر فلسطين الجميلة أرض كوش» قد إخترقت الأنهار أرضها وركب أهلها البحر فى قوارب من بردى، ونهر النيل هو أبو الحضارة فى السودان، بل هو الذى

ربط حضارة الدنيا بأمل الآخرة.. فلقد ساد الإعتقاد بأن نهر النيل ينبع من السماء ويصب فى الأرض وعندما رأى الناس زمان إن دجلة والفرات ينبعان من الشمال ويسيران عكس نهر النيل إعتقدوا إنهما يسيران فى إتجاه خاطىء، والنيل هو المعلم الذى أكد أبوة السودان وأبوته هو..

وعلمّ النيل أهل السوْدان حضارة التعاون والنظام وبناء الجسور والسدود، وأوجد النيل مدناً وتخطيطاً وعلى مسيرة شاطىء النيل من الشلال فى أسوان إلى داخل السودان نشأت المدن الحضارية مروى والنوبة ودنقلا وفرص والمقرة وعلوة ، وبنيت على الشاطىء كنائس العصر المسيحى، وأديرة الرهبان ومناسك المتوحدين، وكانت هذه المدن مدناً نهرية تميل إلى الإستطالة لكى تستفيد من الجهة المائية على النيل، وقسمت فصول السنة إلى ثلاثة فصول: الجمال وهو الفيضان والخير والحصاد ، بل إن السنة تبدأ بموسم الخريف فى أول توت ١١ سبتمبر من كل عام.. إن السودان أبو الكل، والنيل أبو الحضارة..

٨٢. السودان أبو الدين والدنيا

أبوة السودان: يحلو لنا الحديث عن أبوة السودان، فالسودان هو أبو الدنيا لأن الدنيا بدأت عندنا عند أول تحرك لهدير الماء فى ممر نهر النيل العظيم وبجوار نهر النيل ظهرت أقدم الحضارات وعلى شطآن النيل سكن الإنسان مستقراً بعد تجوال كثير بحثاً عن الماء والكلأ.. وتبدلت الخيام إلى بيوت من طين، وتبدل الطين فى قوة الطمى إلى طوب أحمر، وإبتنى الإنسان بيوتاً جميلة وأنيقة وعاش مستقراً ينام آمناً فى سلام فى بيته ويستيقظ باكراً إلى حقله ويعمل فى الحقل عملا دؤوباً يسحب الماء إلى أرضه ويزرع أجود الزراعة..

ومع الزراعة يستقر.. ومن الزراعة يتعلم معنى الحياة ويتعلم أيضا درساً خالداً هو درس الخلود فيما بعد الحياة وإحتضن الأبدية فى أعماقه وبدأ يفكر فى البيت الأبدى ومن خلال هذا تحدث عن الحياة على الأرض على إنها خيمة لأنها غير مستقرة والحياة بعد الموت بأنها بيت مستقر، وأكد هذا قائلا: لأننا نعلم إنه إن نقض بيت خيمتنا الأرضى فلنا فى السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيد أبدى، وقال: إن الحياة هنا أنين أشواق نحو المسكن المستقر فى السماء فإننا فى هذه نئن

أيضا مشتاقين إلى أن نلبس فوقها مسكننا الذى من السماء، بل إعتبر إن حياة على الأرض عارية حتى يلبس الحياة الأبد، وإن كنا لابسين لا نوجد عراة، فإننا نحن الذين فى الخيمة نئن مثقلين إذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها لكى يبتلع المائت من الحياة..

وهنا صار الوطن السودان لنا أباً، وبدأ الإنسان يحيا فى أبوة السودان يعد نفسه للخلود، ويتجه نحو إرضاء الله حتى لا ينتقل من الأرض من أبوة السودان إلا إلى أبوة الله فى مسكنه السماوى ، وقال الإنسان: بنيت قبورنا قبل أن تبنا، ياليتنا تبنا قبل أن تُبنى.. ومن خلال أبوة الوطن إقتنع الإنسان بأن الموت هو الطريق إلى الحياة الأبدية ومن خلال الزرع على شطآن النيل عرف هذا لأن حبة الحنطة لا تنبت إن لم تمت أولا، لأبد للبذرة أن تموت لكى تبدأ الحياة الجديدة الجميلة فى المجد الأبدى المُعد لنا منذ تأسيس الدهور..

أبو الدين والدنيا: وخلال الحياة فى الدنيا يعتز المواطن السودانى بأنه فهم كثيراً عن ما بعد هذه الحياة من خلال النيل الذى تتجدد مياهه بالفيضان فى موسم محدد كل عام، وإذا كان أحد الفلاسفة قد قال: أن لا تنظر إلى البحر مرتين فإن النيل فى حركته السريعة من الشمال إلى الجنوب يتحرك الماء ولا تنظر إلى ماء مرتين وتزداد عذوبة الماء بهذه الحركة التى فيه، وبتوزيع الماء فى الطريق على كل الذين يزرعون على شطآن النيل، وهذا هو العطاء والذى يعطى يُعطى، وعطاء النيل لا ينقص قدر مياه النيل بل يزيدها مكانة وإمكانية..

والمواطن السودانى يحيا على أرض واسعة ومتسعة ، إنها أرض المليون ميل مربع وحياته على الأرض الواسعة جعل تطلعاته واسعة نحو الأبدية، نحو ملكوت السموات، نحو الجنة والتى طولها طول الأرض وعرضها عرض الأرض بل أكثر من هذا وهى تسع الجميع لذلك لم ينغلق المواطن السودانى ويقول : إن الجنة له فقط وليست لغيره، وعاش فى أبوة السودان التى تجعله يؤمن إنه وطن يسع الجميع، وعاش رحلة التمدين والتدين، وفى تدينه إحترم المعبد والكنيسة والمسجد..

والسودان أبو الأديان منذ أقدم كريم الأديان، فلقد كان بعنخى القائد السودانى فى رحلته نحو الشمال لكى يوحد مصر والسودان، عندما يدخل إلى أى مدينة يتجه ومعه الجنود إلى المعبد وينظمه وينسقه ويغسله مع الجنود ويوسع تخومه ويخرج

التماثيل التى فى المعبد ويغسلها ويضعها فى الموضع المناسب، ولم يكن يؤدى هذا كدبلوماسية ليسيطر، كلا.. إنما من كل قلبه كان يحترم المعبد وإله المعبد، وظل السودان أبو الأديان ، وعلى أرضه عاشت الأديان القديمة والأديان التوحيدية ، ووجد المسيحى واليهودى والمسلم مكاناً فى قلب أبوة السودان دون أن يمتن واحد من أبنائه على الآخر، لقد ظل السودان منذ أول الأديان وحتى الآن هو أبو الدين بل أبو لكل الأديان..

٨٣- السودان أبو الرجال والنساء

أبوة من الله: السودان أبو الكل وأبوته تنبع من أبوة الله، وفى المعجم الوجيز الذى أصدره مجمع اللغة العربية ١٩٨٠م تأتى كلمة الآب فيقول المعجم : إن الآب هو الأقنوم الأول عند النصارى، والآب صفة الله وكلمة تطلق عليه هو فقط، أى إنسان يسمى أب، ولكن الآب بالشدة على الألف لا تقال سوى على الله لأنه الآب السماوى، ويتطلع إليه على إنه أبو للكل أبى وأمى قد تركانى أما الرب فإنه يضمنى، فالآب السماوى هو الصدر الحنون للإنسان ويصلى المسيحيون الصلاة الربانية التى تبدأ « أبانا الذى فى السموات ليتقدس إسمك ليأت ملكوتك» ، وهذا إعلان فى كل صلاة إن الله هو أبونا السماوى..

ويأتى دور شعر أشعياء فى ملحمة الأبوة عندما يتحدث عن المسيا المنتظر وأبوته» لأنه يولد لنا ولد ونُعطى إبناً وتكون الرياسة على كتفه ويدعى إسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام (أشعياء ٩).. هذا الولد المنتظر من صفاته إنه سوف يكون أباً أبدياً ويتخاطب أشعياء مع أبوة الله فيقول :

تطلع من السموات وأنظـر..

من مسكن قدسك ومجـدك..

أيـن غيرتـك وجبروتـك ؟..

زفير أحشائك ومراحمك نحوى إقتنعتُ ..

فإنـك أنـت أبويـــا..

وإن لم يعرفنا إبراهيـــــم..

وإن لم يدرنـــا إسرائيــــل..

أنـــت يـــارب أبونـــــا..

ولينا منذ الأبد إسمك (أشعياء ٦٣)

ويستدر أشعياء مراحم الله الآب السماوى ويطالب الله أن لا يسكت على ظلم الناس ويذلنا كل الذل :

والآن يارب أنت أبونا

نحن الطين وأنت جابلنا

وكلنـــا عمــل يديــك

لا تسخــط كــل السخــط

ولا تذكــر الإثــم إلى الأبد

ها أنظــر شعبك كلنـــــا

ألأجل هذه تتجلــــد يارب ؟

أتسكت وتذلنا كــل الـــذل ؟

والله نفسه عندما يجد شعبه ينساه يتساءل فى ملاخى :

الإبن يكرم أباه..

والعبد يكرم سيده

فإن كنت أنا أباً فأين كرامتى ؟

وإن كنت سيداً فأين هيبتى ؟

ونحن نفهم إن أبوة الآب السماوى لا تعنى إنه تزوج بإمرأة وأنجب منها أبناء ، إنما هى أبوة تتنزه عن الزواج وتملأ حياة الإنسان عطفاً وتعاطفاً وتعزية ومساندة خلال رحلة الحياة، وكما يحمل الأب إبنه يحمل الآب السماوى أبناؤه لأن فؤاده

حنون يرق للإنسان ، ولأجل هذا تتصدر عبارة « سلام من الله أبينا « رسائل بولس الرسول إلى كورنثوس، وكولوسى، وتسالونيكى..

أب للرجل والنساء: ونحن نفتخر بأن السودان هو أبو حنون عطوف حازم فى غير عنف على الرجال كما على النساء، وإذا كان العالم كله يعد منذ الآزمان القديمة مجتمعاً ذكورياً لا مكان للمرأة فيه حتى فى الإحصاء لم تكن المرأة رقماً فى الإحصاء ويقولون : إن خمسة آلاف رجل أكلوا من الخمس خبزات والسمكتين ما عدا النساء والأطفال، وهكذا أربعة آلاف أكلوا من السبع خبزات ما عدا النساء والأطفال، ولكن السودان أبو للرجال والنساء..

ويعتز بالمرأة أيما إعتزاز ويعطها أعظم مكان ويجلسها على عرش المُلك، وعندما كان العرب يتعالون على مجتمع الزنوج أو الموالى فإن هؤلاء الموالى يفتخرون عليهم بأنهم يكرمون البنات، وجاء فى الأغانى للأصفهانى :

فأتركى الفخـر يا أمام علينـــا

وأتركى الجور وأنطقى بالصواب

وإسألـــى إن جهلــت عنا وعنكم

كيف كنا فى سالــف الأحقاب ؟

إذ نــربى بناتنـــــأ وتدســــــون

بناتكــــم فـــى التـــــــراب

والحديث هنا عن عادة وأد البنات عند القبائل العربية بينما فى ممالك السودان القديمة كانت الملكة الأم والتى تجلس بجوار الملك لتضفى على قراراته الحازمة حنان المرأة ولتكون المرأة صمام أمن أمام الرجال الملوك العُتاة.. وعندما وضعت اللوحات الفنية أيقونات فى صدر الكنيسة رسمت المرأة مثلما رسم الرجل، رسمت العذراء مريم وأمها القديسة حنة والقديسة دميانة، وكانت الكنداكة وهو لقب يعنى « المرأة العظيمة « ملكة للسودان، ذكرها الأصحاح الثامن من أعمال الرسل..

وعندما أخذت أم ملك النوبة بواسطة السلطان العربى العادل المنصورى أرسل الملك النوبى خطاباً إلى السلطان يقول : لا يدير ملوك النوبة سوى النساء، وطالبه

أن يفرج عن والدته حتى لا يختل الحكم فى النوبة، وكانت الملكة الأم فى مروى تشترك فى تدبير شئون المملكة مع إبنها، وإذا ماتت الأم يختارون إحدى نساء الأسرة ويطلقون عليها لقب الملكة الأم، وكان الخال يورث المُلك لإبن أخته، وبسبب توريث إبن الأخت ومصاهرة العرب للنوبة عاش العرب فى السودان كمواطنين ، والمهم إن السودان هو أبو الكل رجالا ونساءً..

٨٤- الصوفية أبوة سودانية حانية

أبونا البرعى: قبل أن يغادر الصوفى السودانى الحكيم الشيخ البرعى عالمنا هذا كان الناس قد بدأوا يطلقون عليه إسم أبونا البرعى، ولقب أبونا يشمل رغبة فى الحنان، ولقد بحث أهل السودان عن حنان الأبوة ووجدوه فى رجل الصوفية هذا، وفى كل رجال الصوفية وإستبدلت فى الإستعمال كلمة حيران لتكون أبناء، وكل تلاميذ رجال الصوفية صاروا أبناء للأب الصوفى وهم أبناء بدون زرع بشر وبطريقة رمزية وروحية تقرب إلى الأفهام المعنى الرمزى للأبوة، فنحن أبناء السودان، وأبناء وادى النيل دون مصاهرة أو زواج جسدى..

ولقد تسمى عندنا الناس بأسماء كهذه فعندنا إبن البادية، وبنت النيل، وهكذا.. ويحتل الصوفى مكانة محترمة فى قلب أبنائه وهم عندما يلقونه يسلمون عليه بإحترام ويقبلون يديه، وهذا التقبيل بل اللقب نفسه أبونا موجود منذ بدء المسيحية فى القيادة المسيحية ، فالأب الكاهن حتى وإن صغر سنه هو أبو روحى لجميع رعيته، ويأتى تقبيل اليد إحتراماً ومشاركة فى الصلاة لأن الإنسان عندما يطبع قبلة فمه على يد مرشده الروحى إنما يضع كلام فمه على هذه اليد المباركة التى ترتفع بالصلاة أمام الله ويكون الإبن جزءاً من الصلاة المرفوعة لهذا الأب..

وعندما يلتقى الإبن بأبيه يحيا عطفه وحنانه ويتمتع بأبوته إرشاداً وتعليماً وسعياً نحو الهدف الروحى الأسمى وإعداداً لحياة الأبد، وإستعداداً للوقوف أمام الله وتجهيزاً للتوبة الصادقة التى تبيّض وجه المخلوق أمام الخالق.. ولقد ذكرت كلمة أبونا فى القرآن الكريم قلنها بنات مديان لموسى كليم الله لأنه عندما ورد ماء مديان وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم إمرأتين تذودان قال: ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير..

وهذه هى المرة الوحيدة التى ذكر فيها كلمة أبونا والمعنى المادى الحرفى للكلمة، بينما جاءت كلمة ياأبت حيث قالها يوسف لأبيه أكثر من مرة.. إذ قال يوسف لأبيه : ياأبت إنى قد رأيت أحد عشر كوكباً، وقال : ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل، كما قالها إسحق لأبيه إبراهيم: ياأبت إفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين..

أبوة الصوفية: وأبوة الصوفية تتفق جداً مع إشارات الجمال والإبداع عندهم، وفى الفلسفة الصوفية هناك كنايات ورموز ذكرها بروفسور حسن الفاتح غريب الله فى كتابه بنفس العنوان وأعطوا للعلم وتدريسه إسم سعدى وليلى كقول الغزالى :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل

وعدت إلى مصحوب أول منزل

ونادت بى الأشواق مهلا فهذه

منازل من تهوى رويدك فأنزل..

والصوفية يجوز عندها إستعمال الرمز بالجمال الأنثوى للدلالة على الذات الإلهية بل يصل الصوفى إلى درجة فناء المنفعل فى الفاعل وتخطى عالم المحجوب والوصول إلى درجة تلاشى المراتب :

هذا الوجود وإن تعدد ظاهراً

وحياتكم ما فيه إلا أنتـم

بل أنتم نفس الوجود حقيقة

فالذات والأفعال كلا منكم..

وتشير الأحاديث الشريفة إلى أن الله خلق آدم على صورته وهو نفس تعبير سفر التكوين : إن الله خلق آدم على صورته ومثاله وهو تعبير روحى يعنى صورة الله فى التقوى والقداسة، وصورة الله فى مخلوقاته وشوق الخلق لمشاهدة نور الجمال.. لقد أدركت الصوفية فى السودان رموزاً روحية عديدة ودخلت إلى صفات روحية مجيدة..

ولهذا تعتبر الصوفية فى السودان أبوة حانية ، وإذا كان السودان هو أُبُ الكل،

فإن الصوفية ساهمت مساهمة روحية فى إعتماد هذه الأبوة الروحية لأن الصوفية نزوع واع نحو الكمال، وتعلق جاد بالواحد المتعال، والصوفى يفنى فى حب الله، ويتفانى فى حب أخيه وإبنه الروحى، ولهذا يطلق لقب أبونا على رجال الصوفية..

٨٥. أبوة السودان للدنيا حزم وعزم

مكانة الأب: فى ميدان الحديث عن السودان أبو الكل نتحدث عن مكانة الأب والذى يحتل مكانة عظيمة فى الحياة، هو مسئول عن الإنجاب ومسئول عن التربية ومسئول عن الحزم والعزم فى تربية الأبناء، وأشعياء يقول شعراً عن تربية الله للناس وعن عصيانهم : إسمعى أيتها السموات وأصغى أيتها الأرض لأن الرب يتكلم، ربيت بنين ونشأتهم أما هم فعصوا علىّ (أشعياء ١:٢).. والأب مطالب بالحزم والعزم ، والأم بالحنان والعطف، ومسألة التربية ميدان مشترك يتكامل فيه الأب والأم..

وهنا يتدخل سليمان الحكيم ويقول: رب الولد فى طريقه فمتى شاخ لا يحيد عنها، ويلتزم بالحزم فى التربية، أدب إبنك لأن فيه رجاء، أدب إبنك فيريحك ويعطى نفسك لذات، بل ويطالب بحمل العصا للتأديب ويقول: الجهالة مرتبطة بقلب الولد عصا التأديب تبعدها عنه، أدب إبنك بقضيب من حديد، بل إن الرب نفسه فى أبوته يؤدبنا أدباً : إنى كل من أحبه أوبخه وأؤدبه فكن غيوراً وتب (رؤيا ٣:١٩)..

وهذا الحزم ليس محاولة للإنتقام، إنما هو فى ميزان محدد حتى لا يغتاظ الأبناء من الآباء، وأنتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم ، بل ربوهم بتأديب الرب وإنذاره (أفسس ٦:٤).. والوصية للإنسان أن يحترم الأب ويعطه مكانته :

إسمع ياإبنى تأديب أبيك ولا ترفض شريعة أمك ، ياإبنى إحفظ وصايا أبيك ولا ترفض شريعة أمك، إسمع لأبيك الذى ولدك ولا تحتقر أمك إذا شاخت، إقتن الحق ولا تبعه والحكمة والأدب والفهم..

وكل هذه النصوص الكتابية تؤكد إن التربية عملية مشتركة بين الأب والأم، ولا مكان فيها للإرتخاء ولا التهاون ولا التسيب.. فلقد كان عالى الكاهن على مستوى فردى روحى كبير ولكنه أهمل فى تربية أولاده وعوقب على هذا أشد العقاب..

وطن للجميع: والسودان وطن للجميع، أبو لكل المواطنين، ولهذا يسعى الساسة فى تأكيد حقيقة المواطنة، وإن أهل السودان متساوون فى الحقوق والواجبات دون

تمييز بسبب الجنس أو العرق أو الدين، وتؤكد الحكومات الإسلامية فى السودان إنه ليس هناك أى مانع أن يكون رئيس الجمهورية مسيحياً من خلال الإنتخابات الحرة وعلى مستوى تاريخنا الحديث لم يحدث هذا، ولكن الباب مفتوح أمام الكل، والسودان وطن يحب المواطن، فيه أبوة الوطن ، يحب عزمه وحزمه، والمواطن السودانى لا يعجبه أى مكان فى العالم قدر إعجابه بالسودان، بحلوه ومره، بهبوبه وحره، بكل ما فيه من سلبيات يبتلعها المواطن برضا ، وإيجابيات يحياها..

وعندما يصل إلينا أحد من خارج السودان فإنه يشاركنا محبتنا للسودان ، لمائه وهوائه.. ويتذكر نومة السهلة تحت السماء عندما يأتى المساء ونسلم أوراقنا للعلى القدير ملك الأرض والسماء وتمتلىء عيوننا بالنجوم والكواكب وضوء القمر الجميل، والسودان هو الأب الذى يحترمه المواطن السودانى ويسعى إلى راحته ويفكر فى تقدمه ويركب المخاطر من أجله ويتنافس فى حبه مع أشقائه المواطنين وحتى الذين من أصل جنس آخر عندما يستوطنون فى السودان يكون السودان بالنسبة إليهم هو كل شىء والدليل على هذا إن اليهود الذين عاشوا فى السودان هم حتى الآن محبين وعاشقين للوطن..

والأقباط الذين هاجروا هروباً من شعارات كانت ضدهم كلهم على أهبة الإستعداد للعودة إلى بلادهم إلى الإستمتاع بأبوة السودان حزماً وعزماً، ولم تعجبهم أجمل البلدان التى يعيشون فيها ويعتبرون وطنهم السودان ليس بلد آخر فى مستوى جماله، وهكذا أجناس كثيرة من شوام وهنود وأوربيين وأمريكان ومغاربة وإنجليز كلهم إذا زاروا السودان يشتاقون إلى أبوته الحانية الجميلة ، فهو الوطن العظيم والأب الكبير لكل الدنيا منذ أن بدأت الدنيا ، وهو الآن مخزن الخير لكل الدنيا وسوف يكون أباً للكل للعالم كله بما فيه من مخزون إستراتيجى من البترول والمعادن والماء والأرض، إن أبوة السودان للدنيا هى حزم وعزم..

٨٦. السودان أبو كل الأجناس

سفر الرؤيا: يصف الإصحاح السابع من سفر الرؤيا منظر الجمع الكثير الواقف أمام عرش الله حيث رأى الرائى يوحنا جمع كثير لم يستطع أحد أن يعده ، من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة واقفون أمام العرش متسربلون بثياب بيض وفى

أيديهم سعف النخل وهم يصرخون بصوت عظيم قائلين: الخلاص لإلهنا الجالس على العرش وجميع الملائكة واقفين حول العرش والشيوخ والكائنات الأربعة وخروا أمام العرش على وجوههم وسجدوا لله قائلين : آمين، البركة والمجد والشكر والكرامة والقدرة والقوة لإلهنا إلى الأبد آمين.. وقال واحد من الشيوخ : إن هؤلاء المتسربلين بالثياب البيض هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة وهم أمام عرش الله يخدمونه، لن يجوعوا بعد، ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر لأن الله يمسح كل دمعة من عيونهم..

أما الإصحاح الثانى والعشرون من سفر الرؤيا فإن الرائى قد رأى نهراً صافياً من ماء حياة لامعاً كبلور خارجاً من عرش الله فى وسط سوقها وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة تصنع إثنى عشرة شجرة وتعطى كل شجرة ثمرها، وورق الشجرة شفاء للأمم ولا يكون لعنة فيما بعد ، وعرش الله يكون فيها وعبيده يخدمونه وهم سينظرون وجهه وإسمه على جباههم ولا يكون ليل هناك ولا يحتاجون إلى سراج أو نور شمس لأن الرب الإله ينير عليهم وهم سيملكون إلى أبد الآبدين..

إن هذا هو منظر السماء وعرش الله الذى إليه سوف يجتمع كل الشعوب وكل الأمم وكل القبائل وكل الألسنة ومن بينهم طبعاً السودان وأهل السودان، ولكن السودان خلال تاريخه كله كان ولم يزل أباً لكل الأجناس وعلى أرضه عاشت أمم وقبائل وشعوب تعاونت وتعايشت، وكان السودان أولا مجموعة من القبائل المتعددة والمتباينة، ولكنها المتعايشة معاً والمتكاملة معاً..

أبو كل الأجناس: إن السودان أبو لكل الأجناس، على أرضه الطيبة عاش الأقباط، والأتراك، والهنود، واليهود، المسيحيون والمسلمون، الحلب، والشوام، والمغاربة.. وتحتوى حتى الآن أرض السودان فى باطنها على أتراك دفنوا فى قباب الخرطوم، ويهود دفنوا فى مقابر اليهود بالخرطوم وأم درمان، وهنود فى أم درمان ، بل يقول طارق الشريف: إن أم درمان هى متحف الأصالة وقد كتب كتاباً تحت هذا العنوان، وفى أم درمان أحياء مثل :

(١) حى الشهداء والذى دفن فيه شهداء كررى وعلماء الدين والشيخ سليمان الحجاز وفيه حى كهربة عامر الذى علّق على بابه أول لمبة كهربائية تدخل أم

درمان، وحى اليهود الذى سكنه عدد من عائلات اليهود وإستقروا فيه، ويذكرون إن هذا الحى كان فيه عيادة اليهودى سليمان بسيونى، وسيمون تمام ومس فلورا، وجانيان التاجر اليهودى فى الآوانى المنزلية، والدكتور منصور إسرائيل صاحب إجزخانة الآزمنة بالعارضة..

(٢) حى المسالمة والذى يسكنه حتى الآن عدد مقدّر من الأقباط.. وقد إستوطن الأقباط هذا الحى منذ قديم أزمنة أم درمان وقد أسماه بروفسور زاهر رياض حارة النصارى.. وتحدث فيه عن إهتمام الأقباط بالميزان التجارى وإنعاش التجارة ودفعها بالجهد والعرق والدم، ويقول البروفسور فى كتاب كتبه «الإسكندرية فى أفريقيا» صفحة ١٨٩: إنه إذا تباهى البريطانيون بأنهم عملوا على تمدين السودان كذّبهم الأقباط فى دعواهم إذ أسرعوا إليه وإنبثوا بين أرجائه يعملون فى مختلف نواحى النشاط فشغلوا جزءاً كبيراً من وظائفه وقبل أن يجاذف البريطانيون بقرش واحد من أموالهم فى هذا القطر المجهول المصير، بادر الأقباط بطرح أموالهم فى السوق والإشتغال بالتجارة ، كما أجاد الأقباط صناعة الثياب النسائية ، ويتغنى البنات بالنقادية ويقولون: توب الكرب الجابوه النقادة..

(٣) حى البوستة وتعد أم درمان هى كل السودان فهى مركز لكل الأجناس وفى حى البوستة عاشت أسر تجار الشمالية والذين يتاجرون فى التمر والأعشاب والبخور، وفيها المقاهى الثقافية الشهيرة، قهوة جورج مشرقى، وود الأغا، ويوسف الفكى..

(٤) حى العرب والذى إستقرت فيه بعض القبائل العربية ، وهو أقدم أحياء أم درمان وقد إستوطن فيه العرب بناءاً على أمر الخليفة عبد الله التعايشى الذى جمع فى جيشه الأقباط والشوام والعرب، ويرجعون هذا الحى إلى السلطنة الزرقاء..

(٥) وقد سكن العاصمة كثير من الهنود وعملوا بالتجارة منهم : دامجى، وكسنداس، وسامجى، وشنتلا، وإشتغلوا بحياكة ملابس النساء وعلى الأخص السارى الهندى المشغول بالخيوط الذهبية، وزينة العروس فى يوم عرسها.. لقد عاشت كل الأجناس فى السودان لتؤكد إن السودان أبو لكل الأجناس، ولكل الناس..

٨٧- السودان أبو الكل المُكرّم

كرامة السودان: إن الكرامة هى أغلى ما يمتلك المواطن السودانى، وهو غنى بكرامته، وعندما حدثت مجاعة أيام حكم الخليفة التعايشى لم يتنازل السودانى عن كرامته، وعندما نفذت المؤن كان الأب والأم ينامان على السرير فى إنتظار الموت، ويربطون الأولاد فى السرائر حتى لا يخرجون لإستجداء لقمة الخبز، ومات كثيرون فى منازلهم وبكرامتهم، ولقد عاش المواطن السودانى فى السودان أبو الدنيا مُكرّماً مُحززاً يتحدث بكرامة ويحيا بكرامة، ويرفض أن يفقد كرامته منفعلا أو متوتراً..

ولقد تم التسليم والتسلم بعد الإستقلال فى كرامة ودون أحقاد وكما قال السير جيمس روبرتسون الحاكم العام الذى حضر إحتفال الإستقلال : إنه كان لابد من أن تأتى لحظة التسليم، وعندما تبدأ الأنهار فى الجريان فلابد أن تتهاوى حواجز الفيضان، إذا حاول الإنجليز البقاء لكان نشوب الشغب مؤكداً ، ولأمكن وقوع الكثير من سفك الدماء، ولتصدعت النوايا الطيبة بين الجانبين ووصلت إلى نقطة الإنهيار، ولإتسم التسليم الآخير بالمرارة الصحيحة، ولكنه رأى عكس ذلك فلقد ودع حكام المديريات بمنتهى الود والإحترام وبقيت العلاقات ودية تحفها المجاملات..

وهناك مواقف أخرى تؤكد إن السودان أبو الكل المُكرّم من الكل وهذه بعضها :

عندما زار الرحّالة الفرنسى « شابيه لونج « الخرطوم فى منتصف القرن التاسع عشر لم يستطع إخفاء إعجابه بالمدينة، وقال : إنها تذكره بباريس بمحالها التى تشبه « الباليه رويال « الزاخرة بكل ما يحتاجه الإنسان العصرى، بالإضافة إلى حدائقها الغنّاء بثمارها المتنوعة التى وصفها بحدائق « الشنزالزيه» أما الرحالة الإيطالى «بايارد تيلر» فتمنى أن تكون شوارع الخرطوم روما وفلورنسا فى مثل نظافة شوارع الخرطوم..

صارت الخرطوم وطناً ثانياً لكثيرين من أهل أوريا عاشوا السودان أبو الدنيا مثل " كلين" الخياط الألمانى، "وهنزل" نائب القنصل، ووصف البعض إن الخرطوم وهى ملتقى كل الشعوب وكل راغبى الصيد وجامعى الثروة إنها أوربا صغيرة، وقال عنها ليجان: إن الجنة عند نقطة الإلتقاء بين المدنية والهمجية..

جاء فى صحيفة الأهرام ما كتبه أديب مصرى عن الخرطوم : إنها مدينة جامعة

إلى جمال الموقع الطبيعى محاسن النظام المدنى والرونق الحضرى وأكثر أبنيتها من الحجر واللبن الأحمر مزدانة بالجبس والأجر، وقصورها فى غاية البهجة والرونق، وشوارعها منتظمة جداً وفيها شاطىء يبتدى من شاطىء النيل الأزرق وينتهى عند جنوب المدينة يسمى السكة الجديدة ، إستعارة من إسم السكة الجديدة فى القاهرة، وجميع سكانها محافظون على عاداتهم الأصلية، ثم نشأ فيها التقليد الغربى وعادات المدينة الأوربية حتى إن هناك نحو ألف شاب يتكلم باللغتين الفرنسية والإيطالية..

عندما جاء المهندس الإنجليزى " إليك بوتر" أستاذ العمارة لإنشاء قسم العمارة بكلية الهندسة وكانت تصحبه حرمه" مارجريت بوتر" المتخصصة فى الفنون التشكيلية وقام ببناء قاعة الإمتحانات بجامعة الخرطوم هو وزوجته وقعا فى عشق السودان هوى وريداً وحباً، وكتبا كتابهما " كل شىء ممكن سنوات فى السودان " وقد قضيا ثمان أعوام معنا وخرجا بأجمل الإنطباعات عن السودان، والذى هو أبو الدنيا وفيه كل شىء ممكناً ، وقد قال الزبير على مترجم الكتاب: إن " إليك بوتر" رجل قد شغف حباً بالسودان والسودانيين، فهو عندما يتحدث عن الأماكن والمدن والناس يتحدث عنها وعنهم بحب وود صادقين، وعندما يتحدث عن طلاب قسم المعمار لا يشير إليهم إلا بالأولاد، أولادنا، وعندما خاطبة بعد عودته إلى بلاده أحد طلاب المعمار الجدد وقال " ياجدى" كانت سعادته لتلك المخاطبة غامرة، وعندما عاد إلى بلاده قال: لقد كنا سعداء بالعودة ولو إن السودان طاف بأذهاننا فى تلك اللحظة لبدأ عنا بعيداً بملايين الأميال، ولكن فيما بعد فقط تبين لنا إلى أى مدى سوف يصبح السودان قريباً منا إلى نهاية العمر، وكتبت " مرجريت شينى" عالمة الآثار بالسودان فى الخمسينات مقدمة لكتاب "بوتر" تقول فيها: إن القارىء سوف يكتشف فى قراءة كتاب " كل شىء ممكن" كيف إستمتع آل " بوتر" إلى أبعد مدى بالسنوات التى قضاها فى السودان بدءاً بعام ١٩٥٧م حيث كان الحماس للإستقلال قد إستقر وحل محله بجلاء جو من اليقين والثقة بالنفس..

فى الحديث عن تمثالى "غردون وكتشنر" تكلم " إليك بوتر" مهندس قاعة جامعة الخرطوم عن كرامة السودان مواطناً وحكومة، وأقيم إحتفال وقور لإنزال التمثالين وتسليمهما إلى بريطانيا، ووصفت جريدة السودان الجديد الإحتفال بأنه " كان إظهاراً لنبل القصد وبرهاناً على النضج والسلوك المتحضر، وكان بعض أبناء

السودان الظرفاء يصنعون باقات الزهور أمام التمثالين فى موقع إنتظارهما حتى الرحيل إلى بريطانيا، وعندما..عن هذا.. إن الواجب يقتضى منا أن نحترم تقليدكم فى وضع الزهور والذى حدث إنه لم يعتد أحد على التمثاليين، وقد وقع الإعتداء على تمثال " كتشنر" فى بريطانيا بواسطة جندى إنجليزى، وأثبت السودان إنه أبو الكل المُكرّم من الكل والذى يكرم الكل.. وعندما أنزل العلم الإنجليزى والمصرى يوم الإستقلال نزلا بكرامة وإحترام، ولم يحاول أحد الإعتداء على العلمين بالتمزيق أو الحرق، وهكذا وهذا هو السودان الكريم..

٨٨. السودان أبّ محبوب

أبّ محبوب: إن السودان الذى نعتز به هو أبو الكل المحبوب من الكل لأن أهله يعيشون المحبة وهم للمحبة أساتذة فهم لايحقدون ولا يكرهون، ولكن فقط هم يحبون وإذا كانت المحبة هى كل شىء فهذا درس قد فهموه، يقول الكتاب المقدس عن المحبة: إنه وإن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لى محبة فقد صرتُ نحاساً يطن أو صنجاً يرن، وإن كانت لى نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم ، وإن كان لى الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لى محبة فلستُ شيئاً، وإن أطعمت أموالى وإن سلمت جسدى حتى إحترق ولكن ليس لى محبة فلا أنتفع شيئاً، والحق إن أى شىء لا يمر بالمحبة لا لون له ولا طعم ولا رائحة، والسودان أبو الكل هو المحبوب من الكل وإليكم الأدلة:-

عندما كتب « تشرشل « كتابه « حرب النهر» كان هذا من واقع حبه للسودان، لقد كان أكثر من كانوا تحت إمرة كتشنر مقدرة على تسجيل أحداث معركة « الدراويش» وكان يحب السودان، ولكى يصل إلى وطن حبه توسطت له والدته السيدة « راندولف تشرشل» مستعينة بتوصية من أمير ويلز ورئيس الوزراء اللورد « سالزبورى» والقائد العام، ولولا هذه التوصيات لما وافق كتشنر على تكليف ونستون تشرشل وهو شاب فى مقتبل الحياة لأية مهمة كبيرة، لقد غامر تشرشل بحياته لاجئاً إلى الوساطة ، كان يريد أن يسجل أخبار المعارك كضابط نظامى، وكان يراسل جريدة « المورنـج بوست» تحت إسم مستعار وبطريقة سرية..

عندما كتب السير جيمس روبرتسون كتابه " السودان من الحكم البريطانى المباشر إلى حكم الإستقلال" والذى ترجمه مصطفى عابدين الخانجى ، تحدث

عن السودان حديث المحب له والعاشق لترابه، لقد إختار السودان وكان إختياره موفقاً، وكان هو من أكثر البريطانيين شهوة فى السودان ومعرفة شخصية بقادته وزعمائه ورؤساء قبائله نسبة لطول خدمته فى البلاد وكثرة تجواله فى ربوعها ومعاصرته لتطوراتها، وقد كان هو السكرتير الإدارى للسودان وأدلى بشهادات جميلة عن السودان أبو الدنيا، فلقد لخص الموقف العام فى السودان سنة ١٩٤٧م بقوله: لقد أدهشنى إنه لم تحدث عندنا إضطرابات أكثر خطورة بعد ثمانية عشر شهراً من البلبلة عن المستقبل، إن قوة أخلاق وصبر وحسن إدراك السودانيين قد ساعدهم وساعدنى، وبالرغم من كل الذى قيل وكل الذى عمل فإن الغالبية العظمى من السكان لم تتأثر إلا قليل، وعندما شارف الإنجليز على الخروج ليتم إستقلال السودان وعندما أقامت الأحزاب المتحدة حفلا فى أم درمان بمناسبة توقيع الإتفاق البريطانى المصرى قال جيمس : لقد كانت هناك جماهير غفيرة، ولكنها كانت منتظمة، إستمعنا إلى أحاديث من مختلف القادة، وكان هناك حماس عظيم، إندهشت للأسلوب الودى جداً الذى إستقبلنا به كل وفد، وللغياب الكامل لأى شعور بالعداء نحو البريطانين على الأقل بقدر ما يعنينا نحن كأفراد، وأشاد روبرتسون بتعاون السودانيين معه وقال : إن أبرز شيء على وجه الخصوص هو مودة السودانيين وصبرهم وشدة بأسهم ومقدرتهم على تحمل قسوة ظروف الطقس، هناك أيضا بشاشتهم فى وجه الصعاب وتهذيبهم، وحسن إدراكهم وبدون تلك المميزات فى أواسط الناس العاديين لكان عملنا أبعد كثيراً من الإنسجام..

عندما جاء البريطانى توماس وزوجته أزماى فى آواخر الأربعينات مستشاراً للتعليم فى الخرطوم ما دار بخلده إنه سيرى مدينة بتلك الأبهة داخل القارة بعد عاصمة المعز، لقد رأى الخرطوم مدينة جميلة نظيفة ومنظمة ، تتمتع بكافة الخدمات الضرورية، وأكثر من هذا أدهشه معدن أهلها وخاصة تلك الطبقة الوسطى والتى وصفها بالمخملية معجباً، والتى كانت مهمكة فى تشكيل مجتمعها المدنى، ولم يجد هو صعوبة فى الولوج إلى تلك المؤسسات، وقد أعلن إعجابه الشديد بصالون عبد الرحمن المهدى فى مجلسه العامر الذى ضم الصفوة من كبار المعلمين والمثقفين والذى كان يضم علماء من كل البلدان من الشام وفلسطين ومصر والعراق، ونوابغ الفكر والأدب كالإمام المراغى والشيخ ماضى أبو العزايم، وفؤاد الخطيب، والقبطى الأديب المفوه نسيم قلدس..

عادت إلى العالم الآخر الممرضة البريطانية " فيليبا" والتى كان رحيلها فى أغسطس سنة ٢٠٠٠م عن ستة وتسعين عاما عاشت منها خمسون عاماً

فى السودان وتزوجت من عبد الفتاح المغربى أستاذ الرياضة، والذى تقلد منصب رئيس مجلس السيادة لمدة ثلاث سنوات بعد إستقلال السودان.. لقد كانت " فيليبا" على تواصل مع الحركة الوطنية ، كما أبدت تعاطفها مع القضية المصرية فى ١٩٥٦ م، وقدمت للسودان حباً مؤمنة إن السودان هو أبو الدنيا، وعندما تركت القصر كانت تعمل متطوعة فى التمريض فى إحدى القرى المجاورة للخرطوم..

٨٩. السودان أبو دنيا السياسة

ما هى السياسة ؟: يقولون: إن السياسة هى فن التعامل مع الغير، والدبلوماسية هى التعامل فى ذوق مع الآخر، ولهذا وعى بولس الرسول كل مسيحى أن يكون سفيراً للمسيح نسعى كسفراء كأن الله يعظ بنا (كورنثوس الثانية ٥: ٢٠).. وقال عن نفسه: إنه سفير فى سلاسل لكى يجاهر فيه كما يجب أن يتكلم (أفسس ٦: ٢٠).. وطالب بولس أن يصلوا من أجله لكى يعطى الله له كلاماً لكى يخبر بسر الإنجيل، فلقد صار سفيراً لخدمة المسيح فى كل موقع..

ويقول البعض: إن السياسة لعبة قذرة ولكن هذا ليس صادقاً لأنه إذا توفرت للسياسى الشفافية والنقاء سوف تكون السياسة عملا محترماً لخدمة قضايا البلاد، ولكى يعم الخير على العباد، وقال سليمان الحكيم» الشرير يقع فى الشر والسفير الأمين شفاء (أمثال ١٣: ١٧).. وهذا يعنى إن السفير هو رسول يحمل رسالة من أمته للآخرين، فإن كان شريراً يقع فى شره وإن كان صادقاً فهو أمين فى رسالته وأمانته سر نجاحه.. وكلمة سفير هو رسول يحمل رسالة للآخر..

وقد شرح القرآن الكريم فى سورة عبس إنها تذكرة فمن شاء ذكره فى صحف مكرّمة، مرفوعة مطهرة، بأيدى سفرة، كرام بررة، والسفرة هنا هم سفراء، وهم الملائكة الذين يحملون رسالة من الله إلى بنى البشر، ويقول « جون ستوت» اللاهوتى فى الكنيسة الإنجيلية فى كتابه « المسيحية والقضايا المعاصرة» إن ميثاق لوزان تحدث عن الإندماج السياسى الإجتماعى، وكان إستخدام كلمة سياسى سبباً فى دق ناقوس الخطر فى أذهان كثير من الإنجيليين، لقد كانوا دائماً يساهمون فى الأعمال الإنسانيةولا سيما فى البرامج الطبية والتربوية، ولكنهم فى أغلب الأحيان تجنبوا الخوض فى النشاط السياسى، والواقع إن هذه النظرة كانت أوسع بكثير من

أن تنحصر فى جماعة الإنجيليين، لأنه فى كل مرة يحدث إضطراب فى الكنيسة نتيجة إشتراكها فى السياسة..

كان الجميع يتوقعون صرخات الإحتجاج من أعضائها ومن الخارج أيضا، وتجد الناس يقولون بصوت عال: ينبغى أن تبتعد الكنيسة عن السياسة، فالدين والسياسة لا يمتزجان، ولكن هذا اللاهوتى « جون» يعود ليحدد كلمة سياسية ويحاول أن يحدد العلاقة بين ما هو سياسى وما هو إجتماعى، ويقول بعد هذا : إن كلمة سياسى وسياسة يمكن أن يكون لهما تعريف واسع أو ضّيق، فالسياسة بالمعنى الواسع تشير إلى حياة المدينة مسئوليات المواطن، فهى تعنى بمجمل حياتنا فى المجتمع الإنسانى..

فالسياسة هى أن نعيش معاً فى جماعة ، أما بحسب تعريفها الضيّق فالسياسة هى علم الحكم، فهى تعنى بتطوير وتبنى سياسات معينة بقصد جعلها قانوناً، ويستمر» ستوت» فى حديثه ويقول: يمكننا أن نسأل عما إذا كان يسوع قد إنخرط فى السياسة أم لا، وبحسب المعنى الآخير والأضيق لم يكن يسوع منخرطاً فى السياسة فهو لم يؤسس أبداً أى حزب سياسى، ولم يتبن برنامجاً سياسياً، أو ينظم إحتجاجاً له صبغة سياسية، بل إنه لم يحاول أن يؤثر فى سياسات قيصر أو بيلاطس أو هيرودس بل إنه بعكس ذلك رفض أن يكرس حياته للسياسة، لأنه إنما جاء إلى العالم ليشارك فى حياة الجماعة الإنسانية، كما أرسل أتباعه إلى العالم ليفعلوا الشيء نفسه، علاوة على أن ملكوت الله الذى نادى به ودشنه كان بصورة جذرية منظمة إجتماعية مختلفة وجديدة..

تحدت الجماعة القديمة الساقطة بمعاييرها وقيمها، ومن هذه الناحية كانت لتعاليم يسوع مضامين سياسية ومن ثم قدمت بديلا للوضع الراهن بل إن مُلكه أعتبر تحدياً لمُلك قيصر، ولذا إتهم بالتحريض على الفتنة، ويطالب هذا اللاهوتى بالتمييز بين المسيحيين كأفراد فى المجتمع وبين الكنيسة كمؤسسة روحية، ويطالب جميع المسيحيين بالإدلاء بصوتهم فى الإنتخابات والمشاركة فى النقاش العام والكتابة فى الصحف وأن يكونوا مؤثرين ومشاركين فى السياسة..

دنيا السياسة: وعلى مستوى السودان فإن السودان أبو الدنيا، وأبُ دنيا السياسة، وإذا كان سكان السودان الآن ثلاثون مليوناً تقريباً فإن الذين يعملون بالسياسة هم

ثلاثون مليوناً، ولدينا العدد الكبير من الأحزاب وعندما طلبت منظمة جمع الصف الوطنى من الأحزاب الحضور إلى موقع الصف الوطنى يوم ٢٠٠٧/٦/٢٣ م مقترح السلام للسودان لحل مشكلة دارفور فقد أوردت كشفاً فية مائة وثمانية عشر حزباً هذا عدا من إستلم النصور من أحزاب أخرى، وفى دنيا السياسة يناقش المواطن السودانى أهم القضايا السياسية تحت شجرة النيم، وعندما ترغب أدوات الحكم الشمولى فى تكميم الأفواه لا يتوقف هذا الحوار السياسى، وكثيراً ما يكون رئيس الجمهورية فى صالات العزاء ويسمع مثل هذا الحوار الجهير الذى ينتقد سياسة البلاد..

وعندما تعددت الأحزاب الآن فإن المؤسسة الدينية لا تفرض على الإنسان حزباً بعينه فهذه مسئوليته أن يكون صاحب رأى حر ومشاركة إيجابية فى قضايا الوطن ويظل السودان أبو دنيا السياسة، ويظل أولاده سياسيون مهرة حكماء يختلفون مع بعضهم ولكنهم لا يتعاركون، إنما يتلاقون فى محبة وإحترام وكل فرد يحترم الرأى الآخر لغيره.. إن السودان هو فعلا أبو الدنيا ويقدم لكل الدنيا أعظم النظريات السياسية..

٩٠. أحلام الشاعر والسودان الجديد

حلم الشعراء: يحلم الشعراء والأدباء الحالمون بسودان جديد مجيد سعيد.. وتراودنا اليوم هذه الأحلام السعيدة ونحن على مشارف مرحلة جديدة فى تاريخنا فيها تتحقق الوحدة بالإختيار ولا تفرض بالإجبار، ومعاً جنوباً وشمالا نكتب قصة السودان الجديد.. ونحقق أحلامنا السعيدة، ولقد مرت بنا الأيام وإكتملت الأعوام ونحن يضيع منا الزمن لأن الحروب قد مزقت صك حياتنا ودمرت معالم أحلامنا ولكن الحمد لله تحقق سلام الجنوب مع الشمال..

وفى إنتظار تحقيق الآمال عندما يصبح السودان وحدة واحدة غرباً وشرقاً شمالا وجنوباً، وحده الله هو الذى صنعها وجمعنا معاً وما جمعه الله لا يفرقه إنسان، وفى هذه الوحدة تتضافر كل الجهود حتى تعّوض المواطن السودانى الذى ضاع عمره لاهثاً نحو السلام وعانى من الغلاء والوباء والفناء والجلاء وسيف الأعداء، وصار غريباً خارج وطنه لأن عدم الإستقرار أفقده سلامه وأعتقد إن على الأبواب الآن

عدد من الذين هاجروا وتغربوا ينتظرون العودة إلى بلادهم إلى الوطن الحبيب الغالى الذى كلما إبتعدنا عنه كلما عرفنا مقداره..

ولقد أعجبنى تصرف جماعة إطلالة فى عشق الوطن الذين إجتمعوا خلال غربتهم وقرروا العودة إلى الوطن قبل أن تكتب صكوك السلام ورفضوا أن يحاربوا الوطن خارج الوطن ورأوا أن يعودوا إلى الوطن ويعملون ما يقدرون لأنهم آمنوا إن تدمير كوبرى أو تفجير أنبوبة خط بترول لن تجدى شيئاً ولن يغير فى الحياة أمراً، لهذا عادوا وكتبوا وعملوا وأسعدوا الناس ولهم كتاب عنوانه» إطلالة فى عشق الوطن» أشرف عليه بروفسور حسن أبشر الطيب، هذا الرجل الطيب الذى قاد رحلة العودة إلى الوطن والأحلام لم تزل مستمرة ومن حقنا أن نحلم والله سوف يحقق الأحلام..

لقد كانت أحلام يوسف الصديق بالمجد والعزة وسجود الكواكب له حتى الشمس والقمر أحلاماً بعيدة المنال، ولكن تحققت هذه الأحلام رغم أن كل شىء حول يوسف كان يؤكد إنه لا مجال لأحلامه ولكنه خرج من السجن إلى العرش ليكون ثانى رجل فى دولة الفراعنة وهو يهودى إبن للأب الأكبر لليهود يعقوب إسرائيل..

السودان الجديد: لقد أسعدنى ما كتبه الشاعر عزيز أندراوس فى مذكراته التى لم تنشر بعد، وكان عزيز خارج السودان فى الإسكندرية، عروس الشرق كما وصفها هو، وفى أول عام ١٩٥٠م أمسك بقلمه الجميل وكتب تحت عنوان « السودان الجديد» يقول: نريد سوداناً خالصاً تسوده رياح المودة والألفة والإخاء، سوداناً لا فرق فيه بين لون ولون، ودين ودين، وجنس وجنس، سوداناً لا فضل فيه لعربى على أعجمى إلا بما يكتب فى صفحة الجهاد الرائع، وما يثبت فى سجل الوطنية الفذة..

سوداناً يقوم فيه الإنسجام مقام الخصام، والمحبة محل النفور والجفاء، والتفاهم مكان الضغينة والحقد، نريد سوداناً حلواً حراً أنيقاً متساوقاً منسجماً كطبيعته المنسجمة الفريدة السمحة بما تحويه من أنهار ووديان وتلال ورمال وهضاباً وجبال، سوداناً تنبض فى أرضه العذراء أشجار السيسبان والتبلدى والأراك والعدليب، ويجرى فى وديانه الخصبة القاش والعطبراوى ويلتقى الأبيض والأزرق فى هارمونية عجيبة تلهب الحب وايمان وترهف الحس والوجدان، سودان تمرح

فى جنباته النوق والحملان، وتختال فى عرضاته أرائل وصيد الغزلان..
سوداناً تحلق فى سمائه الزرقاء حمائم السلام وطيور الأمانى، وترتل فى أجوائه ومعابده أسراب القمرى صلوات أوحدية وصلوات.. نريد سوداناً يقف على قدميه على أسس من فلسفة جديدة مغايرة لكل فلسفة أخذت بها أى أمة حتى الآن، فلسفة من صنعنا نحن لا أثر للتقليد فيها ولا للمحاكاة، نريد سوداناً يعرف طريقه إلى حيث يريد تحدوه غاية ويدفعه هدف، لا يقيده عُرف، ولا يصده عن قصده تقليد..
نريد سوداناً يستمتع فيه أهله بالإخاء والمحبة أولا ثم بالحرية ثم بالمساواة لأنه لا يوجد شىء أعظم من الإخاء والمحبة.. نريد سوداناً خليقاً بمكانته فى قلب أفريقيا يعيش فى دم أبنائه حب طاغ عفيف للمثل العليا وللحق، ويجرى فى عروقهم إيمان برسالة تاريخية كبرى تستمد أصولها من أعماق ماض عريق، نريد سوداناً يهدم ليبنى على الأنقاض صروحاً للفكر وللحرية فى شتى ألوانها ومعانيها..
سوداناً لا يلين للنكبات ولا ينحنى للعواصف، ولا يتزعزع من مكانه فى الأرض التى سميت بإسمه وعُرف هو بها، سوداناً لا تحجب عنه الشمس ولا يختفى القمر، ليحقق الله أحلام شاعرنا الهمام ،وعندها يكون السودان فعلا هو أبّ الدنيا..

٩١. السوداني صاحب الجلالة

عظمة الإنسان: يستمد الإنسان كل إنسان عظمته من الخالق الديان، هو الذى أودع فى الإنسان أجمل كيان، والإنسان مخلوق إلهى ، تطلعه تطلع سماوى، وهو الوحيد بين مخاليق الله الذى ينظر نحو السماء، وهو الذى جعله الرب خليفة له فى الأرض، وهو المسلط من الله على كل الكائنات، فآدم هو الذى أطلق الأسماء على الحيوانات والطيور، هو الذى قال : بأن هذا أسد وذلك حمل وذلك عصفور وتلك نعامة، وهذه سمكة وهذا ديناصور، وعندما خلق آدم جاء أمر الله إليه : ذكراً وأنثى أثمروا وأكثروا وأملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض..
وقال الله: إنى قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزراً على وجه الأرض وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزراً لكم يكون طعاماً (تكوين ١).. وهكذا صار الإنسان سيد الخليقة، وأصبح كل إنسان صاحب جلالة وعزة وكرامة، ومع تنامى حقوق الإنسان أخذ

الإنسان حقه ولم يزل وفى الأدب الإسلامى إن الله أمر الملائكة أن تسجد لآدم إلا إبليس، فأبى وهذه عظمة كرامة الإنسان التى هى حق من الله الذى يعطى الحقوق، وعاش بنى آدم فى ظل هذه الكرامة يبحث ويفكر ويشغل عقله ..وتصير البيئة كلها فى خدمته والأرض وما عليها وما تحتها ملكاً للإنسان، ولهذا لقب السيد المسيح بأنه إبن الإنسان..

فى السودان: والسودانى هنا هو صاحب الجلالة لأنه يحافظ على كرامته التى وهبها من الله، والذى يدعو إلى الإهتمام والتفكير إعتزاز غير السودانى بعزة السودانى، وما كتبه عدد من الإداريين البريطانيين فى هذا الصدد وآخرون من الرحّالة يؤكد هذا، وأبدأ هنا بما كتبه المهندس البريطانى « إليك بوتر» تحت عنوان « جولة ملوكية فى أم درمان» حيث يقول : إن طريقة المواطن السودانى حسن محمد عتبانى فى التسوق كانت مطابقة تماماً للأحرف الأولى من إسمه «ح.م « أو H.M أى صاحب الجلالة بالإنجليزية، ولهذا أعتبر " بوتر" إن جولته فى سوق أم درمان كانت ذات طابع ملوكى..

إن " بوتر" يعتز بلقائه بهذا المواطن السودانى والذى كان كبيراً للمهندسين المعماريين بوزارة الأشغال، والذى كان يشعر بأن ضيفه البريطانى ربما يكون بحاجة لبعض العون الأخوى رغم إن عمل كل واحد مستقل عن الآخر، ولم يمض وقت طويل على قدوم " إليك وزوجته" حتى قال لهم عتبانى : إنه سيكون سعيداً حقاً بإصطحابهما إلى مدينة أم درمان، وعن هذه يقول المهندس البريطانى : لقد كانت أم درمان ولا تزال مكاناً رائعاً للتسوق والشراء، كل ما كان يعرض للبيع كان صناعة محلية أو محصولا من محاصيل البلاد، السمكرية يصنعون من علب الصفيح المستعملة أباريق وآوانى مختلفة ذات طابع عربى، وصُناع الأثاث يشكلون أرجل " العناقريب" والكراسى بمخارط تدار بوساطة خيوط موصلة مع أصبع القدم الكبير، والصاغة الذين يعملون فى الذهب يحولون المعدن الذى أمامهم بمطارقهم الدقيقة إلى أشكال من العقود والحُلى، يتعذر تمييزها عن تلك العقود والحُلى التى تمّ إكتشافها فى المقابر النيلية القديمة..

إن سوق أم درمان مليئة بصنوف متعددة من المعروضات إلى جانب المواد الغذائية، ويعود ليتحدث عن حسن عتبانى بأن بساطته ومحبته للناس ومداعبته لهم

كانت سبباً فى أن هذه الجولة كانت فعلا " جولة ملوكية".. وعندما جلس " بوتر" فى المنزل ولاحظ الأعمدة الرومانية إعتقد إن المبنى قديم جداً، ولكن حسن قال له: إن هذه الأعمدة الرومانية قد جلبت أصلا عام ١٩١١م من بريطانيا لتزيين شوارع بورتسودان عند زيارة الملك " جورج الخامس " والملكة " مارى " للمدينة، وبعد هذا صممت أعمدة على هذا الطراز بواسطة مهندس سودانى..

وقد قام هذا المهندس بتصميم وتشييد قاعة الإمتحانات والتى سميت قاعة النجاح، وتحدث عن المقاول جابر أبو العز وقال : إنه رجل حاد الذكاء، وذا حاسة مهنية خارقة، وقال عن مسجل كلية الهندسة المرضى جبارة: إنه فى حديثه أشبه ما يكون بصانع ماهر، وعندما كان يسير فى وسط الجامعة قال : كنا نمشى تحت أشجار النيم، ثم بين أشجار النخيل الملوكى ذات السيقان المفضضة، ونستنشق عبير نبات البطونية (وهو نبات أمريكى من الفصيلة الباذنجانية) ، الذى كانت زهراته تصل إلى أحجام مذهلة..

أما العمال فقد وصفهم بقاماتهم الفارعة الطول، ولون بشرتهم وسرعة حركتهم، وأعلن إعجابه بمحلات " فانيان" وطابعها المتفرد، وقال : الخرطوم إنها مدينة البهجة، وإن ظلال أوراق الأشجار الكثيفة وأشعة الشمس الساطعة كانت تطرز الطرقات بأبسطة موشاة رائعة تتغير نقوشها بين كل آونة وأخرى إلى لوحات بالغة السحر بفعل تمايل الأغصان، ونفاذ أشعة الشمس من خلالها، وقال : إن الشىء المدهش إن أكثر هذه الأشجار كانت تظل محتفظة بأوراقها الخضراء طوال العام، والتى تفقد أوراقها كانت تعوض هذا برشاقتها وتناسق أغصانها..

لقد كان " إليك بوتر" فى السودان عام ١٩٥٨ م وما بعده ، وهو بإعتباره بريطانى يعتمد الملكية رئاسة لبلاده، شعر إنه فى السودان فى بلد الملوك، وبأن المواطن السودانى هو " صاحب الجلالة" ونحن فى السودان عندما نصف نُبل رجل نقول" إنه ملك.. وعندما نتحدث عن وقار إمرأة نقول عنها : إنها ملكة أو أميرة..

٩٢.الفنان كرومة والصوفي قريب الله

اللورد كرومة: ولد الفنان كرومة فى حى السيد مكى وقد سمته أمه اللورد كرومر تيمناً بزيارة اللورد للسودان سنة ١٩٢٢م وإستقباله إستقبالا فخماً وبهرها ذلك وتمنت أن يكون ولدها مثل اللورد كرومر من مصاف العظماء وقد تحققت النبوة وصار كرومة أعظم فنان فى السودان، صار كروان السودان وإختفى إسم اللورد ليصبح كرومة ذلك الشاب الوسيم الطلعة الذى تزين وجهه شلوخ على خده تسمى المطارق، وكان كرومة أنيقاً جداً فى ملابسه لدرجة المبالغة، وعندما تتعرض ملابسه لأدنى قدر من هجوم التراب عليها يرجع إلى البيت لكى يغيرها ، وكان فى أناقته يمسك عصا تكملة للأناقة وله فيها مآرب أخرى، وكان شجاعاً كريماً مهذباً ودوداً طيب المعشر محبوب من كل أصدقائه..

وإفتتن به أهل أم درمان بل كل أنحاء السودان صوته جميل ألحانه شجية وكان يهابه الفريق الذى كان يفسد الحفلات.. وكانت فتيات أم درمان يسرعن إلى بيوت الأعراس التى يغنى فيها كرومة وهن فى أبهى زينة لهن وكان الشباب يحبون حضور حفلاته وكانت حفلات الأعراس فرصة لكى يختار الشاب شريكة حياته تحت قيود وتحفظات.. وفى منزل كرومة كان يلتقى كبار الشعراء ومؤلفى الأغنيات التى يشدو بها، وكان ذا موهبة فى تلحين الأغانى حيث كان يستعين بإلهام شاطىء النيل أمام دار الإذاعة ويمشى جيئة وذهاباً يحمل فى يده علبة كبريت بدل الورق..

وعاش كرومة هائماً بالجمال وكان مهذباً جداً فى سلوكه مع سائر الناس حريصاً على مراعاة الآداب العامة، وكان يحرص أن يكون أتباعه من الكورّس ملتزمين بالأخلاق الحميدة والسلوك الطيب ويقول لهم: علينا أن نحترم أنفسنا حتى يحترمنا الآخرين.. وقد بلغ الإعجاب به أن رُسمت صورته على بعض عطور الشبراويشى فى مصر مع الزعماء مثل : عبد الرحمن المهدى، وعلى الميرغنى، والشريف يوسف الهندى، لقد كان هناك عطراً بإسمه وبراد شاى صينى وضع عليه صورة الزعماء الثلاثة ورابعهم كرومة وهذا يعنى إنه حظى بإحترام الجميع..

وكان كرومة راهباً للفن فهو لم يتزوج وكرّس كل عمره ووقته للفن ورفع مستوى الفنان، لقد كانت بدايته إنه كان يغنى لزملائه بعد التمرين فى وسط الميدان ومر

الفنان سرور عليه وسمع صوته وإكتشف هذا الفنان وقال له: عندما تكبر سوف لا تعرف الناس سواك، وسوف ينسون الأمين برهان وسرور.. وكانت هناك منافسة بين المؤلفين والملحنين عندما كبر كرومة وصار مع رفاقه من أهل الفن..

الفنان والصوفى: وذات مرة إلتقى كرومة بالشيخ الوقور قريب الله ، كان لقاء أرواح وصدى ألحان، كان كرومة يغنى فى بيت عرس بود نوباوى وإنطلق صوته فى هدأة الليل صافياً عذباً ، يهز المشاعر ويأخذ بمجامع القلوب، ويتراقص الفتيات على ألحانه الجميلة، ودار العرس كانت قريبة لمنزل الصوفى، والذى كان جالساً مع جيرانه ومريديه يتحدث معهم، وأحياناً يصمت متأملا منفرداً بنفسه، وهنا وصل إليه صوت كرومة يغنى:

ياليـــل أبقالـــــى شاهـــــد

على نـــار شوقى وجنونى.. ياليـــل

وأعجب مولانا بالصوت وبالكلمات وسأل : من هذا الذى يغنى لليل ؟ قالوا له: إنه مطرب إسمه كرومة.. وصمت الشيخ ثم طلب من بعض تلاميذه أن يحضروه إليه، وذهبوا وكان كرومة قد أنهى الأغنية وهمسوا فى أذنه : الشيخ غريب الله يريد أن يراك الآن.. وفزع كرومة وإضطرب :ماذا يريد منه رجل الصوفية هذا ؟ والوصف كان لحسن نجيلة، وكان بجواره الشاعر عمر البنا والذى شجعه بأن سوف يذهب معه، وكان كرومة يتوقع توبيخاً وتقريعاً وتأنيباً، ولكنه رحب به وأعطاه عسلا ممزوجاً بالماء، وهنا طلب مولانا أن يسمع الأغنية التى سمعها فوقف منتشياً ليطرب ومعه كورّس من شخص واحد هو الشاعر عبد الله البنا، ويستمع الشيخ إلى كرومة يقول:

ياليـــل صار ليـــك معاهــــد

طرفـــى اللى منا موزايـــد.. ياليـــل

دنـــا لـــى سهـــرك وأشاهـــد

فوق لـــى نجمـــك ظنونـــى.. ياليـــل

ويتجاوب قريب الله وتمتلكه نشوة الليل ويصيح: الله.. الله.. ويندهش كرومة والبنا ويخرجان وسط التهليل بفرحة الليل، إن مولانا غريب الله يعرف قيمة الليل وصلاة الليل، وقديماً قالوا: إن الأسرة المؤمنة والشخص المؤمن ينبغى أن يقسم الليل إلى نصفين بالصلاة، وفى الكنيسة القبطية صلاة نصف الليل، وفيها ثلاث هجعات، يبدأ المصلى قائلا: قوموا يابنى النور لنسبح رب القوات، لكى ينعم علينا بخلاص نفوسنا، عندما نقف أمامك جسدياً إنزع عن عقولنا نوم الغفلة، أعطنا يارب يقظة لكى نفهم كيف نقف أمامك وقت الصلاة ونرسل لك التمجيد، فى الليالى إرفعوا أيديكم إلى فوق أيها القديسون وباركوا الرب.. فليدن توسلى قدامك يارب، كقولك فهمنى لتدخل طلبتى إلى حضرتك، تفيض شفتاى بالتسبيح، لسانى يجيب بأقوالك، فليكن شعبك بالبركة ألوف ألوف يصنعون إرادتك..

٩٣. إسماعيل الحاج موسى ونزار قبانى

قوة الكلمة: كم يعتز الإنسان بقوة الكلمة، والكلمة إذا كتبت بالمذكر يقصد بها الله نفسه، فى البدء كان الكلمة، وكان الكلمة الله، كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان، وعندما تكتب الكلمة بصيغة المؤنث يقصد بها كلمة الله مكتوبة أو مقولة.. ويقصد بها الكلمة التى نقولها تعبيراً عن الله وعن أى شىء كائن حولنا..

وذكر عن كلمة الله بأنها قوية وفعّالة وأمضى من كل سيف ذى حدين، وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، ومميزة أفكار القلب ونياته، بكلمة الرب أسست السموات ونسمة فيه كل جندها، وفى الكلمة قوة المتكلم، الكلمة هى الفكرة متجسدة، الكلمة تربط بين متكلم ومستمع، عندما تخرج منك الكلمة تمتد وتتسع رقعتها دون أن تتمزق أو تنقسم أو تتجزأ إلى أجزاء، الكلمة تولد فى ومن العقل دون إحتياج إلى طرف آخر..

الكلمة بعد أن تفرغ من مهمتها تختفى عن الإحساس الملموس، ولكنها تظل موجودة غير فانية، كلامنا، وكلام الذين سبقونا كل هذا موجود حولنا فى الهواء وهناك محاولات لجمع كلام العظماء بأصواتهم لأنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله..

إسماعيل ونزار: أعتز جداً بحديث الأديب إسماعيل الحاج موسى، وأشعر إن الكلمة تقطر من فمه شهداً وتنساب رغم إنه يختارها قوية وجميلة من بين باقى الكلمات.. وعندما تصفحت كتاب « أوراق العمر» الذى هو حوار قام به الصحفى المخضرم اللامع الوقور كمال حسين بخيت، أعجبت جداً بالكلمة، وصارت الكلمات زينة حياتنا الدنيا وزينة آخرتنا السعيدة..

ولم يكن إسماعيل الحاج موسى بحاجة إلى إستخراج الكلمات من فيه، إنما فقط عندما يسأل يجيب، وعندما سأله كمال بخيت: ما بينك وبين الشعر ؟ وما بينك وبين نزار قبانى على وجه التحديد ؟ أجاب إسماعيل بإختصار عن الشعر وبإسترسال عن نزار، وكأنه يستريح فى بيوت جميلة من شعر شاعر كبير هو نزار قبانى: الشعر أريج يعطر الأجواء، وإحساس يدفق النداوة فى الحياة، ويبعث الحرارة والحيوية فى أوردة الناس وفى شرايين المجتمع، الشعر كلام جميل والكلمة الجميلة تُحلّق بك بأجنحة من الغمام فى سموات عُليا ودنياوات أخرى..

فالكلام عندما يُنظم بإقتدار يحلو ويؤنق ويعبق ويعذب ويروق، ويقصد إسماعيل فى يعذب إنه يصير عذباً لأننى قرأتها بمعنى إن صاحبه من المعذبين فى الأرض.. ويستمر إسماعيل: الشعر سهل ورحب فى الإسماع ولصيق بالقلوب وخفيف وعذب على الشفاة، والشعر ديوان العرب، وعندما أعجب أهل قريش بالرسول الكريم قالوا عنه: شاعر تتربص به ريب المنون، وعندما أعجب الرسول بهم قال: إن من البيان لسحرا..

أما عائشة فتطالب الأباء أن يعلموا أولادهم الشعر ويرووهم بمياهه الحية: رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم، ومازلت أكتب وأطالب أن يكون الحكام أدباء وشعراء، وإذا كان الشعر موهبة فليس أقل من أن يحفظ الحكام أبيات الشعر حتى يكون كلامهم عذباً ويغيب من تعبيراتهم نبرات التهديد والوعيد..

أما عن رأى إسماعيل فى نزار قبانى فإنه يقول عنه: نزار أمير فى الشعر وأمير فى النثر، وقد كنت دائماً معجباً بنزار الشاعر المجيد المبدع، وعندما إقتربت إليه أحببت نزار الإنسان الصادق الصديق الصدوق، ولقد قام إسماعيل الحاج موسى بدعوة نزار إلى مهرجان الثقافة الثالث ذلك الإختراع الجميل الذى إخترعه أدباء مايو وأبدعوا فيه وبعدهم غابت المهرجانات الثقافية والتى نأمل أن تسوقها رياح الأدب إلينا..

وعندما جاء نزار إلى السودان عطرّ أمسيات المهرجان وسماوات الخرطوم بأريج شعره العاطفى ، وشعره السياسى، وعاد يقول: فى كل مكان أحس بأننى شاعر، ولكن فى السودان أحس بأننى قديس.. ونزار كابد الآلام وذاق مرارة الدنيا عندما دخل إبنه توفيق إلى حجرة الإنعاش وظل قلبه يخفق شعراً :

أنا جرح مشـــى على قدميه

وخيولى قد هدها الإعياء

وأنا الحزن من زمان صديقى

وقليل فى عصرنا الأصدقاء

وعندما صعد نزار على مسرح مهرجان الثقافة فى الخرطوم قال:

قتلنـــــاك.. يا جبـــل الكبريــــاء..

وآخر قنديل زيت يضىء لنا فى ليالى الشتاء

قتلنـــــاك بكلتـا يدينــا وقلنــــا المنيــة

لمــــاذا قبلــت المجــىء إلينــــــــا ؟

فمثلـــــك كثيـــــــر علينــــــــــا

قتلنـــــاك يا حبنـــا وهوانــــــا

وحيــــن غسلنـــا يدينــــا إكتشفنـــا

بأنا قتلنـــا منانـــا، وإن دماءك فوق

الوســـــادة كانــــت دمانـــــا

إن إسماعيل الحاج موسى ونزار قبانى كل واحد فيهما قد ملأ الدنيا وشغل الناس، وغنى اللحن رقيقاً حنوناً للحياة والحب والأمل وأطلق الكلمة قوية صائبة فى وجه أعداء الوطن والحق والإنسانية..

٩٤. فجر الحركة الوطنية

الأدب والدبلوماسية: يرتبط الأدب بالدبلوماسية كثيراً، فللأدب دبلوماسية، وللدبلوماسية أدب رفيع، وقد برز كثيرون من أهل الدبلوماسية فى مضمار الأدب، ومن يقرأ للسفير جمال محمد أحمد يرى كيف كان هذا السفير أديباً يختار أجمل الكلمات ليعبر بها عن نفسه.. ولأن الدبلوماسى كثيراً ما يحيا بعيداً عن الوطن وعن الأسرة أحياناً فإنه يكتب إلى أصدقائه فى الوطن وإلى أفراد أسرته لذا فلقد كان جمال محمد أحمد يملك زمام أدب الرسائل، وكثيرون من السفراء أدباء ونذكر هنا أيضا كيف إمتلأت الساحة بمقالات السفير بشير البكرى الذى كتب فى عدة مواضيع وعلى صفحات عدة جرائد فى السودان وخارج السودان، وتستقبل جرائد الشرق الأوسط والأهرام بترحيب كبير..

وأذكر هنا من الدبلوماسيين الأدباء الصادق الفقيه بخيت والذى عندما يكتب ورقة تشعر بأنه هو الأديب الذى تمتلىء جعبته بأجمل عبارات الأدب والذى يحيطك ببستان يمتلىء بأزهار الكلمة الحلوة، وأريج التعبيرات الأدبية، وإذا الدبلوماسى سفير الوطن فإن الأديب سفير الأدب والشعر.. هذا عدا إن هناك أمثلة أخرى تحتاج إلى من يكتب عنها لسفراء أدباء وشعراء.. ولمن أوكل إليهم هم الثقافة فى ملحقياتنا الثقافية وكيف يمثلون الثقافة فعلا..

كل هذا دار بخلدى وأنا أقرأ كتاب « فجر الحركة الوطنية» للسفير الدكتور حسن عابدين ، خريج الآداب جامعة الخرطوم، والحائز على الماجستير والدكتوراة فى التاريخ الأفريقى من جامعات أمريكا، والأستاذ الجامعى ووكيل الخارجية وسفيرنا سابقاً فى الجزائر والعراق وبريطانيا..

وهو يعتز بتاريخ بلاده ويؤكد فى مقدمته إن الأفكار القومية والنشاط الوطنى فى السودان لهما ماض عريق كثيراً ما أغفل أو قلل من أهميته فى الكتابات التى تناولت تاريخ السودان المعاصر، وبالرغم إن الحركة الوطنية لم تعش طويلا بل وأخفقت فى تحقيق الهدف الأساسى حيث لم تتمكن من إنهاء حكم الإستعمار، ولكن كانت هذه محاولات جادة وصلت يوماً ما إلى تحقيق الهدف..

وقد بدأ الوعى الوطنى فى العشرينات وكانت ظروف الوطن تقتضى هذا حيث كان

لبلادنا وضعاً إستثنائياً كمستعمرة إنجليزية مصرية، وكانت مصر من حولنا تكتب أجمل الملاحم ضد الإستعمار حتى إن موظفى الخدمة المدنية والإدارة الإنجليزية الذين كانت تختارهم بريطانيا للعمل فى مصر كان يترددون فى قبول هذه المهمة، بينما كانوا يرحبون بالمجىء إلى السودان..

ولهذا من هنا يأتى شعار وحدة وادى النيل شعاراً للحركة الوطنية السودانية وفيه رفض للإستعمار وتحالف مع الحركة الوطنية فى مصر، كما إن إرتباط التنظيمات السياسية فى جمعية اللواء الأبيض بفكرة الوحدة بين مصر والسودان كان عن إقتناع تام بأن مصير القطرين مرتبط إرتباطاً لا إنفصام له..

إننى ألاحظ إن الحس الوطنى عند أى مواطن خارج بلاده يزداد حماساً ونيران الفراق تجعله حاراً وتجعله عشقاً للوطن، وترابه وكل ما فيه، وهذا الشعور الجميل يذكره لنا الكتاب المقدس فى سفر نحميا الذى عندما سمع وهو خارج وطنه أخباراً عن بلاده وما فيها من سبى وإهانة وهدم لسورها العظيم وحرق لأبوابها ، جلس يبكى وناح أياماً وصام وصلى أمام إله السماء ووقف مكمداً حزيناً أمام الملك الذى يعمل فى بلاطه، وعندما شعر به الملك وافق على إعطائه إجازة لكى يعود إلى وطنه ويصنع شيئاً من أجله ، وفعلا عاد وبنى أسوار بلاده وتعاون معه أهله من بنى وطنه..

فجر الحركة الوطنية: ويتحدث السفير الأديب حسن عابدين عن« فجر الحركة الوطنية» فى السودان وبادىء ذى بدء نقول: طالما أشرق نور الفجر فإن شمس الحرية تخرج من حصنها وترسل أشعتها الذهبية نوراً لا يماثله نور.. ويبدأ الأمر قبل الفجر بظلمة داكنة شديدة السواد هى مطاردة أبناء الوطن والحجر عليهم، وإغلاق منافذ الحديث أمامهم، ورفض كتاباتهم، وإغلاق الجرائد اليومية أمام تحركاتهم، وأمام قصائدهم..

وأذكر هنا إن توفيق جبريل الشاعر الوطنى كان يرسل قصائده الوطنية للأهرام التى ما كانت تبيح بالسر ولا تذكر إسمه.. ولكن حكومة المستعمر إشتركت فى ظلام ما قبل الفجر بمحاكمات عسكرية فى ديسمبر ١٩٢٤م، وأعدمت ثلاثة من المتهمين، وكانوا أربعة وخفف الحكم للرابع والتهمة هى محاولة إنقلاب عسكرى..

وفى أغسطس من نفس العام حكمت محكمة أخرى على مجموعة من طلبة

المدرسة الحربية بالخرطوم الذين أعلنوا قيام فجر الحرية وجابوا شوارع الخرطوم يهتفون بالفجر الجديد، ولكن حكم عليهم بالحبس سجناً لمدد متفاوتة، ولكن شارع الحرية كان قد أضاء بأفكارهم الثورية ..

وفى فبراير ١٩٢٥ م تم تقديم خمسة وعشرون مثقفاً سودانياً بتهمة التآمر وإثارة الكراهية ضد الحكومة، وتكوين جمعيات غير مشروعة.. ولكن بعدها كان الفجر، وبعد الفجر كان نور الإستقلال.. وإذا الشعب يوماً أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر..

٩٥. النوبة والإستقلال السياسي

الموقع والإستراتيجية: تقع النوبة بوابة لكل بلدان أفريقيا، وتبدأ من الشلال الأول فى أسوان وتدخل إلى عمق أفريقى هو السودان الكبير الداخل إلى أفريقيا، وعندما تأسست ممالك النوبة كان يخضع لها كل هؤلاء السكان، ولكن دوماً تتمركز الدولة أى دولة حول العواصم وتألق على مستوى النوبة فرس ودنقلا وسوبا وعلى مستوى الحبشة داخلياً أكسوم، ورغم إن أكسوم أعماقها أكثر من النوبة فإنها قبلت المسيحية قبلها بما يقرب من مائتى عام..

وفى البداية كان الوصول إلى النوبة أمراً صعب التحقيق ولكن أطماع الغزاة لم تتوقف غير إنها جاءت فى شكل حملات ورجعت خائبة، فلقد عقد الرومان معاهدة صلح لمدة مائة عام.. أما ملك الفرس قمبيز فقد ضاع جيشه قبل الوصول إلى النوبة، وفشلت حملات عمرو بن العاص على النوبة، وكان الضحايا كثيرون من رماة الحدق الذين صوّبوا النيشان على حدقات العيون، وقرر عبد الله بن أبى السرّح أن يعقد معاهدة البقط ..

وكلمة بقط هنا تعنى إتفاق، وحاول الفاتح العربى تجميل إتفاقه فقال: إن هذا إتفاق تبادل تجارى النوبة تدفع ٣٦٠ عبداً وتدفع من فتوحاتها ريش نعام وسن فيل وحيوانات، وتستلم وفق المعاهدة قمحاً وشعيراً ونسيجاً قبطياً يسمى « قباطى» ولم تستمر الإتفاقية ولم يستمر دفع البقط، وعندما طالب الخليفة فى بغداد متأخرات أربع عشر سنة إعتذر الملك فليس لديه عبيد يرسلهم من الشباب وقال: إن شبابنا ليسوا عبيداً نحن كنا نريد أن نقدم لكم من أسرى الحروب التى ننتصر فيها..

وكرر الخليفة الطلب، وفى دبلوماسية راقية تنازل الملك زكريا عن العرش وتبوّا العرش إبنه الملك جورج أو جورجى أو قورقى بحسب لهجة مصر.. وجاء الملك ونزل ضيفاً على الخليفة فى بغداد وأكرم الخليفة وقادته وأعفاه من الديون القديمة، ورسم للبقط أن يكون مرة كل ثلاثة أعوام، وهكذا خفضه إلى الثلث وكان الخليفة ذكياً جداً ولا يرغب فى قيام نزاعات مع النوبة ويكفيه ما يحدث فى بلاده..وظلت بلاد النوبة قلعة حصينة غير قابلة للإختراق، أسلحتها الفتّاكة هى شباب قوى فتى يمسكون الأقواس والنبال ويرمون السهام نشاباً على من يعاديهم، وظل هذا لأمد طويل وهذا الأمد هو عصر الإستقلال السياسى..

الإستقلال السياسى: ويكتب دكتور جودت جبرة فى المسيحية عبر تاريخها فى المشرق إصدار مجلس كنائس الشرق الأوسط ليؤكد هذا الإستقلال فيقول: تنفرد الكنيسة النوبية بأنها نشأت وإزدهرت فى جو من الإستقلال السياسى الكامل، لقد تأخر دخول المسيحية بلاد النوبة التى أصبحت منذ القرن السادس بلاداً مسيحية حكاماً وشعباً، ولم تفقد الممالك الوبية المسيحية إستقلالها السياسى إلا فى القرن الثالث عشر إثر غزوات المماليك المتكررة لها..

وعلى النقيض من معظم البلدان المشرقية إستمرت المسيحية فى النوبة كديانة غالبية السكان حتى القرن الرابع عشر ، وبالرغم من إستقلال ممالك النوبة المسيحية سياسياً إلا أن تراث الكنيسة تأثر بصورة بالغة بكل من التراث القبطى ، والتراث البيزنطى، وإن كانت له بعض المميزات الخاصة به، والمسيحية فى الأساس لم تتعرض لإستقلال أى بلد ولم ترغب فى إلغاء لغة أو فن أو تقاليد قديمة إلا عندما تتعارض مع المبادىء المسيحية..

ولأن الكنيسة القبطية قامت بدور الأم الراعية للكنيسة النوبية فإن ملوك النوبة أنفسهم أحبوا الكنيسة القبطية وسعوا إليها ، وهنا يكون التعامل ليس ضد الإستقلال وإنما بناء على طلب أهل النوبة وسعيهم لأن يدخلوا إلى الإيمان المسيحى من باب القبطية الأرثوذكسية حتى إن ملك علوة سوبا أرسل لى ملك نوباطيا طالباً مجىء الأسقف لونجينوس الذى تعرض فى الطريق للعديد من المضايقات والذى سجن حتى لا يصل إلى سوبا، ولكنه تنكر ولبس باروكة شعر..

وقد كان أصلعاً وخرج لكى يستمر فى رسالته ، وعندما وصل إلى سوبا كتب

إلى ملك نوباطيا يحيي حماسه المسيحى ويعرب عن خالص شكره وتقديره ويعلمه إنه وجد فى سوبا فئة من المسيحيين الأكسوبيين الذين يعرفون بالخياليين لأنهم إعتقدوا إن جسد المسيح منزه عن الأوجاع والآلام ورأيهم خيالى وكأنهم يعتقدون إنه حارب هذه البدعة..

لقد كان هدف تبشير الكنيسة القبطية لبلاد النوبة هو قبول المسيح مخلصاً وفادياً، وقد إنتعش الفن النوبى ورسم الفنان النوبى لوحات فريدة خاصة به مثل : لوحة الميلاد، ولوحة الحماية من العذراء للأميرة النوبية، ولوحة الثالوث الأقدس، إن الكنيسة القبطية حافظت على إستقلال بلاد النوبة لأنها ككنيسة ليست لديها أى أجندة سياسية..

٩٦. الكنيسة الشرقية ومسيرة التواضع

الرئيس عمر البشير: عندما زارنا بطريرك إثيوبيا الأب باولوس فى السودان فى أوائل عام ٢٠٠٧ م بدعوة كريمة من رئيس الجمهورية تمتتعت بحضور اللقاء بين رئيسنا والبطريرك وأعجنى تعليق الرئيس بأن الكنائس الشرقية لم تقاوم الإنقاذ فى أول الطريق، ولكن قدمت محبتها الشفيفة النقية ووجدت تعاوناً صادقاً، وأقامت إفطار رمضان كل عام والذى يُعد الآن شاهداً على التعايش ودليلا على المحبة التى تعطى ولا تمتن، فالكنيسة القبطية كنيسة وطنية شرقية أصيلة لم تدخل فى إشكالات مع أى حكومة، فهى لا تتعب الحكومة ولا تتضايق من الحكومة..

والقرآن الكريم يشهد بصدق النصارى وشفافيتهم وهو يقصد هنا الأقباط بالذات، لأنهم وحدهم دون غيرهم عندهم الرهبان الذين لا يتزوجون والقسوس الذين يعيشون فى أسرة ويخدمون من واقع تجربتهم كل أسرة، والقرآن يعتبر إن النصارى هم الأقرب فى المودة وهم البعيدون جداً عن الإستكبار والإستعلاء : «لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى بأن منهم قسيسين ورهباناً ، وإنهم لا يستكبرون « ..

وملاحظتى هنا إن كلمة أقربهم بهذا الدفء والتعاطف لم ترد فى القرآن الكريم إلا فى هذه الآية.. كما إن كلمة يستكبرون تحمل معنى تواضع أهل الشرق ويوصف بها الآن دول الإستكبار..

مسيرة التواضع: وفى مقدمة كتاب « مجلس كنائس الشرق الأوسط « المقدمة إن مشروع كتابة « تاريخ المسيحية فى الشرق « خطوة جريئة تأتى فى بدء الألفية الثالثة وتأتى كتابتنا للتاريخ منطلقة من إرادتنا للتعبير عن تصميمنا على متابعة رسالة كنيستنا والإستمرار بالشهادة للمسيح على هذه الأرض المقدسة.. وتنطلق كتابة التاريخ من العمل بكل إيمان ورجاء لمستقبلنا فى الشرق..

إن إستمرار الشرق فى إعتماده النطاق الزراعى يجعل البعض يتمسك بنظرة تقليدية إلى مفهوم الزمن الدائرى حيث تخضع المحاصيل والحياة الزراعية للفصول والمواسم، ما يجعل الباحثين التقليديين يكررون المقولة الشعبية : « إن التاريخ يعيد ذاته «.. واضعين الناس فى قبضة القدر جاعلين من الشعوب ضحية لدورة التاريخ..

ويرى مقدم كتاب « المسيحية فى المشرق: إن يخرج الناس من قبضة القدر وينظر إلى التاريخ من زاوية النظرة إلى الزمن المتطور الذى يكون فيه الإنسان ملازماً للفعل الإلهى فى صناعة التاريخ، فمع إيماننا بأن عمل الروح القدس قد تجلّى فى أحداث التاريخ وتطوراته، إلا أن تاريخنا لم يكن دائماً مشرقاً ولم يكن دائماً مشرقّاً إذ إمتزج تاريخ كنائسنا بتاريخ الحضارات وتاريخ الشعوب والتيارات الفكرية التى نمونا فى إطارها..

وبذلك لم يكن هذا التاريخ طاهراً على الدوام مترفعاً عن الخطية أو عن رذالات هذا العالم، ولهذا فإن كتاب المسيحية عبر تاريخا فى الشرق ليس فقط تاريخ المسيحية بل هو بشكل أساس تاريخ المسيحيين فى منطقة الشرق ، الذين عانوا الإضطهادات الوثنية وتجارب هذا الدهر، وآلام الزمان الحاضر، وساهموا فى صناعة تاريخ منطقة الشرق ، فى خفر السكون..

وفى شفافية التواضع كانت المسيرة تمشى الكنيسة متمهلة كقول أشعياء: أتمشى متمهلا كل شىء من أجل مرارة نفسى (أشعياء ٣٨:١٥) وقد إتخذ محمد حسنين هيكل هذه الآية آية رئيسية عند حديثه عن الكنيسة القبطية فى الباب الرابع من « خريف الغضب «.. وعاشت كنائس الشرق تتفاعل مع حضارات الشرق وتثريها، عاشت شهادة الصمت، فالمسيحيون فى الشرق لم يعيشوا مجد بيزنطية السياسى كما لم يعرفوا الإستكبار والتعدى ولم يستفيدوا من إنجازات العقل العربى وإكتشافاته..

لكنهم عاشوا مع سكان هذه المنطقة بقلب واحد وأمل نهضة مشتركة يرافقها العدل والإزدهار للجميع..

شارك المسيحيون فى الحكم أقل مما ساهموا فى الحركات النهضوية الفكرية والأدبية فى الشرق، وعلى الرغم من عدم المساهمة المباشرة فى إدارة شئون البلاد نرى إن معظم الحكام منذ العهود الإسلامية الأولى يستعينون بأمناء سر وأمناء صندوق وموظفين مسيحيين من كل الفئات، وقد ساهم المسيحيون فى النهضة العربية الأولى خلال العصور الأموية والعباسية فى نقل الثقافة والتراث والفلسفة اليونانية إلى العربية وفى أعمال التعريب والتأليف، وفى دفع حركة الإنتاج الأدبى وإزدهار العلوم فى العالم العربى، وساهموا فى النهضة العربية الثانية ولم تكن المراحل الصعبة عبر التاريخ دائماً نهائية، إنما إستمر الحضور المسيحى فى الشرق، وإن كان العدد قد تناقص ولكن الآباء الأول فى كنائس الشرق لم يعتم على الوجود العددى ، إنما على نوعية الشهادة، لأن الكنيسة الشرقية بدأت مسيرة التواضع الشفاف ولم ولن تتخلى عنها...

٩٧. تاريخ الحركة الوطنية في السودان

بروفسور عمر بشير: من بين مؤلفات البروفسور محمد عمر بشير كتابه القيم « تاريخ الحركة الوطنية فى السودان» طباعة دار الجيل ببيروت ١٩٨٧م .. وقد كتب كتابه بالإنجليزية ونقله إلى العربية ثالوث من علماؤهم : هنرى رياض، وليم رياض، والجنيد على عمر، وراجعه دكتور نور الدين ساتى.. ويبدأ الحديث عن الحركة الوطنية بحديث عن الجذور التاريخية للسودان الحديث، فالحركة الوطنية لم تبدأ من فراغ والمواطن السودانى هو إبن تاريخه المجيد ويولد الطفل وهو يحمل فى كيانه كل تاريخ السودان وأمجاده، أيامه قبل ميلاد المسيح ، وأيامه يوم أن كان الوطن مسيحياً لمدة ألف عام، وأيامه عندما دخل الإسلام إليه فى نقاء الصوفية وشفافية الحكماء..

السودان بالنيل الذى هو شريان الحياة ، وبالأمطار الجميلة فى فصل الخريف، وبداية اللقاء بمبادىء المسيحية فى القرن السادس حيث وجدت المسيحية مكاناً فى قلب المواطن السودانى، ووجد الأقباط مقراً يحتموا به فى السودان عندما حاربهم

أباطرة الرومان الذين فى أيديهم زمام الأمور.. وظلت الممالك السودانية المسيحية على ولادتها للكنيسة القبطية فى مصر، وظل ملوكها يعتبرون أنفسهم حواريين كهنة وحماة لبطريرك الإسكندرية..

وكان ملوك تلك الممالك ملوكاً وقساوسة فى نفس الوقت قبضوا بإيديهم كلا من السلطتين الدنيوية والروحية وساعدهم فى مزاولة مهامهم نظام دينى قائم على تعاليم وطقوس الكنيسة القبطية حتى أتى زمن صارت اللغة النوبية تكتب بحروف اللغة القبطية، وصارت اللغة النوبية هى لغة الكنيسة.. وأقدم هنا ملاحظة هى فك طلاسم اللغة النوبية يكون بدراسة اللغة القبطية التى كانت تستعملها كنائس النوبة، ويقول البعض: إن حروف اللغة النوبية هى من حروف يونانية، ولكن الأمر غير هذا، إن حروف اللغة القبطية هى من إثنى وثلاثون حرفاً، خمس وعشرون من اللغة اليونانية ، وسبع حروف من الديموتيقية..إن الكنيسة النوبية هى مجد قبطى قديم، فالذين بشروا السودان بدأوا بإمرأة قبطية فى قصر إمبراطور بيزنطا هى « ثيؤدورة».. ورهبان.. ونسّاك.. وتجار.. وصناع .. وكلهم أقباط عاشوا فى السودان وصاروا أقباطاً سودانيين..

الحركة الوطنية: وبعد الحديث عن الجذور الأولى يتحدث المؤلف عن مسيرة الحركة الوطنية ويحدد لدراسته أعواماً تبدأ من سنة ١٩٠٠م حتى سنة ١٩٦٩، حيث يفرد الباب الثانى للتاريخ من مطلع القرن حتى الحرب العالمية الأولى ثم يتحدث عن المقاومة الأولى والذى فيها قامة حركة تمرد من دارفور على نظام الحكم الثنائى، ولكن تم القضاء على علي دينار مفجر الثورة، وأصبحت دارفور مديرية خاضعة للحكم الثنائى..

وفى عام ١٩٠٣م ثارت قبيلة نيام نيام ضد قوات الحكومة، وظلت نوبا الجبال تقاوم وتعارض مثل أهل الجنوب، وبعد هذا يأتى الباب الرابع تحت عنوان « إرهاصات الثورة» عندما نشأت الحركة الوطنية وبدأت فى تكوين الجماعات السرية والخلايا، وبدأت فى كتابة المنشورات وقصائد الشعر وأخذت من الجرائد المصرية طريقاً للحديث عن الإستقلال شعراً ونثراً وتأثرت الحركة الوطنية فى السودان بأحداث مصر ومسيرة ركبها نحو معاداة الإستعمار وجهود سعد زغلول الذى أراد أن يعرض قضية مصر واضعاً إياها على منضدة مجلس السلام..

ولكنه منع ونفى إلى جزيرة مالطة معه أقطاب من حزب الوفد من بينهم مكرم عبيد وويصا واصف وسينوت حنا.. وهنا بدأت الرقابة تشتد على السودان ، وكان سعد زغلول محبوباً لدى أهل السودان، وكانوا يتوقعون منه أن يحرك البركة الساكنة ويلقى فيها بحجر يرميه ليحرك مشاعر الناس نحو إستقلال السودان، وأذكر هنا قصة المفتش الإنجليزى الذى ذهب إلى مدرسة فى كوستى وسأل : من هو أعظم إنسان على الأرض ؟ وإنتظر الإجابة ورفع طالباً إصبعه مطقطقاً إياه لكى يقدم الإجابة، وكانت إجابته كارثة وقعت على رأس المفتش ومشكلة لناظر المدرسة..

فلقد كانت إجابة التلميذ السودانى: إن أعظم رجل فى العالم هو سعد زغلول.. وهو درس لم يأخذه فى المدرسة، إنما فى البيت والشارع اللذان كانا يتمتعان بأمواج الحرية ويتابعان إنتصارات الحركة الوطنية فى مصر.. ويستمر الكتاب فيتحدث عن ثورة ١٩٢٤م والتى شارك فيها كل قطاعات الشعب، ومن بينهم الأقباط السودانيين الذين كتبت أسماءهم فى سجل سجن كوبر فى حجرة المدير.. وبعد هذا جاءت الوطنية الجديدة، والمهدية الجديدة، ومؤتمر الخريجين.. وحديث عن الحركة الوطنية والتطورات الدستورية والأحزاب والنقابات..

وفى الباب الآخير عود على بدء وخاتمة يتحدث عن السودان بعد الإستقلال وحكم عبود وثورة ١٩٦٤م أكتوبر التى أطاحت بإنقلاب عبود، وهو بعد هذا ينظر بعين الرضى إلى ثورة مايو ويقول : إنها ثورة على الماضى وبداية لعهد جديد من التاريخ السياسى والتنمية الإقتصادية، وهذه حكمة من بروفسور عمر بشير، فقد كان يكتب تحت مظلة حكم مايو.. ولقد عاش حتى حكم الإنقاذ ولم يخف وقتها تبرمه من الإنقلابات العسكرية..

٩٨. المناخ الثقافي للسودان زمان

آراء وأفكار: عندما صدر كتاب « آراء وأفكار» من الخرطوم والذى يشمل على مجموعة محاضرات ألقيت فى دار الثقافة وكانت مركزاً أدبياً مرموقاً غطى أربعينات وخمسينات القرن العشرين، تذكرت كيف إهتم الإنسان بالثقافة منذ قديم الآزمان، وتذكرت على الأخص فيلسوف المسيحية بولس الرسول والذى كان على مستوى عال وراق من الثقافة الروحية، وكيف إنه ذهب إلى ميدان « أريوس باغوس» فى

أثينا، وكانت قد إحتدت روحه فيه إذ رأى المدينة مملوءة أصناماً، وقابله هناك قوم من الفلاسفة الأبيقوريين والرواقيين وقال بعض : إنه يظهر منادياً بآلهة غريبة لأنه كان يتكلم عن يسوع والقيامة، وأخذوه هؤلاء إلى أريوس باغوس والذى كان داراً ثقافياً.. وكان مكاناً للرأى والفكر، وكان بعض من اهل أثينا لا يتفرغون لشىء آخر إلا لأن يتكلموا أو يسمعوا شيئاً حديثاً..

ووقف بولس فى وسط أريوس باغوس وسط هذا الجمع الحاشد من الفلاسفة والمثقفين وقال : أيها الرجال الأثينيون أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيراً لأننى بينما كنت أجتاز وأنظر إلى معبوداتكم وجدت أيضا مذبحاً مكتوباً عليه « إله مجهول» فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه، هذا أنا أنادى لكم به، الإله الذى خلق العالم وكل ما فيه إذ هو رب السماء والأرض، لا يسكن فى هياكل مصنوعة بالأيادى ولا يخدم بأيادى الناس كأنه محتاج إلى شىء، إذ هو يعطى الجميع حياة ونفساً وكل شىء، وصنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على وجه الأرض وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم لكى يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه، مع إنه عن كل واحد منا ليس بعيداً، لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد كما قال بعض شعرائكم أيضا لأننا أيضا ذريته..

فإذ نحن ذرية الله لا ينبغى أن نظن إن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة وإختراع إنسان، فالله الآن يأمر جميع الناس أن يتوبوا متغاضياً عن آزمنة الجهل، لأنه أقام يوماً هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينّه مقدماً للجميع إيماناً إذ اقامه من الأموات (أعمال الرسل ١٧).. لقد ذهب بولس المثقف إلى هذا الوسط الثقافى لكى ينادى بالإله الواحد.. وهو إذ يستشهد بشعر شعراء أثينا إنما يدل على ثقافة واعية تنشر ثقافة جديدة هى ثقافة التوحيد وسط شعب يؤمن بتعدد الآلهة.. ولو لم يكن بهذا المستوى من الثقافة لما تمكن من مخاطبة هذا الشعب الذى لا يحب سوى أن يسمع جديداً لكى تنمو ثقافته..

المناخ الثقافى: وكتب آراء وأفكار عن الخرطوم يقدم له بروفسور حسن أبشر بإعتباره صورة حيوية عن المناخ الثقافى الذى كان فى السودان والذى من خلال دار الثقافة مد جسراً من العلاقات الإجتماعية والثقافية بين رجال الإدارة البريطانية والنخبة السودانية الصاعدة، ونجّم عن ذلك إحساس بأهمية العامل الإنسانى خلال

مناقشة القضايا المطروحة والمشاركة فى المعلومات المتاحة ، وتفهم وجهة نظر الآخر للتوصل إلى إتفاق أو حل وسط معقول حول المبادىء التى تقود إلى المستقبل..

وفى الكتاب مجموعة من المحاضرات التى ألقيت فى دار الثقافة والتى تبدأ بمحاضرة « البعد الإنسانى للثقافة» وتمتد إلى مواضيع أخرى عديدة مثل الديمقراطية، كيفية فهم الشعر الإنجليزى، موارد الغابات فى السودان، أبو العلاء المعرى، عمر الخيام شاعر إيران ورباعياته، أهداف التعليم، الخدمة المدنية، طبيعة الحرب الحديثة، العرب والحضارة الغربية، عالم واحد أم عالمان، القدس وبرلين، أفريقيا والإقتصاد العالمى..

وكل هذه المواضيع التى عرضت ونوقشت فى دار الثقافة بالخرطوم توحى إلينا إن المناخ الثقافى السودانى زمان كان مناخاً صحياً، وكان الناس يقرأون ويناقشون بل كانت القراءة مهمة جداً عندهم، والحمد لله وحتى الآن القراءة عند أهل السودان تحتل أهمية كبيرة، فأول مسيحى سودانى قبل المسيحية عن طريق القراءة إذ كان يقرأ فى سفر أشعياء النبى وإلتقى بالشماس فيلبس المبشر وتناقشا فيما كان يقرأ..

وحتى الآن السودانى يحب أن يقرأ حتى كانت بالأمس مقولة: القاهرة تكتب، لبنان يطبع، السودان يقرأ.. وسوف يستمر المناخ الثقافى فى إنتعاش ونمو من خلال المنتديات الفكرية والمنابر الثقافية، وأيضا من خلال رجال الصوفية ومن خلال نشاطات ندوات الكنائس المسيحية.. إن المناخ الثقافى فى السودان زمان كان جيداً وأعتقد الآن إنه سوف يكون أفضل بسبب التواصل الحديث وتكنولوجيا الإتصالات التى تجعل كل مواطن فى العالم أخ وشريك لكل مواطن آخر.. وإمتداد جذور ثقافتنا يعنى إن المستقبل الثقافى لنا..

٩٩. تحية من عزيز إلى قائد عزيز

المجد والتاريخ للثوار: تحت هذا العنوان وفى مجلة الرسالة ١٩٦٠/١١/٣٠م كانت أرق رسالة من الشاعر الوطنى عزيز أندراوس إلى القائد البطل جمال عبد الناصر، والمدخل إلى القصيدة حديث راق رقراق يقول بأسلوب ثورى رقيق : حينما وطأت أقدام الجيش الفرنسى أرض سوريا المقدسة ذهب الجنرال « جورو» لتوه إلى حيث يرقد صلاح الدين فقال له: لقد زعمت إبان الحروب الصليبية، إننا خرجنا من الشرق، وإننا لن نعود إليه مرة ثانية، وها نحن ياصلاح الدين نقف على هذه الأرض نفسها، فقم إذن لكى ترانا هنا بعد أن غزونا سوريا وبعد هذا يأتى قول عزيز بعزة وإعتزاز :

قم ياجورو، ولتقم معك كل فرنسا لترى

إن صلاح هذا العصر.. بل لترى إن ناصر

هذا العصر يقود العرب من نصر إلى نصر

ومن فخر إلى فخر.. ومن فجر إلى فجر، فأين

نحن من سنة عشرين ؟.. وأين أنتم من

سنة ستين ؟.. وأين أين أنت من صلاح الدين ؟

ويقول الشاعر عزيز أندراوس فى هذه القصيدة حاولت جاهداً أن أضع فى كل بيت من أبياتها قطعة من نفسى – وهل هناك شيء أعز علىّ من نفسى أستطيع أن أضعه أمامك الليلة ؟..

رق النسيم وغنت الأوتار

وتراقصت فوق الغصون ثمار

وتواثبت عبر النفوس خواطر

بيضاء تهتف للدنى وتغار

وتواكبت شهب البرية مثلما

تتواكب الأحلام وهى نضار

بطل العروبة إننا فى مصرنا

جند وفى سوداننا أحرار

ربطت مياه النيل فى أعماقنا

حب الحياة فلن نراه يضار

لما تأممت القناة وقلتها

لا ظلم بعد اليوم لا إستعمار

جفلت فلول الغى تشجب عارها

ويجر أذيال الهزيمة عار

فذهبت تخترق الشوارع ملهباً

إحساس شعب دونه الإعصار

ضجت شعوب الأرض وهى حريصة

ما مثل مصر يغضها الإبصار

حب جمال: كان الشاعر مثل كل أهل السودان أو أغلبهم يحب جمال عبد الناصر، ويراقب مواقفه الوطنية الأصيلة، وقيمه النبيلة فى الدفاع عن الوطن والفضيلة.. ولقد إنتشر إسم ناصر وجمال بين أهل السودان.. ولقد أعطى عزيز أندراوس هذا الإسم لإثنين من أبنائه واحد سماه جمال والآخر ناصر.. وعندما أختطف الموت جمال عبد الناصر رثاه عزيز أندراوس رثاء شعر ونثر.. قال فى شعره..

يارجال الصحراء مات جمال

فأخرجوا اليوم نحو زبد الحياة

يانساء البيداء مات جمال

وإنطوى النيل فى ضباب الشتات

يانسـور السمـاء قـد مات نسـرُ

فأهرعـى نحـوه وقولـى وهاتـى

أنبتيـه فقـد تسامـت طـولا

وإرتفاعـاً علـى رؤوس الغـلاة

وأسمقيـه إلـى عنـان سمـاء

دون هـذى السمـاء بالحسـرات

هونى الصبـر فـى قلـوب الحيارى

بيـن نيـل مصـر وشـط الفـرات

نيـل طـروادة الطويـل بكـاء

وحـداداً ومـآتم للكمـاة

وآه ليكسنـدرا الـرؤوم تنـادى

مـن خـلال الأسـوار والردهـات

ياصبايـا اليـوم هبـوا سراعـاً

جللـت الآفـاق بالحدقـات

وأنشـرن الدمـوع فـوق تـراب

بللتـه الدمـاء مـن ساعـات

أنـا أبكـى وانـت تبكـى ويبكى

كـل حـر علـى طريـق الآنـاة

كـل صلب يـزود عـن كـل حق

وأبـّى يشتـد فـى الآزمـات

كـل عـود مخضـر راسـاً بأرض

روعتهـا منيـة فـى إفتئـات

لقد ملك جمال عبد الناصر على قلوب بنى عصره، فلقد كان زعيماً وخطيباً صادقاً وأديباً حميماً، وقائداً لركب الوطن، بل كل اوطاننا العربية والأفريقية..

١٠٠.وإنطلق الطيب صالح من محطة المحبة

الرجل وفكره: كتب الأستاذ عثمان محمد الحسن كتاباً جميلا رقيقاً ناعماً كالنسيم العذب عن الأديب الكبير الطيب صالح، عنوان الكتاب « الطيب صالح الرجل وفكره» وطباعة الكتاب على مستوى راقى من المؤسسة الراقية أكاديمية العلوم الطبية سنة ٢٠٠٢م.. وقدم لهذا الكتاب الأستاذ الأديب المعروف رجاء النقاش، وفى قراءتى للمقدمة والتى لا أخفى إعجابى الشديد بها وجدت ضالتى المنشودة وتعرفت على محطة الإنطلاق لكل روايات وكتابات الطيب صالح، والذى جذبت كتاباته كل بلاد العالم حتى جامعات إسرائيل، حيث أعدت رسائل ماجستير ودكتوراة عن هذا الأديب السودانى المحترم، والذى دخل إلى القلوب ووجد له مكاناً فيها..

ويرى رجاء النقاش: إن كتاب عثمان عن الطيب هو كتاب وعذاب، فالكتاب قيّم، والعذاب يأتى بسبب جمال الكتاب وطلاوة عباراته، وانا شخصياً أعرف عذاب الكتاب لأننى عندما أحصل على كتاب سواء من الكتب الجديدة أو القديمة التى لم أقرأها يغيب النوم عن عينى ولا أقوى على المقاومة، واقرأ ويعذبنى الكتاب الجيد لأننى لا أقدر أن أتركه لأنام أو أستريح، بل إننى ألهث فى صفحاته بفكرى وقلبى.. وتزداد ضربات القلب الساكن فى احشائى وكأنها تقول لى أترك هذا الكتاب وخذ راحتك..

ولكن لا أقوى على هذا بل يطير النوم من عينى، وخاصة فى خلوتى التى أعتبر النوم فيها خسارة فادحة، وأرجو أن أقدم للقارىء العزيز بعض ما كتبه رجاء النقاش حيث يقول : هذا الكتاب الجميل الذى يشرفنى أن أقدمه إلى القراء عذبنى كثيراً، فبعد أن قرأت صفحات قليلة منه وجدتنى ألتهم بقية صفحاته كأننى أطير فى الفضاء فوق بساط سحرى من ذلك النوع الذى كنا نقرأ عنه فى ألف ليلة وليلة.. والبساط السحرى القديم أكثر إنسانية من سفينة الفضاء لأن سفينة الفضاء محكومة بالأرض فى كل حركة تقوم بها أو إتجاه تذهب إليه..

أما البساط السحرى فهو محكوم برغباتنا ومشاعرنا وأحلامنا، فنحن نستطيع توجيهه على هوانا ونقوده إلى حيث نتصور إن السعادة موجودة، والبساط السحرى دائماً مطيع لا يتلقى الأوامر من أحد فهو يذهب بنا إلى حيث نحب.. وأقول هنا قولتى عن طغمة من خيرة الناس وهم السّواح والذين ذكرهم القرآن الكريم على مستوى

الرجال وعلى مستوى النساء عندما قال: التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون.. وعن سياحة المرأة روحياً : مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات، وعندما أوصى القرآن أن سيحوا فى الأرض..

وطغمة السّواح هؤلاء معرفون جداً فى الكنيسة القبطية منذ بدء المسيحية حيث كان هناك كثيرون تركوا العالم ، وتركوا ما يملكون ومضوا إلى التعبد لله، ووصلوا لى درجة السياحة وصاروا سواحاً مثل: الأنبا بولا فى القرن الرابع الميلادى والذى عاش لا يعرف أحد عن أخباره شيئاً إلا فى آواخر حياته.. هؤلاء كانوا ينتقلون من موقع إلى موقع على السحاب وكان بساطاً سحرياً يطير هم من مكان إلى مكان حيث كتب بستان الرهبان عن الأنبا يوساب السائح، كان شيخ سائحاً فى برية الإسقيط، إسمه يوساب قد أضعف جسده بالصيام والصلاة والسهر والتعب والصبر على حر الصيف وبرد الشتاء، ولباسه من الليف الخشن، وكان لسانه مع ذلك لا يفتر من التسبيح والتقديس فإنتهت به عبادته إلى أن صار يركب على السحاب ويتغذى من طعام يأتيه من السماء، يحتقر ذاته ويشعر إنه غير مستحق لما قد صار إليه..

محطة المحبة: ويتحدث رجاء النقاش عن كتاب الحسن بأنه بساط سحرى جميل، يستجيب فى كل صفحاته لمشاعر الحب الفياضة التى إستطاع أديب العرب السودانى الكبير الطيب صالح أن يطلقها كالعصافير فى سماء هذا الجيل العربى منذ ظهوره فى آواخر ستينات القرن العشرين إلى اليوم، فالطيب صالح من الأدباء النادرين الذين كانت محطة إنطلاقهم هى « المحبة» ولم تكن هذه المحطة هى الشكوك أو التوترات أو الكراهية أو التبرم بأوضاع الحياة والناس والمجتمع..

فنحن نجد انفسنا فى عالم الطيب صالح الأدبى محبين حتى كنا فى الأصل نشعر بأن قلوبنا مغلقة الأبواب والنوافذ فى وجه أفراح الحياة.. وبمجرد أن ندخل إلى عالم الطيب صالح فإننا نشعر بالفرح، وهو فرح غامر يأتينا من عالم الطيب القائم على المحبة والذى يسمو بهذه المحبة إلى أعلى درجاتها فيتصوف.. والمحبة عنده تجعلنا نشعر بنشوة الحياة وجمالها، والتصوف عنده ليس زهداً وإنعزالا عن الوجود، ولكنه إحتضان دافىء للدنيا والناس..

وقد أعطاه الله كل مواهب المحبين المتصوفين، فأنظر إلى كلماته التى يكتبها فإنك تكاد تحس إنها كلمات تطهرت فى مياه النيل المقدسة قبل أن تظهر على

الصفحات، فهى كلمات طاهرات ومباركات وفيها أضواء كاشفة قوية على عوالم الروح والوجدان.. وهنا أقول ما قاله يوحنا الحبيب « الله محبة «..

١٠١. سلام يحميكى يا أم درمان

نور القرآن والإنجيل: أهدى الأستاذ الأديب الأريب عميد الفكر ورجل الثقافة الشاعر العذب الكلمات الأنيق العبارات العميق التأملات الأستاذ الفاتح حمدتو قصيدة عنوانها « أم درمان « إلى كتاب» أم درمان عبر الزمان» ١٨٨٥-١٩٥٦، تأليف ميرغنى عبد القادر بن عوف.. والقصيدة عشق لأم درمان وتحية وحباً وتراثاً يحمله جيل عن جيل شعار لا يقبل التأويل، سلام ممزوج بماء النيل.. بنور القرآن والإنجيل.. كتبت مقولة فى أم درمان.. والعشق لأم درمان هو عشق لترابها.. عشقنا ترابنا ياسودان.. زرعنا أماناً فى الأركان.. رسمنا حروفها بالألوان.. وكنا وكانت أم درمان.. عزيزة وغالية يأم درمان.. وأم درمان هى قبلة كل أنحاء السودان..

وناس البقعة شيب وشباب

مزيج من أعرق الأنساب

شمالنا خير.. جنوبنا رحاب

غرب تاريخ.. شرق ترحاب

وكنتى الوجدة يا أم درمان

وقصيدة « أم درمان» تتعمق جمالا وتحية لأم درمان، ورموز وطنا زمان.. ولى رافع علمنا كمان.. سلام يأزهرى أم درمان.. سلام يأزهرى السودان.. ويتحدث الفاتح حمدتو عن تعايش الأديان فى السودان تحت رعاية إلهنا الواحد الديان.. مساجد ترفع الآذان.. كنائس تمجد الرحمن.. عظيمة وحرة يأم درمان.. وهو فى تحيته لأم درمان يقول: إن الكورة لم تزل فى أم درمان، وحليل القعدة فى أم درمان.. وتلاقى الشاعر البنّا فى أم درمان.. وهو يشق له طريقاً فى أم درمان.. ويرى فى ود نباوى رجال.. ويقابل فى المسالمة غزال.. ويمشى البوستة بأم درمان قصاد قديس، ويذهب إلى جورج مشرقى ويشرب شاى.. ويختتم الفاتح حمدتو القصيدة بقوله :

سـلام يا أم در عظيمـة الشـان

سـلام يا أم در وطـن شجعـان

سـلام يا أم در كـرم حيشـان

سـلام يا أم در عشـا الضيفـان

سـلام يحميكـى يا أم درمـان

سـلام ينجيكـى يا أم درمـان

سـلام يـا درة السـودان

درة السودان: يبدأ كتاب « أم درمان عبر الزمان»بموضوع عنوانه « المهدى يحاصر الخرطوم» وهذه بداية أمجاد أم درمان.. فلقد أبلى المهدى بلاء حسناً وبدأ حصار الخرطوم من شهر مارس ١٨٨٤م.. وبدأت الوطأة تشتد حتى فجر يوم ٢٦ يناير ١٨٨٥م ،عندما داهمت جيوش المهدية غوردون ودخلوا مدينة الخرطوم وقتلوا غوردون، وبهذا سقط عهد التركية وبدأت مرحلة جديدة هى أول حكم وطنى تحت قيادة المهدى، وبعده الخليفة عبد الله التعايشى لأنه بعد شهور قليلة وبالتحديد فى يوم ١٨٨٥/٧/٢٢م..

أصيب المهدى بحمى خبيثة تسمى أم دم أو السحائى وأسلم الروح بعد هذا المرض، ولم تكن إقامته فى أم درمان سوى ستة أشهر وكان المهدى عمره إثنان وأربعون عاماً.. وتمت مبايعة الخليفة عبد الله التعايشى والذى كان أول نواب المهدى، وبدأت دولة المهدية وقام الخليفة ببناء جامع كبير بدون سقف، وقد فرض على أهل أم درمان كافة حضور الصلوات الخمس يومياً فيه ،وبعد هذا تم بناء قبة فوق قبر المهدى، وبعد هذا تم بناء بيت الأمانة وبيت المال والمشنقة والسجن، وإتسعت مدينة أم درمان وبلغ عدد سكانها مليون نسمة..

وكان لمدينة أم درمان سور لم يكن مثل سور دنقلا العظيم، كان إرتفاعه خمسة أمتار وعرضه متر، وللمدينة أربعة أبواب، وقد طالب الخليفة التعايشى أهله فى كردفان ودارفور بالحضور إلى أم درمان لكى يعزز بهم ملكه ويأمن بهم عديات الزمان.. ولما رفضوا المجىء مفضلين جدب الصحراء وحرية البادية أرسل الخليفة

من يهدم منازلهم فى الأبيض ودارفور، فحضروا إلى أم درمان وسرّ بهم الخليفة وسميت أحياء بإسمهم مثل : حى أبو عنجة، ودنوباوى، أبوروف، العباسية، أبو كدوك، بيت المال، المسلمانية أو المسالمة، الملازمين، الموردة.. وإستمر الخليفة فى أم درمان يدير شئون الدولة ولا يتردد فى قتل أو سجن من يخرج عن طاعته..

وأصدر الخليفة عملة جديدة بعد أن بدأ بإستعمال الدمورية كعملة معتمدة.. وكان كما قال عنه المؤلف يقابل القوة بالقوة ولا يقدر ظروف وإمكانيات الأعداء..وقد أرسل رسائل إلى الخديوى توفيق والملكة فيكتوريا والسلطان التركى وملك الحبشة، ولما لم يتجاوب ملك الحبشة أرسل إليه القائد حمدان أبو عنجة لمحاربته.. وإنتصر عليه، ولكنه مات بنفس مرض المهدى فى ٢٩ يناير ١٨٨٩م..

وإنتهى الأمر بسقوط أم درمان وبها سقط السودان كله، وكما يقول المؤلف: إنه رضع من ثدى أم درمان قوة النيل الأزرق وهداوة النيل الأبيض.. وتحدث ميرغنى عبد القادر مؤلف الكتاب عن أم درمان عاصمة السودان التجارية ، حيث كان يأتى إلى أم درمان التجار من كل أنحاء السودان لبيع منتجاتهم الزراعية وغيرها ويشترون لوازمهم من أم درمان..وقد كتب مؤلف الكتاب كشف بأسماء التجار فى أم درمان وهو يمتلىء بالمسلمين والمسيحيين واليهود..

وذكر من الأقباط عبد المسيح تادرس وأولاده وهو نسيب القمص فلتاؤوس قلادة أول من صلى قداساً فى أم درمان خلال أيام المهدية وواصف سليمان ويسى مرقص وميلاد بطرس ومن اليهود إيليا هو عبود، أولاد مراد، ومراد إسرائيل، وكان كل هؤلاء التجار أعضاء فى الغرفة التجارية..

١٠٢ـ السودان للسودانيين

كفاح جيل: بدأت الحركة الوطنية السودانية فى السودان فى حماس دافق نحو خير السودان، وكان البعض يرى إن الخير فى الإستقلال، والبعض الآخر يرى إن الخير فى الإرتباط بمصر.. ونشأت الجمعيات الأدبية وإنتشرت بداية لإذكاء الحماس وإشعال الروح الوطنية، وذكر أحمد خير فى كتابه « كفاح جيل» : إن الجمعيات الأدبية التى أنشأها أبناء الحى أو الحارة ورفاق الفصل أو الدراسة، نشأ بعضها

للتمثيل وبعضها للمطالعة المشتركة والمراجعة، وأخرى للخطابة وقرض الشعر والمناظرات..

وهناك فئة ثالثة لم تحتمل نير الإستعمار وكانت تشعر بعدم الرضا الشديد نحوه، وهوذا الشاعر عزيز أندراوس فى مذكرات له لم تطبع يقول: إنه عندما تفجرت ثورة ١٩٢٤م كان يافعاً فى العاشرة من عمره ولم يدرك المعالم الكبيرة للثورة العظيمة، ولكنه أدرك شيئاً واحداً وهو سيطرة الإنجليز بقوة الغزو على مقدرات البلاد..

وعلى مستوى الوطن ظهر من ينادى بقومية السودان ومناقشة هوية الأدب السودانى الذى كثيراً ما كان ينتعش ويجد حضوره فى الأدب المصرى، ولكن لا يقدر أحد أن ينكر إن الأدب السودانى له سمة خاصة به، وهذا على مستوى التاريخ كله حيث يذكر فى العصر المسيحى إرتباط الكنيسة النوبية بالكنيسة القبطية، وكانت الكنيسة تحتاج إلى الفنان رساماً، فإستعانت فى أيامها الأولى بالفنان القبطى..

ولكن سريعاً ما وجد الفنان النوبى مكاناً.. وتميز الفنان النوبى بسمات خاصة بل رسم لوحات لم يرسمها الفنان القبطى مثل: لوحة الميلاد، والتى وضع فيها سريراً سودانياً أى عنقريب للطفل المولود.. وهكذا لوحة الثالوث المقدس، ولوحة الحماية، والتى فيها رسم الملك فى حماية الملاك والأميرة فى حماية السيدة العذراء.. كل شعب له فنه وتراثه وقوميته، لقد دعا محمد أحمد محجوب صراحة إلى فصل الثقافة السودانية عن الثقافة المصرية..

ودعا محمد عشرى صديق إلى إحياء الآداب القومية وكتب محمد إبراهيم النور يقول: فنحن وإن كنا نشترك مع أمم الشرق العربى فى الجنس واللغة والدين، فلنا بيئتنا الطبيعية والإجتماعية الخاصة بنا، وهى لابد أن تصبغ ما يقدر لنا أن نصبغه من أدب بصبغتها الخاصة، وكتب محمد عبد الرحيم يقول: ظلم صريح أن ينكر على السودان أن يكون له أدب، إن الأدب القومى فى نظرنا أصدق فى التعبير عن الحياة السودانية من غيره..

السودان للسودانيين: وإرتفع شعار السودان للسودانيين إستمراراً لتأكيد الهوية الخاصة للسودان والشخصية المميزة له، وقد بدأ هذا شعاراً واضحاً لجمعية الإتحاد السودانى والتى ولدت عام ١٩٢٢م وإعتمدت المنشورات، وهذا يعنى إنها كانت جمعية سرية..

وكان عدد أفرادها قليل قدر أصابع اليدين، وأطلقت الجمعية الشعار» السودان للسودانيين» والمصريون أولى بالمعروف، وكان هذا يعنى إن هذا الشعار ليس مضاداً لمصر إنما للمصريين مكانة فهم أولى بالمعروف.. وكانت هذه الجمعية تنادى بوحدة وادى النيل مع تأكيد قومية السودان.. وبعد هذا إنطلق شعار السودان للسودانيين من جمعية الإتحاد السودانى إلى المجتمع السودانى كله..

وكان لهذا الشعار رد فعل لدى بعض الوطنيين من السودان ، ولدى رجال الأحزاب فى مصر جعلهم يقفون مع التيار المعارض الداعى للقومية السودانية، فقد رأى مدثر البوشى إن هذا التيار هو خطة لعزل السودان عن العالم وإنه هدف إستعمارى لتقطيع أوصال السودان حتى يسهل إبتلاعه وهضمه ولا طريق لذلك إلا بمحاربة الدين ومحو اللغة العربية..

أما الشاعر العباسى فقد رفض هذا الإتجاه نحو قومية السودان بل رفض القومية ذاتها :

معتبراً إياها وهماً وسرابا..

وما تريدون من قومية هى..

فى السراب على القيعان رقراقا..

وكان المناهضون لقومية السودان وخصوصيتها يخافون على وحدة وادى النيل حتى لا يصبح النيل أقطاراً موزعة ، وساكنو النيل أشياعاً وأذراقا.. ولكن كتب لمسيرة تأكيد الذاتية السودانية أن تشق طريقها ناجحة وسط المتعلمين وخاصة خريجو كلية غوردون.. بل إن هذا النجاح ظل مستمراً حتى عندما أعلن الإستقلال بواسطة إسماعيل الأزهرى كان ميالا جداً للإتحاد مع مصر، ولكنه تجاوب مع رغبات شعبه وغيرّ موقفه ..

ومن الملاحظ إن زعماء القبائل والطوائف الدينية بإستثناء الختمية والأنصار كانوا بعيدين عن هذا المعترك منعكفين فى ولاءاتهم القبلية وساعدتهم السياسة البريطانية على ذلك بالإهتمام بهم، وأيضا بقانون الإدارة الأهلية لعام ١٩٢٤م.. ولهذا كان الداعون إلى القومية السودانية يهاجمون الإدارة الأهلية ، وفى عنوان إفتتاحى كتب أحمد يوسف هاشم يقول: إن الإدارة الأهلية قامت على النصرة القبلية والأرستقراطية الدينية، ولنا ان نقول : إنها مصدر الكثير من متاعبنا..

١٠٣. نقد العقل السوداني

بركات الحواتى: يرى البروفسور بركات الحواتى إنه أول من حاول الحديث حول هذا المصطلح، وعن دراسته هى محاولة رائدة ليس لها ما يسبقها، والدراسات السابقة لم تتجاوز الوصفية ولم تدخل إلى عمق المقومات والموجهات فكانت كالزخرف.. ولكن فى رأيه إن الأمر ظل كذلك حتى معركة كررى ١٨٩٨م التى إنتهكت حرمات العقل السودانى وناوشت أصوله فى محاولة لقصف جذوره أو على اقل تقدير تعويقها..

وكان هذا الإنتهاك مناوشة محسوبة ومحدودة فى سياسات وخطط وقرارات ليس أقلها إنشاء كلية غوردون التذكارية وهى فى رأيه راجمة فكرية مؤسسيه ما زال نفوذها يقض المضاجع.. ويأتى تعقيد هذه الدراسة نتيجة طبيعية لتركيبة العقل فى السودان ومقومات وجدانه لأن دائرة الحوار جامدة أو راكنة أو قاصدة إلى لذيذ الكلمات فى لذيذ الحوار..

وهذا سجن جهنمى سبقتنا إليه كثير من دول العالم الثالث وهى تبحث عن ذواتها إذ ظل المطروح هلاماً تتداوله النخبة رفاهاً تسترقه أذن بعد أخرى.. ولكن رغم هذا تظل محاولة النقد قائمة تحريضاً يستفز العقل تحريكاً للسواكن بل هو عصف يستثير رؤى وأبعاد ذلك العقل.. ولقد تعرض العقل السودانى للقاء عاصف مع الثقافة الغربية التى سيطرت فى زمن ما على المثقفين أنفسهم والتى إستهدفت التغيير الحضارى لمصلحة ثقافة الغرب..

وظل العقل السودانى فى ركن ركين تعانى جذوته من مبررات الهجر والجمود، بل أن مجرد محاولات التفاعل ظلت تتجاوزه بإسم الثقافة العارضة المهيمنة التى خلقت فى كثير من تلك النخبة مدافعاً عن الرصيد الغربى القح حدث فى عقلنا القطيعة المعرفية بماضينا المجيد الجسور، وهنا يقول أحد المفكرين: إننا قد نسينا فى غمار عملية النقل والإستعارة إن هذه الأفكار والقيم والمؤسسات الغربية قد نمت وتطورت نتيجة صراع سياسى وإجتماعى طويل، وإنها تراكم لمحصلات تطور تاريخى ممتد إنتزعنا بغير أصالة فكرة من هنا وفكرة من هناك..

وحين زرعنا هذه النظم فى بيئتنا بغير توافر الشروط الإجتماعية والإقتصادية والسياسية تحولت للأسف إلى مسوخ شائهة وصور كاريكاتورية لا علاقة لها بالأصول التى تم النقل عنها، ومثل هذا ما ساقته لجنة تنظيم الخدمة المدنية عندما قالت: لقد إمتثلنا للقوانين الإنجليزية دون أن نهيء لأنفسنا أن نكون إنجليزاً..

نقد العقل السودانى: فى كتابه « الذاتية السودانية» دراسة فى المكان والإنسان والأحداث، وفى نقد العقل السودانى تحدث بركات عن أن السودان له حضارته الخاصة المميزة بمقوماتها المادية والمعنوية التى تضرب بعيداً فى جذور المكان والزمان وفيها خصوصية عبر عنها الإنسان إنفعالا وتفاعلا فى إيقاع تفاوت صراعاً كما تفاوت حواراً..

وفى إعتقادى إنه مهما كانت ثقافة الغرب ومهما قوى حكم الإستعمار فإن العقل السودانى عقل يستمد قوته من تراثه القديم.. وإذا كان قد نفذ فكر الإستعمار، وباشر ثقافته فهذا هو حكم القوى على الضعيف.. أما العقل السودانى فله جذوره العميقة.. وعندما يولد المواطن السودانى كما يرث لون بشرته وطول قامته وخفة حركته، هكذا يرث ميراث الآباء فى حضارة سبعة آلاف عام من العصر الحجرى إلى العصر المسيحى إلى العصر الإسلامى..

بل إن هذه الأديان لم تزل تتعايش ليس فى كل مؤسسة دينية بشكلها المعروف، إنما فى كيان كل مواطن سودانى، ويقدم بركات نموذجاً لهذا التفاعل والإنفعال فى مسميات الأشخاص، فهناك بعنخى، وترهاقا ، وشاباكا، وسيلكو، وأنلامانى، وأمانعكرين.. وهناك امانى تيرى، وأمانى شيختو، وهناك أيضا الأسماء التى عددتها لوحة الملك الأكسومى عيزانا عند تدمير مروى ٣٢٥م وهى أسماء قريبة من أسماء نوبا ، كردفان الحاليين..

وهناك على الزمن المسيحى فيما يذكر فانتينى ، يؤانس، وزكريا، وإبرآم، والبرسى، وجورجى، وزماريا.. وفى نفس ذلك الزمان ما يتصل بحضارة ما قبل المسيحية إستاوروس، بيسكو، سكوتة، وأريد أن أقدم هنا ملاحظة وهى إن إسم

إستاورو إسم مسيحى يعنى صليب ومن مشتقاته أسطفر، بسطوروس، بسطويسى، وهناك من الأسماء النوبية باديس أدور، شنكو، كاتيكودا، كودنبس..

ومن أسماء البجة شاراشن، وشاراتكور، وشاراهيت.. كما ظهرت أسماء إسلامية مثل: محمد، عبد العزيز، عثمان، وهناك أسماء وعت النوبية والمسيحية والإسلامية مثل : عبدالله برشنبو كما سيطرت الأسماء العربية مثل: البرسى بمعنى التوأم ، والبولاد، والمانجل، وسوار الذهب، كناية عن السلطة والتى تأتى بإسم سرتوب فى بلاد النوبة، ونقد وعيسى وجارة وآمنة وحنا، وجورج، ودينق، ومادبو، بمعنى مؤدب..

وهنا أريد أن أؤكد خلفية العقل السودانى ولكننى أرجو من القارىء أن يراجع الأسماء فربما يكتبها مصفف الجريدة خطأ.. وتظل محاولة نقد العقل السودانى محاولة قائمة على الأخص إنها دراسة لأستاذ كبير فى قامة بركات الحواتى..

١٠٤ ـ أم درمان عبر الزمان

الكتاب والكاتب: فى عام ٢٠٠٥م أطل علينا كتاب أم درمان عبر الزمان والمؤلف من مواليد أم درمان عام ١٩٣١م أى أن عمره الان فى ٢٠٠٧م هو ستة وسبعون عاماً، ولكن صورته على الغلاف صورة شاب فى العشرين من عمره.. وقد أحسن المؤلف فى أن كتب عن أم درمان، وهذا يرضى عشاق أم درمان الولهون بحبها المنسكبون على عطرها، الفرحون بتاريخها، والمعتزون بأمجادها وهم كثيرون.. وما أكثر ما كتب عن أم درمان ، ولكنه كله مطلوب جداً لأن أم درمان لؤلؤة متعددة الألوان، وكل من يكتب عنها يعبر عن لون من ألوان هذه اللؤلؤة..

وأعتقد إن هناك ألوان لم تكتشف بعد فى هذه اللؤلؤة الفريدة.. وتعدد الكتاب عن أم درمان أمر مهم، وأشعر بهذا لأننى أعلم إن السيد المسيح له المجد لم يكتب كتاباً عن نفسه، ولكن كتبت عنه أربعة أناجيل، كل إنجيل ألقى ضوءاً على حقيقة ما، وما كتب إلى شعب معين، وإلى فئات محددة، فإنجيل متى كتب لليهود، ولهذا إهتم بالعلاقة بين العهد القديم والعهد الجديد والذى جاء ليكمل المسيرة ليس لكى ينقضها، وقدم السيد المسيح الذى تنبأ عنه أنبياء العهد القديم، وقدم المسيح بن إبراهيم الجد الأكبر لليهود وللعرب..

وإنجيل مرقس كتب إلى الرومان وهو عبارة عن رسائل مختصرة لأن الرومان حكام ويحبون أن يطلعوا على الحقائق مباشرة، ولهذا فإن مرقس لم يذكر أحداث الميلاد والنسب الملوكى للسيد، إنما إفتتح كلامه بالخير عن ظهوره على الأرض ملكوتاً جديداً، وملكوت المسيح هو ملكوت القوة، ومعروف إن مرقس هو من أبناء أفريقيا ومسقط رأسه مدينة القيروان فى ليبيا.. وحتى الآن هناك بلدة تسمى « مرقسه» على إسمه..

وإنجيل لوقا كتب لليونان وهم أهل ثقافة وفكر، لهذا تتبع كل شىء من الأول بتدقيق، وقدم المسيح إبن آدم المنتسب لكل البشر، ويقدم السيد أخاً لكل البشر، شاعراً بآلامنا ومتاعبنا، ويتحدث عن المساكين وتعاطف السيد معهم، ويدعونا إلى الصلاة التى تفتح أمامنا أبواب السماء، وعن إعتزال المسيح للصلاة فى البرارى، فالمسيح علمنا الصلاة وعلمنا أن الأمور المهمة لابد أن تسبقها الصلوات، ولوقا كان طبيباً حكيماً وكان رساماً فناناً، وله لوحة رسمها عن العذراء تحمل السيد المسيح ، لم تزل موجودة حتى الآن وسط تراث الآثار الكنسية فى الكنيسة القبطية..

وإنجيل يوحنا كتب بعد الأناجيل الثلاثة، وكتبه يوحنا اللاهوتى حبيب السيد المسيح، وهو إنجيل يفتح قلوبنا على السماء ويقدم بداية آزلية للسيد المسيح والذى هو كائن قبل إبراهيم، ووجوده الآزلى يسبق ميلاده الزمنى، وقد إنفرد يوحنا بذكر معجزات منها أول معجزة وهى تحويل الماء إلى خمر، ومعجزة إقامة لعازر، لقد عاش يوحنا قرابة المائة عام ولما وجد الأناجيل قبله لم تذكر بعض الأحداث ذكرها هو..

ومن هذا المنطلق أؤيد أن يكتب عن أم درمان من يرغب أن يكتب، لأن هذا سوف يزيدنا معرفة وثروة فكرية، وأرجو أن ينبرى آخرون للكتابة عن الخرطوم وعن الخرطوم بحرى.. وقد أعجبنى كتاب « الخرطوم عبر العقود « للبروفسور المهندس سعد محمد سليمان الذى إندفع يكتب عن الخرطوم لأنه رأى الناس قد مالوا نحو أم درمان ولم يكتبوا عن الخرطوم..

عبر الزمان: وكتاب « أم درمان عبر الزمان» كتاب قيم جداً وملىء بالكلام الجميل عن البلد الجميل أم درمان، وكنت أتمنى أن يطبع طباعة فاخرة على ورق فاخر، وأن تكون صور أبطال أم درمان التى تأتى فى آخر صفحات الكتاب على ارقى مستوى

فنى، ورغم إن الطباعة ليست فى المستوى، ولكن مضمون الكتاب فى مستوى راقى جداً.. بدءاً بقبول حبوبة المؤلف أم درمان بلد الأمان تدخل بحمار تمرق بحصان، أو ما يعنى إنك تخرج منها فارساً مغواراً، وهنا يحدونى أمل أن يخرج الجزء الثانى عن أم درمان فى طباعة أنيقة تتوافق مع مركز أم درمان فى قلوبنا، فهى أم درمان التى صارت ليس أماً لدرمان فحسب، وإنما أماً لنا جميعاً، فهى العاصمة الوطنية التى كان لها الدور الأول فى تاريخ السودان قديماً وحديثاً..

وقد مرت أعوام على السودان لم يكن فيها الخرطوم من ١٨٨٥ حتى ١٨٩٨م أى ثلاثة عشر عاماً، دُكت فيها الخرطوم دكاً، وهدمت جوامعها وكنائسها وأسواقها وتوجهت كل الأنظار نحو عاصمة وطنية واحدة هى أم درمان.. ويبدأ

المؤلف بتقديم لمسة وفاء إلى العقل المفكر الذى آنار دروب العلم والمعرفة وبذل نفسه قرباناً محترقاً من أجل الآخرين.. العالم الفذ العظيم بروفسور عون الشريف قاسم.. وكان قد رحل من الدنيا إلى عالم البقاء قبل أن يصدر الكتاب، والذى قدمه عون الشريف للقارىء السودانى، وقد أثنى بروفسور عون الشريف على أم درمان وعلى الكتاب والكاتب، فأم درمان هى منذ التاريخ القديم جسراً بين حضارتين من حضارات السودان فى العصر الحجرى، هما حضارة الشهيناب وحضارة الخرطوم..

وكانت أم درمان قبل أن تحمل إسمها مهداً للجماعات البشرية، أما الكتاب فهو إضافة مقدرة إلى ذلك العقد النضيد من الأدبيات التى تطوق عنق هذه المدينة التاريخية العظيمة، أما الكاتب فقد قدمه عون الشريف شاكراً له الجهد العظيم الذى بذله فى تقصى الحقائق وجمع المادة من مختلف المصادر وإعتماد المؤلف على الوثائق والنصوص والتى جعلت الكتاب نفسه وثيقة ممهورة لقضايا وأشخاص وحياة إجتماعية وثقافية وسياسية فى أسلوب سلس خال من التعقيد، مما جعله سفراً يليق بتاريخ ام درمان.. ويأم درمان أنت فى قلب كل سودانى فى السودان وخارج السودان، يحملك أهل ام درمان فى قلوبهم أينما إستقر بهم المطاف..

١٠٥. مداخلتى لمحاضرة الرئيس الإيراني

إتجاهات المستقبل: أقامت مؤسسة إتجاهات المستقبل للدراسات الإستراتيجية والحوار لقاءاً فكرياً حوارياً مع فخامة الرئيس الإيرانى الدكتور محمود أحمدى نجاد فى يوم الخميس الفاتح من مارس ٢٠٠٧م فى قاعة الصداقة بالخرطوم والذين جهزوا للمحاضرة من الذين يتجهون للمستقبل السعيد ، ويتألق الدكتور غازى صلاح الدين والدكتور محمد محجوب هارون ألقاً روحياً فى هذه المؤسسة الفكرية والتى تأسست فى سنة ٢٠٠٤م هدفها ترقية الحوار والتوظيف الجامع للموارد والإمكانيات من أجل تحقيق الأهداف الرئيسية والكلية للمجتمع والدولة..

ونحن حوجتنا شديدة إلى هذه المؤسسة والتى نرجو أن تجد لها مكاناً بيننا فى جامعاتنا ومنتدياتنا وعلى الأخص إنها مؤسسة تتبنى المنهج العلمى فى حقل البحوث والدراسات رفعاً لمستوى الوعى العام لدى الجمهور.. وقد قدم الدكتور غازى مقدمة لطيفة وظريفة عن المحاضر، وكيف إنه ولد فى برودة شتاء ١٩٥٦م وهو نفس العام الذى تخرجت فيه أستاذة سعاد الفاتح، وكيف إنه وصل إلى كرسى رئاسة الجمهورية الإيرانية بعد إنتخابات نزيهة وبأغلبية ساحقة.. وفى ظرف قال دكتور غازى: إن الرئيس نجادى رغم ما أسند إليه من مهام كبيرة ورغم ما خاضه من معارك وجد وقتاً ليتزوج وينجب ثلاثة أبناء..

مداخلات عديدة: وقد كانت هناك عدة مداخلات وكانت مداخلة سعاد الفاتح ليست كشفاً لعمرها الحالى بقدر ما كانت نصيحة للرئيس أن يتآخى السُنة والشيعة معاً.. وتشجيعاً للأب فيلوثاوس إننا كلنا مسيحيون ومسلمون أبناء وطن واحد نحيا المحبة والتوادد، وكان إبتدار النقاش فى مداخلة قلت فيها: بسم الله الواحد الذى نعبده جميعاً مسلمين ومسيحيين، أقول شكراً لكم جميعاً شكراً لرئيسنا المبارك عمر البشير الحبة السوداء والتى فيها البركة والشفاء.. وشكراً لضيفنا الكبير على محاضرته المميزة والمتميزة.. وشكراً مؤسسة إتجاهات المستقبل، والمستقبل لنا.. والمواعيد المقدسة لنا.. والأمل المشرق فى إنتظارنا.. وشمسنا دفء روحى وحرارة أعماق.. والتحية لإيران عمر الخيّام.. إيران الكتاب المقدس.. إيران الحضارة الممتدة الجذور فى عالم الأمس.. والتى تتألق فى عالم اليوم..تحدثتم عن إيران والعالم.. وإيران

هو العالم.. والسودان هو العالم.. والإنسان كل إنسان هو العالم لأن الإنسان عالم مصغر ميكروكوزم كما يقول التعبير الفلسفى اليونانى..

التحية لإيران عمر الخيام.. ففى الأربعينات وفى دار الثقافة بالخرطوم قدم الشيخ أحمد البشير الطيب محاضرة عن عمر الخيّام قال فيها: إنه شاعر لم يكن مصرياً ولم يكن سودانياً، إنما هو إيرانى، غنه صاحب الرباعيات، وهو مفكر حر.. وكان صانع خيام مثل بولس الرسول فيلسوف المسيحية.. وقع الخيّام الذى كان يخيط خيم الحكمة فى كور الغم وإحترق فجأة.. وقد قطع مقراض الأجل أطناب عمره وباعه دلال الأمل رخيصاً.. وعمر الخيّام من مواليد نيسابور خراسان الشمالى فى الثانى من القرن الحادى عشر، وعاش فى القرن الثانى عشر وإقترب عمره إلى مائة عام.. وله كتاب فى الجبر جعل السلطان مالك شاة يستدعيه لينشىء المراصد الفلكية.. ورباعيات الخيّام خمسون قصيدة قصيرة تلخص حكمة بليغة.. وهى رباعيات لأن كل أربعة أبيات معاً.. وقد إنتقد الخيّام بأعلى صوت ضيق الأفق والأنانية والقسوة الجامدة، والنفاق، وغربة الأطوار، وتشنج الأمزجة.. لقد نادى بما تحدث عنه رئيس جمهورية إيران الذى وقف مع المهمشين ضد الفقر.. ومع المشهمين ضد المخدرات ومع المسحوقين من الحروب والخصومات.. وقدم الحل فى الصفاء والنقاء والتجرد وقهر الذات، والملذات ومعالجة النفس الأمّارة بالسؤ ذات الأهواء فى صيحة عدل وحق ونور وإعمار، وكله توحيد للكلمة.. وقد كان الخيّام صوفياً حكيماً لأنه صور الحق فى سياق النبيذ والساقى كما فعل صوفيون مثل إبن القارص، ويقول الخيّام :

دع حكيماً فى حوار وشجار

وأنس شد العالمين والعراك

وأبق قربى فى هدوء وأمان

ساخراً من كل مد لسان

طفت يوماً حول خزاف لبق

يصنع الأكواب من طين لثق

لطمت كفاه فى عنف نزق

طينةً فإسترحمته وجلا

أنت مثلى لا تكن فظ الطباع..

إيران الكتاب المقدس: نحن نعرف الكثير عن إيران من الكتاب المقدس، وفى سفر دانيال نقرأ كلمات إيرانية مثل : الشحن، الولاه، المزاربة، النيروز، بل إن كلمة نيروز ومعناها رأس السنة إنتقلت من لغة فارس إلى باقى اللغات.. نحن نعرف عن نبوخذ نصّر الملك الإيرانى الذى عندما تكبّر وتجبّر ، وقف على أسوار بابل يقول: هذه بابل التى بنيتها بقوتى وإقتدارى، وكان فى جنون العظمة سقط وصار يمشى على الأربع كالحيوان تأديباً له ولمدة سبعة أعوام.. ونعرف فى الكتاب إن الله نبه كوش لكى يبنى بيت الرب فى أورشليم.. ونعرف أدبيات الملوك فى إيران وإنه عندما طار النوم من عين الملك أحشويروش سارع لكى يقرأ فى سفر أخبار الأيام، وإكتشف إن هناك شخصاً نجىّ الملك من مؤامرة إستهدفته ولم يأخذ مكافأة ، فتذكره وأعطاه مكافأة عظيمة.. نعرف عن الملكة أستير والتى خلصت البلاد من طغيان هامان ومن حرب الإبادة التى كان يريد أن ينفذها.. أما العهد الجديد فإنه يذكر لنا مجوس المشرق وهم ثلاثة من إيران، أتوا يحملوا هداياهم ذهباً ولباناً ومراً إلى طفل المزود، وكانوا أول من شعر من العالم خارج فلسطين بمجىء المسيا، ولكنهم قابلوا هيرودس الطاغية ثم بعد أن قدموا هداياهم رجعوا إلى كورتهم من طريق أخرى (متى ٢)..

فى ختام مداخلتى قلت: إننى كنت أرغب أن أسأل عن نوع أطروحة الدكتوراة التى قدمها الرئيس الفخم محمود أحمدى نجاد، وقبل أن أعرف إجابة الدكتور غازى كنت أعتقد إن الدكتوراة التى يحملها رئيس جمهورية إيران موضوعها تخصيب اليورانيوم لأغراض سلمية وسلامية وأمنية.. واخيراً رفعت قلبى إلى الله طالباً الحياة الفاضلة الفضلى الفضيلة لكل بلاد العالم، لإيران، للسودان، وأمريكا، وبريطانيا، وأوربا، وآسيا، وكل البلدان.. ومرحباً بالرئيس الإيرانى بيننا وسوف تستمر مساحات الود والإحترام..

١٠٦. مصر والنوبة تكاملا

عائلة واحدة: إن مصر والسودان عائلة واحدة جدهم الأول هو حام إبن نوح، ويكمل كل واحد منهما الآخر.. ويرتبط تاريخ النوبة إرتباطاً وثيقاً بتاريخ مصر حتى ليصح القول بأن كل منهما متمم للآخر.. فإن وحدة الأصل والوطن والدين، قد أحكمت بينهما أواصر القربى والجوار، إنهما شعب واحد فى آماله وآلامه على الرغم من إختلاف الإقليم والمناخ، ولو قدر للبلاد أن تتكامل لإستفاد كل واحد منهما الآخر.. إنهما من عنصر واحد وقد أثبتت الأبحاث العلمية التى أجراها العلامّة « إليوت سميث» فى مقابر مصر والنوبة إنه لا فرق بين المصرى والنوبى فى التكوين الجثمانى حتى ليتعذر من هذه الوجهة تعيين حد فاصل يميز أحدهما عن الأخر..

ويقول محمد كامل فى كتابه « صحائف مطوية من تاريخ النوبة» : إنه قد وقعت فى بدء الأسرات الملكية فى مصر غزوات جاءت بكثير من الدماء الزنجية فأثرت فى الدم المصرى والنوبى، وكانت أشد تأثيراً فى المنطقة الواقعة فيما بين جبل السلسلة والشلال الثانى، هذا عن النوبة شمالا، أما النوبة غرباً فيؤكد كتاب « السودان من التاريخ القديم « إلى رحلة البعثة المصرية إنهم من النوبة شمالا سكنوا جنوب كردفان هروباً من التصادم بالموجات البشرية التى تدفقت إلى تلك البلاد وهم يمتازون عن الزنوج فى تكوين الجسم والطباع..

أما لون البشرة فهو يرتبط بالشمس القوية الساطعة فى النوبة والتى تجعل الأجساد تميل إلى السُمرة بكثرة، وهذا ما شرحه سفر نشيد الأنشاد عندما قالت العروس: أنا سوداء وجميلة يابنات أورشليم ، كخيام قيدار، كشقق سليمان، لا تنظرن إلى كونى سوداء لأن الشمس قد لوحتنى، بنو أمى غضبوا علىّ، جعلونى ناطورة الكروم (نشيد الأنشاد ١).. وناطورة هنا تعنى حارسة او خفير أو بوابّة، وتشكوا العروس هنا من إنه لم يوكل لها شىء سوى الحراسة ، ويبدو إن الحراسة هى مسئولية أهل النوبة منذ الآزمان القديمة..

كما يعنى هذا إن سليمان كان متزوجاً بإمرأة سوداء ربما يقصد بها هنا ملكة التيمن بلقيس، المرأة السودانية التى ذهبت لزيارة سليمان الحكيم وتزوج بها.. ويتغنى أهل مصر بالأسمر وجمال الأسمرانى وخفة دم الأسمر، وبأن سماره هو سر

جمال خلقته، وجمال أخلاقه بل يطالبون الأسمر الأسمرانى أن لا يقسو عليهم حباً ووداً.. ويتشابه أهل النوبة مع صعيد مصر بسبب حرارة جو الصعيد..

حروب التكامل: وقد تعددت الحروب بين النوبة ومصر، نوبيون يحتلون مصر، مصريون يحتلون السودان.. ولا نستغرب هذه الحروب فقد كانت طريقة القدماء للحصول على إحتياجاتهم.. لم تكن المعاهدات الإقتصادية تحترم ولكنها كانت تكتب تحت تأثير الغزو.. عندما تزايدت رغبة فراعنة مصر فى ذلك المتألق الجميل الذى هو الذهب، ذهبوا إلى النوبة.. قدموا لها بإسم بلاد الذهب وبحثوا عن الذهب فيها، ووجدوه وإستفادوا به فائدة قصوى، تشريفاً للملوك، وتأليهاً للفراعنة، وطلاء لصناديق موتاهم، لأن الذهب نقى جداً والمؤمن طبعاً أنقى من الذهب..

وعندما كانت مصر تحت إمرة الرومان رغب بطليموس فى أن يخضع بلاد السودان لكى يحصل منها على الفيلة، فقد كانت الأفيال تستعمل فى الحروب وهى موجودة فى السودان، ويؤكد القرآن الكريم إستعمال الأفيال فى الحروب، ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟.. ألم يجعل كيدهم فى تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبا بيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعاصف مأكول ؟.. وعندما رغب أهل النوبة فى خيرات مصر حبوباً وأقمشة وسجاداً هو القباطى الذى كان يتفنن فى صنعه أقباط مصر جاءت حملات النوبة على مصر رغبة فى التمتع بهذه الخيرات التى تمتلىء بها جنة الله أرض مصر..

وكان فراعنة مصر يعتبرون النوبة ولاية من ولايات بلادهم، وكان حاكم النوبة يلقب بإبن فرعون وهو ليس بإبنه جسدياً إنما هذا لقب لكى يضفى عليه أبهة الملوك الفراعين.. وهناك تواصل ومصاهرة بين فراعنة مصر وبلاد النوبة، وعندما قامت مملكة نبتة على مقربة من الشلال الرابع بسطت سلطانها على مصر، وقد أسفرت هذه الأطوار عن إيجاد رابطة قوية بين مصر والنوبة، وقامت حضارة النوبة مدنياً ودينياً متأثرة بحضارة مصر..

وكانت رعاية كهنة آمون الذين هاجروا إلى النوبة بعد سقوط طيبة عملا مصرياً فى مجال الدين، بل إن الملك أحمس أول ملوك الأسرة الثامنة عشر تزوج بإبنة ملك النوبة على العهد، فأمد هذا الفرعون بجيش نوبى يطرد به الهكسوس، وتزوج كانشا ملك النوبة بإبنة كاهن مصرى فأنجبت له بعض ملوك الأسرة الخامسة والعشرين..

إن بلاد النوبة كانت ولم تزل هى الموصل والمخرج لحكام مصر من أزماتهم.. ولأهل مصر من جور حكامهم، فالنوبة هى الخير وكما يقول الحديث الشريف « من ليس له أخ فليأخذ أخاً نوبياً « إن مصر والنوبة وطن واحد من خلال التكامل الذى يحترم فيه كل واحد الآخر، ويتعايشان ويتوادان شعب واحد متكامل..

١٠٧.مصر والبجا عائلة واحدة

عبد الله حسين: عندما نطالع كتاب « السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية» نتمتع بالكاتب والكتاب، فالكاتب محرر جريدة الأهرام ومحامى امام محكمة الإستئناف، والكتاب الطبعة الأولى منه ١٩٣٥م وهو كتاب قيّم يؤكد إن مصر والنوبا والبجا عائلة واحدة.. وإن الأب الأكبر لهم هو حام شقيق سام ويافث، وهو أحد أبناء نوح الثلاثة الذين بدأ بهم تاريخ العالم الجديد بعد الطوفان، وحام هو الجد الأكبر لسكان أفريقيا وهو أبو لكوش جد أهل السودان.. وأكبر أبناء حام، ومصرايم جد أهل مصر، وفوط وكنعان وبنو كوش سبا وحويلة وسبتة ورعمة وسبتكا، وبنو رعمة شبا ودذان.. وكوش ولد نمرود الذى إبتدأ ان يكون جباراً فى الأرض، الذى كان جبار صيد أمام الرب لذلك يقال: كنمرود جبار صيد أمام الرب.. وخريطة العالم الجديد هذه يذكرها الإصحاح العاشر من سفر التكوين..

ويكتب عبد الله حسين : إنه بعد زوال مملكة أثيوبيا قامت مملكتان : مملكة النوبة، ومملكة البجة، وكانت الوثنية ديانتهما ودخلت النوبة إلى المسيحية ولم تدخل البجا، وفى إعتقادى ومن أبحاث مختلفة عن السودان إن النوبة دخلت المسيحية دخولا واضحاً وصارت المسيحية فى النوبة ديانة الملوك والشعب، وإنتشرت إنتشاراً سريعاً بينما بالنسبة للبجا تحركت المسيحية ولكن تحركاً بسيطاً.. أما مصر فكانت على علاقة مستمرة مع النوبة، أحياناً تصل إلى قمة التآخى، وأحياناً أخرى تنزل إلى مدارك الحرب والدمار فى حروباً أو مناوشات بين الحين والآخر..

وحكمت مصر السودان، وحكم السودان مصر ولكن ينظر إلى هذا على إنه تحرك داخلى فى وادى النيل، وعندما أسس السودانى الملك بعنخى المملكة المتحدة جعل السودان ومصر مملكة واحدة وأسرة واحدة... وكان الملك شبكا هو مؤسس الأسرة الخامسة والعشرون وجاء بعده بعنخى ويحكى عن حضارة هذين الملكين فكان شبكا

النوبى أول من ألغى حكم الإعدام فى العالم وإستبدله بالأشغال الشاقة..

أما بعنخى فقد كان حاكماً مهذباً وأديباً عندما تحرك مع جيشه إلى مصر لم يعادى أحداً ولم يقتل من يستسلم له، وكان فى كل مدينة يبدأ بالمعبد الدينى نظافة وصيانة وتوسيعاً ومع جنوده كان يطالبهم قبل المعركة بالتطهير فى ماء النيل والحصول على رضا الإله آمون حتى يصير الواحد فيهم فى قوة ألف رجل، وهذا عن أدب الشاعر العبرانى أشعياء حيث تتلاقى فترة حياة أشعياء ومُلك بعنخى.. وكانت عند مصر رغبة فى خيرات النوبة وعند النوبة رغبة فى خيرات مصر، وأقيمت بعض المعاهدات ولكن أحياناً كان الحصول على هذه الخيرات يتم بالفتح والغزو..

وإمتاز السودان بالرجال الأقوياء والذين كانوا القوة القوية فى جيوش مصر.. كما إمتاز السودان بأنواع متعددة من الحيوانات ومنتجاتها مثل: ريش النعام، وسن الفيل، بأن الملك بطليموس عندما كان يحكم مصر أرسل بعثات كثيرة عن طريق موانى البحر الأحمر لإقتناص الفيلة التى كانوا يستعينون بها فى الحروب..

وكان ملك النوبة أحياناً يسمى نفسه إبن فرعون أو هكذا كان يسمى من فرعون نفسه، ويحمل ملك النوبة أيضا إسم إبن رع وحبيب إيزيس وأوزوريس. وكان الإله آمون متربعاً على عرش القلوب فى مصر والسودان، ويقول عبد الله حسين: إن هذه الآلهة نفسها كانت آلهة نوبية ، ويرى إن قبائل البجا ظلت عنصراً حامياً لم يختلط بالدم الزنجى بل ظل محافظاً على بداوته فى الصحراء.. وعندما زار سترابوس أسوان لاحظ إن أهلها من نوبيين ومصريين يعبدون صقراً كبيراً يؤتى به من بلاد النوبة..

تاريخ النوبة: ويؤكد المؤلف ما قاله غيره عن النوبة من ناحية الإسم وتعنى الذهب، فالنوبة هى وطن الذهب وأطلق على النوبة إسم أثيوبيا بمعنى الوجه شديد السُمرة أو كما ترجمه آخرون أصحاب الوجوه المحروقة.. ويرى إن بلاد النوبة كان يسكنها قوم يجتمعون فى نسبهم بقدماء المصريين حتى ليذهب المؤرخ ديودور بأن أصل المصريين جالية نوبية نزحت من الجنوب، ويؤكد هذا دكتور شوقى الجمل فى كتابه « تاريخ السودان وادى النيل « ..

ويقدم الأدلة على هذا بأن الموتى فى مصر قبل عصور التاريخ تدفن ورؤسها متجهة نحو الجنوب، وإن البخور كان يستعمل فى العبادة المصرية منذ القدم، وما

كان ذلك ممكناً لو لم يكن المصريون قد جاءوا من الجنوب مع حركة النيل الذى يتجه شمالاً.. بل إن آلهة مصر هى آلهة نوبية، فالإله أوزيريس هو الذى أنقذ مصر من الهمجية وعلم أهلها الزراعة ووضع لهم الشرائع، وشيّد المبانى فى طيبة، وزوجته الإلهة إيزيس هى نوبية ولها مكان ومكانة، وكان تمثالها يؤخذ فى موكب عظيم من معبدها فى أسوان ليبارك أرض السودان..

وإن إيزيس أخرجت البلاد من الوحشية وصرفتهم عن أكل لحوم البشر، وعلمتهم قواعد الزواج الشرعى، اما إبنها حورس رب الوطنية والفروسية فهو الذى طهّر مصر من آلهة الشر والفساد.. وهكذا حملت النوبة حضارتها إلى مصر ديناً ودنيا.. وهناك من يقول عكس هذا، ولكن كل هذا يؤكد إن مصر والسودان من عنصر واحد..

١٠٨. شهيدة العفاف تعتصم بالنهر

شهيدات العفاف : عرفت المسيحية نوعاً من الإستشهاد يسمى « الإستشهاد لأجل العفة» ويقول يوسابيوس المؤرخ الذى عاش وسط الإضطهادات المريرة والقاسية: إن تاريخ الشهداء حافل بأمثلة رائعة لأبطال الطهارة والعفة الذين فضلوا أن يقابلوا الموت عن ان يدنسوا اجسادهم، وإنه لم يكن النساء أقل من الرجال بسالة فى الدفاع عن تعاليم الكلمة الإلهية إذ إشتركن فى النضال مع الرجال ونلن معهم نصيباً متساوياً من الأكاليل من أجل الفضيلة، وعندما كانوا يجروهن لأغراض دنسة كن يفضلن تسليم حياتهن للموت عن تسليم أجسادهن للنجاسة، وكان واضحاً أمام الوثنيين إن الوقوع فى الدنس أشر من الموت بالنسبة للمسيحيين.. ويذكر لنا تاريخ الكنيسة عدة أمثلة لشباب وشابات فضلن الموت عن أن يفقدن عفافهن.. وأذكر هنا بعض الأمثلة :

فى الإضطهاد الذى أثاره الإمبراطور ديسيوس (٢٤٩-٢٥١ م) فشل أحد الولاة الوثنيين فى أن يثنى شاباً قبطياً عن إيمانه فسلمه لإحدى الباغيات لتسقطه فى الخطية وإذ لم تجد تلك المرأة وسيلة لتحقيق غرضها ربطوا الشاب فى السرير ، قيدوا جسمه ورجليه ويديه ، وبدأ اللعوب فى إثارته ولما لم يجد وسيلة للهروب من هذا الفخ قضم على لسانه بأسنانه وبصقه ومعه سيل متدفق من الدماء وإرتعبت الساقطة وهربت ، أما هو فحفظ طهارته..

فى أثناء الإضطرابات التى عمت مصر سنة ٧٤٩م بسبب فرار مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين إلى الوجه القبلى أمام أبى العباس، دخل جنود مروان ديراً للعذارى قرب أخميم.. وبعد أن نهبوا أرادوا إغتصاب عذراء صغيرة تدعى فيرونيا فتنوا بجمالها وإذ وجدت هى نفسها بين يد هؤلاء الجند إستمهلتهم قليلا ودخلت قلايتها وألقت بذاتها بين يدى الله باكية وطالبة الخلاص من الدنس، وسرعان ما خرجت إليهم بحيلة.. توسلت إليهم أن يتركوها لعبادتها، مقابل جميل تسديه إليهم تعلمته من اسلافها، وكان هذا الجميل زيتاً تقتنيه إذا دهن به أى جزء من الجسم لا تعمل فيه السيوف.. ولكى تبرهن على صدق كلامها دهنت عنقها بالزيت وطلبت أن يهوى أقواهم بسيفه على عنقها.. وما أن فعل ذلك حتى فصل رأس العذراء العفيفة عن جسدها.. أما الجند فإعتراهم خوف شديد وأسرعوا بمغادرة الدير وتركوا ما نهبوه..

ثيودورة العذراء العفيفة فى زمن دقلديانوس فى آوائل القرن الرابع وهى سليلة أسرة نبيلة، وكانت على جانب كبير من الجمال وأمرها الوالى أن تبخر للأوثان وإلا سوف يرسلها إلى أحد بيوت الدعارة، ولكنها تمسكت بعفتها وطهارتها وأودعت فى ماخور فساد، ولكن أتاها الخلاص على يد شاب مسيحى إسمه ديديموس تنكر فى زى جندى، وكانت خطته أن يأخذ ملابسها وتأخذ هى ملابس الجندية، وقد كان.. وخرجت من ماخور الفساد متنكرة وبقى الشاب فى الغرفة حتى إفتضح أمره وحكم عليه بالموت شهيداً، وحدث وهو فى طريقه إلى مكان الإعدام أن رأته ثيودورة وعرفت قصته فشقت الجموع وأمسكت به وقالت له: إنى لا أقبل أن تأخذ مكانى فى الإستشهاد، لقد وافقت فقط أن تحفظ عفتى ، وعُرف الأمر ونالا كلاهما إكايل الشهادة..

شهيدة أم درمان: ويحكى ميرغنى أبو عوف فى كتابه « أم درمان عبر الزمان « قصة شهيدة العفاف ويقول: إنه فى مستهل عام ١٩١٩م روّع مجتمع أم درمان بحادث كان فريداً فى نوعه، فقد إنتحرت إحدى الفتيات بأن ألقت بنفسها فى النهر، ولم يكن الحادث مألوفاً، وقد كشف عن قصة عجيبة فقد كان بجوار منزل الفتاة شاب تربطها به أواصر قربى تبيح له أن يلقاها فى منزلها، وأحبها الفتى وتدله فى غرامها قدر ما كرهته الفتاة..

وحاول الفتى غوايتها بما يملك من مال وجاه.. وأوشكت الفتاة أن تسقط فريسة الإغراء وتنازعتها حالة نفسية فلم تطق صبراً لما هى فيه فإحتواها نهر النيل وهى فى ربيع العمر وروعة الجلال.. وعلم رواد نادى الخريجين بأن الشاعر أحمد محمد صالح سيلقى قصيدة فى النادى عن شهيدة العفاف، الفتاة التى إعتصمت بالنهر عن الإغراء وفضلت أن تموت غرقاً عن أن تدنس جسدها، وصارت شهيدة للعفاف والحياة الطاهرة..

وإكتظ النادى بعدد وفير من الشباب والكهول، وتقدم إلى المنصة فتى فى ريعان الصبا، أسود اللون، يرتدى بدلة أفرنجية ووضع على رأسه طربوش إشتهر به الشاعر أحمد محمد صالح، وبدأ فى إلقاء قصيدته :

نادى الشبيبة مجتازاً بناديها

وقل سلام عليها فى مغانيها

وقص من نبأ الأيام موعظة

تجرى الدموع من مآقيها

لعلهم أن يروها حكمة بلغت

وعلى أسماعها تصغى لمهديها

عرفت فى سالف الأيام جارية

البدر يخجل حسناً أن يجاريها

حتى إذا إكتملت منها محاسنها

وأصبحت فتنة فى عين رائيها

سعى إليها فتى ضل الشباب به

وظن أن ثراء المال يغريها

وكانت هذه القصيدة وصفاً لعبرة قدمتها فتاة أم درمان التى صارت المثل الأعلى فى الطهارة والعفاف، فلقد رفضت الفتاة أن تذعن للشاب الطائش فخرجت هاربة من بيتها أمام النيل لتلقى بنفسها فيه..

١٠٩ـ الصليب والثالوث في حضارة مروى

جعفر ميرغنى: عندما أسمع بروفسور جعفر ميرغنى فى برنامجه « حضارة السودان» أعتز بالمواطنة المتحضرة فى بلادى المتحضرة ، ولدى قناعة كبيرة بالكنز الذى يحمله جعفر ميرغنى فى صدره، ولدى رجاء لا يخزى أن يخرج ما فى هذا الصدر الكبير من كنوز هى جواهر ولآلىء تؤكد إن حضارة السودان حضارة عظيمة، وإن السودان فعلا هو أبو الدنيا كلها.. وأبُ هنا لا تعنى رجل متزوج إنما تعنى إن السودان أبو الحضارة كما يوصف الآب عند المسيحيين بأنه مصدر كل شىء أو « باتير» فهو أب للابن ليس عن طريق الزواج، ومنه ينبثق الروح القدس إنبثاقاً كما يقول قانون الإيمان عن مساواة الإبن مع الآب فى الجوهر، وعن الروح القدس المنبثق من الآب الذى يطهر كل البرية..

وقد كتب بروفسور جعفر ميرغنى تحت باب عصر التاريخ فى مجلة أسرتى السودانية والتى يرأس مجلس إدارتها الأستاذة رجاء حسن خليفة، عدد يناير ٢٠٠٧م.. وتحت عنوان فكرة الخلق عند المرويين بين الميثولوجيا ورموز الفن حيث قال : إن أهل اليونان ومنذ قديم الآزمان إعتنوا أكثر من غيرهم بتدوين أساطيرهم، وأساطير غيرهم وفتحوا باب القول فيها تحت إسم ميثولوجيا، وعقد منهم ديودور الصقلى باباً فى الميثولوجيا فى كتابه الكبير فى التاريخ بإعتبار إنها تحوى بعض الحقائق وبأن الأبطال فيها كانوا أناساً عاديين قبل أن يصيروا خرافيين، وما جعله يقدم الكلام هكذا هو الحديث عن إيزيس وأوزوريس عند قدماء المصريين حيث قال هليودور: يبدو إن العارفين بأمر الدين منهم والمطلعون على علوم الطبيعة يتحاشون أن يجردوا للعوام معانى المعتقد إذ يخلعون إسم إيزيس وأوزوريس على أشياء مادية فيقولون: إن إيزيس هى الأرض، وأوزوريس هو النيل..

والأرض إلى النيل فى شوق ومن بينهما جاء حورس واهب الحياة وحامى البلاد.. ويقول هليودور: إن هدسبا ملك أثيوبيا أو السودان القديم ناقش كهنة مصر فى تكريمهم وتعظيمهم للنيل من منطلق المفهوم الذى يصورونه فى تلك الأسطورة، وكان مما قاله ملك الحبشة لكهنة مصر : إنه ينبغى أن ننسب كل تلك الميزات الضخمة إلى السودان إذ أن هذا النهر الإله ينحدر من أثيوبيا، وأثيوبيا أحق

بأن تعظموها.. وكان هذا خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وهذا خلاف عقائدى نلمسه عند الإقتراب من الرسوم المصورة على جدران المعبد القديم فى المصورات الصفراء فى مروى حيث تفيض النقوش المروية بذكر إيزيس، وحورس، ويأخذ « أباداماك» مكانة عندما يصور بجسم إنسان ورأس أسد..

وثالوث إيزيس وأوزوريس أو حورس يصور حورس بأنه صبى حيناً فى حجر أمه.. وحيناً دارج، وحيناً يافع أو شاب فى مقتبل العمر، والقصة لا تتحدث عن صبى بعينه هو حور أو أور بل هى حكاية عن الولد مطلقاً وقريب من حور القبطية ، حوار العربية والتى على الولد أيضا.. ولا غرابة فلغات العالم القديم المتجاورات جغرافيا تتقارب فى كثير من المفردات الأساسية.. أما أوزوريس فيقصد به الروح، وقد رمز الفن المروى إلى تصوير الروح فى شكل كائن صغير الجرم على هيئة إنسان وفى حجم النحلة أو الجرادة يجلس على شجرة اللوتس.. علاقة الزهرة لا تخفى فمن الزهرة الثمرة التى هى الجنى، ومن الزهرة العطر الذى نشعر بوجوده ولا نلمسه ولا نراه..

الصليب والثالوث: ودرج المرويون على تسمية العلاقة بين زهرة اللوتس ورمز مفتاح الحياة باسم « أونخ» وهذا إسم فى قديم لسان وادى النيل ومن خلال تصفح رسومات المرويين تبين لنا إن هذا الرمز ما هو إلا تجريد للزهرة التى ترمز للجنى، وبالتالى إستمرار الحياة، وربما إختصروه فى تصويره الفنى حتى إنتهوا به إلى مجرد خطين متقاطعين على هيئة الصليب وهو لا يزال محفوظاً فى عادات الشلوخ السودانية خاصة فى جنوب سوبا القديمة، ومروى القديمة حيث نرى إلى الآن علامة « أونخ» على هيئة صليب صغير على أحد الخدين أو الخدين كليهما..

وكثيراً ما يعمل هذا النوع من الشلخ تيمناً بأن يحيا المولود، فليس شكل الصليب فى الشلوخ رمزاً مسيحياً بل هو رمز مروى مثلما إن الشلوخ على شكل ثلاثة يعنى الحياة.. وهنا ندرك إن أهل مروى عندما جاءت المسيحية إستقبلوها إستقبالا حسناً فقد كانوا يعرفون علامة الصليب ويعرفون التثليث والتوحيد، وبهذا تجاوب أهل مروى مع أفكار المسيحية التى لم تكن غريبة عليهم.. وفى الفن المروى يُعد جريد النخل تيمناً بكثرة النسل ولهذا تخرج سيرة أو مسيرة العريس إلى النيل ويقطع جريد النخل ومن ذلك كانت كلمات الأغنية.. عريسنا سار البحر.. وقطع جرايد النخل..

ويسمى فى السودان عنق النخل بأنه سبيطة، وفى القرآن الكريم أسباط، والأسباط هو الأبناء مثلما قيل عن أسباط إبن يعقوب..

ورسوم الفن المروى تؤكد إن الثلاثة شخوص آمون، وأبادماك، وحورس.. هى فى الواقع تجليات لشخصية واحدة، وهنا نرى التوحيد فى التثليث، وإن تكرار رسم هذا الشخص بأجنحة يطابق ما ذكر فى سفر حزقيال من صفة الملائكة من أن كل منهم له جسم إنسان وأربع أوجه، وجه أسد، ووجه نسر، ووجه ثور، ووجه إنسان.. وقد وجد ذلك سبيله إلى كتب التفسير عن قول القرآن الكريم الذين يحملون العرش.. ويأتى حديث حزقيال فى الأصحاح الأول فى سفره عن الكائنات الروحية ، لكل كائن أربعة أوجه وأربعة أجنحة متصلة ببعضها، وكل يسير إلى جهة وجهه إلى حيث تكون الروح.. وهذا الكائن الروحى يوصف فى الفن المروى بأنه واهب الحياة، ونافخ الروح فى الجنون، وهو الحامى والمدافع..

ويجد هذا صداه فى العادات السودانية التى تتحدث عن المولود بأن الملائكة حارساه.. ويوصف العريس بأن فرقة الملائكة أن تحرسه كأنها تحرسه من أن يلابس الشر جناه المتوقع، وتردد أغانى الأعراس : ياملايكة سيرى معاه.. وهكذا يتجلى الصليب واهب الحياة، والثالوث المقدس والذى هو شخص واحد حامى الحياة واصل الحياة..

١١٠. البشير ووطنية الكنيسة الشرقية

البطريرك والرئيس: فى يوم الأحد الرابع عشر من شهر يناير ٢٠٠٧م إستقبل رئيسنا المشير عمر حسن البشير قداسة أبونا باولوس بطريرك الكنيسة الأثيوبية والذى زارنا مباركاً فى السودان لكى تشرق أنوار البركة والقداسة على وطننا المبارك والمقدس، وكان لقاء الرئيس مع ضيفه الكبير لقاءاً ودياً ودوداً، وكان الرئيس كعادته مبادراً بنقاش جميل، فلقد أشاد الرئيس بالمواقف الوطنية للكنائس الشرقية وخص الكنيسة القبطية بوده وحبه، فهى كنيسة وطنية ليس لها أى أجندة سياسية وهى تعتبر دعمها للدولة امراً إلهياً لأن الله هو الذى أوصاها بإحترام الحكام، وهو الذى طلب منها على فم بولس الرسول أن تقام طلبات وصلوات لأجل كل الذين هم فى منصب لكى نقضى زماناً سلامياً هادئاً..

أما بطرس يقول: فإخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب إن كان للملك فكمن هو فوق الكل أو الولاة فكمرسلين منه للإنتقام من فاعلى الشر، وللمدح لفاعلى الخير، لأن هكذا هى مشيئة الله أن تفعلوا الخير فتسكتوا جهالة الناس الأغبياء كاحرار وليس كالذين الحرية عندهم سترة للشر بل كعبيد الله أكرموا الجميع، احبوا الإخوة، خافوا الله، أكرموا الملك (بطرس الأولى ٢).. ونعود إلى وصايا بولس الرسول: فاطلب أول كل شىء أن تقام طلبات وصلوات وإبتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس، لأجل الملوك وجميع الذين هم فى منصب لكى نقضى حياة عظيمة هادئة فى كل تقوى ووقار لأن هذا حسن ومقبول لدى مخلصنا الله (تيموثاوس الأولى ٢)..

لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة، فإن الحكام ليسوا خوفاً للأعمال الصالحة بل للأعمال الشريرة، أفتريد أن لا تخاف السلطان ؟ إفعل الصلاح فيكون لك مدح منه لأنه خادم الله للصلاح، ولكن إن فعلت الشر فخف لأنه لا يحمل السيف عبثاً إذ هو خادم الله منتقم للغضب.. من الذى يفعل الشر لذلك يلزم أن يُخضع له ليس بسبب الغضب فقط، بل أيضا بسبب الضمير فأعطوا الجميع حقوقهم.. لا تكونوا مدينين لأحد بشىء (رومية ١٣)..

وهذا يعنى إن فلسفة بولس كانت تقصد أن يكون المؤمن محترماً للقانون حتى لا يقع تحت طائلة القانون ولا يخشى احداً والخضوع للحاكم هنا لا يعنى التنازل عن القيم العليا الإلهية لأنه ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس.. ولقد سلكت الكنيسة القبطية مسلكاً ممتازاً ومضت فى طريقها تخرج المواطن الصالح الأمين الذى لا يفعل الخطأ ليس هرباً من العقاب إنما من أجل الضمير الصالح الذى ينمو فى داخله.. وأيضا تشتمل صلوات الكنيسة على اوشية أو طلبة الملك وتكتب الآن بأنها أوشية الرئيس بعد إختفاء الملكية وظهور الرئاسة الجمهورية ، وهى طلبة ترفع القلب إلى الله لأجل الرئيس والجند والوزراء والمدراء، كما ترجمها أسقف الدراسات العليا..

وتطلب أن يتكلم الحاكم بالسلام عن الكنيسة وأن يخضع الله الأعداء تحت قدميه حتى لا يلمسون ما لدينا من خصب وثروة.. وفى صلاة الإكليل والذى توضع فيه

أكاليل الفرح على رأس العريس والعروس تصلى الكنيسة وتقول : الله يؤيد حكومتنا ويرخص أسعارنا..

وطنية الكنيسة: وقال الرئيس البشير: إن الكنيسة القبطية بوجه خاص تدعو لنشر المحبة وتقوية النسيج الإجتماعى، وقد كان أبونا باولوس بطريرك أثيوبيا سعيداً جداً بهذه الزيارة وشاعراً بنجاحها العظيم، وثانى يوم لسفره من هنا أرسل رسالة شكر للرئيس عمر البشير لأنه جعل حضوره إلى السودان بركة، وهذا ما أفرح كثيرون من أبناء كنيسته، ومن كل أبناء السودان، فلقد كان البطريرك محل حفاوة كل الدوائر السياسية والشعبية..

ولو إمتدت هذه الزيارة للاقى ترحيباً كبيراً من رجال الصوفية ومن كل المسلمين الذين يذكرون دوماً الملك النجاشى الذى لا يظلم الناس عنده والذى هاجر إليه أول فيلق إسلامى ووجدوا عنده الأمان والإيمان وناصرهم ضعفاء حتى يصيروا أقوياء ويأخذون مركزاً واضحاً فى وسط كل بلدان العالم.. وكان البطريرك يعتز جداً بأنه أخ لكل أخوانه فى السودان وإنه ليس فى وطنه الثانى إنما فى وطنه الأول، وأشار إن الأيام القديمة كان كل أصحاب البشرة السمراء يتمتعون بوطن واحد..

ولكن الإستعمار هو الذى قسّم الناس إنما حتى الآن قلوبهم واحدة فى الله ومع الله.. ولاشك إن هذه الزيارة سوف تأتى بثمر كثير فى العلاقات الأثيوبية السودانية والتى يحافظ كلا الرئيسين عليها، حتى إنه عندما قال رئيسنا: إن أهل أثيوبيا لجأوا للسودان هروباً من الأيام الصعبة .. قال البطريرك: إن أهل أثيوبيا يأتون إلى السودان أيضا فى الأيام غير الصعبة لأننا أخوان ولأننا وطن واحد وسوف نظل هكذا..

لقد كان يوم الأحد ١٤ يناير ٢٠٠٧م يوماً مشهوداً فى العاصمة الحضارية، فلقد توافد آلاف الأثيوبيين بملابسهم البيضاء الجميلة منذ امسية السبت وحتى ظهر يوم الأحد.. كانت سهرتهم الروحية فى الكنيسة، يرنمون، وينشدون، ويركعون، ويخشعون، ويتعبدون للإله الواحد الذى أعطانا كل هذا الخير العظيم، والذى أولنه محبتنا لبعضنا البعض.. ومحبتنا للآخر هذه المحبة التى سوف تكون شاهدنا أمام الله فى اليوم الآخير عندما تبيّض وجوهنا لأننا عشنا المحبة وسلكنا فيها.. وشكراً للرئيس على حديثه عن وطنية الكنيسة الشرقية، وعلى الأخص الكنيسة القبطية التى تتشرف به كل يوم عضواً فى أسرتها على مادبة ..

١١١ . الصليب فرعونياً ومسيحياً

الأشجار والصليب: يرى علماء اللاهوت إن صليب السيد المسيح هو شجرة الحياة، فهو من خشب الأشجار وعندما عثر على الصليب المقدس بواسطة الملكة هيلانة أم الملك قسطنطين فى القرن الرابع الميلادى، كانت الكنائس تأخذ جزءاً من هذا الصليب لتزين به عبادتها الكنسية حتى نشأ إعتقاد بأن الصليب شجرة حية وباقية ونامية أيضا بدليل تواجدها وإستمرارها رغم كمية ما يؤخذ منها بركة للكنائس..

أما عن الأشجار فإن شجرة مريم بالمطرية والباقية حتى الآن تؤكد إن القدماء قدسوا العديد من الأشجار مثل شجرة تل بسطا، وشجرة مسطرد، وإن النخيل مقدس منذ مولد المسيح، وأيضا عندما أستقبل المسيح داخلا إلى أورشليم بسعف النخيل وصار النخيل رمزاً لنقاء القلب « وطوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله «..

وصارت النخلة مقدسة فى القرآن الكريم ومرتبطة بميلاد السيد المسيح حيث هزت مريم بجزع النخلة فأمطرت رطباً جنياً، كما إن النخلة رمز للمؤمن المصدق لكلام الله والذى هو دوماً على الأحقاد مرتفعاً يرمى بحجر فيعطى أجمل الثمر.. وفى النيروز يأكلون البلح الأحمر والذى لونه رمز لدم الشهداء وقلبه رمز لنقاء المؤمن ، ونواته رمز لصلابة الإيمان وقوته..

وفى كتاب المهندس سيد كريم « مصر والمسيحية» يلخص المؤلف إلى أن صليب الديانة المسيحية هو صليب مفتاح الحياة والذى إحتضنه الطفل يسوع على صدره لحمايته فى طريق العودة، ولحماية رسالته المقدسة.. وعن الشجرة يتحدث سيد كريم: بأن شجرة الكريسماس منقولة عن عيد مصرى قديم هو عيد الشجرة التى قدمت لشعوب العالم الإحتفال بشجرة إيزيس المقدسة مع كل ما يرتبط بالإحتفال من عادات وتقاليد إبتداءً من تزيين الشجرة بالتمائم والمعلقات الزخرفية إلى التراتيل والغناء والرقص الدينى المرتبطة بمولد حورس والأوز الذى كان يتصدر موائد عيد الشجرة، والذى إستبدل الآن بالديك الرومى، وأصبح من تقاليد الإحتفال بالكريسماس..

علامة الصليب: وإذا كانت الحياة عند الفراعنة تشبه إلى حد كبير علامة الصليب، فإن المسيحية تتطلع إلى الصليب كعلامة حياة تقودنا إلى الحياة الأبدية ويحملها

المسيحى فى فخر وإعتزاز، أما أنا فحاشا لى أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح.. ولهذا تجد المسيحى دوماً يرشم الصليب ليبدأ به يومه وليختتم اليوم ويرتمى فى أحضان الله.. ويرشم الصليب على أعتاب البيوت شرفاً وحماية من قوات الشر..

وهكذا كان ديكور المنازل فى ممالك النوبة وحتى الآن فى حلفا القديمة توضع صحون فى صدر البيت على شكل صليب.. ويذهبون إلى نهر النيل ويرسمون بالماء علامة الصليب على وجه لاطفل ووجه الأم حماية لهما، كما يصعدون على الصخرة المقدسة فى جبال ميدوب بدارفور ويأخذون من ماء الصخرة ويرسمون علامة الصليب كما يذبح الملك عنزة ويضع من الدم بشكل صليب على مقره لكى يكون الصليب حارساً له ولعرشه..

وحتى فى النوبة غرب السودان وجد رسم الصليب والذى قيل عنه الخطوط المتعامدة فى الفن النوبى كتأكيد إن أهل النوبة غرباهم من أهل النوبة شمالا هاجروا إليها وإحتموا بجبالها، ولكن الكنيسة لم تكن معهم مما جعل المسيحية مجرد رواسب ثقافية وجذور إيمانية.. وفى دارفور يرشمون إشارة الصليب على صدر الصبى ويسمونه فى لهجتهم برشام، وربما يعنى هذا غن الصليب برشام يغلق الأبواب أمام دخول الشر والشرير..

وقد إكتشف بروفسور « جريفيت» مديح الصليب عند النوبة والذى يتكون من مقدمة وترنيمة.. المقدمة فيها خطاب السيد المسيح للتلاميذ والذى يشرح فيه أهمية الصليب، وحديث بطرس مع السيد المسيح طالباً من السيد أن يشرح له سر الصليب، ولماذا سوف يظل الصليب علامة عند المجيء الثانى ؟ وإن يسوع قال للتلاميذ: إنه سوف يظهر فى يوم الدينونة والصليب على جانبه ويجلس على العرش ويحكم العالم بأجمعه ، ويقوم الصليب المجيد واقفاً عن يمينه..

وقال لهم: إذا أردتم أن تعرفوا قوة الصليب معرفة كاملة فإسمعوا ما هى ؟ وبعدها أورد مديح الصليب الذى بحسب رأى الكنيسة النوبية هو من تأليف السيد المسيح وفيه يقول :

الصليب أمل النصارى..

الصليب قيامة الموتى..

الـدرب للضاليـــن..

مرشـد العميـان..

حصـــن المناضلين..

فخـــر الملـــوك..

نشيـــد الملائكة..

إرواء الجفـــاف..

هزيمـــة إبليـــس..

فـــداء الخطـــاة..

وعندما رسم الفنان النوبى الثالوث المقدس الآب والإبن والروح القدس، رسم تحتهما ثلاثة صضلبان متساوية مع بعضها، بإعتبار إن الثالوث كله مساوى ومتساوى.. ولم تزل عادة رشم الصليب علامة الحياة فى صباح كل يوم يخرج رب البيت أو زوجته ويرش ماء على شكل الصليب على أعتاب البيت حتى يمنع دخول الشيطان وحتى تستمر الحياة الروحية قوية ومتقدمة..

ويقول ترتليانوس: فى كل تصرفاتنا، فى دخولنا وخروجنا، قبل أن نرتدى ملابسنا، قبل الإستحمام، عند إضاءة المصابيح فى العشاء، عند الرقاد بالليل، عندما نجلس للقراءة، وفى كل تصرفاتنا فى حياتنا اليومية نرسم جباهنا بعلامة الصليب، لقد كان الصليب عند الفراعنة هو علامة الحياة.. وعند المسيحيين هو صليب الحياة الذى مات عليه السيد المسيح لكى يهب الحياة للموتى ولكى نبعث بعثاً روحياً جديداً، هو قيامة الأبرار فى الحياة، والقيامة الأبدية فى اليوم الآخير..

١١٢. سامي الحاج ومبادرة السفير الأمريكي

سعادة السفير: أخاطب إنسانية سعادة السفير الأمريكى وقلمى دوماً هو سفير المحبة، ورسالتى هى دعوة محبة.. والدبلوماسية عندما تستظل بالمحبة تكون واحة أمان لكل إنسان.. وتكون حلقة وصل جميلة بين الشعوب النبيلة.. وأعلم إن الكتاب المقدس يتكلم عن السفير كلام حب وود ويدعم رسالته الروحية.. ويبدأ سليمان الحكيم الحديث عن أمانة السفير فيقول: الرسول الشرير يقع فى الشر، والسفير الأمين شفاء (أمثال ١٣:١٧)..

والسيد المسيح له المجد نفسه تحدث عن السفراء والسفارة مرتين ، وأى ملك إن ذهب لمقاتلة ملك آخر فى حرب لا يجلس أولا ويتشاور هل يستطيع أن يلاقى بعشرة آلاف الذى يأتى عليه بعشرين ألفاً، وإلا فما دام ذلك بعيداً يرسل سفارة ويسأل ما هو للصلح (لوقا ١٤).. ومرة ثانية فى إنجيل (لوقا ١٩) وفى مثل الأمناء عندما رغب أهل مدينة فى رفض مليكهم فأرسلوا وراءه سفارة قائلين: لا نريد أن هذا الملك يملك علينا، اما معلمنا بولس الرسول الفيلسوف المبشر بالحق فإنه إعتبر نفسه سفيراً وطالب من أبناء المسيح أن يكونوا له سفراء..

وقال عن نفسه : إنه يعلم جهاراً بسر الإنجيل الذى لأجله هو سفير فى سلاسل لكى يجاهر فيه كما يجب أن يتكلم (أفسس ٦ :٢٠).. وطالب المؤمنين أن يكونوا سفراء عن المسيح، إذ نسعى كسفراء عن المسيح كأن الله يعظ بنا، نطلب عن المسيح أن تصالحوا مع الله لأنه جعل الذى لم يعرف خطية خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه (كورنثوس الثانية ٥: ٢٠)..

والقرآن الكريم يذكر السفراء بأنهم يحملون رسالة طيبة وربما هم الملائكة، لأن الملاك مرسل من الله لرسالة روحية يقدمها لأحباء الله، كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره فى صحف مكرّمة مرفوعة مطهّرة بأيدى سفرة كرام بررة..

وبعد سيدى السفير.. هذه صفات السفير الأمانة، التشاور لتحقيق المصالحة، المجاهرة بسر الإنجيل، السعى المستمر بأن نتصالح مع الله، التذكرة بوجود الله فى حياتنا، وإننى أثق إن كل هذه الصفات فيكم، وإنكم فعلا تمثلون بلادكم العظيمة تمثيلا أميناً مشرّفاً نزيهاً، وهذا الذى أراه فيكم وقد لا يراه آخرون يشجعنى إلى

فتح ملف خفيف لمواطن طاهر نظيف.. يحتاج منكم إلى تحقيق رسالة المصالحة الأمينة الطاهرة..

سامى الحاج: وسامى الحاج الذى نفتح ملفه مع سعادة السفير الأمريكى هو مواطن سودانى من أهل السودان، أهل ثقافة السلام، وأهل العفو والعافية، وقد إختار مهنة البحث عن المتاعب وعمل فى قناة الجزيرة وقد ذهب إلى أفغانستان وهو مسئول عن التصوير، وكان عليه أن يغطى مع الرفاق حرب أفغانستان، وقد عرّض نفسه للخطر.. وعندما دخل الوفد الذى يرافقه من أفغانستان إلى باكستان وهم يلهثون وراء الخبر الحى إخترقوا الحدود، وهذا خطأ طبعاً، وله إدانته التى لا تصل إلى مثل هذه الإدانة.. وتطوعت السلطات الباكستانية بتسليمه إلى الجيش الأمريكى لكى يرسله الجيش الأمريكى إلى معتقل قاعدة غوانتنامو الأمريكية فى كوبا، وهو معسكر لا يشرف أمريكا، ولا يتناسب مع رسالتها الديمقراطية فى عالمنا المتهرىء الممزق، وأرجو أن أقدم بعض الملاحظات :-

إن سامى الحاج أعتقل يوم ٢٠٠١/١٢/١٥م ومقالى هذا كتبته يوم ٢٢ يناير ٢٠٠٧م وهو فى طريقه بعد هذا إلى صفحات الجرائد ، وعلى سعادتكم أن ترض كم عام، وكم يوم، وكم ساعة يعانى هذا المواطن السودانى فى معتقل يفتقد الأمان والمعاملة الإنسانية..

أعلن سامى الحاج الإضراب عن الطعام يوم ٢٠٠٧/١/١١م أى أن له أياماً كثيرة لا يأكل، وأنا عندما أصوم لابد أن آكل فى آخر اليوم، فكيف حال مواطننا الآن ؟..

لم يكن سامى الحاج يملك أى متفجرات تدينه، وإنما يملك فقط كاميرا لتسجيل الأحداث وهذه مهمته ومهنته وسفارته..

إن هناك حقوق لدى وسائل الإعلام فى التغطية الصحفية ، وبخاصة مناطق الحروب والنزاعات المسلحة بحرية تامة، وأنتم مسئولون عن توفير الحماية لهم..

إن سامى الحاج إعلامى ناجح لأنه عرّض نفسه للموت لكى يحقق رسالته ويقوم بسفارته المنوّط بها، وهذا شىء يشكر عليه..

ولهذا ياسعادة السفير أطالب بمبادرة من سعادتكم لكى يطلق سراح سامى الحاج وكل الفريق الذى معه.. وسوف تنجحون فى هذا وتوفقون فيه وتدخلون الفرح إلى بلادنا وإلى كل العالم، وإلى كل الذين إختاروا مهنة البحث عن المتاعب طريقاً لحياتهم وكسب عيشهم..

أرجو أن لا تتأخر مبادرتكم ياسعادة السفير، وغداً ألقاك إذا طلبت منى اللقيا لمزيد من التفاهم أو لإستقبال خبر نجاح مبادرتكم السعيدة..

١١٣. الألفية الإثيوبية

قاعة الصداقة

جاءتني دعوة كريمة من وزارة الثقافة والشباب و الرياضة السودانية و السيد سفير جمهورية إثيوبيا الديمقراطية للمشاركة في فعاليات مهرجان الألفية الأفريقية و الإثيوبية و كان مكان الدعوة قاعة الصداقة بالخرطوم أما زمانها فهو صباح السبت ٢٨ يونيو ٢٠٠٨م ، وقد تشرفت بحضور هذا اللقاء الذي قدم لنا مائدة دسمة من المحاضرات و الكلمات من وزير الثقافة السوداني الدكتور أمين حسن عمر ومن وزير السياحة الإثيوبي و عدد من رجالات الفكرمن إثيوبيا ومن السودان و لقد أمتدت الكلمات الي ما يقرب من أربع ساعات ، و كان يدير اللقاء المهندس الاديب الشاعر الصديق المجتبي و الذي كان ظريف الكلمات خفيف الدم حلو القسمات ، وقد كان لأدارته الأدبية المتأدبة اثرا في نجاح هذا اللقاء السعيد .

و تحدث أغلب الإثيوبيين باللغة العربية حديثا جميلا عن إثيوبيا الجديدة التي تشق طريقها نحو التقدم و الحضارة من خلفية تاريخية ذات حضارة قديمة و مجيدة و تليدة فلقد حملت إثيوبيا كل هموم إفريقيا و كانت رائدة في عدة مجالات ، وكان عاهل إثيوبيا الامبراطور (هيلاسلاسي) ربيب جد قديم ، و كانت له علاقة طيبه مع شعبه ، و كان موكبة يتوقف ليتلقي خطابا من مواطن بسيط يقرأة الملك و يأخذ فيه قرارا ، فقد كان الملك الذي يحيا لأجل الشعب و لم يكن له برج عاجي إنما كان محبوبا لدي مواطني إثيوبيا فهو رمز لاستقلال إثيوبيا و في أكبر كنائس حاضرة إثيوبيا أديس أبيا و في أعماق قبة الكنيسة صورة هيلاسيلاسي يرفع علم الاستقلال و صورة أول مجلس نيابي في إثيوبيا .

و الاحتفال هو احتفال الالفية الثانية ، و الشهور الإثيوبية هي نفسها الشهور القبطية و كما يسميها أهل النوبة القدماء الشهور النوبية ، أو كما سميت عند الفراعنة السنة التوتية لانها تبدأ بشهر توت و في إثيوبيا تبدأ السنة الإثوبية بعيد النيروز في ١١ سبتمبر من كل عام وهو نفس بدء السنة القبطية في مصر و التي

كان معمول بها حتي عهد إسماعيل حيث اضطر أهل أوربا التغيير الي التقويم الميلادي لجدولة ديونه بسبب قناة السويس ، و احتفال الألفية الإثيوبية الثانية لم يقتصر علي كلمات المحاضرات ، إنما كان هناك لقاءات أخري تجلي فيها فن الغناء و الطرب و فنون أخري في معرض قدم المناسبة الجميلة بطريقة جميلة ، و كانت فرحة أهل السودان لأن أعياد إثيوبيا هي أعياد السودان كما أن أعياد السودان هي أ عياد إثيوبيا و الأفراح متي وزعت زادت و الأحزان قسمت هانت .

نحن و إثيوبيا

ولقد كانت فرصة مداخلتي في هذا اللقاء الأدبي الرفيع في عدة محطات أذكر منها :

إثيوبيا و السودان ، أخوان محبان عاشا رحلة عمر هي الآف السنين ، رحلة مودة و إخاء ، رحلة خير وماء ، فالماء يعبر من إثوبيا الينا حمل الطمي مغذيا زراعتنا ، و منذ القدم و عند الفراعنة الأقباط ، وعند بعنخي، و تهراقا و مملكة مروي و نبتة ، و الثلاث ممالك المسيحية كان الإيمان بأن أول نقطة مطر تهبط علي هضاب الحبشة هي من صنع إله النيل ، وهي دفعة للإلهة ايزيس إلهة الخصب و النماء ، و في أسوان كان معبد أنس الوجود للإلهة ايزيس و في احتفال كبير كان يأتي أهل السودان إلي العيد ، و يأخذون تمثال الإلهة ايزيس و يجولون به في ربوع النوبة لكي يتحقق الأمطار و تنجح المزروعات بزيادة مياة النيل ، و عند دخول المسيحية تحول عيد النقطة الي عيد رئيس الملائكة ميخائيل ، الذي هو ميكال ، ويوكل الية المزروعات و الزرع و الأمطار بحسب اعتقاد المسيحية و الإسلام ، و كان عيد النقطة يوم ١٢ بؤونه حيث الحر الشديد وهو يوافق شهر يونيو .

عاشت إثيوبيا عمق المسيحية حيث كان الدخول الرسمي للمسيحية في القرن الثالث في زمان البابا أثناسيوس رقم ٢٠ في الباباوات الاسكندرية، ومنذ ذلك الحين تقدمت إثيوبيا في الحياة المسيحية و امتلأت بالكنائيس و الأديرة و الرهبان و السياح سياحة روحية و الذين ذكرهم القران الكريم سائحون عابدون و عاش نساك إثيوبيا حياة روحية عالية المستوي و هناك اعتقاد أن الراهب كلما ازداد نسكا أنبت الله له اجنحة كالملائكة فالقديس تكلاهيمانون الإثيوبي زودة الله بستة أجنحة ، و القديس يارد مؤسس علم الموسيقي استلم الالحان من ثلاثة ملائكة و من اناشيد عدة طيور مغردة .

رسم الفنان النوبي أجمل الايقونات و زين بها الكنائس و هناك صورة امتاز بها الفنان الإثيوبي الفنان النوبي و هي رسم الثالوث المقدس الأب و الابن و الروح القدس ، كما ابدع الفنان الإثيوبي في رسم الصليب بنقش إثيوبي خاص .
إثيوبيا هي وطن لحوار الأديان التوحيدية الثلاثة ، فيها الأن مسيحيون و مسلمين و يهود ، بل أن الدم الملكي اليهودي الذي لسليمان الحكيم يجري في عروق الأسرة الملكية و حتي الأن يوجد يهود إثيوبيون ، و هناك من يقول أن تابوت العهد الذي لموسي النبي موجود في الحبشة .
كانت كلمة إثيوبيا قديما تطلق علي كل افريقيا ، و لما كان السودان مدخل أفريقيا فقد أطلق عليه إثيوبيا و عندما كتب نعوم شقير مجلدة الشهير عن جغرافية و تاريخ السودان في ١٤٠٤ صفحة ، كان عنوان الباب الاول : في تاريخ إثيوبيا ، و يقصد هنا السودان و لأن كلمة إثيوبيا و الحبشة و ابيسينا إنما يقصد بها ذوي الوجوة المحرقة ، كان السودان الكبير يسمي إثيوبيا و كانت الحبشة تسمي (أكسوم) أو الدولة الأكسومية ، وقد اعيدت طباعة كتاب نعوم شقير بواسطة دار عزة للنشر و التوزيع في الخرطوم و بتقديم أستاذ دكتور فدوي عبد الرحمن علي طه .
لذلك ليس صعبا أن تبدأ السياحة بين أثيوبيا و السودان علي أن تكون رحلة داخيلة ، سياحة داخلية لا يتحمل المواطن فيها أعباء التأشيرات لأنها حركة داخلية داخل وطن واحد ، و يمكن أن يتم هذا الي أن يتحقق حلمنا الكبير بالولايات المتحدة الافريقية .

لقد أضفي علي لقاء الألفية الاثيوبية جوا ودودا وجود وزير السياحة الإثيوبي ، و حضور وزير الاستثمار ، و العلماء الإثيوبيون و السودانيون الذين حركوا اللقاء و زادوه دفئا و حرارة ، و في انتظار قرارات وزارية بأن تكون السياحة بين إثيوبيا و السودان كانها سياحة داخلية .

١١٤. محمد علي و ميخائيل و خديجة أفندي

محمد علي : كان محمد علي راغبا في بناء نهضة حديثة في مصر و السودان ، و رغم تسلطة في تحقيق طموحه و لكنه كان يبحث عن وسيلة لكي يحقق أغراضة النبيلة ، و بالرغم من أنه لم يكن مصري الأصل إنما كان البانيا و لكنه كان يحب مصر و يحب السودان و اراد الخير لكل البلدين ، و استعان محمد علي بالأقباط

في قيادة ركب الحضارة و فعلا قد كانوا له الزراع اليمين ، و عندما أتي بالعديد من الموظفين الاقباط الي الخرطوم بعد أن اختارها بنفسه عاصمة للسودان فكر أن يبني كنيسة قبطية في الخرطوم إيمانا منه بأن يكون هذا داعما لإستقرارهم و لكن الأقباط اعتزروا رافضين إيمانا منهم بأن الكنيسة القبطية لا تبني إلا بتبرعات قبطية ، و هذا عين ما حدث مع الأنبا صراباموون عام ١٩٠٠م عندما زاره الحاكم العام البريطاني ، و عرض علية مساعدة في نفقات بناء مدارس الأقباط و اعتذر المطران رافضا لنفس المبدأ ، و قام محمد علي بأحضار اربعين كاتبا قبطيا ليرأسوا الكتابة و الحساب في كل ولايات السودان و كان من بينهم ميخائيل مليكة و الذي كتب ابنه يوسف ميخائيل مذكراته التي طبعها مركز عبد الكريم الثقافي ، و اخرجها دكتور ابو شوك الذي سار علي الشوك لكي يخرج هذه المذكرات ، و كان يوسف ميخائيل هو أول من قال أنا قبطي سوداني ، وبعد هذا استعمل هذا التعبير انطلاقا من أن الأقباط قبيلة سودانية مثل الشايقية و الجعلية و الميرغنية و الأنصار وقد لبس يوسف ميخائيل جلابية الانصار التي ترمز للاستعداد ، و كان الخليفة عبد الله التعايشي عندما يذكر يوسف ميخائيل يدعوا دعوات صالحات للاقباط قائلا : جزاهم الله خيرا عنا ، وقد عين يوسف ميخائيل مقدما و زعيما للاقباط مكافاه له لفتح بيته و قلبة للمهدي في الأبيض و للخليفة التعايشي ، و ذكر يوسف ميخائيل أن الأ قباط أهتموا بالتعليم وافتتحوا الكتاتيب في المدارس التي كانت تعلم كل مواطن سوداني و ايضا لم يختصر هذا علي الخرطوم بل انتقل إلي الأبيض بلد يوسف و وادي حلفا و النهود و الرهد و الفاشر ومدني و كريمة و عطبرة .

خديجة أفندي و في مصر تبني محمد علي دعوة رفاعة رافع الطهطاوي لتعليم المرأة ، و رفاعة علي إسمة مدينة رفاعة بالسودان لأنه اتي هنا لواء التعليم ، وقد قرأت أن رفاعة عندما نادي بتحرير المرأة بدأ بامرأته ، و كتب لها صكا بأن لا يكون بينهما طلاق و لا زوجة ثانية ، و ان حدث هذا تكون هي في حل أن تفصم زوجيتها له بالطلاق .

لقد أوكل محمد علي إلي كلوت بك سنه ١٨٢٥م النهوض بحركة الطب في مصر و تحول الحلم الي حقيقة عندما انشئ محمد علي المستشفي العسكري

في أبي زعبل و الذي تحول بعد ذلك الي مدرسة لتعليم الطب و انتقل الي القصر العيني .

و فكر كلوت في شئ جديد ، هو انشاء مدرسة للقابلات أو المولدات ليحقق نقلة حضارية في مصر ، ولكن أين له بالبنات اللائي يدخلن هذه المدرسة ؟ وهن لم يدخلن أي مدرسة ، و لم ييأس محمد علي إنما اصدر عدة فرمانات ، وبذل عدة محاولات للعثور علي بنات يدخلن مدرسة القابلات لمحاربة تفشي الجهل بين الامهات و لاخفاض نسبة الوفيات بين المواليد من الذكور و الاناث .

وأصدر محمد علي فرمانا الي جنود الجيش لكي يدخلن بناتهن المدرسة ، و استعمل معهم وسيلة الترغيب و أوامر الترهيب ، ولكن الجنود قبلوا الترهيب و لم يقبلوا أن يدخل البنات الي مدرسة الدايات ، و طبعا التقدم لا يتحقق بمثل هذه الفرمانات.

و فكر محمد علي في شراء رقيق من الاناث من سوق العبيد ، و فشل هذا الفكر حيث لم يستطعن الاستمرار و مات كثير منهن و لجأ محمد علي إلى الضغط علي الفلاحين و لم يوفق ثم قرر أن يدخل الأغوات و هم خصيان و لكن حتي هذا لم ينجح ، واخيرا لجأ الي الفتيات اليتيمات و إلي البنات اللائي تتركهن أمهاتهن في المستشفيات و نجح في هذا و بدأت الدراسة ، و كانت الطالبة يصرف لها عشرة قروش شهريا و خمسة و ثلاثون قرشا في السنوات النهاية مع بعض الملابس و عندما تتخرج تعمل قابلة بمرتب جنية في الشهر و تأخذ لقب أفندي و كانت خديجة افندي أول امرأة مصرية تعمل و أول خريجة ، و تدخل محمد علي في زواج الافنديات القابلات و اصدر فرمانا بتزويجهن من خريجي الطب و كانوا من الازهر الشريف و بعد الزواج ينتقل الطبيب و زوجته القابلة الي بيت الزوجية الذي صار ملكا لهم بأوامر محمد علي.

١١٥ . الأبعاد الثقافية في التمثيليات السودانية

عادل حربي : أهداني الفنان الكبير بروفسور حربي كتابا من تأليفة عنوانه : الأبعاد الثقافية في فنون الآداء التمثيلي في السودان ، وهو أستاذ مشارك في كلية الموسيقي والدراما ، وهو مخرج مميز للعديد من المسرحيات في السودان و مصر، وهو بالنسبة إلي مكتبة عامرة بكل ما هو مفيد و عندما رغبت أن أكتب عن السودانوية شهامة و أصالة و كرامة ، التجأت الية ليفيدني بأبحاث ذات قيمة عن هذا الموضوع و علي الاخص ما يخص زميلي بروفسور أحمد الطيب زين العابدين، أما كتابة القيم فيبدأ أول محتوياته عن الأصل الحضاري و التنوع الثقافي و أثرة علي الممارسات و الطقوس الشعبية ذاكرا الحضارة السودانية و تطور المجتمع ، ثم مر بمراحل التاريخ الثقافي للسودان بدءا بالمجموعات الحضارية ، و حضارة مملكة كرمة و نبته ، حضارة مملكة مروي ، حضارة النوبة المسيحية ، الحضارة الاسلامية السودانية ، وهو يهتم بالتنوع الثقافي في السودان ذاكرا اثر الثقافات الوافدة ، أثر الثقافة الفرعونية ، أثر الثقافة المسيحية ، أثر الثقافة الأسلامية العربية و تعرض الكتاب لمواضع اخري و كل موضوع له جاذبيتة الخاصة ، فالكاتب صاحب قلم معبر يمثلة كخريج للمعهد العالي للفنون المسرحية ، و كمخرج له دورة و بصماته في الاخراج المسرحي .

إن عادل حربي مؤلف حربي بالمعني الشعبي الذي يؤكد أن الحربي ساهر و متيقظ و مستعد و متأهب ، و حامل لرؤي الناس متطلع لأهدافهم ، وهو كاتب يؤكد التنوع الثقافي في السودان ، و يؤكد أن هذا التنوع بركة إلهية لشعب السودان المتحضر الذي يحمل في تاريخة قوة الماضي السحيق ، و عمق العصر المسيحي في السودان ، و صوفية الاسلام في بلادنا .

لقد تجاوب عادل حربي مع كثير من اساتذتنا في السودان الذين يرفضون النظرة الاحادية لتراث السودان و التي تقول أنه لا تراث للمحليين قبل وصول الحضارة العربية الإسلامية ، و يري بروفسور أسامة عبد الرحمن النور في كتابة تاريخ السودان القديم أن الثقافة السودانية بلورت كينونتها السودانية المتفردة و تشكلت بفعل العطاء الذي قدمته الثقافات السودانية المحلية ، ذلك لأن الثقافة في جوهرها

خاصة إنسانية تعتمد الاخذ و العطاء و أن الامتناع عن الأخذ من ثقافتنا المتنوعة هو تنكر لقيمة العطاء الذي أسهم به اجدادنا الأوائل في اثراء التراث الانساني .

الحضارة النوبية المسيحية

و لأنني مهتم جدا بالثقافة المسيحية و بصماتها الأصلية في وسط شعبنا السوداني الأصيل أورد هنا رأي عادل حربي في هذا و أقول في البداية أن إهتمامي بالثقافة و التاريخ المسيحي في السودان ليس لأنني مسيحي فقط ، إنما لأنني سوداني و سودانويتي تكونت من الثقافات المتنوعة في المجتمع السوداني .

و يري عادل حربي أن الحضارة النوبية المسيحية و التي إمتدت إلي الف عام في تاريخنا ، تعتبر بداية فترة التأصيل الحضاري ، و ذلك لأنه بعد سقوط مملكة مروي و غزو اكسوم لنا تخمص أمران اولهما ظهور ثلاث ممالك نوبية و ثانيهما دخول المسيحية إلي السودان باجماع من أهل البلاد التي دخلت إلي المسيحية قلبا و قالبا ، و كانت مسيحية ممالك النوبة من رحم الكنيسة القبطية ، وفقا لمبادئها ، و اعتمادا لطقوسها و قوانينها و صلواتها المقدسة .

و يقول بروفسور حربي : لقد اعطت المسيحية بعدا جديدا في الحضارة السودانية في تلك الفترة فلقد اصبحت المسيحية دين الدولة الرسمي ، و لقد اثر هذا علي السلك الاداري و السياسي و الا قتصادي ، و فتحت المسيحية ابوابا جديدة لبلاد النوبة حيث ارتبطت حضاريا و ثقافيا بالامبراطورية البيزنطية و بلاد البحر المتوسط و أيضا في اعتقادي بالكنيسة القبطية و تراثها الروحي المجيد ، و قصص ابطالها التي تعد مادة دسمة لمسرحيات و تمثليات تعلي شأن الفضيلة و الجرأة و الشجاعة و الثبات علي المبدأ و العفاف و طهارة الشباب و القلوب و الثياب وقد ظهر هذا الانفتاح جليا في الفنون و الآداب .

و عن أثر الثقافة المسيحية في فنون الأداء التمثيلي في السودان يقول بروفسور عادل : ادي ازدهار الثقافة المسيحية في السودان القديم ، لبعض التأثيرات التي ظهرت جليا بوضوح في الفن الكنسي النوبي رغم اتسامة بالطابع و اللمسات المحلية ، حيث صارت الكنائس و ما تحوية من زخارف و نقوش و صور القديسين و خاصة العذراء مظهرا للابداع الفني السوداني ، فالطابع المحلي تصالح مع المؤثرات المسيحية الوافدة من مصر و من الكنيسة القبطية و التي وجدت في كنيسة فرص

في لوحات فنية عديدة ، و لقد كان التأثير الثقافي المسيحي في السودان ملائما و ملبيا لحاجات الانسان السوداني الروحانية ، و تقبل أهل السودان الثقافة المسيحية ، و انصهر متفاعلا في انماطها و تدخل هذا ليشمل بعض أنماط السلوك اليومي و الحياتي فنشات طقوس ترتبط بالصليب الأب و الأبن و الروح القدس الإله الواحد ، وهناك عادات تنتمي حتي الأن الي المسيحية عندما يحمل الأ طفال الي نهر النيل و هناك يغتسلون و يتم هذا بعد اربعين يوما من الولادة مثل عادة التعميد أو المعمودية عند المسيحية و هذا سلوك خارجي له قيمة الباطنية التي تظل حبيسة الرمز الروحي الخاص لدي المجتمع السوداني . رواق الأقباط

١١٦ـ في الأزهر الشريف

الأدب القبطي : في كتابه الأدب القبطي قديماً و حديثاً، مكتبة الهلال بالفجالة ، ١٩٦٢م ناقش المؤلف محمد سيد كيلاني موضوع الأقباط واللغة العربية، و قال أن البداية للأطفال و قطع من الإنجيل و طبعا القراءة و الكتابة، و يقول أن كتّاب الأقباط مثل كتاب المسلمين، والحقيقة أن المسلمين أخذوا فكرة الكتاتيب عن الأقباط، و لما لم تكن هناك جامعات فقد كان الأزهر الشريف وحده هو المسئول عن آداب اللغة العربية، وتقول صحيفة الوطن في عدد ٣ مايو ١٩١٦م، يذكر فتتبعوا التاريخ أنه كان للأقباط قديماً رواق بالأزهر المعمور، يتلقي فيه أبناؤهم العلوم المنطقية والشرعية إذ لم تكن وقتئذ مدارس لتدريس هذه العلوم غير هذه الجامعة العظيمة، و في الأزهر كان هناك موقع ليس للأقباط فحسب، إنما أيضا للسودان كله كان رواق سنار، و رواق دارفور، و رواق أعالي النيل لأبناء الجنوب الذين يرغبون في دراسة آداب اللغة العربية.

و ممن درسوا في الأزهر من الأقباط، أولاد العسّال قديماً و ميخائيل عبد السيد، صاحب جريدة الوطن، و وهبي بك تادرس، و ذكرت صحيفة الوطن ١٤/٢/١٩١٤م، تحت عنوان الأقباط في الأزهر ما نصه: يتردد كثيراً علي حلقات الدروس المختصة بعلوم المنقول والمعقول في الأزهر، جماعة من إخواننا الأقباط، و قد برع بعضهم فيما تلقوه من دروس المنطق ، والنحو، والصرف ، و البيان، و البديع، و الهيئة، والجبر.

و من الذين درسوا في الأزهر الشريف في العصر الحديث ميخائيل عبد السيد الذي إلتحق بالأزهر، و عندما أنشئت مدرسة دار العلوم، إنتقل إليها ودرس مع طلبتها جنباً إلي جنب و درس من علوم الدين الإسلامي فقه المذهب الحنفي، و كذلك درس في الأزهر جندي أبراهيم الصحفي المشهور الذي إنتقلت إليه ملكية صحيفة الوطن بعد أن تخلي عنها ميخائيل عبد السيد، و قد إلتحق بالأزهر تحت إسم الشيخ إبراهيم الجندي، فأمضي سنة كاملة تلقي منها النحو و الصرف و آداب اللغة و يبدو أنه كان يعامل كأزهري شيخ. و ممن درسوا بالأزهر تادرس وهبي الشاعر المشهور، و لم يعرف بين أدباء الأقباط من تأثر بالثقافة الإسلامية مثل تادرس وهبي، لقد حفظ القرآن و فهمه فهماً جيداً، و كان يكثر من الإقتباس من الآيات القرآنية، و الإشارة للأحاديث النبوية، و آخر ما يذكر عن الأقباط في الأزهر أرشيدياكون البطرسية فرنسيس العتر و قد رحب به الشيخ محمد عبده في مساء كل يوم و أدني مجلسه، وكان ذلك عام ١٩٠٢م ، و أذكر عندما كنت طالباً بالكلية الإكليريكية من ١٩٥٩ ١٩٦٣م إنني كنت أحضر القداس في الكنيسة البطرسية بأنبا رويس بالعباسية و كان فرنسيس العتر رئيساً للشمامسة، متقنا للغة العربية، ناطقاً فصيحاً و قد علمت أنه خريج الأزهر الشريف.

أقباط السودان:- و إذا كان كلامنا عن رواق الأقباط في الأزهر الشريف فإن الأقباط عندما تواجدت المدارس صارت المدارس القبطية هي رواقهم في اللغة العربية، و يذكر لنا التاريخ إن رئيس الوزراء بطرس باشا غالي كان أول من أمر بالإحتفال برأس السنة الهجرية، و إستطاع في عام ١٩٠٩م من حل مشكلة طلاب الأزهر الشريف،وعندما كانت الحكومة قد صممت علي إغلاق الأزهر قال هو : لا يمكن أبداً أن يمس أبناء الأزهر بسوء في عهدي ، و وضع بطرس غالي مشروعاً يقضي بسفر العلماء من خريجي الأزهر بنصف الأجرة في القطارات، و لهذا كان شيخ الأزهر سليم البشري يعتز به و قال بجوار سرير موته بعد أن قتلته يد الغدر الطائشة: قليل من المسلمين فعلوا لبلادهم مثل ما فعل هذا المسيحي الطيب، أما بطرس غالي فكانت كلماته الأخيرة أنا أبداً ما خنت بلادي.

و نذكر في السودان المكتبة القبطية بالخرطوم والتي إهتمت بنشر ثقافة اللغة

العربية، و كانت مكاناً للخطابة والخطباء ، و منتدي للأدباء،و تقلد سكرتاريتها في أحدي الدورات شيخ أزهري.

و كان مجمع اللغة العربية يضم أقباطاً والآن أحد الأعضاء المشهورين المستشار نجيب وهبة، الذي له مؤلفان هما: شعراء المسيحية في شبه الجزيرة العربية، و إشراقة شمس المسيحية في شبه الجزيرة العربية، وهنـــاك أدبـــاء فـــي العربية مـــن الأقبـــاط مـــثل جرجس زيدان، و لويس عوض، و قرياقص ميخائيل المراغي، و رمسيس جرجس، و واصف بطرس غالي، و وصفي بك صاحب كتاب الخلاصة الذهبية كأول كتاب في النحو، و لا ننسي قداسة البابا شنوده الثالث البارع في اللغة العربية و صاحب الشعر الروحي، الأديب العربي الذي يرفض حتي الآن أن يدخل القدس إلا مع شيخ الأزهر في وقت واحد.

١١٧ـ أقبـــاط الســـودان و اللغـــة العربيـــة

القبطية والعربية:عندما دخل الفتح العربي إلي مصر ، كانت مصر كلها تدين بالمسيحية، و تتكلم باللغة القبطية، وهذا ما عرفناه ليس عبر المراجع فقط إنما عبر منهج المدراس التي درسنا فيها، و أذكر أن هذا الدرس كان في منهج الشهادة الإعدادية، و كان عدد الأقباط عند الفتح العربي ثلاثون مليوناً و رغم أن هذا ما درسناه و لكن هناك إختلاف حول العدد قد ينقصه نسبة لا تزيد عن ١٠٪، و من المعروف أن الأقباط هم أول من خط بالقلم و يستدلـون علي هذا بما وجد من نقوش علي الأهرامات و ما قبل الأهرامات، و اللغة القبطية هي التطور الأخير للغة المصرية القديمة، و في القرن الرابع قبل الميلاد إستعانت اللغة القبطية بالأبجدية اليونانية لأنها أسهل من الفرعونية القديمة والتي تتطلب رساماً فناناً لكي ينقش حروفها و التي كل حرف فيها هو لوحة فنية لطائر، و النقط هي حبات قمح تتعدد لتصنف الباء والياء و التاء و الثاء.

و هذه الإستعانة بالأبجدية اليونانية أوجدت لديّ بعض المؤرخين خلطاً فيما يخص اللغة النوبية و التي عاشت في بلادنا السودانية حقبة إمتدت إلي عشرة قرون ميلادية بل أكثر، لقد إستعانت اللغة النوبية بحروف اللغة القبطية التي هي في الأصل أغلبها حروف يونانية، و لهذا قال البعض أن حروف اللغة النوبية هي

حروف يونانية، بينما هي لم تكن سوي حروف قبطية، لأن الكنيسة النوبية هي إبنة من أبكار الكنيسة القبطية، و لأن الكنيسة القبطية كان لها القدس المعلي في الإشراف علي الكنيسة النوبية لغة و عقيدة و طقساً.

و عندما دخلت اللغة العربية إلي مصر في القرن السابع الميلادي أفل نجم اللغة القبطية، و بدأت سيطرة اللغة العربية بمراسيم دولية عربت دواوين الحكومة، و رفضت تشغيل من لا يعرف اللغة العربية، بل إمتد النفوذ إلي التهديد بأن من يتكلم القبطية يقطع لسانه فوراً، و هنا إنزوت اللغة القبطية لتكون لغة الصلاة في الكنيسة، و لغة الإستعمال بتحفظ شديد داخل الأسرة.

و أمام تحدي تعلم اللغة العربية وفق الأقباط توفيقاً شديداً، و أتقنوا اللغة العربية و صاروا عرباً أكثر من سيبويه نحواً، و أكثر من الخطاطين خطأً، و أشد من الشعراء شعراً، و برز الأقباط في اللغة العربية و ترجموا كتاباتهم، و رسموا الخطوط العربية الأنيقة، و تفوقوا علي أقرانهم في فقه اللغة و النحو و الصرف، و ألفوا العديد من التراتيم والمدائح بدءا بمدائح الآحاد حتي سهرات شهر كيهك التي تكرم مريم العذراء البتول التي إختارتها السماء لتكون أماً للمسيح كلمة الله و روح فيه، حيث ولدته بدون زرع بشر، فظلت بتولاً بختم البتولية عذراء كل حين.

أقباط السودان:-كان الأقباط عموماً في مصر والسودان أساتذة للغة العربية حتي عام ١٩٤٠م عندما صدر قرار وزراي من وزارة المعارف يمنع المدرسين الأقباط من تدريس اللغة العربية حتي و إن كانوا من خريجي قسم اللغة العربية بكلية الآداب، هذا فقط تم تطبيقه في مصر أما في السودان فلم يمنع هذا القرار أقباط السودان من تدريس اللغة العربية و هنا نذكر بعضاً منهم:

الأستاذ حلمي عبد ربه مدرس اللغة العربية والذي درس علي يديه الإمام الصادق المهدي و الذي يذكر هذا حتي الآن بفخر و إعتزاز.

شهدت مدرسة الراهبات بالخرطوم الأستاذ عبد الكريم الشعراوي، الذي كان أستاذ اللغة العربية، والأدب العربي، و قد كان البعض يظن إنه مسلماً نظراً لأن كان يملك زمام اللغة العربية.

و في مدارس كومبوني كان الأستاذ عبده شعراوي شقيق عبد الكريم، و كان ناجحاً في مادته الأدبية العربية.

الشقيقان منير متي و مراد متي، و قد شاركا في وضع منهج اللغة

العربية للمدارس السودانية وكانا يدرسانها، و كان معهما الأستاذ صموئيل توفيق الذي برع في تدريس اللغة العربية في طول بلاد السودان وعرضها، و وصل منير متي و صموئيل توفيق إلي جوبا وهناك إستقبلهما التمرد و أودعهما في السجن، و أرسلت الحكومة طائرة من الجيش لكي تخرجهم و تعود بهم إلي الخرطوم.

و من طرائف منير متي و صموئيل توفيق إنهما كانا معاً في " زالنجي" و إستقبلا بروفسور عبد الله الطيب و أكرما وفادته، و كان آتياً من موقع آخر لم يكرم فيه، و أعجب عبد الله الطيب بالشابين القبطيين صموئيل و منير و مدحهما بقصيدة مطلعها:

جود الأكرمين من شواء و لحم

وجودهم " قونقليز " ليس له طعم

الأستاذ تادرس الفرشوطي كان أديباً وشاعراً، وتغني إطفال المدارس بأناشيده الوطنية، و إشترك في وضع منهج اللغة العربية في التعليم السوداني، و له عدة قصائد لديّ البعض منها مثل وحدي علي الدرب، تلك يا صاحبي الحياة، الله للسودان، جهد المقل، يا لائم الدهر، مع النيل العظيم، قاعة الصداقة، ولي زمان البطش، قصة ثورة، لوم الزمان، غيث همي، حلفا الغريقة، يا مرحباً بإنتصارتنا.

الأستاذ عدلي منسي، شيخ الكنيسة الإنجيلية، كان يمشي ملكاً، و يقولون عنه إنه ملك الإعراب في السودان.

الأستاذ عبد الله النجيب المحامي، والذي وضع العديد من الأغاني التي تغني بها مطربو السودان، و اذكر الأوبريت عن صلب المسيح الذي أُقيم في قاعة الصداقة و هو من تأليفه.

كان للمكتبة القبطية دورها الكبير في ندوات الأدب و حوارات الثقافة، و مساجلات الشعر، و كان سكرتيرها في إحدي الدورات أزهري مسلم، و قد تميز أقباط السودان بمثل هذه المكتبات، و إفتتحت المكتبة القبطية في ٨ يناير ١٩٠٨م و من بعدها إنتقلت فكرة المكتبات القبطية إلي عواصم السودان، مدني،عطبرة، الأبيض، بورسودان، و قبل هذا بحري و أم درمان.

١١٨ـ مساهمـات الأقـباط في اللـغة العربيـة

بعض المســـاهمات :- ساهم الأقباط في إحياء اللغة العربية، و إرساء قواعدها، و فتح أبواب القلوب لها وسط مصر القبطية، و النوبة السودانية، و إحتلت اللغة العربية موقعاً ممتازاً و نذكر هنا بعض هذه المساهمات:-

يذكر أنه في زمن الخديوي إسماعيل ١٨٦٣- ١٨٧٨م، برز العالم القبطي الكبير وصفي بك الذي درس في الأزهر الشريف، و وضع كتاب الخلاصة الذهبية، و هو أول كتاب في النحو، و وضع أيضاً كتاب مرآة الظرف في فن الصرف.

واصف بطرس غالي ١٧٨٧- ١٩٥٨م و هو السياسي المحنك، والأديب البارع الذي قام بترجمة بعض الشعر العربي إلي اللغة الفرنسية في ديوان: روض الأزهار، كما قام بإلقاء محاضرات في فرنسا للإشادة بفضل العرب علي الثقافة الأدبية، و قام بترجمة ديوان البحتري إلي الفرنسية حتي قيل عن واصف إنه كان ذا كفاءة نادرة و لو إنها كفاءة حالمة، و قال عنه سعد زغلول واصف غالي عندي أقل الناس طمعاً، و أكثر الناس تواضعاً، متواضع في كبرياء، ساكن في حركة، شديد الحساسية، قوي في عجز،ماكر في بساطة، واسع الخيال، بليغ القلم و البيان و قال عنه شوقي أمير الشعراء

غال ما شئت في أبن بطرس غالي

علم الله ليس في الحق غلا.

كان للأقباط قديماً رواق هو رواق الأقباط في الأزهر الشريف، و ممن درسوا فيه أولاد العسّال في القرن الرابع عشر، و ميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن، وجندي إبراهيم و كان إسمه الشيخ إبراهيم الجندي، وتادرس وهبي الشاعر الذي حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، و الأرشيدياكون فرنسيس العتر رئيس شمامسة

الكنيسة البطرسية، و الذي كان يحضر دروس الشيخ محمد عبده كل مساء.

الدكتور رمسيس جرجس (١٨٩٥- ١٩٥٩م) و الذي كان بلا منازع أحد علماء مجمع اللغة العربية، و قد كان طبيباً محباً للغة العربية، و برع في الأبحاث الطبية، و كتب معجماً للعلوم الطبية عربي و إنجليزي فيه نحو ستون ألف مصطلح، و قد عرف بحرصه علي أن يضع لكل مصطلح مقابلاً له من اللغة العربية الفصحي مهما كان غريباً، و له من المعاجم و القواميس الكثير ، و قدم للمجمع اللغوي عدة بحوث عن دراسات لغوية تنم عن إطلاع واسع و علم غزير، و من بحوثه في اللغة العربية:

النسب بالألف و النون.

التمييم و التنوين.

النحو في العربية.

اللغة الفرعونية وعلاقتها باللغات السامية.

مصطلحات إبن سينا، و عندما إنضم رمسيس جرجس لمجمع اللغة العربية، قال عنه الدكتور أحمد عمار: لقد أرادت له الأقدار أن يكون معجمياً و أن يكون مجمعياً، فمعني الكلمتين يكاد أن يكون واحداً، كما أن حروفها واحدة، و من ثم أهلته لهذا المركز الجليل علي نحو دقيق.

قرياقص ميخائيل المراغي (١٨٨٧ – ١٩٥٦م) هذا أطلق عليه المؤرخون لقب المجاهد الوطني، و أيضاً لقب المحامي البليغ عن الأزهر الشريف، و كان في كتاباته باللغة الأنجليزية يهدف إلي ترسيخ الوحدة الوطنية، و كتب نحو مائة مقال لشرح المسألة المصرية باللغة الإنجليزية في لندن لتكون مرجعاً لأهل بريطانيا، و في لندن أيضاً دافع عن الإسلام، و عن الأزهر الشريف، وتبرع هناك بحديقة منزله لتكون منتدي ثقافياً لأبناء بلاده المقيمين في بريطانيا، و لإجتماع أهل اللغة العربية حواراً و تثقيفاً.

البروفسور مراد كامل ١٩٠٧ – ١٩٧٥م، و قد كان لي شرف التلمذة علي يديه في كلية اللاهوت حيث كان يدرسنا اللغة العبرية و هي لغة شقيقة للغة العربية، و لقد نبغ في عدة لغات تصل إلي ثلاثين لغة، و كان عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، سنة ١٩٦١م، و قام بالتدريس في معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، و له أبحاث في أصول اللغة و قواعدها وتاريخها.

الدكتور مجدي وهبة(١٩٢٥– ١٩٩١م) و هو المهندس الجسور الذي مد الجسور بين الثقافة العالمية و الثقافة العربية، و كان يعمل مترجماً ، و يملك ناصية اللغة العربية، وترجم القانون الفرنسي المعروف " كود نابليون " إلي العربية، و عين مديراً عاماً لإدارة الترجمة العربية بوزارة الحقانية ثم وزيراً للمالية، و قبل هذا كان دليلاً لوزارة الثقافة، و في سنة ١٩٧٩م إختير عضواً بمجمع اللغة العربية ، و كان يمثل المجمع في إتحاد المجامع اللغوية، و له بالإشتراك مع كامل المهندس قاموس المصطلحات اللغوية و الأدبية العربية.

الدكتورة أنجيل بطرس والتي برزت بين النساء في الإهتمام باللغة العربية، و هي أستاذة الأدب الإنجليزي، و نقلت يوتوبيا من العالمية إلي العربية، و قدمت السكرية لنجيب محفوظ إلي العالمية، و لها العديد من المؤلفات الأدبية باللغة العربية، و باللغة الإنجليزية، و لها دراسات في الرواية العربية.

الأستاذ لويس عوض ١٩١٥– ١٩٩٠م ، وهو أديب مبدع، وناقد جرئ، و قالوا إنه ظاهرة فكرية لا تتكرر، و هو أحد قافلة رواد التنوير العظماء في تاريخنا الثقافي المعاصر، و هو مفكر جرئ، قضي سنوات طفولته في عاصمتنا الثقافية الخرطوم وسط أجواء جميلة، و رائحة تاريخ عتيق، و قد كتب أوراق العمر، مقدمة في فقه اللغة، الثورة والأدب، و له معارك ثقافية حول مواضيع عربية، مثل أبي العلا المعري و رسالة الغفران، و قد قال عن اللغة العربية

إنها أحد فروع الشجرة التي خرجت منها مجموعة اللغات. و قال عنه الدكتور يوسف إدريس : إنه من أعظم المفكرين العرب في كل التاريخ العربي، و مقالاته النقدية مهما إختلف البعض حولها هي أنوار متلألئة علي طول الطريق إلي نهضتنا، و قال عنه دكتور مصطفي الفقي إنه كان ناقداً مرموقاً، و متذوقاً، رفيع الشأن للشعر والرواية و المسرح و السينما في وقت واحد، و مزج في شخصيته بين الإهتمامات الفكرية و الأدبية والفنية، و قال عنه دكتور أسامة الباز، إنه كان مفكراً ديموقراطياً، لا يقبل إطلاقاً سلطة الفرد، و إملاء الرأي، يرفض الدكتاتورية الرأسمالية و العسكرية.

أما الأديب القبطي جرجس زيدان مؤسس جامعة القاهرة ١٨٦١-١٩١٤م، والذي نعاه إيليا أبو ماضي قائلاً:

ثكل الشرق فتاه، ليتني كنت فداه

ليتني كنت أصما عندما الناعي نعاه

قد نعي الناعون زيدانا إلي البدر سناه

و إلي التاريخ و القلم أباه و أخاه.

و قد نعاه جبران خليل جبران و قال من شاء أن يكرم زيدان فليطلب قسيمته من خزائن المعارف والمدارك التي جمعها زيدان و تركها إرثاً للعالم العربي.

هؤلاء عشرة فقط من أقباط أحبوا اللغة العربية و إهتموا بها ، و لم أنسي قط قداسة البابا شنودة الثالث ، الشاعر الروحاني، و الأديب المفوه الذي يحب اللغة العربية، و يكرم كل قواعدها.

١١٩ـ أساتذتي في اللغة العربية

كُتاب الحي:-منذ نعومة أظفاري إختار لي أبي أن أذهب إلي كُتاب الحي، و كان الشيخ أحمد طوال اليوم يحفظنا الحروف الأبجدية و بعض آيات من القرآن الكريم، و رغم وجود كُتاب قبطي في مسقط رأسي و لكن أبي إختار الكتاب الذي بجوار منزلنا حتي لا أتعرض لخطر الطريق، و كنا نتواصل سيراً علي الأقدام، و كان

هذا سبباً كبيراً في أن تكون صحتنا علي ما يرام، و أذكر إنه في كل يوم خميس كنت أحمل معي خمسة مليمات هي خميس مولانا الشيخ أحمد، و لم يحدث أن نيستها مرة لأنني كنت أعرف أن فلقة الشيخ في الإنتظار ولم يحدث أن تعرضت لها سوي في العقاب الجماعي عندما يفقد الطلبة النظام بسبب غياب الشيـــخ ذاهباً إلي بيته فيأتي و يعلن علينا عقاباً جماعياً يمارسه هو، و لا يفرق بين طالب و آخر.

و دخلت إلي المدرسة الإبتدائية في سن صغيرة، و أحببت اللغة العربية حباً كبيراً، و كان أستاذي الشيخ صالح الأزهري، و كان قصير القامة قوي الشخصية، و عند عودتي إلي البيت ، و هو يسكن في أول الشارع كان يوقفني بالأمر لإخرج كتاب المطالعة، و أقرأ أمام رفاقه الذين يجتمعون معه أمام منزله، و قد كنت أهاب جداً هذا الأستاذ و في الوقت نفسه كنت أعلم إنه إنما يفتخر بي.

وعندما دخلت إلي المدرسة مرحلة الإعدادية كان أستاذي في اللغة العربية هو محمد عبد السلام، و كان من أقطاب الإخوان المسلمين، و كان معتدلاً جداً يهتم ببناء اللغة العربية فينا، و قد جعلني أزداد حباً لها، و كان يحب ما أكتب من إنشاء و يقارنني ببعض الأدباء، و لم يكـــن الأدباء غريبين علي جيلنا، كنا نقرأ علي الأقل في كل أسبوع كتاباً، و عرفنا العقاد و طه حسين و المنفلوطي وعلي الجارم، و كنت صاحب صوت جهير في القراءة في اللغة العربية، و بعـــد هـــذا إنتقلت عدوي القارئ الصغير إلي باقي المواد، و بمجرد دخول أستاذ المادة كان يأمرني بالقراءة ويقدم هو التعليقات ، و ذات مرة قال لي أستاذي في اللغة العربية أمام زملائه في حجرة الأساتذة، يا أبني لي عندك طلب، فقلت أطلب أستاذي ما شئت، فقال أرجوك أن تحضر معنا حصة الدين الإسلامي، و في خجل و إستحياء قلت له يا أستاذ أنا مسيحي، و لو تغيبت عن حصة الدين المسيحي ليس في صالحي، فقال: أعلم يا أبني و لكن لا أجد بين أقرانك من يقرأ مثلما تقرأ، و قال لي ذات مرة عندما تكمل دراستك في كلية الآداب سوف آخذك بنفسي ، و أقدمك هدية لتعمل في الإذاعة، فلا جاء ليأخذني، و لا ذهبت أنا إلي الإذاعة.

مسيـــــرة الحـــــب:-و كانت مسيرة اللغة العربية في حياتي مسيرة حب و إعجاب، و لم أكن أستعمل سوي كتب الحكومة، و أرفض الملخصات، و أذكر أنني

من فرط إعجابي بالنقد والبلاغة كنــت أحفظ هذا الكتاب كله عن ظهر قلب، و أعرف ما أقرأ بالصفحات، و أذكر كتاب المطالعة، حفظته إعجاباً، و أذكر موضوع أحمد زكي سلطة علمية، و قد حاولت هذا العام أن أحصل علي هذه الكتب، لأنشط ذاكرتي بها.

و عندما دخلت كلية اللاهوت في العباسية القاهرة في العقد السادس من القرن الماضي، و لكم أن تتخيلوا أنني عاصرت من الزمان قرنين، كان يدرسني اللغة العربية صــيدلاني هو الدكتور جرجس إسحق، كان معنا في كل يوم جمعة، و هو هاوي و غاوي و معــجب و متــيم إلي درجة الإنفعال الشديد عندما نرفع ما ينصب، و ننصب ما يرفع، و كنت أراه حزيناً بائساً عندما نجرح الفصحي، و لا يقبل منا هذا ، و أذكر أول لقاء لنا به في الصف الأول بالكلية، و قد أعطانا فيه رائعة طه حسين دعاء الكروان، و قسم علينا فصول الكتاب لنكتب تلخيصاً، و أردت أن أتفوق علي زملائي فكتبت ملخصاً للفصول السابقة و طالبت من يقرأ أن ينتظر الفصول اللاحقة، و جاء موعد الحساب، و كان الأستاذ منزعجاً جداً من النتيجة، و جالت أصفاره في أغلب الأوراق، ثم نادي عليّ قائلاً: أنت الوحيد الموفق و لكني إضطررت أن أخصم ٤٠٪ من الدرجة، لأنك قلت في التلخيص الباشمهندس، هذه كلمة غير عربية، اللغة العربية لا تعرف هذه الكلمات التركية، و رغم أن الأســـــتاذ جرجـــــــس كان يتــــبرم منا، و يضيق بأخطائنا، إلا أننا أحببناه و أحببنا من خلاله لغتنا الجميلة كما كان يقول البرنامج الإذاعي، و إثناء تدريسه لنا صدر الجزء الأول من تاريخ الكنيسة القبطية و كنت قرأته في عدة ليالي، و كان معجباً بالأستاذة إيريس لأن لغتها العربية سليمة .

و خلال تلمذتي باللاهوت كنت أذهب للصلاة في الكنيسة البطرسية، و كان رئيس الشمامسة فرنسيس العتر له أداء موفق و عربية سليمة، وعلمت أنه من خريجي الأزهر.

و تتلمذت علي يد الأنبا شنوده أول أسقف للكلية اللاهوتـــــية و كـــان أديباً و شاعراً، و كنت أكتب كل ما يقوله فقد كان يقدم لنا الدرر في اللغة العربية.

و عندما رسمت كاهناً كنت تلميذا للأنبا دانيال في اللغة العربيـــــة، و هــو شاعر و أديب، و كثيراً ما كان حوارنا في منتداه حول الشعراء العرب وحــول حافــظ و شوقي و غيره، كما كنت تلميذاً للقمص تاوضروس المحرقي الذي كما كان يقول: دخل الدير لا يعرف الألف من كوز الذرة، و لكنه درس و تفوق، و كان ضليعاً في اللغة العربية و في الإعراب، لهم جميعاً التحايا فقد كنت و ما زلت لهم تلميذاً أحب العربية وأحب أساتذتها.

١٢٠ . الأستـــاذ هنـــري ريـــاض سكــلا

المحامي البـــارع :ولد هنري رياض في مدينة تندلتي ١٩٢٧ و درس القانون عن حماس و قناعة و عاد و هو يرغب في الدخول إلي سلك المحاماة دفاعاً عن الإنسان و تكريساً لأهمية و قيمة الإنسان.. و مساندة للمظلوم و دفاعاً عن الضعيف و إنتصاراً للحق و العدالة و كان لديه إحساس بارع بالعدل .. و الإحساس بالعدل يملأ جوانح كل إنسان مؤمن بالحق ... و كان لابد له و هو خريج جامعة غير سودانية أن يدخل إلي إمتحان المعادلة سنة ١٩٥٢ و الذي نجح فيه ثلاثة فقط هو و معه أحمد سليمان و علي محمد إبراهيم ... و عمل هنري رياض مدرساً في مدارس كمبوني ربما لأجل لقمة العيش فقط و لكن الحس القانوني عنده كان غالباً علي كل حس .. و منتصراً علي كل وقته فلقد بدأ في ترجمة السوابق القضائية إلي اللغة العربية تأكيداً لأهمية اللغة العربية و سعتها و دقة تعبيراتها و مقدرتها علي نقل المعلومة إلي الناس و إهتماماً بالفهم المتكامل للنصوص و الأحكام حتي لا يضيع المواطن ضحية الغموض و لا يقع الإنسان في حفرة وهم الفقدان بسبب عدم تمكنه علي فهم نص أو حكم بلغة غير لغته ... و لـــقد عـــاش هنري رياض العمر كله ما بين محام و قاض و دخل إلي سلك القضاء بالعمل في الهيئة القضائيــــــة في ١٩٧٢/٦/٣م و كان هذا بتكليف من الدولة و لكنه و بتكليف من الدولة نفسها و في حكم غير الحكم الأول أحيل للتقاعد للمعاش في ١٩٩٠/٩/٩م في عهد الإنقاذ و رغم أن التاريخ جميل يتكرر فيه رقم تسعة أربعة مرات و لكن الإحالة للتقاعد مرارة كانت في حلق هنري رياض حتي رحل إلي العالم الآخر... و هو يذكر في أدب إنه أُحيل للتقاعد قبل الميعاد المقرر قانوناً... و لكنه لم يتوقف عن العطاء للقانون

و الثقافة و الأدب فقد كان في خزينته حفظاً و صوناً لكل الأحكام التي شارك فيها بإبداء الرأي الأول أو الرأي المخالف في الدائرة أو الدوائر التي كان عضوا بها أو رئيساً لها فأصدر كتاب حصاد أحكام قبل التقاعد ... فهو لم يكن يتوقع هذا التقاعد لأنه أعطي و أعطي و لم يستبقِ شيئاً و لكن الحكام يفّضلون الولاء علي الكفاءة و الخبرة و رغم أنه لم يكن ضد أحد و لكن راح هو ضحية الإحالة للتقاعد للصالح العام مع أنه كان من الصالح العام أن يـــــبقي في وظيفته فلقد كانت كتاباته و رسائله و رحانياته كلها تصب في مصلحة الصالح العام و لأنه كان سليم النية نقي الطوية فلقد إستمر يعمل في صمت حتي يوم وفاته عندما إمتلأت كنـــيسة العــذراء بالخرطوم برجال الدولة و رجال القضـــاء و كلهـــم متأثرون لرحيله و وقتها كان حديثي علي منبر كاتدرائية العذراء إننا في الشـرق قـد تعودنـــا أن نعّـــذب العظماء و نسقيهم مرارة العلقم و نحيلهم للصالح العام ... و عندما يتركون الدنيا نسرع لإلقاء الكلمات عنهم في يوم شكرهم و نقدم باقات الزهور علي نعش يسكنونه و نحمل النعش في قوة و فخار بينما أتعبناه و هو معنا علي قيد الحياة و قد إلتقط هذه الكلمات الصحفي المخضرم نور الدين مدني لتأتي بها جريدة خليجية في الصفحة الأولي لها...

عاش هنري رياض راهباً ناسكاً ... لم يهتم بأي أمر دنيوي قدر ما إهتم برسالته القانونية الثقافية و كتب ما يقرب من مائة كتاب تأليفاً و ترجمة و إهتم بالعديد من شعراء السودان مثل توفيق صالح جبريل و التيجاني يوسف بشير و بأُدبـــاء آخر مثل سلامة موسي و محمد مندور و كان لديه الإحساس بالعدل أن جعله يحاول التنحي عندما يكون الموقف حرجاً و عندما أسند إلي شقيقه إدوارد رياض و هو المترقي في السلك القضائي حتي منصب المحامي العام أن يقف أمام هنري مدافعاً و لما رآه سأله عن سبب حضوره للمحكمة دخل لكي يكتب تنحية للحرج من القضية و لكن خلف الله الرشيد رئيس القضاء أدرك الأمر قبل وقوعه... و عاد إدوارد إلي النائب العام ليُعين آخر ...

كتاب هنري :و عندما جلست إلي الأستاذ إدوارد رياض جلسة خاصة كان محور الحديث فيها هو هنري رياض شعرت أن الشقيق يسير في نفس خط الشقيق و شعرت أن وقار أدوارد يجعله مؤهلاً جداً لكتابة كتابٍ عن هنري رياض و أتوقع من

الهيئة القضائية أن تشترك في دعم كتاب كامل عن رجل القانون و القضاء الذي راح منا و هو سعيد بما قدم إلينا رغم أن ما قدمنا إليه لا يستدعي الرضا... إن هنري رياض الذي درس في الخلوة و حفظ و القرآن الكريم عن ظهر قلب... و حفظ العديد من أبيات الشعر و تحدث عن الكثير من الشعراء و الذي كان صاحب خط جميل وعندما نرفع النقطة عن حرف الخاء ونضعها بسرعة علي حرف الطاء نراه لا يندب حظه إنما يسعي سعيه لأجل الآخر و إذا كان كل خطاط جهول فإن هذا لا ينطبق علي هـــــنري ريـــاض لقد كان كما يقولون إشتراكي التفكير كان يريد أن تكون الثقافة شراكة و أبناء الوطن شركاء لا أُجراء و لهذا قدم كتبه إلي أبناء هذا الجيل و الأجيال القادمة .... إلي أبناء النصف الثاني من القرن العشرين دون تفرقة أن تمييز ... و في إنتظار كتاب هنري رياض أعرف لماذا إختار أن يكون محامياً ... فلقد درس محمد أحمد المحجوب الهندسة وعمل بها ثم عاد فدرس الحقوق و لقد صمم محمد مندور رائد الأدب الإشتراكي أن يدخل الحقوق رغم أن طه حسين قد حاول معه أن يدرس الآداب ، و من أجمل الألقاب للروح القدس أنه المحامي و المدافع.

الشاعـــــر عزيـــــز التـــــوم:-

رأيته و جالسته :لقـــــد رأيـــت الشاعر المبدع عزيز التوم منصور ... رأيته و جالسته في منزله و كتب عني أبياتاً جميلة غابت عني عندما إنتقلت من سكني إلي سكن آخر ... و كان الرجل يمتلئ بالحيوية و يفيض بالمحبة شاعراً أنيق العبارات شجي الكلمات شعره موسيقي رائعة ... قسمات وجهه تتحرك مع نبض شعره ... كنت أزوره في منزله و هو من رعايا كنيسة الشهيدين و كنت أجلس إليه و أحيي تواضعه .. و كدت أقول له هل هجرت الشعر حتي تغني بالسخافات المغني و لم تسعفني سوي قصيدة إيليا أبو ماضي و قائلة ...

و قائلـــة هجـــرت الشعـــر حتي ...

تغنـــي بالسخافـــات و المغنـــي ...

أتـــي زمـــن الربيـــع و أنت لاهٍ ...

و قـــد ولّي و لـــم تهتـف بلحن ...

و نفسك كالصدي فـــي قاع بئر ...

و مثـــــل الفجـــر ملتحفاً بدجن ...

فمالك ليس يستهويك حســـــن ...

و أنت المرء تعشق كل حسن ...

أتسكت والشباب عليك ضافٍ ...

و حولك للهوي جنـــات عـــدن ...

ركـــــود الماء يورثـــــه فســـادا ...

فقلت لهـــا أستكيني واطمئني ...

فما حطمت يد الأيام روحي ...

و ان حطمّت أباريقي و دنـــي ...

و لم أعقد علي خوف لساني ...

و لا ضنا علي الدنيا بفنـــــي ...

أن الشاعر عزيز التوم منصور تخرج من كلية غردون التذكارية عام ١٩٤١ ... له ملاحـــم مســـتقلة منها كرري و الزين و الشك و يحمل وسام الدولة الذهبي للآداب و الفنون و جاز جائزة الدولة التكريمية للآداب و الفنون و كان يعمل مسجِّلا للمصنفات الأدبية والعلمية بمصلحة الثقافة تحت قانون حماية حق المؤلف .. و عاصر الحركة السياسية قبيل الإستقلال و شارك بالكلمة في تحريك الجماهير و حضها علي الثورة ضد الإستعمار ... و قد غادر عالمنا راحلاً إلي الرفيق الأعلي في يوم الخامس من الشهر الخامس للعام ١٩٩٢ ... و له في إستنهاض الهمم ضد الإستعمار قصيدة عصماء جاءت في كتاب ديوان النيل الذي أصدره المجلس الأعلي لرعاية الأداب و الفنون في مصر و قد دعوت الخرطوم عاصمة الثقافة لإعادة طباعة هذا الكتاب و وعدوني و لم يف أحـــــد بالوعـــــد .. و القصيدة من ملحمة كرري يخاطب فيها الشاعر تمثال كتشنر الذي كان يطل علي النيل ...

ترجَّل فهذا الجواد الأصيل ...

يود الصهيل و لا يصهـــــل ...

فليس علي ظهره فارس ...

من النيل في درعه مثقل ...

أنـــاخ اللجـــام علـــي فكه ...

و نـــاء بـــما يجـــد الكلكل ...

فلا أنت راكبه في الزحام ...

و لا أنت فارسه المفضل ...

ترجل و سر في زحام العبيد ...

إلي ساحة عندها تقتل ...

تطل علي النيل في جراة ...

كأنك مرسله المنعم ...

كأنك فجرت ينبوعه ...

أو أنك حارسه القيم ...

ترجل و إلا جري محنقا ...

و سال علي شاطئيه الدم ...

فما الف الذل عبر الدهور ...

و لا هزه الأرقم المعلم ...

و لكنه فيلسوف الزمان ...

إذا غيظ في عزه يكظم ...

و قد ظل هذا التمثال يطل علي النيل و لم يترجل إلا أبان حكومة عبود التي رفعت التمثال من موقعه في إحتفال كبير و سلمته إلي السفارة البريطانية بإحترام القادرين

لأن القادرين يحبون.. و لأن العفو عند المقدرة .. و كانت إزالة تمثال كتشنر مع تمثال غردون يوم ١١ ديسمبر ١٩٥٨ و كان إحتفال إزالة التمثالين إظهاراً لنبل القصد و برهاناً علي النضج والسلوك المتحضر هذا بحسب وصف جريدة السودان الجديد ... و يقول مهندس قاعة جامعة الخرطوم « إليك بوتر « إن بعض الناس اللطفاء من أهل السودان كانوا يضعون باقات من الزهور النضرة أمام التمثالين و عندما سئل من يضع باقات الورود أجاب بإبتسام نحن نعلم إن عادة وضع الزهور هي تقليد من تقاليدكم المعروفة منذ أمد بعيد و أعتقد إن الواجب يقتضي منا أن نحترم هذا التقليد و السودانيون بطبعهم يحترمون البسالة و الشجاعة .. وعندما كان التمثالين في الخرطوم لم يتعرض لهما أحد غير إنه بعد وصولهم إلي بريطانيا إعتدي أحد الجنود الإنجليز علي تمثال كتشنر و حطم غمد سيفه بينما كانت أخلاق أهل السودان العالية تضع عندهم باقات الزهور ...

من محراب حبي :-و قد أبدع الشاعر عزيز التوم في ديوانه « من محراب حبي « و في بعض قصائده مناجاة لمصر العظيمة التي كانت في عصره حلم الشعراء و أدب الأدباء

يا بنت مصر ... و مصر كلما ذكرت ..

هفت باروا حنا اصداؤها فينا ...

لو يملك الناس شيئاً من مقادرهم ..

كنا فدي مصر تقديرا و تمكينا ...

و في رومانسية يخاطب عزيز التوم الموعد قائلاً:

أنا ما سألتك موعداً أنت الذي اوعدتني ...

أنت الذي آملتني بهناءة و مطلتني ...

أنا ما سموت لمأمل أنت الذي آملتيني..

و بسمت في وجهي و من تيه الضباب دعوتني...

و لا أدري هل تحقق له هذا الموعد الذي أحيا فيه..

ميض الحب أم لا و لكن أعرف إنه لقي ربه بعد هذا الموعد.

١٢١. مقار و زكري و عبد اللّه حميدة

طاحونة مقار :كانت طاحونة مقار من أهم معالم الخرطوم والخرطوم بحري، شهد شارع الحرية محطة مقار ، و أسمع نداء الكومسري من به صمم عندما يقول محطة مقار ، أما الخرطوم بحري فكان فيها طاحونة مقار و مخبز زكري و هما أخوان أبناء سيدهم، و كانا يخدمان قوت الشعب بإمانة و وفاء فكان مقار يطحن دقيق الكسرة، و كان زكري يخبز الخبز الحديث و يوزعه و يصل به إلي منازل الناس.

و قد عاش هؤلاء و غيرهم في توادد مع جميع النـــــاس ، كانـــــوا ملتزمين بإيمانهم المسيحي و في الوقت نفسه مشاركين لإخوانهم المسلمين في كل المناسبات، و أذكر إحتفاء مقار سيدهم في الخرطوم بحري بالميرغني زعيم طائفة الخاتمية، وضع مقار مائتي زير ماء فرحة بقدومة، و لكي يعطي كأس ماء بارد لإخوانه المسلمين الذين أتوا من كل فج و صوب فرحا بشفاء زعيمهم الديني، بل إن الناس عندما أمسكوا بإناء و وضعوه في الزير، فوجئوا بأنه ممتلئ بالسكر و الليمون، و هي فكرة عبقرية لرجل بسيط أحب أهله و إخوانه.

و لا ننسي عثمان الذي عندما إستقبل طفله المولود بعد رحلة عناء زوجته، سألوه بماذا تسمي المولود فأجاب بدون تردد « تادرس « و سمي الطفل تادرس عثمان، تقديراً للطبيب الإنسان الذي كان و جاهد ليحافظ علي صحة الأم و الأبن.

بل إن صليب محروس تاجر أم درمان القبطي كان يشتري من الخاتمية، و كانوا ينادونه الخليفة صليب محروس، و تضايق من هذا اللقب تاجر يقع محله أمامه ، و إحتكموا إلي الخليفة الكبير الميرغني ، و سألوه هل يمكن أن يكون هذا المسيحي خليفة، فقال لهم نعم إنه الخليفة صليب محروس، و صمم الخليفة أن يكتب طالباً في وصيته أن يُكتب علي قبره شاهد يقول الخليفة صليب محروس، و لم يزل هذا الشاهد في مقابر الأقباط بأم درمان، وهكذا كان إسطفانوس سيدهم شقيق مقار و ذكري قد نال من الميرغني لقب الخليفة.

و كان إسكندر فهمي كتاباً سودانياً، و في مكتبه بمكتبة مـــروي كـــان يجتمـــع حوله الوزراء و رؤساء الوزراء والكُتَّاب و الأدباء، و رجال الصحافة ، و كان بنفسه يقدم لهم طلباتهم التي يعدها بمزاج طيب، و كثيراً ما طبع ما إشتهي الأدباء

و الشعراء أن يطبعوه، طبعه علي حسابه الخاص.

أما إميل راضي فهو شاب محب للخير، تمكنت مجموعة حُسن الخاتمة كم جذب إلتفاته فكان معهم يُعَّمر مقابر الخرطوم، و يستر الموتي ، و كل جهوده كانت لتعمير و صيانة و بناء أسوار مقابر الموتي المسلمين.

كل هؤلاء ذكرهم الكاتب الأديب عبد الله حميدة، في مقال له عن وطن النجوم، في مجلة الخرطوم الجديدة مارس ٢٠٠٨م تحت عنوان فصول في إستدعاء الذاكرة، و هنا نحن نقدم كل كلامه، مع كل الإحترام له و لمحبته الغامرة لأقباط السودان و إلي المقال:-

١٢٢. إستدعاء الذاكرة

قضت إرادة المولي عز و جل أن أعيش تجربة الإتصال (بالآخر) في سنيّ الطفولة الباكرة، فقد سكنت أسرتنا الصغيرة في منزل واحد مع أسرة قبطية جاءت من صعيد مصر و إستقرت في مدينة الخرطوم بحري، كانت هذه الأسرة تنتسب إلي أسرة أكبر عرفت في المدينة بمهارتها في مهنتين تتصلان بغذاء الناس مسلمهم وغير مسلمهم فقد كان (مقار) صاحب طاحونة شهيرة في موقع هو اليوم جنوب مستشفي المدينة الذي كان يطلق عليه (مستشفي الخرطوم بحري و الضواحي) و هو عين المستشفي الذي توسع في مختلف التخصصات الطبية و كان أول مستشفي سوداني يضم قسماً للأمراض العصبية والعقلية و النفسية تحت رئاسة عالم السودان الفذ التيجاني الماحي وتلميذه النجيب طه بعشر ، أما (زكري) فقد كان رائداً من رواد صناعة الخبز الحديث حيث كان إنتاج مخبزه(مخبزالشمس و القمر) يطوف علي الناس في أحيائهم قبل أن تعرف المخابز الصفوف والتزاحم علي الرغيف في أوقات لاحقة.

إذن فقد يسَّر هذا القبطيان للناس وسيلة الحصول علي (دقيق الكسرة) الذي كان طعام الأغلبية و (الرغيف) الذي كان طعام الموسرين و وضعا بذلك لبنة في بناء (التعايش الديني) بلا ضجة أو تكلف، و لو قال أحد أن في هذا القول مبالغة أو تجاوزاً فهو و شأنه، أما حقيقة هذا الأمر فقد إرتسمت في ذاكرتي و هي علي الأقل تحتاج إلي تفسير.

أقول : كانت الأسرة القبطية الصغيرة التي عاشرناها تعرف. تماماً. خطوط التماس والإفتراق في علاقة المسلمين والمسيحيين، و لعل الذي سهل إنسياب العلاقات الإنسانية بين الأسرتين إن كلاهما متدينة بغير تعصب أو توجس تجاه (الآخر) ، بل لعل الذي قرب بين الأسرتين . و هما المتقاربتان أصلاً بحكم المكان المشترك. هو أيضاً عفوية التعامل والتخاطب اليومي الذي تفرضه ضرورات الحياة و ما أكثرها.

أذكر أننا كنا نتعاطف معهم في عيد (شم النسيم) و هو عيد يحتفل به الأقباط المصريون من بين سائر النصاري الآخرين الذين ينتسبون إلي الكنيسة الأرثوذكسية بإعتباره عيداً مصرياً فرعونياً، بل أن سكان المدينة من غير المسيحيين كانوا يجدون في هذا العيد فرصة للنزهة والترفيه و سانحة لممارسة شئ من الفضول والبحث عن فهم لطقوس هذا العيد، و هذا في حد ذاته إضافة إلي آليات إكتشاف (الآخر) بدلاً عن إسقاط الأمر كله من الذاكرة.

و لو قلت أن المعاشرة والمعايشة التي فرضت نفسها علي الأسرتين كانت محض صدفة أو حقيقة ظرفية عابرة، فإنني أكون بذلك قد تجاوزت الحقيقة و تهربت من الواقع.

كانت المؤانسة اليومية بين الوالد، عليه رحمة الله، و (فهمي) رب الأسرة القبطية ، تتناول ظروف المعيشة و الأحوال العامة بل وحتي أحوال الطقس اليومية، فقد كان (فهمي) صاحب باع في الأنواء و حركة النجوم و علاقة ذلك بهطول الأمطار في الخريف.

و كان هذا أمراً ذا بال بالنسبة لمن عايش حالة المنازل و شوارع المدينة في هذا الفصل من العام، كنا نسمع (فهمي) في العشيات ينادي: (الليلة في مية) فننصرف تلقائياً إلي عمل الإحتياطيات اللازمة قبل أن ترعد السماء ثم تبرق ثم تصب أفواه القرب !.

كان والدنا يجد لذة في الإستماع إلي لغة (فهمي) المصرية الصعيدية الخالصة : المية .. يا بـوووي، تاجـــي .. همَّلتهالك .. إلخ؛ لأنــــه عاش عشرين عاماً من عمره بين (إسنا) و (مرسي مطروح) و (سيوة) و (الجبل الأصفر) و (الغردقة) وعرف لهجــات القاهريين و الإسكندرانيين والبـــدو و الفلاحين و الصعايدة و كانت لنساء الأسرتين لغتهن الخاصة التي تفرضها خصوصية (عالم النساء) حيث يدور

الحديث حول الأطعمـــــــة والملابس و الحلي و عادات الزواج و مراسم الزفاف، فيحدث تواصل تلقائي (ثقافي) من نوع فريد.

وكان أطفال الأسرتين يلعبون كما يلعب الأطفال بعفوية و بضجيج و مشاكسة لا تتعدى ما يحدث، عادة، بين الصغار من خصام لا يلبث أن يتلاشي ثم يتجدد ثم يتلاشي و هكذا. و لا أذكر قط أن التباين الديني بين هؤلاء الأطفال كان سبباً لإثارة مسألة (ثيوقراطية) صغيرة كانت أم كبيرة.

فــقد كان هناك طيف ما يتسلل من أرواح الكبار من الأسرتين ليغمر علاقات الصغار و يرعاها دون أن نراه و لكننا كنا نحس به كشئ غامض أشبه بالهاتف منه إلي صوت (البوم) أو (الغراب).

تجــربة صبغت فترة من حياتي ما زلت أشم رائحتها و أتامل كنهها كلما إلتقيت (فيلوثاوس فرج) أو الراحل (إسكندر فهمي) أو (إيميل راضي) و لا عليك إذا إستعصي عليك فهم ما أقول: فويل للشجي من الخلي.

عبد الله حميدة

١٢٣. الشاعــر عزيــز أنــدراوس

شاعــر فحل:يعد عزيز أندراوس شاعر قبطي فحل من بين شعراء السودان و كان له إنتاج غزير و كبير أغلبه لم ينشر و يبدو من مذكراته أنه بدأ كتابة الشعر عام ١٩٣٠ و في هذه المذكرات المتناثرة التي تحتفظ بها إبنته مير عزيز عدة كتابات شعراً و نثراً بعضها مــدون بتاريخ و توقيع و بعضها توقيع بدون تاريخ والشاعر عندما يكتب نثراً فإنه يكتب شعراً منثوراً طلي العبارة شهد التذوق... و لقد عاش عزيز بيننا و كان من أبناء كنيستنا و له معنا لقاءات أدبية شعرنا فيها برقة هذا الشاعر و بأن جوانحه تحمل تعاطف و حباً و إحساساً ناعماً بالحياة .. لقد دخل إلي العالم عام ١٩١٤ في ١٦ أكتوبر و غادر السودان إلي العالم الآخر يوم ١٩٧٧/٨/٢٩م .. و ترك في ميدان الشعر ما نشر و ما لم ينشر... و الذي نشر من دواوينه الشاطئ المهجور، شهرزاد، الفردوس المفقود، شي جيفارا، نماذج من شعر الجاز، و ما ذكر إنه لم ينشر عودة من الشاطئ المهجور،الأم، جسر التنهدات، شموع ودموع، مهــرجان صغيــر لوادي حلفا، مراكب الشمس ، وداعاً

أيها المطر، يراع و شراع، قياثر و أعواد، هيكل الروح، الليالي، أطباق الورد، و له كتاب في النقد والتحليل عنوانه أغانينا و قصة عنوانها تيلدا.

لقد بدأ حياته الأسرية زوجاً عام ١٩٥٠م و صدر له الشاطئ المهجور في عام ١٩٥٣ و بعدها ليالي الشاطئ المهجور عام ١٩٥٤ و هما الكتابان الوحيدان اللذان عثرت عليهما و ما زلت أبحث عن باقي الكتب و لديّ مخطوطات بخط يده فيها الشعر و النثر و الشعر المنثور..

و قد كتب أندراوس في كل صنوف الشعر.. له في الغزل طول باع و عندما تقرأ له في الغزل تتعاطف مع حبه الأول و تنتشي بلمسات الود.. و تشعر أنك تحب مثلما يحب و تعاني مثلما يعاني .. و هو أيضاً كشاعر أبن بيئته فلقد عاش أسرة قبطية عريقة و من معالم الأسرة القبطية التجاوب مع نفحات الروح و الإتصال بعالم السماء و محاولة الإنفصال و لو مؤقتاً عن ماديات الدنيا الفانية... و لقد جذب إلتفاتي ما كتبه من شعر روحي تحت عنوان : الشاعر يناجي الله !!؟ و فيه يقول:

*إن شهدت الله قد أشهدته
ما تجّلي لعيوني من جمال ..
و لقلبي من خيال.
*فإذا كالطيف يوماً زرته
أبتغي التسيار في ركب الكمال
و بلغيَّ المحال
*ما تراه فاعلا ..؟ ما جئته
لجمال يشتهي بعد الوصال
هو كالسحر الحلال
*رامني حراً.. فلما رمته
أشرأب من فوق الجبال
في كفاح و نضال
*جاذباً قلبي إليه سمته
و تهادي عطره عبر التلال
من ثنيات الظلال

*لم يدم غير قليل وقته

في رحاب الأرض منثور الرمال

في سهول أو تلال

*ما عشقت النور حتي سقته

فظلام شاع في نفسي و طال

منذ أجيال طوال

و قد كُتبت هذه القصيدة في ١٩٤٣/٥/١ .. و حملت عنوان مناجاة النفس لله... و هذا الشعر الروحي من وحي زابور داؤد راعي الأغنام الذي صار ملكاً و الذي أبدع في صياغة الشعـــر الروحي و ناجي الله و نادي روحه فيه أن تتجه نحو الله و تذوق العشرة معه و هو الذي قال: أحبك يا رب يا قوتي، الرب صخرتي وحصني، يارب أنصت إلي صراخي، إصغ إلي صوت صلاتي، إحفظني مثل حدقة العين، بظل جناحيك أسترني، إلهي إلهي لماذا تركتني بعيداً عن خلاصي، إلهي في النهار أدعو فلا تستجيب في الليل أدعو فلا هدوء لي.. ومن بين الشعر الروحي يتألق شعر قداسة البابا شنوده : قلبي الخفاق أضحي مضجعك ، في حنايا الصدر أخفي موضعك، قد تركت الكـــون في ضوضائه، و إعتزلت الكل كي أحيا معك، قد تركت الكل ربي ما عداك، ليس لي في غربة العمر سواك.

الشاطئ المهجور :-لقد عاش شاعرنا في مدينة الإسكندرية المطلة علي البحر الأبيض المتوسط لمدة خمسة أعوام من ١٩٤٥ إلي ١٩٥٠ و علي هذا الشاطئ عاش الحب عاش غرامه كشاب يمتلئ حيـــوية و عاش مع الآخرين حباً جماعياً طاهراً يقول عنه إنه قد ربطه بهم ما هو أثمن من الدم ذاته و أغلـــــي و جمـــعه معهم هدف واحد ضخم و ثمة حب أعظم لأنهم كانوا في دمي و كنت في عروقهم و في أعصابهم لا يكاد يحس أحدنا شيئاً إلا و يتجاوب الآخر معه تجاوباً عميقاً صادقاً لا أثر للتكلف فيه أو الإصطناع... و هو كشاعر يعد الشاطئ عنده كما قال في المقدمة تصوير صادق أصيل لفترة معينة من حيوات متعانقة متشابكة متداخلة عاشت في التاريخ تتأثر به و يتأثر بها بشكل أوفي عمقاً مما جعل للشاطئ « صفة موضوعية» إنني اشعر بخجل شديد لأننا ما كتبنا عن عزيز أندراوس و لا أخرجنا درره للدارس و غير الدارس ... و أعتقد أنه قد آن الآوان أن يدخل عزيز

أندراوس في ساحة أبحاث الأدباء و الشعراء و النقاد ... و أنتظر من إتحاد الأدباء و الشعراء السودانيين أن يحمل زمام المبادرة و يبدأ بندوات عنه ... حتي يعيده إلي ذاكرة أبناء الوطن ثم تكتب عنه الكتب.

سعـد ميخائيـل

و شعـراء السـودان

سعـد ميخائيـل:عرفت عن الشـاعر القبـطي سعد ميخائيل من إبنه فارس سعد و الذي خلف إبناً وحيداً هو رأفت .. و كنت في أيامي الأولـي أسكـن بجوار هذه العائلة .. و أهداني فارس سعد كتاباً عن أبيه ضاع مني عند الإنتقال من بيت « العّزابة » إلي بيت الزوجية و مر علي هذا أربعون عاماً و لكن مرفأ الذاكرة عندي مضاء بذكريات هذا الشاعر من حديث إبنه فارس و أعرف إن له إبناً آخر هو فخري سعد و كان من مديري شركة شل وكنت أزوره في منزله .. و لكن و بكل أسف لم أعرف منهم شيئاً عن الشاعر الكبير فالشعر ليس في دائرة إهتماماتهم و كثيرون الآن يتساءلون هل للشعر مكاناً في حياتنا ... و أعتقد إنه لن يخبو نـور الشعـر بالذات في سودانـنـا سودان الأدباء و الشعراء و لكن نحتاج إلي إثارة الهمم حول الشعر و قديماً كان التلفزيون يعقد مناظرات شعرية جميلة توقظ فينـا الإحساس بالشعـر و نصحو و تستيقظ معنا أبيات الشعر القديمة التي حفظناها و الشاعر سعد ميخائيل شاعر لا يمكن أن يتجاهله أحد لأنه هو نفسه لم يتجاهل رفاقه من الشعراء فلقد كتب كتاب شعراء السودان و الذي جمع عدداً كبيراً من الشعراء ذكرهم في كتابه بالحروف الأبجدية فهو شاعر رقيق الإحساس و لا يرغب في جرح مشاعر رفقاؤه في رقـة الإحساس و طبع الكتاب بمطبعة رعمسيس بالفجالة و كان سعد ميخائيل موظفـاً بمصلحـة البوسـتة و التلغراف و قد سانده في طباعة الكتاب مادياً و معنويـاً صموئـيل بك عطية باشكاتب مصلحة المخابرات بالسودان و الشيخ بابكر بدري ناظر كلية غوردون و الشيخ محمد سعيد العباسي و الشيخ محمد إسماعيل المفتي القاضي بالمحاكم الشرعية .... و يقول سعد ميخائيل إن ضالته المنشودة هي رضا القراء فهذا هو رأسماله و تحت رسمه أو صورته كتب خمس أبيات من شعر تقول :

قالوا تعشقت من سودانا أدبا

الفت منه كتاباً ذا أفانين

أريتنا فيه أبناء نُسر بهم

قد فاق قولهم زهر البساتين

فقلت يا قوم إن الفضل منتسب

إليكم في كمال العقل و الدين

صرفت شطر حياتي في ربوعكم

فنلت ما شئت من عطف و من لين..

إنّا رضيعا لبان منذ نشأتنا..

و آية النيل من أقوي البراهين..

و واضح أن أبيات الشعر التي ذيلت صورة الشاعر تعني أنه أصلاً موظف مصري عاش في الخرطوم و لكنه شاعر سوداني آثر أن يبقي مع عائلته في السودان و له أحفاد سودانيون و النيل معجزة من أقوي البراهين علي محبة أبنائه لبعضهم .. و قد قال : إن كتاب شعراء السودان هو تذكار إقامته في السودان و لكنه إستمر مقيماً في السودان حتي النفس الأخير.

شعراء السودان :و قد ذكر سعد ميخائيل في كتابه شعراء السودان عدد سبعة و ثلاثون شاعراً مع ترجمة شخصية لحياتهم ... و لم يذكر في الكتاب تاريخ طباعته و الشعراء الذين لم يذكرهم لم يكن معجباً بالبعض منهم و لم يكن علي دراية بالبعض الآخر و لكنه ذكر أساطين الشعر مثل الحسين زهراء و الضرير و الدولابي والمفتي و أحمد هاشم و المرضي و إبراهيم مدني ، و السراجي ، و نعمة، و الشيخ بابكر بدري و شفيق مينا الدنقلاوي.

و صالح بطرس الذي حفز الهمم لبناء جامع أم درمان و عمر البنا و وصفي و عمر الأزهري و الشيخ فرح تكتوك و محمد سعيد العباسي و البوشي و مدثر إبراهيم ... و قد حصل المؤلف علي صور لبعض هؤلاء الشعراء و أوردها في الكتاب و تحت كل صورة يكتب أبياتاً من شعرهم لها معناها و تعبر عن شخص كاتبها و نسوق هنا بعض الأمثلة:

تحت صورة صالح أفندي عبد القادر تأتي هذه الأبيات

قد زودتني الليالي فوق معرفتي...
وعلمتني فما جاريتها عبثا ...
تكشفت لي أمور كنت أجهلها ...
منها فبت علي علم أمرئ بحثا ...
و قد أنست بدهر كنت أحمده ...
ما أحسن الدهر لولا إنه نكثا ...

أما الشيخ بابكر بدري الذي لا يوجد في السودان من لا يعرفه مربياً قديراً مفتشاً للمعارف و هو شيخ خبير محقق ... ماهر مدقق ذكي الفؤاد .. لطيف المعشر ... دمث الأخلاق يهتم بإحقاق الحق .. و عندما أُقيم حفل تكريم للمسئول الأنجليزي جيمس كري أول مدير للتعليم السوداني و الذي مدحه المادحون علي إنه أول من أسس التعليم في السودان إستدرك الشيخ بابكر الأمر وقال كلا إن الأقباط هم أول من إهتموا بالتعليم و فتحوا المدارس أمام كل أبناء الوطن و أول من أنشأ الكتاتيب و قد كتب تحت صورته مداعبه منه للشعر الأبيض في لحيته إنه كان مشتاق لوقار الشيب محباً لمسامرته

ألا أيها الشيب الملم بي ...
فإني مشوق للوقار أسامر...
لئن فيَّ زهدت الغواني تفاديا...
فإن فؤادي بالتجاريب عامر...
فعنهن يغنيني التفكر في الذي...
مضي و الذي يأتي و ما هو حاضر ...
أما أنا فإني أحلم بإعادة طباعة كتاب شعراء السودان مع إضافـــــات حضارية و تاريخـــية و ثقافية لا تغرب عن أصالتنا.

١٢٤. صالح بطرس في جامع أم درمان

الشاعر القبطي :-يذكر لنا الشاعر سعد ميخائيل في كتابه شعراء السودان حديثاً جميلاً عن الشاعر القبطي صالح أفندي بطرس و الذي قال عنه إنه هو أحد الأدباء المعروفين المشهورين بعلمهم الجم و أدبهم الغزير و هو من الشعراء المعدودين الذين ما ذكر الشعر والشعـــــراء في السودان إلا و كان في طليعة المشار إليهم بالبنان و هو عدا ذلك منتقد خطير و كاتب تحرير يخلف الألباب بسحر بيانه ذوقه سليم و طبعه كريم... و هو من مواليد أم درمان عام ١٨٩٤م... وتخرج من كتاب الكنيسة حافظاً لمزامير داؤد... و كان أصغر تلاميذ الكتّاب و لكنه أكثرهم ذكاء و أوفرهم مقدرة علي الدراسة و قد دخل المدرسة الأهلية بأم درمان و عمره تسع سنوات ثم أم درمان الأميرية الثانوية ثم كلية غردون و كان يعمل موظفاً حكومياً... و قال عنه الشاعر سعد ميخائيل إن له من أدبه و دماثة أخلاقه و علو نفسه ما يضمن له المستقبل الزاهر و هو عندما كان صغيراً كنت تري الوقار بادياً علي وجهه و من احسن خلاله إنكار النفس و التواضع المدهش و هذا طبعاً أساسه الأدب لأن كل خلة طيبة تصحب الإدب و الخير كل الخير في الأدب كما قال الشاعر :

لم ينبت الخير في مال و لا نسب

و إنما الخير كل الخير في الأدب

مــزية تملأ الدنيــــا محاسنهـــا

و سلم لكمال الفصل و الحسب

و أورد سعد ميخائيل صورة صالح بطرس و ذيل الصورة ببيتين من الشعر فيهما تعبير عن المعــــــاناة التـــــي عاناهـــا الشاعر صالح و التي هي معاناة كل شاعر حساس رقيق و هما:

ملأت يا دهر كأس اليأس مترعة

فنلت منها و لم أحفل بباقيها

فإن قضيت و في نفسي مرارتها

قلت العفاء علي الدنيا و ما فيها...

جامع أم درمان :و لقد عاش الشاعر القبطي صالح بطرس الزمان الجميل بكل ما فيه من محبة تجمع المواطنين معاً... المسيحي و المسلم في مكان واحد و بقلب

واحد ... و كثيرون حكاياتهم تقول أنهم و هم مسلمون يعرفون الكثير عن الكنيسة و يتابعون ألحانها و طقوسها و يذهبون إليها في المناسبات و أكد صالح بطرس تعاطفه مع إخوانه المسلمين و في عام ١٣٤١ هجرية وقف الشاعر المسيحي يحتفل مع المسلمين برأس السنة الهجرية و يلقي في هذه المناسبة قصيدة عصماء يرحب بالعـــام الهجري الأغـــــر و الطلعة البهية و بهجة النور و كأن العام الهجري الجديد ملك تبوأ عرشه منبراً تحف به النجوم في حفل خطابي مجيد يهب الخيال للشاعر حتي يراه الناس طائراً فوق المجرَّة و قد أدرك أسرار الوجود و رأي من آياته ما لا يري... و يأمل الخير في العام الجديد لشعب خالص النية بانياً للمجد مؤدياً للأمانة رافضاً للذل آبياً معاشرة الهوان ... و هو يخاطب العام الهجري الجديد

أنت الذي تهب الخيال لشاعر ..
حتي يُري فوق المجرة طائراً..
و لأنت إحدي بينات إلهنا ..
من ذا يراك و لا يسبح من برا..
أدركت أسرار الوجود فخرتها..
و رأيت من آياته ما يُري..
هل أنت مخبرنا عن القوم الأُلي..
فلعلنا أن نستفيد تذكراً..
يا عام إنا آملوك لخيرنا...
أملا يُنيل الحظ فيك موفَّرا...
و الله يهدي للسداد فعالنا ...
كان الإله بعون عبد أقدرا...

و عندما تعثر بناء جامع أم درمان تعجب القبطي صالح بطرس من هذا ... و إنعقد لقاء في الجامع لكي يحفز الهمم لبناء الصرح الكبير و وقف الشاعر الكبير صالح بطرس يتحدث في قصيدة قوية عن مشاعره القوية و يتخيل الجامع المتعثر البناء و قد لوحت شمس النهار علي جانبيه فصار في شبابه هرماً ... صامتاً حيث قسوة أهل الكلام... متروكاً رغم إنه يستحق أن يبني بالحجارة الكريمة .. و يطرز

بالطرز المنمنم و يلون بالفسيفساء و لكن أهله لم يتمموا البناء ..

يا مسجداً مطلت بنوه بعهده..

حتي غدا و هو الحسير المعدم...

بدأوك جوداً بالصنيع و أحجموا...

ما كان أولي أن ذاك يتمم ...

لو كنت تنطق بالشكاة لهالهم..

منك العويل و أنَّة لا تكتم ...

لكنما أبديت حالك صامتاً...

فرثي الصوامت إذ قسا المتكلم...

أمنارة الدين الحنيف تحية...

من شاعر لك قد غدا يترحم...

بقي أن اسأل أهل الأدب و الشعر ... ما هي القصائد الأخري لصالح بطرس .. و متي غادر عالمنا إلي الرفيق الأعلي.. و هل

١٢٥ . في ميلاد المسيح أسكبوا عطر السلام

شرق و غرب تحتفل كنائس الغرب بعيد ميلاد السيد المسيح في الخامس و العشرين من شهر ديسمبر في كل عام .. ولهم التحية و التهنئة خداماً و مخدومين كنائس وطنية يعمل فيها الروح القدس بقوة روحية و نشهد لله وسط هذا الجيل و تعلي رسالة المسيح الذي ترك أمجاد السماء وجاء الي ارض الشقاء لكي يحمل هذا الشقاء ويقدم عنه الكفارة والفداء أرجو أن نعلم أولا أن هذا الاختلاف في تحديد موعد ميلاد السيد المسيح ليس اختلاف حول المسيح له المجد و لكنة اختلاف التواقيت و المواقيت في كرتنا الأرضية .. لكل بلد تقويم و ميقات ولكل بلد شهور و أوقات و لهذا عندما يقف كل موضع الأرض ملتفاً حول توقيته يحدث هذا الاختلاف وهنالك اختلافات أخري بين الكنائس لا تفسد للود قضية لأن الكل يجتمع في أهم القضايا اللاهوتية و يجمع حولها فالمسيح عند الكل هو كلمة الله المتجسد .. و الكتاب المقدس هو كتاب كل الكنائس و قانون الإيمان قانون موحد يبدأ بإعلان ميثاق الوحدانية بالحقيقة نؤمن باله واحد وان كانت صياغة القانون تمت بواسطة شماس من الكنيسة القبطية هو اثناسيوس الذي صار بطريركا فيما بعد فان إجماع الكنائس

حول قانون الإيمان هو إجماع واحد وعبر الدهور منذ القرن الرابع و إعلان الإيمان هذا إعلان عام و ملك لكل مسيحي .. نذكره سيدا للتاريخ باعثاً للحضارة هاديا للإنسان ملكا للزمان ولكل الأزمنة .. ولد في بيت لحم و عاش في الناصرة و لا يحترم احد اليوم أماكن ميلاده وارض مسيرته و مناطق دربة القدسي فهي في الحرب قصفا .. و عنفاً .. و دبابات و شاحنات شر تشحن الناس الي مقابر ألموتي و لو حدثت لحظة صمت فيها يهدا المتقاتلون .. و يسترد المحاربون انفاسهم و يذكرون مسيح السلام و يهدئون روع الحرب لعاد السلام قوياً الي ارض السلام وعاش المتخاصمين معاً علي ارض السلام بسلام وهم يا احبائي اقرباء .. ابناء عمومة .. و لكنهم يتقاتلون وكل واحد فيهم يرغب في تصفية الأخر و إلقائه في البحر حيث لا سلطان لهم علي البحر أو انها حياته في البر و لا سلطان لهم علي البر وليس هناك حل سوي العيش معا في سلام وعلي الاخص ونحن في ذكري ميلاد ملك السلام و يا أحبائي ان لرب الجنود يوما علي كل متعظم و عال وعلي كل مرتفع فيوضع .. و علي كل التلال المرتفعة و علي كل برج عال وعلي كل سور منيع .. و علي كل الاعلام البهجة فيخفض تشامخ الانسان و توضع رفعة الناس ويسمو الرب وحدة في ذلك اليوم ليدخل كل متكبر في نقر الصخور و في شقوق المعاقل وفي حفائر التراب من امام هيبة الرب ومن بهاء عظمته (اشعيا ٢) لانة ولد لنا عمانوئيل الذي تفسيرة الله معنا .. والله دوما مع الضعفاء مع المنكوبين مع المهمشين و سوف ينزل الاعزاء عن الكراسي ويرفع المتضعين لانه قد ولد لنا في مثل هذا اليوم ولد الرئاسة علي كتفة و دعي اسمة عجيبا مشيرا الها قديرا ابا ابديا رئيس السلام لنمو رئاسته و للسلام لا نهاية يعضد مملكته الروحية بالحق والبر من الان والي الابد (اشعيا ٩) .

عطر السلام

ارجو في ذكري ميلاد السيد المسيح ان نسكب عطر السلام علي ارض سوداننا الحبيب اولاً.. وعطر السلام عندما ينسكب من قلوبنا ارض الوطن سوف يملا ارض دار فور العريقة برائحة السلام و يملأ الجنوب والشرق و الغرب وكل البلاد .. ولكي نسكب عطر السلام اولاً ينبغي أن تمتلي قلوبنا بالسلام عمقا و عملا .. نحن والحمد لله امتلأت افواهنا بالكلام عن السلام ولكن مجرد كلام وهذا بيان كاذب لنا لم نحيا السلام ارض الوطن .. ماذا دهانا نحن ابناء السودان اصحاب ثقافة السلام.. ماذا حدث لنا .. ؟ علي من ننتصر..؟ علي أخواننا ..؟!

يا سادتي ان مولود مزود بيت لحم يناديكم بالسلام .. وملائكة الميلاد تقول لكم المجد لله في الاعالي و علي السلام و بالناس المسرة .. و سيد المناسبة المجيدة يقدم التطويب الخالد طوبي لصانعي السلام لانهم ابناء الله يدعون .. لو سمحتم ننسي ما فات و لنتعافي عن المرارات و نسكب عصر السلام حبا و مصالحة .

١٢٦. تكريم المؤرخ الكبير بروفسور أحمد دياب

دعوات لتكريمه: لقد طالبت أكثر من مرة بتكريم بروفسور أحمد دياب لأنه مؤرخ يستحق التكريم , وذات مرة وفي حضور وزير العدل الآن عبد الباسط سبدرات قلت إن لم تكرموا أحمد دياب فسوف أطالب قبيلة الأقباط بتكريمه ، وابتسم سبدرات ووعدنا خيراً ، وعندما طالب رئيس الجمهورية عمر حسن البشير بتكريم المبدعين قلت لا بد أن هذا إشارة إلى تجارب مع دعوتي بتكريم رجل التاريخ وبطل التأريخ بروفسور دياب .

واليوم يسعدني اهتمام جماعة من مواطني أم درمان ، باستقطاب مستشار الرئيس إبن آل المهدي العظماء لإقامة كرنڤال تكريم لبروفسور دياب في أم درمان .

لقد حظيت أم درمان باهتمام شديد من بروفسور دياب ، لقد أحبها كثيراً ، وكتب عنها كثيراً ، وهو مستعد أن يتحدث عن أصالتها زمناً طويلاً إن وجد فرصة لهذا، إنه يحب أم درمان ، وقع في ريد حي الريد ، واعتقد أن جسده ناحل لسبب هذا الحب النظيف الطاهر النقي العفيف .

إن أحمد دياب رجل نحيف قد أضناه حب أم درمان وغلبته بريدها ، والريد هو الحب ، أن تريد من قلبك شخصاً ما ، وأراد هو ريدته في بلد له عبق التاريخ وطيب الذكرى وأمجاد الماضي هو أم درمان دار الأمان والإيمان ، وطن مسالمة الأقباط و أم بدة ، وطن شارع كرري ، وحي العمدة ، والثورات ، والبقعة ، والريدة ، والعباسية ، والمعهد العلمي ، وجامعة الأحفاد ، وجامعة التقانة ، ومكتبة الحرية، ومكتبة البشير الريح ، والمكتبة ، والأزهري ، واليهود والهنود ، والأحزاب والزعماء السياسيين ، عبد الرحمن المهدي ، وإسماعيل الأزهري ، وعبد الله خليل، وميرغني حمزة ، والأسد ، والفيل ، وسوار الدهب ، وأحمد المهدي ، والصادق المهدي ، وخالدة زاهر ، وثريا إمبابي ، ومحاسن جيلاني ، وأم سلمى سعيد ،

والدكتور وديع جيد موسى ، والدكتور أمين خير ، والدكتور داود اسكندر ، وإبراهيم أبيس ، وعلي أرباب وصبحي إسكندر .

سادتي ، لقد وقعت في حب أم درمان ولكنني أشهد أنه لا يقدر أحد أن يصل إلى حرارة حب دياب لأم درمان ، ولهذا نحف جسده ولكن :

ترى الرجل النحيف فتزدريه

وفي أثوابه أسد هصور

لقد ازدرى به غيرنا ، وعرضه للتشريد حتى فتح دكاناً الأحذية ولكن الأسد الهصور في داخله انتصر على عوادي الزمن ولم تهزمه المحن بل هزم هو المحن وخرج خروج الغالبين المنتصرين .

وهكذا سادتي

تأتـــي الأيـــام عابرة إلـــى الماضـــــي

وتكتمل الأعوام راحلة إلى التاريخ

وهكــــذا تـــدور الدنيـــا وتســــير

تخفـــق الأحـــــلام وتتحقـــــــق

وتبقى الكلمة الأمينة أمينـــــــــة

ويبقى الرصد الأصيل رصيدا

وهكذا تكون أنت أحمد دياب

تبقى أدبـــاً حيـــــــــــاً

تبقى تاريـــخاً نظيفاً

تبقى فـــكراً ساطعـــاً

تبقى نبعـــاً حانيـــــاً

تبقى علمـــاً وعلمـــاً

تبقى تراثاً وميراثاً

تبقى فـــي قلوبنـــا

الفارس التاريخي المغوار الفلاح الأصيل الذي يخرق أرض التاريخ ويختلط عرقه بكلماته وحياته بدموعه وعبراته تبقى بأصالة أم درمان وعطر السودان وأريج السودانوية وعبق الأم درمانية .

ونحن اليوم كرمناك ولكننا في الحق كرمنا تاريخنا كرمنا ذواتنا ، كرمنا حبنا لماضينا المجيد ، كرمنا سوداننا العتيد أن يكون له فيما بعد موقعاً ، مثلما كان في الماضي معلماً حضارياً .

سيدي لك ولكل المبدعين في وطننا العريض في بلد المليون ميل الذي يتغنى له أهل السودان أن يكبر ويقولون بكرة ياسوداننا تكبر ، تكبر ، تكبر أقول لكل مبدع مثلك

أخاف عليك من عيني ومني

ومنك ومن زمانك والمكان

ولو أني خبأتك في عيوني

إلى يوم القيامة ما كفاني

وأرجو أن تظل دوماً متوجعاً بالتاريخ ، ومن الوجع وألام المخاض تهز بجزع النخلة فيتساقط علينا رطباً جنيا ومؤلفات ومجلدات وخواطر وتأملات وولادة تاريخ يدم ويبقى .

١٢٧ . الطفل الوديع

وهذا الطفل الوديع الذي زارنا منذ ما يزيد علي ألفي عام صار نموذجا للوداعة و مثلا اعلي للتواضع وطلب من تلاميذه أن يتعلموا منه لأنه وديع و متواضع القلب... لا يصيح و لا يسمع احد في الشوارع صوته قصبة مرضوضة لا يقصف و فتيلة مدخنة لا يطفئ أنما يملي القلب بالبهجة و التفاؤل و يتعامل معنا معاملة رقيقة يشجعنا فيها أن نعمل و لا يطفئ نور حماسنا إنما بشعلة أكثر نحو عمل اكبر ... و لرب الجنود يوما علي كل متعظم و عال و علي كل مرتفع فيوضع ... وعلي كل الجبال العالية و التلال المرتفعة وقد ترنمت أم الطفل الوديع مؤكدة أن الرب ينزل الأعزاء من علي الكراسي و يرفع المتضعين... يشبع الجياع خيرات و يصرف الأغنياء فارغين... و قد سلك سيدنا العظيم الطفل الوديع

عظمة الوداعة و نبتها الي من أراد أن يكون عظيما فليكن للكل خادما ... و خدمنا وغسل أرجلنا مع التلاميذ كنموذج عملي للوداعة ... و قد دخل الي أورشليم وديعا هادئا علي أتان راكبا بينما غيرة يركب الخيل الدهماء الشهباء ... فلنحتفل اليوم بذكري ميلاده المجيد و كلنا توجهه نحو الله لكي يملا تخومنا بالسلام و الحب و النماء ... يملا سوداننا بالأمل الكبير و العمل العظيم و السلام الذي لا ينزع منا ... و يكون سوداننا كبيرا و أبناؤه كبار وسياسيون كبار يعملون لخير الوطن .

١٢٨ـ قاعة الصداقة عند تادرس الفرشوطي

تادرس الفرشوطي : منذ أمد طويل أبحث عن شاعر عظيم من أقباط السودان هو تادرس يعقوب خليل المشهور بتادرس الفرشوطي و أسم تادرس يعني عطية الله وقد كان الفرشوطي عطية الله لشباب السودان و عندما كان أستاذا في المعهد الفني قدم لشباب السودان رسالته ممزوجة بالأدب الرفيع وحكي لي احد تلاميذه في مدرسة المقلان الثانوية أنه كان يكتب كل يوم حكمة اليوم التي كانت تحمل جاذبية لشباب ذاك الجيل و كما قال لي المهندس الكس سركيس أنه كان صاحب خط جميل و عند عثر أبنه صلاح تادرس علي احدي لقاياة أو كنوزه و صلني ملف بخط يده يمتلئ بالعديد من القصائد وسوف أحاول في المرات القادمة دراسة شخصيته من خلال قصائده ، و اذكر عندما تمت رسامتي كاهنا أنني زرت تادرس الفرشوطي في منزلة و أذكر كيف كان ترحيبه دافئا و كلماته معبرة فهو شاعر يملك ناصية لكلام و يعرف معني هندسة الكلام ، و بني بيوتا من الشعر هي قصور منيعة ذات عراقة هي عراقة اللغة العربية .

وعرفت من كثيرين أنه أول من آلف كتاب الدين المسيحي و عرفت أيضا أنه كتب من القصائد الوطنية ما حفظة شباب السودان في زمان أستاذيته و لكني حتى الأن لم احصل علي كتابة في الدين المسيحي و لا علي أناشيده الوطنية و اعتقد أن القاري السودان وهو الفاهم الذكي أنني محتاج الي الحصول علي تراث تادرس الفرشوطي ، و أفرد اليوم في التأمل في قصيدته قاعة الصداقة لا اعرف تاريخ كتابتها ولكن ربما يكون فور افتتاحها فقد انفعل جدا بهذا الصرح الجميل الذي جمع كل طارف وتليد من كنوز لعالم الأرض طرا و اعتقد أن السيد المهندس محجوب

عندما يسمع هذه القصيدة سوف يكتبها بمداد من ذهب لأنها كلام من ذهب لشاعر عظيم من ذهب جاء الي عالمنا ١٩١٦/١٢/٤م و ذهب عن هذا العالم مودعا ارض السودان بل العالم في ١٩٨٢/٧/١٦م .

قاعة الصداقة :

و يستهل الفرشوطي قصيدته قائلا :

لا تلمني إني بعطفك أحـــري

ليس ما بي كما توهمت سكري

أنا في نشوة اجل غير أنـــي

لم أزق سكرا و لم أحس خمرا

سلبت قاعة الصداقة لبـــي

فإذا بي اختال زهوا وكبـــرا

جئتها زائـــرا و لـــم أك أدري

أن فيها من روعة الفن سحرا

سرت فيها أرى عجائب شتي

و معينا من البدائع ثـــــرا

و بنفســي مما أراه خشـــوع

فهي مما قد أبدع الفكر حيري

و كأني غدوت راهب ديـــر

فاصن محرابه جلالا و طهرا

أين منها ما شيدته مـــلوك؟

من قصور وأين إيوان كسري

لـــو رأي سليمـــان ذابت

نفسه حسرة و أجفل ذعـــرا

و يستمر الفرشوطي ليصف كيف جمعت قاعة الصداقة كنوز و حضارات و ثريات و أريج نواح فيقول :

جمعت كـل طـارف وتليـــد

من كنوز لعالـم الأرض طـرا

و تبارت فيـها الحضــــارات

كل تتمني فوزا و تنشد نصـرا

عكست أرضها الثريات حتـى

خلت أني أخوض تحتي بحــرا

و الأريج الفـــواح ينساب فيها

فكأن الجدران تنضح عطــرا

وكان الجمـال ملك يديـــــها

ليس يعصي لرب بالحسن امرأ

وكان لابد أن يقدم تادرس تحيه الي الصين الذي اهدي السودان هذه القاعة زمن الرئيس جعفر نميري و يصف قاعة الصداقة الصينية بأنها من أعاجيب الصين دنيا علي ضفاف النيل :

يا بنـي الصين أنكـم مـن قديـم

قـد سموتم بالعلـم والفـن قـدرا

فلكـم عندنا علـي النيل أخــري

هي للـــود و الإخـــاء دليـل

و لعون الصديق رمـز و ذكــري

يا بنـي الصين فضلكم لا يمــاري

فيه ألا مـــن كـان أحمق غـرا

ليس مـــن يتبـع الصنيـع بمـن

و يباهـــي به دلالا و فخـــرا

كـالذي يصنع الجميـل يرجـــو

أن يكـون الجميل للـود مهـــرا

أن شعب الســـودان حـر أبـي

صـادق العهد ليس بمجد خيـــرا

سوف يزهو بما صنعتم ويشـــدو

بأياد للصين سـرا وجـــــهرا

وفي ختام القصيدة يطالب الفرشوطي شعب السودان أن يتمتع بزيارة قاعة الصداقة و الحمد لله في زماننا هذا و في سودان المؤتمرات و الندوات و السمنارات زار الآف من أبناء السودان قاعة الصادقة و لكنه إليكم هذه الدعوة :

أيهـا الغافل الذي لم تزرها

لا تجـادل فلا أري لك عزرا

ســر إليها وطف بها وتأمـل

مـا حوته واسجد لربك شكرا

أنه صانـع المواهب فاعلم أن فيها من قدرا الله سرا .

١٢٩ . ثورة أكتوبر في شعر الفرشوطي

تادرس الفرشوطي

وحول الشاعر القبطي الأديب السوداني الأصيل تادرس الفرشوطي نلتقي هذه المرة وهو يعبر عن مشاعره الرقيقة النبيلة بثورة أكتوبر المجيدة تلك التي أعلنت

أنه قد ولي زمان لبطش و ضاع الباطشين فقدوا ظلهم و ظلالهم و كراسيهم المغتصبة ، فقدوا كرامتهم وقد ظنوا أنهم الكرماء و غيرهم هم الخونة و ظنوا انهم اقويا عندما ملكوا وهم لم يملكوا شي لأنهم عبيد غيهم و باطلهم ، لقد حاربوا الحق بل رأوه وحشا ضاربا و لكن الحمد لله انكسر القيد وخرج الناس الي الشوارع يهتفون و ينشدون ويترنمون للنصر و يصيحون ضد بناء الظلم وقد انهارت كل جوانبه ، لقد كان لموت القرشي حياة جديدة للسودان و كان لموت لورانس الذي قدمه أقباط السودان شهيدا سلاما جديدا لسودان جديد ، لقد كانت كل قبائل السودان متوحدة معا ضد كل المتجبرين و قيود الظالمين وهنا تغني الشاعر تادرس الفرشوطي في قصيدة عنوانها ولي زمن البطش جاءت علي صفحات الصحافة الغراء في ٢١/١١/١٩٦٤م :

أخي أنت حر زال ما أنت راهب

و ولي زمان البطش ، لا عاد ذاهبه

و اشرق نور الحق فأنهض ولا تخف

وحدث جهارا بالذي انت عائبه

دماء الضحايا شعلة بددت لنا

ظلاما رهيبا روعتنا غياهبه

فبا (أحمد) استبشر لقد كنت رائدا

وخلفك سار الشعب تعدو مواكبه

الي حيث لاقي الظلم يجتر غيظه

وينعش حقدا ليس يهدأ غاضبه

وما كان عن حق يزود و إنما

ليبقي له سلطانه ومناصبه

و أعدي عدو الشعب جهل مسلح

يري الحق وحشا ضاريا فيحاربه

لقد كان أبناء السودان ومن بينهم تادرس الفرشوطي أن يروا بناء الظلم و قد انهار جانبه ولكن الله أسعدهم بثورة الشعب فتحقق ما كان يحلمون به ، بل أعطاهم الرب أكثر مما طلبوا لأنه دوما يعطنا أكثر مما نطلب أو نفتكر ، و ازداد يقين الناس بوطنهم بأبناء وطنهم وفهموا أنهم ينتمون الي شعب تهول عجائبه ، لقد تحقق انتصار أكتوبر و ثاروا مثلما يثور النيل فائرا حاملا للخير فائضا ، مرعبا مثل جيش بألوية طاهرا كالشمس ، قويا كالموت ، قاسيا كالهاوية لهيب الثورة لهيب نار تدمر الشر و تطهر القلب و تبدو من خلال ثورة أكتوبر حياة جديدة لسودان جديد فيوم الثورة هو يوم عز السودان ، الذي جاء اليه بالإصرار و بعزم الرجال و هنا ينشر الفرشوطي :

ودوت من الشعب المظفر صيحة

فمال بناء الظلم و انهار جانبه

رأيت بعيني ما كنت اشتهي

وحقق ربي فوق ما أنا طالبة

و عاد الي قلبي اليقين بأنني

أمت الي شعب تهول عجائبه

أليسوا بني النيل العظيم اذا جري

وئيدا ، تمادي في التهاون راكبه

ولكن اذا ما ثار ألفيت ماردا

بكل صنوف الرعب تطغي جوانبه .

سلاما شهيد الحق قد آل أمرنا

الينا ، وولي بالمهانة غاصبة

وهبت لنا الروح العزيزة راضيا

فبورك موهوب وبورك واهبه

تمنيت لو كنت الوحيد و أنني

أبوك فألقي بعض ما أنت كاسبة

تلاحم الجيش و الشعب

ولقد أشار تادرس الفرشوطي الي تلاحم الجيش مع الشعب فلقد وقف الجيش مع الشعب ضد عساكر السلطة فلقد تعود نفر من الجيش أن يستولوا علي حكم و الجيش منهم برئ لأن جيش السودان لا ينحاز إلا الي شعب السودان و لا يتجاوب إلا مع الأحرار ، و عندما يستدعي الأمر يظهر السر الذي كان خافيا و تعود السلطة المسلوبة للشعب الحر الأبي و هذا ما عبر عنه شاعرنا تادرس:

بني وطني جيش البلاد ذخيرة

وحض ، وبذل الروح للشعب واجبة

رأيتم اليه كيف كان ولاؤه

وكيف مع الأحرار كان تجاوبه

فحيوا معي جيش البلاد فانه

لصون أمانينا أعدت كتائبه

و يا ايها (السر) الذي كان خافيا

علي الناس ، وبان الذي انت حاجبه

وضاء وعزم في اقتدار و حنكه

ذلك فضل الله جلت مواهبه

وما عن هوي ازجي المديح تملقا

زمان الهوي ولي و زالت مثالبه

هنيئا لك الشعب الذي جاء ساعيا

يفوضك الامر الذي هو صاحبة

فكن خير ربان يقود جموعه .

١٣٠. بطريرك إثيوبيا في بلادنا

الضيف و المضيف بدعوة كريمة من السيد رئيس الجمهورية عمر البشير جاء الينا الضيف الكبير أبونا باولوس بطريرك إثيوبيا و الذي يرعي رعاية روحية لشعب قديم أصيل و لعدد من المواطنين يصل الي الخمسين مليونا يحترمونه و يجلونه و يستقبلون منه نفحات الروح القدس و كانت الزيارة لمدة اربعة أيام من ١١-١٥ يناير ٢٠٠٧م .. لقد أسعد الرئيس مليوني اثيوبي في السودان كما أسعد ملايين السودانين الذين رأوا في هذا الرجل العظيم صورة حية للملك المسيحي النجاشي الذي لا يظلم أحد عنده و الذي استضاف المسلمون الاوئل اثناء هجرتهم إلي الحبشة في الأيام الأولي للإسلام .. وقد كان البطريرك متعاطفا جدا مع قضايانا الوطنية فقد قال أنه إبن أفريقيا و أن أبناء افريقيا هم وحدهم القادرون علي حل مشاكل أفريقيا كما قال أنه يؤمن بدور دول الايقاد و مقدرتهم علي تجاوز الاختلافات و رسم خطي السلام و دعم المحبة في أفريقيا .. و بطريرك إثيوبيا هو الآن رئيس مجلس الكنائس العالمي و عضو فاعل في مجلس كنائس كل أفريقيا و كان يؤكد دوما أنه في وطنه و بين أخوانه و أن افريقيا كلها كان يطلق عليها إثيوبيا أي الوجوة المحروقة و لهذا الحديث مراجع تاريخة عديدة من بينها ما كتبه نعوم شقير و ماكتبة بروفسور العقيد و غيرهما من أساتذة التاريخ و لقد زار البطريرك المتحف القومي و كان في أستقبالة حسن حسين إدريس مدير المتحف و جال البطريرك ليري تاريخنا الخالد في آثارنا المجيدة .. و رأي في آثارنا عصا الرعاية التي عصاه.. و لوحة الميلاد الممتلئة أسرارا و التي ترسم المسيح طفلا في قمة اللوحة تأكيدا لمكانته اللاهوتية العظيمة و لوحة الثالوث المقدس التي أبدع فيها الفنان النوبي الاثيوبي القديم و التي يتميز بها الفن الاثيوبي و لم يرسم مثلها أي فن مسيحي آخر .. وقام الضيف الكبير بزيارة مجموعة جياد وقال قد تملكتة الغيرة أن يكون في بلادة مثل هذا الصرح الصناعي العظيم و أجابة مدير المجموعة الأستاذ أحمد عبد الرحمن بأن هذا هو الهدف و الرؤيا أن تتكرر التجربة في كل بلدان إفريقيا وفي مختلف ولايات السودان و استقبل رئيس الجمهورية ضيفة الكبير بالحبور و السرور و السعادة و الرضا و كان الحديث فياضا مشوقا عابرا الي التاريخ القديم

مؤكدا العلاقات الطيبة الحميمة بين شعبي السودان و إثيوبيا ، وقد التقي البطريرك بوزير الخارجية الدكتور لام اكول الذي أوفد سفيرة حسن فقيري .. و مساعدة عبد الدائم علي الأشراف علي رحلة الضيف الكبير .. و التقي أيضا بمستشار الرئيس الدكتور بروفسور أحمد علي الامام الذي كان الحوار معه لطيفا طاهرا نقيا نظيفا مرحا .. و استقبلته وزارة الارشاد و كان معه ملازما الاسقف إيدي امبرز مدير مكتب الكنائس بالوزارة .. و رساله البطريرك كما حددها هو هي رساله السلام و نشر ثقافة السلام و إيجاد ارضية قوية للسلام و الذي هو عطية الهبة الينا من الله رئيس السلام و ملك السلام و الذي وهبنا سلامة الذي يفوق كل عقل و دعي قداسته الي تضافر الجهود من أجل السلام لأننا اذا حققنا السلام فقد ملكنا كل شئ .. و قال إنه يثق و بشدة في حكومة السودان و سعيها نحو السلام و تعاطفها مع قضايا السلام ..

كرسي اليونسكو للتعايش: و قدمت بروفسور فاطمة عبد المحمود رئيس كرسي التعايش الديني لليونسكو ضيفا كبيرا في محاضرة عنوانها و الآخر وسط لفيف كبير من المسئوليين و المواطنين .. و أبناء إثيوبيا بالسودان الذين عطروا قاعة الصداقة بأجمل الترانيم بصوت أفريقي عذب .. وقال قداسة البطريرك أنه سعيد أن يلتقي بأهله لأننا كلنا إخوة و أن الله قد خلقنا جميعا لكي نعبدة و نمجدة و كلنا من دم واحد و طبيعة انسانة واحدة و أن الناس يختلفون و لكن كلهم واحد .. وقال ان ايمانه و دينة و عقيدته يطلبون منه إحترام الآخر .. وحب الآخر .. و عدم ادانة الآخر و أننا نحتاج الي أن نكون متحضرين و نعترف بالآخر و بأننا لسنا أحسن و لا اقوي و لا أعظم من الآخر .. و ينبغي أ ن تهدف التربية الأسرية الي حب الآخر لكي نبرهن جميعا أننا اولاد الله ..و قام البطريرك بالتجاوب مع دعوة نيافة الأنبا ايليا اسقف الخرطوم الي المطرانية و هناك استقبل البطريرك استقبالا حافلا و صمم اسقف الشباب الأنبا موسي و الذي حضر لتقديم جوائز مهرجان قداسة البابا شنودة لأبناء المطرانية أن يقوم البطريرك الإثيوبي بتقديم بعض هذه الجوائز بنفسه و تحدث الأنبا باولوس عن العلاقة الطيبة الدافئة الحنون التي تجمع كل أبناء مارمرقس كاروز أفريقيا من أقباط و اثيوبين .. و عاد البطريرك بالسلامة .

١٣١- رحلة إلي الغرفة الداخلية

كنز الكون عندما نقوم برحلة إلي الغرفة الداخلية نكتشف كنز الكون ، نعثر علي الكنز الثمين الذي هو أنفسنا ، أما الغرفة الداخلية فترمز الي تسليم القلب إلي الله، و الدخول إلي غرفة داخلية هي حياتنا ، وهنا نجد أنفسا و نذوق طعم العشرة مع الله تلك العشرة التي تجلعنا اقويا و عظماء و عمالقة في الروح لأننا تجردنا من كل شئ و دخلنا الي الغرفة الداخلية ، و سمعنا نداء الروح فينا ، في اعماقنا أن باطيل الاباطيل الكل باطل و قبض الريح .

تحت عنوان رحلة الي الغرفة الداخلية قرأت كتابا كاملا ، بنشرة معهد تدريب القادة بالشرق الاوسط ، وهو معهد يشرف علية الدكتور وحيد فريد و الذي هو نفسه قام قبلنا برحلة الي الغرفة الدخلية ، و كأن الكتاب يقول لنا لا تفتشوا عن الله خارجا عنكم ، إنه فيكم ، إنه في الحجرة الداخلية ، و اذا شئتم لقاؤة فالأمر ليس صعبا و لكنه فقط يحتاج إلي رحلة إلي الغرفة الداخلية رحلة إلي اعماقنا لأننا نحن هياكل الله ، وروح الله ساكنة فينا وتبدأ قصة الرحلة في ان بطل القصة كان ينام نوما متقطعا وهو رجل اعمال يقضي طويلا في العمل المرهق ، و في حاجة ماسة إلي النوم ، كان متعبا علي الدوام ، و كان افراد عائلتة يسيرون علي اطراف أصابعهم لكي ينام هو ، و استيقظ في الثالثة صباحا حيث ليس هناك شيئا يفعلة في هذا الوقت ، و لكنه تذكر صديقا له مشكلة مثل مشكلته ، و كان عندما يسقيظ يستغل الوقت في الصلاة لأن الذي يوقظة إما أن يكون الله أو الشيطان لو كان الله فسوف يصلي و يسمع نداء الله ، و لو كان الشيطان فسوف يجعلة يندم علي ذلك لأنه سوف يصلي ، و بدأ بطل القصة في الصلاة و خاطب الله قائلا : يا رب لست ادري ماذا يحدث ؟ ربما يكون تقطع النوم هو السبب ، و لكني اظن أن شيئا آخر كان يزعجني ، و تمدد لينام و فيما هو بين النوم و اليقظة سمع صوتا يقول : توقف عن مقاومتي ، و تعال الي الوليمة في الغرفة الداخلية ، و ذهل الرجل وفتش فلم يجد احد في الغرفة ، و حاول مرة اخري أن ينام و لكن همس في اعماقة صوت يقول تعال الي الغرفة الداخلية ، و هنا شعر بأن شيئا عظيما يحدث فقال : يا رب كيف اقاومك ؟ فرد علية صوت هامس : أن تحاول تستمر في الانسان العتيق ، و أنا

اريد أن اجعل منك انسانا جديدا ؟ أجاب ماذا ينبغي ان افعل ، لكي تجعلني الانسان الذي تريدني أن أكونه ؟ اجاب الهامس : يجب عليك أن تتحلي عن محاوله التحكم في حياتك و تشارك في الوليمة بالغرفة الداخلية ، و هنا شعر الرجل أن الرب يريد أن يظهر له شيئا جديدا و صلي قائلا : يا رب اريد أن اكون الرجل الذي تريدني أن اكونه !! اسألك ان تريني الوليمة في الغرفة الداخلية حتي اتمكن من المشاركة فيها، و بعد هذا سار الرجل في رحلة انتهت الي وليمة روحية اعدها الله لروحة و أكل طعاما مشبعا و شرب من ماء من يشرب منه لا يعطش إلي الأبد ؟! لقد وجد نفسه في الحجرة الداخلية التي صارت نظيفة و معده لحلول بركة الله فيها .

أغلق الباب :-

وقد عبر البابا شنودة الثالث عن الدخول إلي الغرفة الداخلية حيث تلتقي النفس لقاءا روحيا بمائدة الرب الدسمة ، و في قصيدة للبابا تحت عنوان أغلق البابا يقول قداسته :

أغلق الباب و حاجج في دجي الليل يسوعا

و املأ الليل صلاة و صراعا و دموعا

ثم يخاطب الانسان الحائر ، التائة في الفكر الذي يشكو صارخا اين الطريق ؟ و عندما يغلق الباب يلتقي بالطريق و الحق و الحياة

أيها الحائر يا من تهت في فكر عميق

تسأل الناس و تشكو اين الطريق ؟

هل وجدت الحل يا مسكين و القلب الشفيق

هل أزال الناس ما عندك من هم و ضيق

يا صديقي سوف لا يجديك في الدنيا صديق

ليس عند الناس رأي ثابت شاف يليق

فحلول لفريق ضد أخري لفريق

إنما عندي علاج قد خبرناه جميعا

أغلق الباب و حاجج في دجي الليل يسوع

و املأ الليل صلاة و صراخا و دموعا .

ثم يتحدث البابا عن نوع آخر من البشر هم المصلحون أو دعاة الاصلاع و

يصورهم للحق ثائرين علي الانحراف متحدين علي السلوك الخاطئ غضوبين ، ويقدم الحل الذي ليس سواه وهو الدخول للغرفة الداخلية :

أيها المصلح يامن تملي الدنيا لهيبا
ثائرا للحق و الاصلاح محتدا غضوبا
كم لقيت العنت و التجريح و القول المعيبا
تحمل اليوم صليبا و غدا ايضا صليبا
يا صديقي : إن مضي الوقت نزاعا و حروبا
و استمر الحال مثل الامس صعبا و عصيبا
فادخل المخدع و اركع ، و اسكب النفس سكيبا
قل له اشتدت و ضاقت ، فافتح الباب الرحيبا
قل له ياربي إني عاجز لن استطيعا
و اعرض الامر و حاجج في دجي الليل يسوعا
و املأ الليل صلاة و صراخا و دموعا

لقد استيقظ سيد رابعة العدوية علي صوتها تئن و تبكي و تصلي إلي الله ، فقرر أن يعتقها من العبودية رقا حتي تلتقي مع الله ، ومنها نعرف معا كيف تكون رحلتنا الي الغرفة الداخلية .

١٣٢ـ لوحة فرس عن الفتية في النار

نجيب يسي -: تعودت أن ازور نجيب يسي قبل أن يرحل الي العالم الآخر ، و كنت القبة بأنة الخريدة النفسية في تاريخ الكنيسة : كان كنزا أنفس للتاريخ المقدس ، و بعد رحيله امتد اللقاء حول التاريخ السوداني المجيد بإشراف قصائدة الشعرية الثلاث تريزا و نادية و سيلفيا ، و عندهم التقيت الإبنة هيفاء محمد حسن الطيب ، وهي فتاة واعدة لديها ثقافة آثارية ، و رغبة قوية في الدراسات الآثرية ، و كان الحديث عن آثار بلاد النوبة و مع الحديث شريط مصور علي قرص فية لوحات متعددة ومعه قدمت لي دراسة عن الثلاث فتية في آتون النار ، عن لوحة فرس الجدارية للأب جيوفاني فانتيني ، ترجمة الدكتور أسامة عبدالرحمن النور الذي طبع له مركز عبد الكريم ميرغني كتاب : تاريخ السودان القديم ، أما اللوحة فهي لوحة

جدارية من كاتدرائية فرس ، و التي علي غرارها صممت كنيسة الشهدين بالعمارات بوحي و طلب من الدكتور وديع جيد الذي حمل هم بناء الكنيسة منذ حجر الأساس حتي الافتتاح و كان معه اعضاء جمعيته القبطية و كان الافتتاح في السادس من أبريل ١٩٦٨م .

أما اللوحة التي رسم الثلاث فتية في آتون النار فهي بريشة فنان نوبي لم يذكر إسمة ربما تواضعا و لكن واضح أن هذا الفنان درس كل ما ورد عن الثلاث فتية في سفر دانيال من الكتاب المقدس ، و في نصوص أخري عبرية و آرامية .

و تجذب هذه اللوحة التفات الزائر لمتحف السودان حيث تحتل موقعها في مدخل الصالة المسيحية ، و هي ذات ألوان حيوية و علي الاخص الون الاحمر فيها ، و كأن الفنان كان يضع ريشتة في دمه ، و جلال الصورة في القوم المهيب للملاك و ارتفاع قوامة سبعة أقدام ، و في الوقفة الهادئة الوقور للشبان الثلاثة ، و الزخرف المتقن لثيابهم ، و لقد رسم الفنان النوبي الملاك برداء طويل ابيض مزخرف بأشرطة عمودية كبيرة و عباءة مزينة بخطوط مقلمة ، و كان البياض المدهن للملاك يبدو مناقضا مع لون الكائنات الانسانية الثلاث ، كما أن الشبان رسموا بشعر اسود مرتب جيدا إلي يمين و يسار وجوههم ، و لكي يؤكد الفنان ما جاء في الكتاب المقدس أن الفتية الثلاث عندما أدخلوا قسرا في النار ، و لم تحترق شعرة واحدة من رؤسهم ، و ملابسهم لم تشيط ، و سراويلهم لم تتغير و رائحة النار لم تأت عليهم ، لم تكن للنار قوة علي أجسامهم .

لقد البسهم الفنان النوبي سراويلا هي نوع من البناطلين التي يستخدمها البارثيون، و وضع علي رؤسهم عمامة ، و في القدمين وضع نوعا من الاحذية تتطابق مع الإغريقية ، و هو نوع من الأحذية يرتفع حتي بطن الساق .

و في لوحة كاتدرائية فرس ينزل الملاك إلي الفرن المتقد سبعة أضعاف بالقرب من عزاريا وهو الاول الذي كان ينشد للرب وسط النيران و في اللوحة يقف علي اليد اليمني للملاك و تحته كتب إسمة عزاريا ، و في اللوحة الملاك يبعد لهب النار إلي الخارج ، و يرتفع اللهيب الأحمر عاليا في الخلفية بعيدا عن الثلاثة فتيان ، و الملاك يغطي عليهم كمروحة ، و يمتد جناحا الملاك من اقصي اللوحة الي أقصاها و كأنما يهدف التعبير عن فعل (التغطية المروحية) و يعبر الفنان النوبي عن أن النار لم تمسس الفتية في رسمهم واقفين في هدوء و اطمئنان .

النص الكتابي :- و يذكر الكتاب المقدس في الاصحاح الثالث من سفر دانيال ، قصة الملك نبوخذ نصر الذي صنع تمثالا من ذهب ضخم الحجم ، و نصبة في بقعة دورا في ولاية بابل ، و صدر الأمر من الملك بأن كل رعاياه عندما يسمعون صوت الموسيقي يسجدون لتمثال الذهب ، و لكن الفتية الثلاث عزاريا و حنانيا و ميصائيل كانوا من ابناء يعقوب الموحدين الذين لا يسجدون لغير الله ، و كانوا في مراكز مرموقة في الدولة ، و جاءات ضدهم شكوي الي الملك أنهم يرفضون السجود ، و طلب الملك حضورهم امامة و تحاور معهم ، و كان موقفهم رفض السجود و يوجد الههم القادر علي انقاذهم من عقاب النار لمن لا يسجد ، و حتي و لو لم يتم الأنقاذ فهم لا يعبدون آلهة الملك و لا يسجدون لتمثال الملك ، و غضب الملك جدا ، و طلب أن تحمي النار سبعة اضعاف المعتاد ، و بأمرة اوثق الجبابرة الشبان الثلاثة، و القوهم في النار ، و قتل لهيب النار الرجال الجبابرة الذين رفعوهم ، أما هم فكانوا بدون ربط و لا قيود يتمشون في وسط النار ، و كأنهم في نزهه هادئة ، و وجد الملك أن عددهم اربعة ، و أن الرابع شبية بابن الآلهة ، و لكن الفنان النوبي رسم الرابع ملاكا قويا تقيا ، صافيا طاهرا يوفر الحماية للثلاث فتية ، كدليل أن الله يقف معنا حتي و لو وضعنا في النار بسبب إيماننا

١٣٣. ذكاء قطر و صناعة السلام

ذكاء قطر: عندما شاءت إرادة الله أن أتمتع بزيارة دولة قطر و ذلك لحوار مؤتمر الدوحة السادس لحوار الأديان من ١٢-١٤ مايو ٢٠٠٨م ، أسعدتني جداً هذه الزيارة ، و تشاركت مع المؤتمرين بعدة مداخلات ، و كنت عند ذهابي معجبا جداً بالأخلاق الفاضلة و الصفات الجميلة لدي سفير دولة قطر في السودان السيد علي الحمادي ، و لكن هذه الزيارة اكدت لي أن أهل قطر جميعاً علي نفس مستوي سفيرها الهمام ، لأن ذكاء قطر حكومة و شعبا هو الذي جعلها تولي اهتماما كبيرا بحوار الأديان ، و توسع دائرة الحوار لتشمل الأديان التوحيدية الثلاث اليهودية و المسيحية و الإسلام ، لقد تمكن أهل منتدي الدوحة في تجميع قيادات دينية من الاديان الثلاث ، و لقد كان الحوار فقط مسيحيا إسلاميا ، و كان أمر دعوة خامات اليهود أمرا صعبا ، و لكن قطر اجتازت الصعب ، و عبرت بكوبري المحبة إلي

الآخر ، و نادت بما يوقف ثقافية الكراهية التي عشناها أمدا طويلا من الزمان ، كراهية لا لزوم لها و لا منفعة و لا إمكانية علي تسيير دفة الحياة ، فكلنا بشر و كلنا من آدم و آدم من الله ، لقد أسعدني حوار قوي اجتمعت فيه الأديان الثلاث علي قيم روحية أصيلة ، فلقد كان عنوان المؤتمر : القيم الدينية بين المسالمة و أحترام الحياة ، و بداية المسالمة أن نضحح أفكارنا عن الآخر ، و أن نحترم أفكار الآخر و معتقداته ، و أحترام الحياة يعني أحترام حياة كل إنسان يمشي علي الأرض فالحياة هي حياة عند كل إنسان ، لقد تمكنت قطر بذكاء قيادتها السياسية المتمثلة في سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني و اركان حكومته المباركة أن تعبر بنا من ثقافة الكراهية إلي ثقافة الحوار ، و أن لا نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، و عند الحوار سوف نجد بل وجدنا قواسم مشتركة و محطات للتآخي تجعلنا نقترب إلي بعضنا البعض ، و نتآخي معا في الله ، و في الحوار محبة و ضوابط روحية تجعل كل واحد فينا يستمع إلي الآخر ، و سوف يتحول الحوار مع الوقت إلي توادد و تكال بل إلي محبة لأن من يحب أخاه يثبت في محبة الله ، و اذا كنت لا تحب أخاك الذي تراة فكيف تحب الله الذي لم يراه أحد قط ، و نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلي الحياة لأننا نحب الاخوة ، ومن لا يحب أخاة يبقي في الموت ، كل من يبغض أخاة فهو قاتل نفس ، و انتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة ابدية ثابته فيه ، لا نحب بالكلام و لا باللسان بل بالعمل و الحق ، و بهذا نعرف اننا من الحق ، و لم يكن ذكاء قطر فقط في دعوة و انما ايضا في حل مشكلة لبنان التي كانت عصية و في مساندة امريكا خلال الم الاعصار .

صناعة السلام:من اسهل الأمور ان يتحارب الناس و لكن اصعبها أن يتحابون ، ليس صعبا أن ينفعل قائد أو رئيس و يعلنها حربا شعواء علي جران بلادة ، و كما تنتقل النار بسرعة الهواء هكذا عدوي الحروب ، و لكن صناعة السلام تحتاج الي ذكاء و إلي القلوب نقية شفافة طاهرة أمام الله لذلك اتت تطوبية السيد المسيح : طوبي لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون ، و لقد حاورني احدهم قائلا بأن أهل قطر ليس كل مقتعون بحوار الأديان و كان ردي واضحا إذا كان الحكام هم الذين يساندون هذا الحوار فهذا يعني ان حكام قطر أذكي جدا و يعني أيضا أن محبة الحكام لشعوبهم هي التي دفعتهم إلي مساندة هذا الحوار ، بل اننا رأينا بأنفسنا كيف

تم تنزيل هذا الحوار علي المجتمع و الدليل علي هذا أن خمس تلمذات في مدرسة قطرية ألفن كتابا عن حوار الاديان و عرضت أفكار الكتاب علي المؤتمرين ، و نحن في انتظار تنامي هذا التجاوب وسط كل اهل الدوحة ، و في انتظار انتقال هذا التجاوب إلي كل البلدان .

و صناعة السلام تتطلب مزيدا من الصبر و طول الأناة ، و لا تأتي الثمار إلا بالصبر ، و كما يقول الكتاب المقدس و يثمرون بالصبر ، و الصبر عطاء ومن يزرع بالشح فبالشح يحصد و من يزرع بالبركات فبالبركات أيضا يحصد ، و ذكاء قطر يأتي في أن حوار الأديان الثلاث يمكن أن يكون بداية لحل مشكلة عصيبة نحياها تؤرق راحتنا ، فربما يكون هؤلاء المحاورون من اليهود سببا في تغيير صورة الغرب عنا ، و ربما يكونون سببا في إرساء السلام علي أرض السلام في فلسطين التي ينتقل حربها و نوثرها و بؤسها و شقاؤها إلي كل بيت من بيوتنا ، تحياتي لحمائم السلام في قطر رئيسا و شعبا و مؤتمرا و مؤتمرين رجالا وقفوا مؤازرين النعيمي الرميحي ، و امرأة هي حمامة سلام هي عائشة الناعي ومعها نساء فضليات قطريات ، و هكذا كان ذكاء قطر طريقا لصناعة السلام .

١٣٤ـ هارون داود

إقتصاد السودان : أثبتت الأجيال السابقة أن السودان بلد زراعي ، و أننا يمكن أن نأكل مما نزرع ، و اذا كنا اليوم كما يقولون نضحك مما نسمع فإنه من الخجل أن يكون اجدادنا قد كانت لهم سياسة زراعة و تخطيط و نظرة الي المستقبل البعيد ، و بينما نخطي الأن بزراعة سياسية ، و نفتقد السياسة الزراعية فهناك ما يجلعنا نعيد النظر ، و نتذكر الرواد الأول الذين ساهموا في بناء اقتصاد السودان ، و هنا نذكر هارون داود القادم إلي السودان من شمال الوداي صبيا صغيرا ، و الذي كافح في تجارة الاقمشة و تجارة المحاصيل و بدأ حياته في كردفان ثم النيل الأزرق و من هناك بدأ في تصدير المحاصيل إلي غربال شركة متشيل كوتس في بورتسودان ، و بعدها يتم التصدير الي الخارج بواسطة تجار سودانيين مثل عثمان صالح و آخرون و صرف هارون داود شبابه في خدمة وطنة السودان ، وهو قبطي سوداني حتي النخاع تجري في عروقة السودانية الاصيلة إسهاما في بناء الاقتصاد السوداني ،

و تدينا شفافا طاهرا ، و عندما كان في سنجة بدءا من عام ١٩٢٨ حتي مجيئة للخرطوم عام ١٩٧٦م كان لدية إنجازا إقتصاديا هو محطة هارون في السكة حديد ، وهي محطة سميت بأسمة و باقية في موقعها حتي الأن ، و كان لدية إنجاز روحي وهو جناح المطران في منزله و الذي دشنة مطران الخرطوم الأنبا يؤنس الذي رسم في عام ١٩٤٧م و تنيح في عام ١٩٦٧م ، و كانت كنيسة بيته بركة روحية لأسرته و لكل أقباط سنجة ، و كان رجال حكومة سنجة يحيطون مطران الخرطوم عندما يزورهم بعطفهم و محبتهم .

ورجل الاقتصاد هارون داود ترجع قصته الي ابية داود سعيد الذي قدم الي السودان عام ١٩١٤م ، و عندما رزق بأبنة هارون ذهب ، ذهبت زوجته لتضع مولودها الذكر هارون ، ثم يأتي بعد هذا ليقضي صبوته و شبابه في السودان ، وقد بلغ من العمر الأن ما يقرب من ٩٠ عاما وهو لؤلؤة نفيسة في تاريخ بلادنا العزيزة ، وهو من أقباط السودان الذين لا يفضلون أي بلد عن السودان ، و الذين حتي عندما يرجعون الي مصر تستمر تسميتهم أقباط السودان ، و تكون سودانيتهم مميزة و شفافيتهم الروحية طاهرة و يسهمون في كل عمل اقتصادي ، ومن اقتصادهم المتين و نجاحهم الباهر يساندون الأعمال الخيرية و المنتديات الثقافية ، لأن هارون داود من الذين احتضنوا الروحانية و عاشوا لأجل الأبدية ، و في زيارة قريبة من ولاية النيل الأزرق إليه في منزله بأم درمان ، كان رجال الولاية يقفون علي انجازات هارون داود ، و يؤكدون عملة العظيم في بناء اقتصاد السودان ، و جدير بالذكر أن لدي هارون داود خزانة حديدية ترجع إلي عام ١٩٠٤م وهي أثر نفيس ، طلب مني الا احدد مو قعها خشية السرقة رغم أنني واثق أنها لا يقدر أحد أن يسرقها ليس لقوة صناعتها فقط ، أنما لأنها لا تتخل عن مساندة فرد أو مجموع، حكومة أو شعبا .

شهادة مؤرخ : و يشهد برفسور زاهر رياض علي مساهمة الأقباط في اقتصاد السودان ، و يقول بالحرف الواحد في كتابة : كنيسة الاسكندرية في أفريقيا ما يلي:

لقد ساهم الاقباط في النشاط الاقتصادي في السودان و عمل هناك شنودة و غطاس و بقطر و باسيلي ، و اتخذوا من الخرز و الدروع و القصدير و الفترك و

الفرادي و هي ملابس السودانيين تجارتهم ، يبادلونها بسن الفيل و ريش النعام و المطاط و الحديد و النحاس ، و يروي المكتشف مستر ستانلي أنه وجد مع أمين باشا واحدا و عشرين كاتبا مصريا كانوا جميعا من الاقباط .

و سكن الاقباط في شمال أم درمان و حملت منطقتهم الأسم التقليدي حارة النصاري ، و بادر الاقباط بطرح اموالهم في السوق قبل ان يجازف البريطانيون بقرش واحد ، و اذا كانت تجارة السودان قد بلغت في سنة ١٩١٤م مليون ثمانمائة الف جنية فإن الأقباط كانوا وراءها يدفعونها بالجهد و العرق و الدم ، و انتشر الاقباط في جميع الجهات حتي وصلوا النهود و الضعين و الفاشر ، بل وصلوا نيالا و جوبا في اقصي الجنوب حيث يقيمون بالتجارة مع جمهوريات النيجر .

إن هارون داود هو دعوة محبة ، و اقدم مني دعوة محبة أن يسارع مثقفينا و رجال الاقتصاد و الإعلام للقاء هذا الرجل العظيم ، و تسجيل شهادته علي العصر و الاستفادة بخبراته ، و لقد بدأ هذا الاتجاة بقيادة الهادي بشري الذي هداه ذكاءة العالي بأن يأتي الي هارون دواد في وفد يرأسة نائب والي النيل الأزرق و اعضاء حكومته .

١٣٥. أفراح مأمون حميدة

قبل عيد الحب بيومين فاحت رائحة الحب الطاهر في جامعة العلوم الطبية و التكنولوجيا و سمع اناشيد الفرح وسط اسرة متحابة اساتذة و طلبة ، و الحب اشعاعا يضئ المسيرة في عيون برفسور مامون حميدة و رفاقه من الاساتذة الاجلاء الذين تعاهدوا ان يتفوقوا بالحب ، بالارادة ، بالمحبة الصلبة و نخروا في الصخر طريقا و نقشوا علي جدار الوطن قصة نجاح كبير أنني اتعجب من المواطن السوداني رجل واحد فيهم مثل مامون حميدة يقيم هذا الصرح الكبير، و يؤسس جامعة عملاقة لابناء الوطن بما أن العديد من المشاكل ليس لها حل و تتضاءل امامها الحلول ، لقد كانت انطلاقة المسيرة عام ١٩٩٦م و بعد هذا استمرت المسيرة قاصدة العلم مستنيرة بالتقوي منيرة بالمحبة حتي وصلت إلي مؤسسة كبيرة تدخل فرحة التعليم و النجاح الي كل ارجاء السودان ، و قد كنت اشفق علي سفر ابنائنا للدراسة في الخارج وهم بعد صغار عاشوا دفء الاسرة و في الغربة يتعرضون للبرد الشديد

الذي يصيب صحتهم برد العاطفة في غياب الأهل ، و رياح الحرية الغير منضبطة ، أن مامون حميدة هو الرجل الذي حافظ علي ابنائنا من امراض الغربة و الوحدة ، وربطهم بالوطن الذي ينتظر عطاءهم لأنه معروف أن الذين يتعلمون في الخارج اغلبهم راغبون في البقاء في الخارج و يضيع علي الوطن استثماره البشري .

و في احتفال ٢٠٠٩م كان الجديد هو قائمة الشرف الجميلة التي سجلت أوائل الدفعة وهم في عدد العشرة و كأنهم الوصايا العشرة لزملائهم ان يكونوا بينهم في سجل المتفوقين وقد تألق في هذه القائمة الفتيات مثلما تألق الفتيان فها هي الأولي في كلية الصيدلة كاترين فيكتور جبرة بطرس و هي واحدة من قبيلة اقباط السودان الساعية نحو التقدم من باب العلم و المعرفة و لها حي في الابيض باسم جبرة جد مني و آمال و أسراء و مروج و آمال ، و تألف الفتيان أحمد و وائل ومحمد ، بنات قائمة الشرف سبعة الفتيان ثلاثة و لو بذلوا الفتيان جهدا اكبر لأخذوا مكانهم و لكن الفتيات متفوقات .

لقد كان بعض الخريجين مهتما بحضوري جدا و اذكر هنا بتول نبيل تادروس التي افرحني جدا نجاحها مع كل زملائها كيرلس فخري و أيمن عصام وكيرلس فؤاد مرعي و طارق محمد و الآء و دعاء و أسراء ، فوزي فكتور و دينا جورج ، سامري و جرجس وجية ، انطوان بشاي و ندي عبد الغني و لبني و رشا و تغريد ، رماز ابادير و صفاء ساجي و في الاحتفال وقف الصديق الشاعر عبد المجيد حاج الامين يلقي بصوته الجهور المنضبط لغويا نشيدا من تاليفه هو نشيد (حب الوطن)

يا شعاع القمر يا نورا تراءي
في سموات الوطن
يملي الدنيا حديثا
ملء اسماع الزمان
نحن بالعلم سنجتاز الصعاب
نرفع الرايات في أعلي الهضاب
أنه السودان يبقي خالدا
رغم المحن

سوف نحميه جميعا

من تباريح الفتن

و يستمر الشاعر ينشد متحدثا عن صرح الجامعة وهو صرح الاماني والمعاني ، صرح الطموح الاقشيبية ، صرح الخير الوفير و النجم المنير و الافاق الجديدة

هاهو الصرح تبدي شامخا و العلم نور

أنه صرح الطموحات القشيبة

في علوم الطب يسمو بالدراسات الرحيبة

أنه صرح الاماني و المعاني

وارتياد المستحيل

أنه الخير الوفير

أنه الوعد النبيل

أنه الفجر المنير

لقد ابدع فريق انشاد الجامعة في غرز النشيد في القلوب و جعلنا نمتشي بحب الوطن ، و نعتز بفريق مأمون حميدة الذين رسموا بدمائهم الحمراء لوحة الحب الأصيل ، ولقد ابدع الوزير الهمام في كلمته وهو يتحدث عن ثورة التعليم في السودان و التي تحتاج إلي ثورة في تهيئة فرص العمل للخريجين ، و ابدع رئيس مجلس الامناء الذي اتشرف بعضويته ، ان افراح مامون حميدة هي افراح الوطن كله ، و لقد تخرج من هذا الصرح الآف الطلبة ، وفي الجامعة مئات الاساتذة ، و انني اهنئ الجامعة و الخريجين و الخريجات و الآباء و الامهات الذين وفروا جوا روحيا لشبابنا شباب الوطن .

١٣٦ . أول الحروف و قوة الإتحاد

أول الحروف : مدرسة تأخذ أول الحروف الانجليزية لها إسما هو A.B.C كان الإحتفال الكبير بالنادي القبطي في يوم الجمعة و كان شعار الاحتفال : الإتحاد قوة ، فصارت قوة الاتحاد هي أول الحروف في كل اللغات ، لقد حضرت الإحتفال منذ البداية حيث بدأ في الموعد بالتمام كسرا لقواعد عدم الالتزام و احساسا بأهمية الوقت ، و تأكد لي شعور أمير الشعراء كاد المعلم أن يكون رسولا ، و لماذا لا

يكون رسولا ، إن رسالة المعلم هي أن ينشر نور العلم الذي عندما كان يشرق علي الأوطان يبدد ظلمات الجهل ، بل ان ملاكا رقيقا متعاطفا ، و الملاك مرسل ايضا و رسول لأن الله فاطر السموات الارض جاعل الملائكة رسلا ، و لأن الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ، وكما جعل الملائكة نار تجربة ابراهيم بردا و سلاما ، هكذا فإن المعلم بلباقته و تعاطفه يجعل رحلة الحياة نار شقائها بردا و سلاما ، و اسرة المدرسة هي اسرة متآخية متآلفة ، و كل أفرادها يعشقون رسالتهم و عملهم هو الهواية المحببة إليهم ، فالمديرة مهندسة مدنية ناجحة هي نادية نجيب و لكنها تهوي التدريس ، و شقيقتها محامية لبقة حامية لحقوق الناس هي تريزا نجيب و لكنها تهوي التدريس ، أما الشقيقة الثالثة سيلفيا فقد كرست نفسها و وقتها للتعليم، إن المعلم عندي من اعظم الألقاب و لقد تشرف هذا اللقب بالسيد المسيح المعلم العظيم ، و الذي يطالب أن يكون الجميع متعلمين من الله ، و الذي قال : ليس التلميذ افضل من معلمه ، و قد دعاه الشاب قائلا : أيها المعلم الصالح ، و قال له الرجل : يا معلم قدمت إليك إبني ، و قال له التلاميذ : يا معلم هوذا الذي تحبه مريض ، و قال السيد المسيح: أنتم تدعونني معلما و سيدا و حسنا تقولون لأني أنا كذلك ، فإن كنت و أنا السيد المعلم قد غسلت أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض ، لأني أعطيتكم مثالا حتي كما صنعت أنابكم تصنعون أنتم أيضا ، إن رسالة المعلم في عصرنا هذا هي أن يغسل اقدام التلاميذ تواضعا ، و يملأ بالفرح أفواههم ، و يمسح برقته آلام زمانهم ، و يجعل أيام تلاميذه معرفة و سعادة و سراجا و نورا لطريق الحياة و سلوكا سويا متزنا .

الاتحاد قوة

و كان نشيد أبناء المدرسة في العام الماضي هو الحلم العربي ، و لكن يبدوا أن العرب لم يحققوا أحلام التلاميذ و لم يحققوا أحلام أي مواطن ، و لهذا كان نشيد هذه المرة هو الضمير العربي في محاولة جادة لإيقاظ الضمير النائم الهائم ، لأن الوقت مر ، و مازال ظلام الليل كابوسا و ليس حلما و لهذا كانت القصيدة الجديدة تقول :

من زمان علمني أبي من زمان
أن حب الوطن إيمان
وحب الإيمان أوطان ...

لقد قالوا شعاع النور في حلمهم الأول يوصل سما و بحور ، و لكن للأسف طول طول ، الليل جعل الضمير أبكما ، و لكن شبابنا يصمم أن يحلم ، و لو بقي له يوم واحد لا بد أن يحلم .. و دعوة النشيد موجهة إلي الانسان لبناء وطن العدل و الإيمان ، و ملأ العالم بالأمان و في الاحتفال كان توجة شبابنا نحو غزة ، و كان إنهاض الهمم للوقوف مع غزة ، و وقفت فتاة صغيرة تخاطب عالمنا الكبير و تقول : يا غزة يا حلم الألم ، يا جرحا قديما لم يندمل ، و اخذت الفتاة تسأل في اندهاش :

ماذا تنتظرون ؟

اتنتظرون فتوي من هيئة الأمم ؟

أم ما يسفر يسفر عن المؤتمرات و القمم ؟

لقد حاول أبناؤنا و بناتنا أن يقدموا علاجا لكل مشاكل العالم ، و روشته منهم و هم أطباء المستقبل ، و الروشته تقول : أقبلوا الآخر علي ما هو عليه ، مهما إختلف اللون أو الجنس أو الدين فهذا هو العلاج ، و في مسرحية طريفة حاولت الطيور أن تغير لون طائر (الفلمنجو) الأزرق حتي تقبل من باقي الطيور ، و لم يتمكن أحد من إجراء التغيير ، و قرروا في آخر الأمر قبولها بنفس لونها ، و اعتز شبابنا بعلم السودان الجميل المختلف الألون ، و الذي يقبل كل الألون في وطن يتسع للجميع هو السودان .

لقد كان الحضور مشرفا ، الوسيلة وزير الدولة بالخارجية ، مضوي الترابي أمين عام احزاب الوحدة الوطنية ، سفير الباكستان ، زيدان عبد الرحيم توحيد رؤي دارفور و التي نأمل أن تتوحد ، ولفيف من كبار رجال التعليم ، عدا أولياء الامورعيونا تمتلئ فرحا من الآباء و تمتلي أملا من الأمهات ، إن اهتمام A.B.C بالتربية الوطنية التي تدعونا للاعتزاز بوطننا العظيم الذي يعيش في اعماقنا .

الإنتاج الأدبي والثقافي للمؤلف

صدر منها :-

١- القادرون يحبون .
٢- المؤمنون يتنافسون .
٣- حصاد السنين .
٤- روحانية الروح والجسد .
٥- المسيحية في عيون المسلمين .
٦- حديث الأيقونات ..
٧- رجل روحاني على تلال من ذهب .
٨- خواطر قلم .
٩- دراسات قطبيه.
١٠- شمس الأمل .
١١- سبعون مقالاً عن الملائكة .
١٢- مساحات الود والاحترام بين المسيحية و الإسلام .
١٣- اطروحات سودانية .
١٤- النوبة ملوكاً وشعباً.
١٥- الواقفون على خط النار.
١٦- النوبة وطن الذهب.
١٧- النيل والسودان الأصيل.
١٨- الأحوال الشخصية لغير المسلمين.
١٩- النيل والسودان الأصيل
٢٠- جامعة الحياة
٢١- السودان أبوالدنيا

تحت الطبع:-

١- النيل أبونا والجنس سوداني.
٢- النعمة امرأة.

٣- أنا سوداني أنا.

٤- السودان زمان

٥- سر الإبتسامة.

٦- الهادئون في الارض.

٧- وكان السودان للحضارة بستاناً.

٨- المبتسمون مطمئنون.

٩- السودانوية كرامة وأصالة وشهامة

١٠. أحلام إقتصادية

١١- أقباط السودان الجزء الأول الشخصيات والوثائق التاريخية

١٢- المكتبة القبطية

وأخيراً

وردة حمراء

إلى

جون وديع

من باقة ورود عيد الحب الطاهر أهدي وردة
حمراء للإبن المبارك جون وديع دانيال الذي
بإصراره وعطائه ساند في إصدار هذا الكتاب
عندما كان عضواً نشطاً فعالاً في مجلس
إدارة المكتبة القبطية بأمدرمان وله مع رفاقه
ورئيس أسرة النادي المهندس عادل العبد أحلى
الأمنيات وصالح الدعوات

مؤلف الكتاب

رقم الإيداع
(٢٠٠٧-٦٦٣)
E-mail:fatherfilotheos@gmail.com
www.fatherfilotheos.com

New Life p. p. Tel. : +249 18



قداسة البابا شنودة الثالث يضع حجر أساس
المكتبة القبطية بأم درمان
٢١فبراير ١٩٧٨

ISBN 978 - 99942 - 891 - 2 - 7 ردمك